

انتشارات دانشگاه شیراز
۶۹

۱۶ مقاله تحقیقی به زبان عربی
درباره
سیبویه

کنگره جهانی بزرگداشت دوازدهمین سدهٔ درگذشت سیبویه
دانشگاه شیراز از ۷ تا ۱۲ اردیبهشت‌ماه ۱۳۵۳

به اهتمام
احمد افشار شیرازی

بسم الله الرحمن الرحيم

facebook: @jsatl.shiraz



انتشارات دانشگاه شیراز
۶۹

۱۶ مقاله تحقیقی به زبان عربی
درباره
سیبویه

کنگره جهانی بزرگداشت دوازدهمین سدهٔ درگذشت سیبویه

دانشگاه شیراز از ۷ تا ۱۲ اردیبهشت‌ماه ۱۳۵۳

به اهتمام

احمد افشار شیرازی

facebook: @jsatl.shiraz

١

ابراهيم العُرَيِّض
(البحرين)

العربيّة

قبل « سيبويه » و بعده

أيّها العلماء الأجــلاء :

اسمحوا لى أن أقرّر بين يديكم ـ فى مستهلّ كلمتي هذه ـ بكلّ تواضع ، ما هو عندى فى حكم البداهة بالنّسبة إلى اللغة العربيّة ، قبل أن أتبسّط فى الموضوع على قدر مايسمح به الوقت المُتاح لى شرحا و تعليقا .

أوّلا : انّ اللغة العربيّة التى ظلّت تتدارسها ـ قراءة و كتابة ـ الشّعوب الإسلاميّة تفقّها فى الدّين و تفكّها فى الأدب ، منذ القرن الثّانى للهجرة . إنّما هى لغة حضاريّة مشذّبة مهذّبة أخذت بها هذه الشعوب الداخلة فى الإسلام عن طريق الكتابة و الدرس ، وهى تختلف فى معاناتها النفسيّة و ملابساتها الإجتماعيّة و دلالاتها القوميّة عن لغة البادية التى كان العرب فى أوطانهم ـ بمختلف لهجاتهم ـ يتحاورون بها على سليقتهم ، و لا زالوا يفعلون ذلك الى اليوم فى أنحاء العالم العربى. و هى التى حاول النُّحاة ـ من غير طائل ـ تلمس شواهدها فى الشعر الجاهلى ، واختلفوا فى أمرها فى شعر الفرزدق ـ فى صدر الاسلام ـ ثم تنكّروا لها كليًّا فيما رأوا من آثارها فى شعر « المتنبّى » فى القرن الرابع الهجرى . فأساؤا بذلك إلى اللغة و إلى أنفسهم . لولا العلّامة « ابن جنّى » الذى تدارك الموضوع و كان « عالما » بمعنى الكلمة فوضع لهم حدًّا .

ثانياً : انّ قواعد هذه اللغة التى يتدارسها الطُلّاب فى مدارسهم كما وضعها ـ ولا أقول استنبطها ـ النُّحاة لتيسير درس اللغة حسَب منطق «أرسطو» هى أبعد ماتكون عن الإحاطة بالشّواهد الشّعرية و الآيات القرآنية التى تنحو نحوا يختلف عنها فى كثير من الأحيان ، مِمّا وقع معه أصحاب المدارس النّحوية فى تناقض مع أنفسهم ، وصحّ معه القول : «أضعف من حجة نحوى» ! تندّراً بهؤلاء .

انّ غرضي من طرح الموضوع على هذا الشكل هو أن ألفت نظركم فى هذا المهرجان إلى ضرورة إعادة النّظر من جديد فى هيكل و بناء هذه اللغة الكريمة شكلا و موضوعا ، على غِرار ماتمّ عند سوانا من تقصّ فى مثل هذه الدّراسات حول لغاتهم منذ استهلّ هذا القرن ، و ها قد أشرف الآن على نهايته ، لا أن نظلّ نجترّ كالببغاء ما قاله القائلون منّا قبل مئات السّنين دون وضعه على المِحكّ . فاللغة عند العلماء المعاصرين هؤلاء بخلاف ما يريده لها نُحاتنا القدماء ، دائبة فى التّطوّر غير جامدة . و ما ذلك إلّا لأنّ المعوّل فى هذه الدّراسات اللغوية الحديثة التى يبتنونها على اللغة الحيّة التى يتحاور بها النّاس فى شتّى أمورهم ، لا تلك التى تستبطنها الكتب محنّطة كالمومياء . فما يستخلص للغة من قواعد لايجوز بحال أن تكون كُبولاً يمنعها التنفّس والحياة . كما ظلّ الحال عندنا إلى أمس القريب بالنسبة الى الفُصحى ، ولا أن تكون قاصرة عن أحوالها .

والآن فلنتبسّط فى الموضوع :

إذا عدنا ـ أيّها السادة ـ بالذاكرة إلى الوراء إبّان الفتوحات الإسلاميّة الأولى الفينا كثيرا من الشّعوب و الأمم تنضوى تحت لِواء الإسلام و تسعى جاهدة لتعلم أحكام هذا الدّين الجديد وتلاوة آيات محكم كتابه العزيز وهو «القرآن الكريم» . لذلك كان لابدّ لهم من تعلّم اللغة العربيّة .

و هذا سبب دينى . . . يضاف اليه سبب إجتماعى يتجلّى فى الرّغبة العارمة لدى تلك الشّعوب والأمم فى السّعى نحو التّفاهم فى شئون حياتها اليومية مع السّادة الجدد .

و من الطبيعى انّ كل متعلّم للغة لابدّ و إن يخطئ فى أدائها . . . و هذا مايسمّى «اللّحن» .

و «اللحن» أنواع: «لحن» صوتى فى طريقة نطق الحروف والكلمات، و«لحن» أسلوبى فى طريقة نظام الجملة و حركات أواخر الكلمات فيها.

وهناك «لحن» آخر نشأ على يد الذين قرأوا «القرآن» ولم يكن فى أوّل أمره منقطاً ولا مشكّلا . . . و لهذا وقع البعض فى أخطاء فاحشة فقد قرئت الآية «إنّ اللهَ بريءٌ مِنَ المُشْرِكين وَ رَسولِهِ» بكسر اللّام فى «رسوله» . . . وهذا خطأ شنيع . . . وكان الصّواب ان تُفتح اللّام على العطف أو ترفع على الإبتداء . . . فقام «أبو الأسود الدُّؤلى» بمهمّة التّنقيط والتّشكيل، وكان التشكيل عبارة عن نقطة بين يدى الحرف أو فوق الحرف او تحته بلون مغاير لِلَوْن الحروف المكتوبة و ما استحدث لها من نقاط تميّزاً لبعضها عن بعض .

ثم جاء «الخليل بن أحمد» وقام بمهمّة التشكيل بالطّريقة المألوفة حاليّا .

و هكذا قضي على نوع من ألوان اللّحن . . . و بقيت الأخطأ الصوتيّة واللغوية والأسلوبيّة و من الملاحظ انّ هذه الأخطاء كانت معظمها من الشعوب والأمم غير العربية لأنّ العرب كانوا ينطقون لغتهم بالسّليقة، كمهارة من المهارات البشريّة . ينشأ عليها ناشئ الفتيان منهم، كما هو الحال عند سائر الشّعوب فى تواجدها إلى اليوم .

وليس معنى هذا انّ العرب كانوا لايخطئون أحيانا، لقد كانوا مثل غيرهم يخطئون إلّا انّها أخطاء قليلة لاتغضّ من شأن قائلها، هذا اذا خطأ فى لغة قبيلته . لكن لغة قبيلته لا تعدّ خاطئة إذا قيست إلى لغة القبائل الأخرى . . . فهذه ليست أخطاء، إنّما هى لغة العرب، تنوّعت فى صور أدائها و نحو أسلوبها .

وهذا يختلف إختلافا كلّيا عن تلك الأخطاء التى وقعت فيها تلك الأمم والشّعوب غير العربيّة .

أيّها السادة انّ الفرق بين ما يسمّيه النُّحاة فى كتبهم (فى منطوق العرب) «أخطاء» و بين تلك التى تجرى على لسان غير العربى هو إنّ الأولى يمكن تأويلها من خلال إدراكنا لأسرار اللغة العربيّة و تنوّع لهجاتها و صور أدائها و مَناحى أسلوبها (كما سوف أعرض عليكم من شواهدها بعد)، أمّا الثّانية فلاتبرير لها من خلال واقعنا اللغوى الذى هو الأساس والفيصل فى المقارنة و الحكم .

وكان لابدّ من جمع شواهد اللغة العربيّة لوضع القواعد الضابطة لها ... فقام الرّواة واللغويون بعمليّة الجمع . . . تارة على أساس الواقع اللغوى كما نجده فى كثير من مسائل التّصريف، وطورا على أساس احتمالاته كما نجده فى الافتراضات النّحويّة التى لا أساس لها من الواقع ، وشواهد كل ذلك موجودة فى « كتاب سيبويه » ، ونادرا على أساس الاستيعاب كما فعل «الخليل» فى كتابه «العين» حيث استخرج الكلمات كلّها من أصلها الثّلاثى ثمّ أسقط المهمل منها .

وأحسّ العلماء بالفرق بين بعض أساليب اللغة المنطوقة وبين كونها مكتوبة ، فبعض الرموز اللغوية قاصرة عن مستوى الآراء الصوتى لأنّ الكتابة العربيّة فى أحسن احوالها ليست إلّا اختزاليّة ولا يمكن أن تعطي صورة معبّرة عن منطوق النّاس، كما نجده بدقّة أكثر عند سوانا ، ففى اللغة « السنسكريتيه » مثلا لنطق الألف بكل إمالاته أكثر من ثمانية أشكال معبّرة ، بينما لا يتعدّى الألف عندنا شكله الواحد رغم كثرة الإمالات كما هو واضح فى بعض القراءات القرآنية أو لهجات القبايل . وهذا أدّى بدوره إلى نشأة كثير من المباحث الصوتيّة ، نجد بعضها واردا فى «كتاب سيبويه » ، ممّا أدّى عند بعضهم إلى اشكالات كثيرة .

وكان لابدّ من تيسير اللغة للأعاجم رغم كلّ هذه الإشكالات فتعمد «سيبويه» إلى استنباط قواعد نحوه وصرفه على أساس الأغلبيّة دون أن يحدّدها (وقد أنكرت عليه ذلك مدرسة الكوفة) وطالب بالقياس عليها، واعتبر كلّ أسلوب عربى خارج عليها شاذّا أو لغية يجب إسقاطها من اللغة العربيّة كتابا وحديثا . وكأنّما كان يريد أن يضع قواعد تعليميّة ميسّرة قد تصلح لغير العرب ، كما نفعل نحن حين ندرس قواعد لغة أجنبيّة ، فلا ننتهج منهاغالبا - بادي ذي بدء - إلّا كلّ ماهو خاضع للقياس. وهكذا تفعل الأمّهات مع أطفالهن الصّغار ، ولكن هذا ليس بوارد عند ما يشبّ الطفل عن الطوق ، فيغلط فى لغته مثل ذويه ويحسنها إحسانهم فيما يتقلب فيه من ظروف حياته الخاصّة وهنا يكمن فى نظر الكوفيّين خطأ «سيبويه» حين أراد أن يُخضع لغة العرب المنطوقة ويلوى عنقها وفق قواعده ذات الهدف التعليمى .

فـ « الكِسائى » أحد المتخرّجين من « مدرسة الخليل » و أحد القرّاء المشهورين لم يعجبه هذا التجنّى على اللغة فقد نظر فوجد بعض الآيات القرآنيّة لا تخضع لأقيسة النُّحاة و منطقهم المتشدّد و كان يتسلّح بوازع دينى متين أبى عليه أن يعتبر تلك الأساليب شاذّة ولا يجوز القياس عليها بل اعتبرها صحيحة كصحّة الأساليب القياسية التى ارتضاها النُّحاة ، وقد مضى على نهجه الكوفيّون من بعده حرصا على سلامة اللغة .

وتحضرنى هنا « المسألة الزنبوريّة » التى اختلف عليها العالمون ، فى قولهم : « كنت أظن الزّنبو أشدّ لسعة من النّحلة فإذا هو هى » أو « فإذا هو إيّاها » فقد قال « سيبويه » بالقول الأوّل وأجاز « الكسائى » القول الثانى . ومضى على خلافهما النُّحاة إلى اليوم ، وهذه العبارة لا تقوم لذاتها فإنّما هى عينة لأمثالها ، وما أجاز الوجهين كما اعتقد « الكسائى » إلّا لأنّ العرب تقول بهما معا وإلى اليوم . . . ولكن فى ظرفين مختلفين . و بيان ذلك عندى إنّك اذا كنت تنقل هذه التجربة نقلا غيبيا عن سواك فالك معدى عن القول « فإذا هو هى » أمّا اذا كنت تتحدّث عن التجربة وقد عانيتها بنفسك فعندها لا يصح إلّا أن تقول « فاذا هو إيّاها » دلالة على معاناتك الحاضرة لها .

إنّ ما اعتبره « سيبويه » ومن اتبعه من « مدرسة البصرة » أمثلة شاذّة أو لغات لا يُقاس عليها يمكننا أن نستشف منها أبعاداً معنويّة و ذوقيّة خفيت على الأعاجم و من استعجم من العرب . وما أكثر هذه الشواهد الشاذّة عندهم . فقد عدّ « سيبويه » لغة « أكلونى البراغيث » منها ، وقال بعدم القياس عليها لأنّها تخالف القاعدة المطّردة . ولو كان القول شاذّا غريبا لا نقرض من زمن طويل مع أنّ من الملاحظ أنّه مستعمل إلى حدّ كبير فى كلّ مكان من الوطن العربى . و هذا يعنى ببساطة انّه أسلوب عربى خالص فيه سرّ لم يهتد اليه النُّحاة الأوّلون .

فنى قولنا « أكلتنى البراغيث » لا أرى ينصبّ الإهتمام على البراغيث الفاعلة ويكون تمام القول « فاقض عليها ترحنى » أمّا فى قولنا « أكلونى البراغيث » فأنّما ينصب الإهتمام على حدث الأكل ذاته دون البراغيث ويكون تمام القول هنا « فأنقذنى منها » فهذا الاسلوب الثّانى أشبه ما يكون بالبناء للمجهول على غرار قولهم بالانجليزية : I have been pestered by mosquitoes.

وله شواهد من «القرآن» قوله تعالى : «فأسرّوا النّجوى الذين ظلموا» .
و من الحديث قول النبي : «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل و ملائكة بالنهار»
و من الشعر قول «ليلى العفيفة» (زوجة البراق)

غلّلوني ، قيّدوني ، ضربوا ملمس العفّة منى بالعصا

و لم يسئ إلى لغة الضّاد شيء مثل نظريّة العامل التى جاء بها نحاتنا لتعليل الأمور وكان باب التّنازع و باب الإشتغال و باب الإختصاص مهزلة المهازل لدى تطبيقها على لغة النّاس ووصل الحال ببعضهم إلى تلمّس الأخطاء حتى شعر «المتنبى» ، وذلك بعد قرنين من وضع قواعدهم فى مثل قوله :

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى و أسمعتْ كلماتي مَن به صمَم

و قوله :

وإنّي لَمِن قوم.. كأنّ نفوسنا بها أنف أن تسكن اللحم والعظما

و قوله :

لولا مفارقة الأحباب ما وجدت لها المنايا إلى أرواحنا سُبلا

وفاتهم أن يدركوا انّه كان فى الأوّل يجيب على السّؤال: من أنت ؟ لا على السّؤال: «من الذى نظر الأعمى إلى أدبه»؟ و فى الثانى كان يعتبر الحكم ساريا عليه كسريانه على قومه لا ساريا عليهم وحدهم دونه ، و فى الثّالث لم يكن تخطئتهم له إلّا لمجرّد تطبيق ما وضعوا من نظريّة فى الضمير العائد لا يتقدّم على اسمه ، وإن خالفهم الواقع لا فى لغة العرب وحدهم بل فى جميع لغات الناس .

وخلاصة القول أنّ بين اللغات الإنسانيّة نوعا من وشائج القربى و صلات النّسب و على المهتمّ بلغة الضّاد أن يسلّح نفسه بثقافة أجنبيّة ستفيده حتما فى نظرته إلى لغته القوميّة و تفهّم أسرارها .

و إنّ هذه القواعد التى وضعها «سيبويه» لم يقصد بها أن يجنّب الأعراب الخطأ فى لغتهم و إنّما كان الغرض منها أن يجنّب الأعاجم «اللحن» ، وفى سبيل تيسيرها وقع فى تناقض كثير لأنّه أراد ان يقوّمها بالمنطق .



حسن محمّد توفيق ظاظا (الدّكتر...)
الأستاذ بقسم اللغة العربيّة واللغات الشّرقيّة
وآدابها بكليّة الآداب بجامعة الاسكندريّة

أثر «سيبويه» في نشأة النّحو العِبْري

بحث مقدّم إلى مهرجان «سيبوَيْه» بجامعة شيراز بشيراز- ١٩٧٤ م.

من الأمور الّتي لا تحتاج إلى الإطالة في شرحها كون اللغة خادما للفكر، وأداة لحفظه وتوصيله إلى البشر، من المتكلم إلى السّامع، ومن راوية يحمل عمّن قبله، ليؤدّي الأمانة إلى مَن بعده، ومن كاتب يسجّل بعض ثمار الفكر الإنساني لتواصل مسيرتها عبر الأجيال والأقطار.

واللغة - أيّة لغة كانت - تتعرّض في حياتها الطويلة لِما يتعرّض له كلّ كائن حيّ: من فترة طفولة، ثم مرحلة شباب، يليها نضج كامل تحمل فيه مسئوليّة الفكر بكلّ ثقلها، وتضطرّ فيه غالبا إلى التبادل مع غيرها، أخذاً وعطاءً وتأثّراً وتأثيراً؛ ثم تلي ذلك كلّه شيخوخة، طويلة أو قصيرة بحسَب الظروف التي تعترى اللغة، فإمّا تنتفض من تحت أنقاض الزّمن لتستعيد مكانتها وحيويّتها من جديد، وإمّا تنزوى و تستكين حتّى تنطفىء من ذاكرة المتكلّمين، فيكون ذلك موتها واندثارها.

وأدقّ مراحل حياة اللغة هي مرحلة النّضج الكامل المسئول عن فكر علمي وأدبي وفلسفي ضخم. ذلك أنّ الفكر الإنساني بطبيعته متطلّع دائما الى التقدّم نحو المجهول، لكشفه وتوضيح كنهه. وهنا ينعقد سباق رهيب بين الفكر واللغة، لابدّ لهذه الأخيرة فيه أن تلاحق خطواته، وأن تظلّ دائما على مستواه؛ وإلّا تركها، و بعدت الشّقّة بينه

وإنّ قواعد اللغة ـ عند وضعها ـ لايمكن أن تكون غاية فى حدّ ذاتها ولو أنصف النّحاة لاعتبروها وسيلة لفهم أسرار اللغة، حتى فى كلّ ماجاء على وجهين من باب الجواز كما فى قول «أم عقيل» وهى ترقّص طفلها :

أنت تكون ماجد نبيل إذا تهبّ شمأل بليل

لا مجرّد الإكتفاء بالقول : أن « تكون » هنا زائدة فهى قد خصّته بالصّفتين فى حاضره وفى مستقبله بعد أبيه .

هذا و إنّ اللغة المنطوقة هى الأصل فى تفهّم اللغة و استنباط قواعدها ، لأنّها تظلّ حيّة أبدا كما توصّل إلى تقريره العلماء المحدثون فى دراساتهم اللغوية .

و أخيراً أنا ـ أيها السادة ـ أومن باختلاف اللغات عند العرب ، و أعتبرها كلّها حجّة ، كماأرى إنّ ماقرئ على نسق كلام العرب فهو من كلام العرب . . . قياسا أوشذوذا و لا يجوز أن يتحكّم المنطق الذى مجاله الفلسفة فى اللغة التى ميدانها الحياة .

و السّلام عليكم .

٧٤/٧/٢٤ ـ البحرين

وبينها ، فيكون من ذلك تبلبل الألسنة، واضطراب الأساليب، وتصدّع القواعد .

وتحتاج اللغة في هذا السّباق الى صيانة علميّة مستمرّة ، لعلّ أهمّ ما فيها هو العناية بحصر شواهدها الفصيحة ، وتصنيف أساليبها الصّحيحة ، وتسجيل قواعدها تسجيلا يجمع بين الدقّة والوضوح ، والتّرتيب المنطقى ، والتجاوب مع المطالب العمليّة للمتكلّمين .

وقد وجدت اللغة العربيّة نفسها فى مرحلة النّضج الكامل هذه بعد ظهور الإسلام ، وبعد أن بدأت تحمل مسئوليّة حضارة كاملة لاتجتاح ماقبلها من حضارات ، ولا تحاول فى عاصفة عنيفة قاسية أن تذهب بما كان قبلها من التّراث الإنسانى ، بل بعكس ذلك تعمل على الاستفادة من تجارب السّابقين : من فلسفة اليونان ، ونظم الرّومان ، وآداب الفُرس ، وحكمة الهند ، ومهارة الصّين ، وخبرات مصر والشّام . وبلغت هذه الحضارة الإسلاميّة ذروتها ظِلّ الدّولة العبّاسيّة ، وبدا السّباق بين الفكر البشرى واللغة العربيّة وكأنّما هو يواجه أزمة دقيقة جدّا . فقد دخلت فى الدّين الجديد شعوب لعلّ أكثرها قد حمل من مسئوليّات الحضارة أكثر ممّا حملته قبائل العرب ، وبدأت الألسنة تختلّ ، ودبّ «اللحن» والخطأ إلى اللغة ، وتسرّب التعقيد والرّكاكة إلى الأساليب ، ولكن طبيعة التّطوّر لم تدع الخطر يستشرى فى كيان اللغة العربيّة ، بل قيّض الله لها من العلماء الأعلام مَن بذلوا كلّ الجهد فى خدمتها و صيانتها و الدّفاع عنها : من أمثال سيّدنا « على بن أبى طالب » ، و « أبى الأسود الدُّؤلى » ، و « عَنبَسة بن مَعْدان المَيْسانى » المشهور باسم « عَنبَسة الفيل » ، و « أبى عمرو بن العَلاء » ، و « عبدالله بن أبى إسحق الحَضْرَمى » ، و « أبى عمرو عيسى بن عمر الثّقفى » ، و « الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدى البصرى أبى عبدالرحمن » ، و « الأصمعى أبى سعيد عبدالملك بن قُرَيْب » ، و « يونس بن حبيب أبى عبدالرحمن » ، وغيرهم .

وقد كانت آثار أولئك الأوائل من اللغويين والنُّحاة تتّصف على الخصوص بجمع المادّة العربيّة الفصيحة ، والنّظر فيها ، وشرحها ، وتحليلها ، ومقارنة بعضها ببعض أحيانا ، والاجتهاد فى إدخالها فى أبواب ، أو أنماط من التّفكير ، لايكاد يتكوّن منها بناء نحوى منطقى جامع مانع ، مترابط الأصول والفروع .

وجاء « سيبويه » على أثر هذه الطليعة من الرُّواة ، شابّا ذكيّا ، عميق التّفكير ، يجمع التّواضع فى العلم ، والنّزاهة فى الحكم ، والاخلاص للغة « القرآن » ، إلى نظرة فاحصة بقيت له من أعراقه الضّاربة بجذورها فى الحضارة الفارسيّة ، نظرة الفاحص المستقلّ الذى لم يَنَمْ على ما وجد عليه الأسلاف ، ولم يغفل عن شىء بحكم تعوّد الأذن على سماعه أباً عن جدّ . كان « سيبويه » عالما بالعربيّة ، وبيد و مع ذلك فى كلّ خطوة من خطوات نقاشه النّحوى وكأنّه طوال حياته قد بقى تلميذا لا أستاذا ، وسائلا لا مجيبا ، ومستفهما لا مفتيا . ومن هنا يبدو عمله النّحوى العظيم ، « الكتاب » للقارىء السّطحى غير الصّابر على مسالك العربيّة و أسرارها ، دسما إلى درجة تحتاج إلى جهد كبير فى الهضم . كان « سيبويه » منطقيّا ، وكان يحاول أن يتلمّس فى داخل كلام العرب كلّه ، وفى ثنايا نظامهم فى صياغة الجمل و سبك الأساليب ، وحدةً فكريّة متماسكة تضمّ كلّ الأطراف البعيدة ، وتنتظم فى سمطها أدقّ الدقائق ، وأشدّ التّفاصيل لطفاً وخفاء . كان كتابه هو الإستجابة الحقيقيّة لإستنجاد اللغة العربيّة ، وهى تخوض السّباق الرّهيب مع الفكر والحضارة فى أوجها . وكان « الكتاب » قديرا على ذلك . كان ثورة شاملة فى التّأليف اللغوى فى داخل الحضارة العربيّة ، وكان أيضا دستورا يسير عليه النُّحاة العرب بعد « سيبويه » ، بإعجاب وطاعة ، ووفاء من السّواد الأعظم منهم فى « البصرة » و « بغداد » و « الموْصِل » ، وفى كلّ مراكز الثّقافة العربيّة بـ « ايران » مثل « نيسابور » و « الرّى » و « قُم » و « أصفهان » و « الأهواز » و « شيراز » ، ثمّ فى كلّ العالم الإسلامى وراء ذلك من « دمِشْق » إلى « القاهرة » و « القيْرَوان » و « فاس » و « قُرطُبة » و « طُلَيْطَلة » ، وحتّى أقصى الشّمال من « اسبانيا » فى « سَرَقُسْطَة » وما وراءها . كما فرض « كتاب سيبويه » نفسه على « الكوفة » التى ناصبته العداء ، وتحزّبت ضدّه ، فاضطر نُحاتها إلى دراسته وشرحه ، والإستعانة بما فيه من دفائن أسرار العربيّة ، ثمّ النّسج على منواله ، واقتباس ترتيبه فيما حاولوا تقييده من قواعد العربيّة فى كتبهم .

وكلّ هذا يبدو أمرا طبيعيّا لا غبار عليه إزاء عمل أساسى متقن غاية الإتقان ، دقيق إلى أقصى درجات الدّقّة ، واف بحيث لا يكاد أحد يكون قد زاد عليه من بعد : إلّا نوادر وشوارد تجد مكانها فسيحا مستريحا فى داخل أبوابه وفصوله وتقاسيمه .

لكن معجزة « سيبويه » لاتتمّ فى كامل تألّقها الشّامخ الباهر إلّا عند ما نرى أثره فى تسجيل «اليهود» لقواعد لغتهم العبريّة، و لأوّل مرّة فى تاريخهم الطّويل، متتلمذين هم أيضاً على « الكتاب »، وآخذين منهجه بحذافيره، فى ظلّ سماحة فكريّة إسلاميّة وجدت فيها جموعهم، فى الشّرق وفى « شمال إفريقيّة » و « الأندلس »، الأمن والرّخاء والحريّة، فأرادوا أن يعيدوا الحياة الى لغتهم المقدّسة - « لغة التوراة » - فلم يجدوا وسيلة الى ذلك إلّا السّير فى نور « سيبويه »، وهذا هو الجانب الذى نريد بيانه فى ذكرى عالم العربيّة العظيم.

وسنرى أنّهم أطلقوا لفظة مولّدة من عندهم لتكون اسما اصطلاحيّا لهذا العلم هى لفظة « دِقْدُوقْ »، بمعنى اللفظة العربيّة « النّحو ». والظّاهر أنّ لفظة « النّحو » نفسها لم تكن أخذت هذا الاستعمال الإصطلاحى لدى أوائل اللغويين العرب الذين كانوا يقولون « علم العربيّة ». ولانذكر أنّ كلمة « النّحو » مستعملة فى كتاب « سيبويه » نفسه. ومعاجمنا كلّها لاتقول فى ذلك قولا شافيا. وهذا أمر غريب جدير بالبحث. وكم من غرائب من هذا النّوع فى كلام العرب، منها انّ كلمة « لغة » نفسها - الى عهد « سيبويه » - لم تكن مستعملة إلّا لما نسميّه الآن « لهجة »، بينما كانت طريقة كل أمّة فى كلامها تسمّى « اللسان ». ولم نجد من الجاهليّة أوصدر الاسلام شاهدا واحدا موثوقا به يثبت شيوع لفظة « اللغة » عندهم. فـ« النّحو » عند العرب، و « الدِقْدُوقْ » عند « اليهود » كلاهما مولّدان على الأرجح.

١ - البحث اللّغوى عند « اليهود » قبل « سيبويه ».

أجمع مؤرّخو اللغة العبريّة على أنّ « علم اللغة » أو « النّحو » لم يكن معروف قبل أواخر القرن الثّامن الميلادى على الإطلاق، وهو القرن الذى عاش فيه « سيبويه ».

ولما كان « اليهود » أهل كتاب، وكانت لهم شريعة يرجعون إليها فى هذا الكتاب، وكانت دراسته ركنا من أركان الايمان، وأساسا من أسس العبادة، وكانت قبل ذلك كلّه منبع المعرفة القديمة بشتّى فروعها، فإنّه من غير المعقول ولا المقبول أن يكونوا قد أغفلوا الإهتمام بسلامة النّطق، وفهم دقائق الصّياغة، وأحكام الصّحة فى النّقل والنّسخ والإملاء، و إقرار وسائل التّفسير واستنباط الفتاوى والأحكام من كتابهم هذا.

ولكن الثابت أنّ طريقتهم التقليديّة التى درجوا عليها، على مَدَى القرون الطويلة التى سبقت علوم العربيّة، كانت الطريقة المباشرة ـ كما يقولون اليوم ـ وهى تعلّم الفصاحة : وتوخّى الدقّة فى الأداء من خلال الدّروس الشّرعيّة التى كان يتلقّنها التلميذ عن الأستاذ. ولذلك فإنّنا نجد بعض الإشارات فى « المِشْنا » و «التّلمود» ، وهى نصوص الشّريعة الشّفويّة المقدّسة عند اليهود الرّبّيّين ، التى تعنى بنقطة جزئيّة من معرفة اللغة، ترد عَرَضاً فى ثنايا النّقاش الفقهى ، الذى يسمّونه «هلاخه הֲלָכָה » ، أو السّياق القصصى الّذى يسمّونه « هجاده הַגָּדָה » ، بدون أن يطلق على هذه الملاحظات اسم خاص كـ«علم اللغة » ، أو « النّحو » ، أو « التّصريف » ، أو ما إليها .

فقد جاء فى «التّلْمود » مثلا (يباموت ١٣) : قاعدة هامّة كان يعلّمها « الرّبى نحميا » عن « فتحة الإطلاق » المنتهية بـ« هاء المدّ » واللاحقة بأواخر بعض الأسماء العبريّة للدلالة على الظرفيّة المكانيّة الإتّجاهيّة ، وهى القاعدة التى يقول فيها أنّ كلّ اسم يقبل فى أوّله حرف اللام الدالّة على الإتّجاه يمكن أن تأتى بدل هذه اللام فى آخره هاء الظرفيّة المكانيّة الإتّجاهيّة .

כלל גדול למד ר' נחמיה : כל תיבה שצריכה למד בתחלתה
הטיל לה הכתוב ה"א בסופה : [יבמות י"ג]

كذلك عُنِى «التّلمود» بتصحيح التّلاوة فى مواضع دقيقة ، فـ«التّلمود» الأورشليمى مثلا (براخوت ٨٢) عند الكلام على تلاوة « قِراءة السّماع » فى الصّلاة ، وهى الجزء الأساسى من كلّ صلاة ، الذى يبدأ بعبارة «شمع يسرائيل שְׁמַע יִשְׂרָאֵל » أى « اسمع يا اسرائيل» يوصى بالعناية بمخارج الحروف بحيث يأخذ كلّ حرف طبيعته الصوتيّة الكاملة المميِّزة له ، فيقول أنّ الفعل « تِزكرو תזכרו » أى « تذكرون » يجب أن تظهر فيه الزاى بنطقها الصّائت المجهور ، بحيث لا تلتبس بكلمة « تِسْكرو תשכרו » أى «تشترون» ، أو «تدفعون» ، أو «تؤجرون» ، أو «ترشون» . وقالوا إنّه عندما تأتى كلمتان متواليتان تبدأ الثّانية منها بنفس الحرف الذى تنتهى به الكلمة الأولى انّه ينبغى الفصل بينهما بسكتة خفيفة حتى لا يندغم الحرف الثانى فى الأوّل ، كقوله فى قِراءة السّماع « عل ـ لبابيخا

עַל-לְבָבֶךָ » أى «على قلبك » ، وقوله كذلك «عسب - بسادخا עֵשֶׂב-בְּשָׂדְךָ » أى « عشبا فى حقلك » .

بل أنّ علماء « التّلْمود » تنبّهوا إلى تطوّر اللغة العبريّة على مرّ العصور ، وأنّ ما يجوز فى عبريّة « الكتاب المقدّس » قد يختلف فى عبريّة الأحبار . فقالوا (حولين ١٣٧) إنّ « لغة التوراة » لغة قائمة بذاتها ، كما أنّ « لغة الأحبار » قائمة بذاتها . قالوا هذا بـ« العبريّة » وبـ« الآراميّة » : بـ« العبريّة » : « لشُونْ تُوراه لعَصْمَاهْ ، وُلْشُونْ حَخَامِينْ لعَصْمَانْ » .

לְשׁוֹן תּוֹרָה לְעַצְמָהּ וּלְשׁוֹן חֲכָמִים לְעַצְמָן.

وبـ« الآراميّة » : « ليشَانَا دَاوْرَيْتَا لِحُودْ ، ولِيشَانَا دِرَبّنَانْ لِحُودْ .

לִישָׁנָא דְאוֹרַיְתָא לְחוּד וְלִישָׁנָא דְרַבָּנָן לְחוּד [חולין קל״ז]

وقد تستهويهم الرّغبة فى التّفرقة بين الألفاظ لدرجة توقعهم فى تأويلات أقلّ ما يقال فيها انّها طريفة ومسلية ، كتفرقتهم بين كلمتين فى « العبريّة » تقابلان فى « العربيّة » كلمتى « الذِكْر » بمعنى الاسم ، و« الذّكرى » بعد الموت أو بعد النسيان ، وهى بكسر الذّال وسكون الكاف ، و« الذَكَر » بفتح الذال والكاف ، الذى هو ضدّ الأنثى . فقد وجدوا فى « التوراة » (سفر التّثنية ٢٥ : ١٩) : « تمحو ذِكْر عماليق من تحت السّماء ، لا تنس » ، والكلمة هنا « زيخر זֵכֶר » والآية :

« תִּמְחֶה אֶת-זֵכֶר עֲמָלֵק מִתַּחַת הַשָּׁמָיִם לֹא תִּשְׁכָּח » :

ووجدوا (١ ملوك ١١ : ١٦) « لأن « يوآب » وكلّ « اسرائيل » أقاموا هناك ستة أشهر حتى أفنوا كلّ ذَكَر فى أدوم » ، والكلمة هنا « زاخار זָכָר » والآية :

כִּי-שֵׁשֶׁת חֳדָשִׁים יָשַׁב-שָׁם יוֹאָב וְכָל-יִשְׂרָאֵל עַד-הִכְרִית כָּל-זָכָר בֶּאֱדוֹם :

وخرجوا من المقارنة بين الآيتين بأنّ « يوآب » قائد « داود » قد أخطأ فى قراءة توصية « التوراة » بالمحو الكامل لكلّ ذَكَر وأثر ، فأتعب نفسه على مدى ستّة شهور فى البحث عن الذّكور فقط وقتلهم ، وكان أسهل من ذلك أن يبيد الجميع .

وكان أحبار الشّريعة الشّفوية من « التنّائيم » (علماء المِشْنَا) و « الأمُورَائيم »

(علماء التَّلْمُود) فى هذه الشروح اللغويّة التى تأتى فى خلال كلامهم يتنبّهون إلى صفات ومميِّزات معيّنة فى الكلام، استعملوا لها بعض المصطلحات مثل: «المذكّر זכר » و «المؤنّث נקבה »و«المفرد יחיד »و«الجمع רבים ». كما عرفوا الألفاظ التى تعتبر أصولا لـ«الاشتقاق תיבות » و«الحرف الأبجدى אות » و « النّطق הברה » و « الاسم השם »، ومصطلحاً كانوا يستعملونه لما يقابل لفظة الضّمير عند النُّحاة العرب « נשם לגוף » ، وعرفوا « الفعل הפעל » ، وميّزوا فيه بين « الماضى עבר » و « الحالى בינוני » و « المستقبل עתיד » ، و كان عندهم اصطلاح للدلالة على ما يسمّى عند النّحاة العرب بالإستعمال ، أو تنوّع الدّلالة ، أو مجاز الألفاظ ، هو « שמוש הלשון » .

٢ ـ ظهور علم النّحو المنهجى عند «اليهود»

يسمّى «اليهود» هذا العلم فى لغتهم « دِقْدُوقْ דקדוק » .

ونحن نعلم إنّ من أقدم الأمم التى عُنيت بتسجيل قواعد لغتها «الأمّة اليونانيّة» ، وسمّت هذا العلم « جراماطيقى γραμματική » ومعناه حرفيّا « أحكام الألفاظ » ، ومنهم أخذ «السّريان» هذه التّسمية كما هى أو مترجمة الى لغتهم « تُورَاصْ مَمْلّلا ܬܘܪܨ ܡܡܠܠܐ » أمّا العرب فإنّهم سمّوا هذا العلم «النّحو» ، وذكر رواتهم فى ذلك حكايات كثيرة ، منها الحكاية التى رواها « أبو البركات عبدالرحمن بن محمد الأنبارى » فى أوّل كتابه « نُزْهة الألبّا ، فى طبقات الأدبا » من أنّ الإمام « على بن أبى طالب » كرّم الله وجهه قد أشار على « أبى الأسود الدُّؤلى » بتقييد قواعد للغة العرب تقيهم من الخطأ فيها بعد أن اختلطوا بغيرهم من الأمم وبدأوا يقعون فى اللحن والإضطراب . ولما قيّد أبو الأسود من ذلك ما فيه الكفاية قال له سيّدنا على «ما أحسن هذا النّحو الذى قد نحوت» فلذلك سمّى «النّحو» .

ولسنا نريد أن نناقش هنا نشأة «النّحو العربى» ، فانّ القُدامى من مؤرّخى هذا العلم عند العرب ، ومنهم « ابن الأنبارى » نفسه ، قد ذكروا فى ذلك أقوالا أخر تختلف وتتباين بشكل واضح . ولكن الذى يبدو لنا هو أنّ استخراج قواعد اللغة العربيّة إنّما كان من الشّواهد الموثوق بها من كلام العرب . وهذه الشّواهد فى الأغلب الأعمّ من الشّعر الجاهلى ،

ومن أراجيز الفصحاء من البدو، ومن المتواتر من قراءات «القرآن» الكريم، وما استفاضت روايته من النثر كسجع الكهّان، و الأمثال، و الخطب، و المنافرات وما اليها. وكان المقيّدون لقواعد العربيّة إذا ذكروا شيئا من ذلك أتبعوه بالشاهد قائلين: نحو قوله... أو نحو كذا... أو نحو ما جاء فى كذا. فكانت القاعدة تسير فى اتّجاه الشاهد، والنّحو والنّاحية فى اللغة تدلّ على السّمت والإتّجاه، ولعلّ هذا العلم كلّه قدسمّى «النّحو» لهذا السّبب، أى أنّه الاهتداء بكلام العرب، والسلوك فى اتّجاهه، والاستشهاد به باستعمال كلمة نحو.. نحو.. نحو، حتّى انّها أصبحت ترادف كلمة «مثل»، يقال اعمل كذا أو نحوه، أى (أو مثله). ولعلّ هذه الصّفة فى نشأة النّحو العربى هى التى جعلت «القياس» عند «سيبويه» ومدرسته من «نحاة البصرة»، ثمّ كلّ من كُتب لهم الخلود حتّى يومنا هذا من نحاة العربيّة، أساسا ومنهجا للسير فى هذا الميدان من البحث العلمى.

و فى اللغة الفارسيّة نجد تسمية هذا العلم تقترب من النظرة «اليونانية»، فهم يسمّونه «دستور زبان»، أى القانون المنظّم للّسان أو للّغة.

فاذا ماعدنا الآن إلى الإسم الذى اختاره نحاة العبريّين لهذا العلم، وهو «دِقْدُوقْ» وجدنا أنّه لم يرد على الإطلاق فى عبريّة الكتاب المقدّس. ووجدنا أنّه كان يستعمل قديما فى معان أخرى غير اللغة. فهو اسم مشتقّ من المادّة الثّلاثيّة الموجودة فى كثير من اللغات الساميّة، وهى مادّة «د ق ق»، مثل «دَقّ» بالعربيّة ومعناها سَحَق. والشىء الدقيق، هو الشىء الذى يحتاج إلى فحص بإمعان. وأوّل ما نعثر على كلمة «دِقْدُوق» فى «العبريّة» نجدها فى قوله فى «المِشْنا» (آبوت٦ : ٦) «دِقْدُوقْ حَبِيرِيم דקדוק הברים» التى اختلف فيها المفسّرون: مِن قائل بأنّ معناها «التّدقيق فى اختيار الرِّفاق»، ومِن قائل إنّها «الدّقائق التى يناقشها الرِّفاق».

و فى التّلْمود (سوكوت ٢٨ : أ) ورد «دِقْدوق توراه דקדוקי תורה» بمعنى «الدقائق فى تفسير الشّريعة وتأويلها».

وكانت هذه الكلمة كما نرى قد بدأت تأخذ معنى متّصلا بالإهتمام بالنّصوص وتحليلها و تفسيرها، فكان ذلك مشجّعا لنحاة «اليهود» بعد ذلك على تخصيصها للدّلالة على علم النّحو:

فالتَّلمود أحيانا يذكر كلمتين تتقاربان فى اللفظ وتختلفان فى المعنى ، أو العكس ، ثم يتبع ذلك بقوله : « إِلّوصِريخِين° دِقْدُوق אלו צריכין דקדוק » ويقصد بذلك أنّ هذه الأزواج من الألفاظ تحتاج إلى عناية خاصّة فى التمييز بينها فى اللفظ والمعنى . جاء ذلك مثلا فى « التَّلمود البابلى » (بخوروت ٣٠ : ب) وفى « التَّلمود الأورشليمى » (٢ براخوت ٤ : د) . ويندرج فى هذا النّحو من التفكير قول علماء « التَّلْمود » « دِقْدُوقِ هَا أُوتِيّوت° דקדוקי האותיות » أى تَحرّى التدقيق فى مخارج الحروف الذى أشرنا اليه آنفا .

والخلاصة هى أنّه لم يكن هناك « نحو » بالمعنى العلمى للكلمة ، لأنّه لم تكن هناك دراسات لغويّة منفصلة عن النّص المقدّس ، ولأنّه لم تكن هناك أمّة يهودية لها لغة وأدب يمكن استخدامه كشواهد ، ولم تكن هناك تجمّعات شعبية يهودية تتحدّث « بالعبريّة » ويُخشى على ألسنتها من « اللحن » والخطأ ، وهى الظّاهرة التى كانت دائما تبعث على التأليف فى « النّحو » عند جميع الأمم والشّعوب .

وفى ظهور « علم النّحو » عند « اليهود » ، بعد استقرار « النّحو العربى » فى صورته النّهائية بفضل « سيبويه » ، يثور نِقاش حادّ ، ولكنّه محصور فى دائرة الفكر العبرى نفسه ؛ هو الإقرار بالسّبق إلى التّأليف فى « النحو » العبرى المتنازع عليه بين اليهود القرائين (أتباع اليهودى الايرانى « عنَان بن داود » ، المولود سنة ٧١٤ ميلادية) وهم الذين يرفضون « المِشْنا » و « التَّلمود » ، وبين اليهوديّة الربّيّة التّقليديّة المزدهرة فى الشّرق الأوسط فى ظلّ الإسلام ، وبخاصّة فى « إيران » و « العراق » و « الشام » و « مصر » .

فمن الجديرين بالذكر من بين القرائين « يهودا بن عَلّان الطبرانى » ، « أبو زكريّا يحى » ، الذى يجعلونه من الفترة بين ٨٨٠ - ٩٣٢م . ويقولون انّه تأثّر بنحاة العرب ، وكتب مؤلّفات كثيرة فى « النّحو العبرى » اشتهر منها كتابه المسمى « مأُوْرعِينَايِم° מאור עינים » أى « نور العيون » . ويرجّح الباحثون أنّه هو المقصود فى قول الأديب اليهودى الأندلسى الكبير « ابراهام بن عَزرا » فى كتابه « مُوْزنَايِم° מאזנים » أى « الميزان » إنّه العالم الأورشليمى الذى ألّف ثمانية كتب فى « النّحو » ؛ أو أنّه « ابو الفرج هاروق المقدسى

القرائى»، من الجيل التالى .

ولم تصل إلينا أية نماذج من كتابة « ابوزكريا الطبرانى » هذا فى اللغة .

وهناك عالمان كبيران شهيران جداً ، كانت شهرتهما على الخصوص فى قراءة الكتاب المقدّس قراءة شرعيّة ، بلغة عبريّة فصيحة ، وضبطه بالحركات ، وبإشارات السّكْت والوصل وما إلى ذلك ، محاكاة لما قام به المسلمون : « أبو الأسود الدّؤلى » ، و « الخليل ابن أحمد » أستاذ « سيبويه » ، من تدقيق فى ضبط الألفاظ بالحركات . و أحد هاذَيْن العالمين هو « أهرون بن موسى بن آشر ، أبوسعيد » ، و الثّانى هو «موسى بن نفتالى» . وكلاهما عاش فى أواخر القرن التاسع الميلادى و أوائل العاشر . و يبدو أنّ كليهما كانا يقيمان فى « طبريّة » . و « موسى بن نفتالى » هو ابن عم « أهرون بن آشر » ، والأسرة كلّها كانت مشهورة بخدمة « المسُورَة » ، أى تحقيق النّص المقدّس للكتاب العبرى والتدقيق فى تلاوته وضبطه ؛ وأسلاف هاذين العالمين معروفون بهذا اللون من البحث منذ القرن الثّامن الميلادى ، أى بعد ظهور «مُصحف عثمان » عند المسلمين بقليل .

ويؤكّد الباحث القرائى العلّامة « پينسكر » ، من علماء القرن الماضى المهتّمين بتاريخ الدّراسات اللغوية «العبرية» ، أنّ «ابن آشر » ـ وهو أشهر هاذين العالمين و أوثقهما بين «اليهود» بجميع طوائفهم ـ كان من طائفة القرائين ، ويعارضه فى هذا كلّ العلماء الرّبّانيّين تقريبا ، وما يزال الغموض يلفّ هذا الموضوع ، نظرا لأنّ «ابن آشر » بتخصّصه فى تحقيق النص « المسُورَتِى » ، لم يترك أى أثر يدلّ على اهتمامه بـ«المِشْنا » و «التّلمود» ، بل ظلّ وفيّا بدقّة ، و بتحديد شديد ، للرسالة التى أخذها على عاتقه وهى العناية بـ«توراة موسى» وأسفار الأنبياء والكتب الحكميّة ، وهى الأقسام الثّلاثة التى يتألّف منها «العهد القديم» ، أو « المقراء » ، الذى يشتق «القراءون» اسمهم منه ، وينتسبون اليه ، و يرفضون قدسيّة النّصوص الربّيّة من « المِشْنا » و «التّلمود » .

واذا كنّا قد وصفنا «أهرون بن آشر» و «موسى بن نفتالى» بأنّهما أكبر وأوثق علماء « المسُورَة » وأنّهما فى ذلك كانا ثمرة جهود مماثلة سبقتهما عند المسلمين ، لضبط تلاوة «القرآن الكريم» ، وتثبيت رسم المصحف ، فإنّ الرّجلين بعملهما هذا كانا يجمعان بين جهود

مدرستين تقليديتين عند «اليهود» ، إحداهما قديمة جدًا تنتمي إلى «عزرا» فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وهى مدرسة الكتبة « سُوفْرِيمْ » والاخرى متأخره عن تلك الأجيال البعيدة وهى مدرسة « الضّابطين » أى الذين رسموا الحركات على الحروف ، وضبطوها بالشّكل ، وتسمّى عندهم مدرسة « المنقّطين » أو « النَقْدَانِيمْ » ، وكانت تنقسم إلى فريقين لكلّ منهما نظامه ؛ أحدهما فيما يسمّيه «اليهود» أرض «بابل» وهى «العراق» وأجزاء كبيرة من « ايران » ، ويسمّى نظام هؤلاء العلماء بالنّظام البابلى أو الشرقى و بـ«العبرية» «مَدْنِحَاىْ» - أو بـ«الآراميّة» بتعبير أدقّ . أما الفريق الثانى فكان يمارس عمله فى «الشام» ، وكان مركزه الأكبر فى «طبريّة» ، ولذلك سمّى نظامه «الطبرى» ، أوالغربى ، وبـ«العبرية» « مَعْرِبَاىْ » . وقد كُتب لهذا الأخير الإنتشار ، وبه تطبع نسخ الكتاب المقدّس اليهودى المعروفة الآن . وكلا النّظامين يرجع الى فترة قصيرة بعد كبار النّحاة والقرّاء أمثال « أبى عمرو بن العلاء » ، و « حمزة » ، و «الكسائى » ، و « سيبويه » . كان ذلك أيضا فى أخريات القرن التّاسع الميلادى .

وحذا «اليهود» حذو المسلمين فى تحفيظ النّص المقدّس لأبنائهم ، ورسموا لذلك منهجا مأخوذا بتمامه عن المسلمين فى أوضح أمثلة ماورد فى كتاب ألّفه فى « الأندلس » ، الحاخام «يوسف بن يهوذا» ، من مدينة «بَرشِلُونَة» ، وقد كتبه بـ«العربيّة» وسمّاه (طبّ النفس) اقتطف منه المستشرق اليهودى « نُوبَاوَر » عبارة جاءت فى باب عنوانه « أدب المعلّم والمتعلّم » يقول فيه عن واجب المعلّم نحو التلاميذ : « . . . ثم يقرئهم التّوراة والأنبياء والكتب بضبطها وتلحينها ، بأن يخرجوا «الطَعَمِيمْ» (أى المخارج والنّبرات) على ما هى عليه .... وسائر ماينبغى أن يُعْلَمْ . وهذا يكون بتعليمهم كتب المِسُورَة . . . . الخ » .

وفى أثناء هذا العمل نجد « ابن آشر » نفسه يستعمل كلمة «دِقْدُوقْ» بمعنى يقترب من المعنى الإصطلاحى اللغوى فى كتابه المشهور (دِقْدُوقِى هَاطّعَمِيمْ) بمعنى «قواعد الأداء بالتلاوة » . وقد استعان بهذا الكتاب فى القرن السادس عشر العالم اليهودى « أهرون ابن حاييم » عندما نشر الكتاب المقدّس بالمجموعة الكبرى من تفاسيره فى ما يسمّى «مِقْرأوتْ جدُولُوتْ מקראות גדולות» سنة ١٥١٧ ميلاديّة ، وكانت النّسخة التى

اعتمد عليها معنونة بما ترجمته: «هذا كتاب قواعد التلاوة الذى ألّفه «اهرون بن آشر» من عزيا المسمّاة طبريّة ، דה ספר דקדוקי טעמים
שחבר אהרן בן-אשר מעזיא הנקראת טבריא . »

ويتّضح من كتابات «بن آشر» أنّه كان على صلة وثيقة بأعمال النُحاة العرب ، وأنّه كان يتلقّى بعض المصطلحات التى استعملها مترجمة إلى «العبريّة» باجتهاده هو من طريق «البصرة» ، مدرسة «سيبويه» بالذات . فقد ذكر المستشرق اليهودى «بنيامين زئيف باخر» ، وتبعه آخرون ممّن كتبوا فى نشأة النّحو العبرى لأوّل مرّة فى التّاريخ فى ظلّ الدّولة الإسلاميّة مثل «ربينوقيتس» و «نوباوّر» و «سالومون سكوس» عددا من المصطلحات النّحويّة أشهرها :

١ - الأسماء	بـ«العبرية»	هاشّموت השמות .
٢ - الأفعال	»	هامّلّوت המלות .
٣ - الضمائر	»	هاتّموروت התמורות .
٤ - الحروف	»	ها أوتيوت האותיות .
٥ - اسم العدد	»	هامّسپار המספר .
٦ - اسم الجمع	»	هاقّهل הקהל .

وقد اختلف الباحثون الأوربيّون المحدثون فى مدلول هذا المصطلح الأخير عند «ابن آشر» ، فتوهّم كثير منهم أنّه يعنى به «صيغة الجمع» ، وظنّ بعضهم أنّه يريد به الأدوات وما إليها من الظروف ونحوها ، بل ذهب آخرون إلى أنّه يعنى بهذه اللفظة اسم العدد ، وكلّ ذلك تعسّف منهم .

كذلك نجد «ابن آشر» يميّز بين نوعين من الحروف :

٧ - الحروف فى النّحو ، ويسمّيها «أوتيوت هاشموش אותיות השמוש» .

٨ - حروف الهجاء ، أو البناء الصّرفى ، ويسمّيها «أوتيوت هاشورش אותיות השרש» .

ونشعر أنّ المصطلح النّحوى الذى كان قد وصل فى «العربيّة» إلى الاستقرار والاستقلال على يد «سيبويه» ، كان ما يزال رجراجا متأرجحا عند «اليهود» ، فمثلا

نجد النّحوى الأندلسى اليهودى « دونش بن لَبْرَطْ » يستعمل :

٩ - « شِمْ لِحِشْبُونْ שם לחשבון » لاسم العدد ، بدل (هَامِسْپَار) عند « ابن آشر » .

ويضيف النّحوى الأندلسى اليهودى « موسى بن چِقِطِيلَه » عددا من المصطلحات بعضها مأخوذ بنصّه تقريبا من « العربيّة » مثل :

١٠ - المصادر ، التى يسمّيها « هامَّصْدِروت המצדירות » .

١١ - البدل ، الذى يسمّيه « عين هَبْدِلَه עין הבדלה » .

وهناك اصطلاح اختلف فيه المفسّرون هو :

١٢ - « هَادِّبقُوت הדבקות » ومعناها الحرفى « اللواصق » ، ولم يعرف الباحثون أهو يريد بها « الصّفة » أو « الإضافة » . وهذه الأخيرة استقرّت عند متأخرى النّحاة فى الاصطلاح الشّائع :

١٣ - « هاسّميخُوت הסמיכות » أى التعبير بالمضاف والمضاف اليه .

وكما لا حظنا من قبل من الغموض الذى يحيط بنشأة النّحو العبرى فى أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر الميلادى ، نضيف أنّ هذا الغموض ليس مقصورا على النظريّات والمصطلحات والمؤلّفات ، بل يتعدّى ذلك الى أسماء العلماء أنفسهم ، وسنى حياتهم ، والأماكن التى عاشوا فيها .

فقد ذكرنا من نحاة القرّائين « يهودا بن عَلّان الطبرانى » ، وأشرنا إلى أنّه ليس بين أيدينا شىء من كتاباته ، ونجد فى مراجع يهوديّة من العصور الوسطى أيضا نحويّا يهوديّا قرّائيّا أيضا اسمه « يهود بن بلعام » وهو مجهول أيضا ، ولعلّ الاختلاف بين « بلعام » و « عَلّان » فى الإسمين ليس إلّا من تحريف الرُّواة والنُّسّاخ ، وأنّ الإسمين لرجل واحد . وإن كان « ابن بلعام » يلقّب بـ « المقدسى » ، و « ابن عَلّان » يلقّب بـ « الطّبرانى » ، ولكن ذلك أيضا أمر كثير الوقوع فى نسبة علماء اليهود الذين يسكنون « فِلَسطين » .

وربّما كان النّحوى القرّائى « أبو الفرج هارون بن الفرج المقدسى » أوضح فى معالمه من « ابن عَلّان » ، أو « ابن بلعام » . فهو قد عاش فى القرن الحادى عشر الميلادى ، واشتغل

facebook: @jsatl.shiraz

بعلوم اللغة «العبريّة» ، وتفسير الكتاب المقدّس ، وورد ذكره عند كثير من علماء هذا العصر مثل « سليمان بن يِرُوحَام » و « على بن سُلَيْمَان » و «اسرائيل المغربى» . وهذا الأخير يذكره باسم « الشيخ ابوالفرج هارون » . كما يذكره الأديب والعالم اليهودى الأندلسى الكبير « موسى بن عَزَرا » ، وينسب اليه بعض الآراء فى اللغة قائلا : « فى تأليف أبوالفرج المقدسى » ، ويعزو اليه كتاباً فى النحو العبرى اسمه « المُشْتَمِل » لم يصلنا أيضا ، وإن كان اسمه يذكّرنا بكتاب فى نفس الموضوع ألّفه بـ«العبريّة» العلّامة «داود قِمْحِى» ، وسمّاه «هَامِّخْلُول הַמִּכְלוֹל » بعد «أبى الفرج» هذا ، ويكاد يكون الإسم العبرى ترجمة حرفيّة للاسم العربى «المُشْتَمِل» . كذلك اهتم بقواعد التّلاوة « المِسُورَة » واشتهر فيها له كتاب اسمه « الكافى » . والظاهر أنّ كُتُب «أبى الفرج هارون المقدسىّ » كانت رائجة حتى بين غير القرّائين من «اليهود» ، فإنّ شيخ نحاتهم «أبا الوليد مروان بن جَنَاح القُرطُبى» المتوفى بـ«سَرَقُسْطَة» فى أواسط القرن الحادى عشر الميلادى يذكر أنّه اطّلع على كتاب فى النّحو « لرجل مقدسى » ؛ كتم « ابن جَنَاح » اسمه لأنّه قرّائى .

ويوجد « لأبى الفرج هارون المقدسى» هذا كتاب فى اللغة ، بقيت منه قطعة صغيرة مخطوطة فى «المتحف البريطانى» ، واسمه «شرح الألفاظ» . ويبدو أنّه كان مُعْجما لألفاظ «اللغة العبريّة» مشروحة بـ«العربيّة» .

كانت هذه الحركة اللغوية تأخذ مجراها فى الأوساط اليهوديّة المقيمة فى ظلّ الإسلام ، وتتخلّق مستمدّة عناصر تطوّرها وازدهارها من نُحاة العرب ، يشهد بذلك أدباء كبار من اليهود أمثال الأندلسى « يهودا الحريزى » الذى كتب فى القرن الثانى عشر الميلادى مجموعة من المقامات باللغة العبريّة لأوّل مرّة ، أشار فيها - فى المقدّمة - إلى أنّ المثقّفين اليهود فى عصره كانوا مفتونين بكلّ ماهو عربىّ ، مهتمّين بتذوّق الأدب العبرى ، ولذلك فقد انبرى لكتابة هذه المقامات التى سمّاها « سِفرْهَا تَحْكَمُونِى » أى « كتاب العَبْقَرِى » وقلّد فيها « مقامات الحريرى » العربيّة ، وزاد على ذلك أن التزم فى سجعه حرفين فى القافية ، وهو ما يسمّيه علماء البديع العرب « لزوم مالا يلزم » ، وربّما كان فى ذلك يُحاكى كاتبا عربيّا أندلسيّا للمقامات هو (السَرَقُسْطِى) صاحب « المقامات اللزوميّة » وهو كتاب ضَخم توجد منه نسختان خطيّتان كاملتان فى مكتبة

« الإسكوريال » بـ« مَدْريد » .

ويشير شيخ المترجمين اليهود من « العربيّة » الى « العبريّة » فى العصور الوسطى « يهودا بن شاءول بن تيبّون » إلى ظاهرة التأثّر بـ« العربيّة » فى الدّين والأدب واللغة فى أيّامه فى مقدمته لترجمة كتاب « الهداية الى فرائض القلوب » للمفكّر اليهودى الفيلسوف « بَحْيَايْ بن فاقوده » . أما الأديب و الشّاعر والعالم اليهودى الأندلسى « ابراهام بن عَزْرا » فإنّه يخصّص كتابا بـ« العربيّة » اسمه « المحاضَرَة والمذاكرة » لبيان نواحى الدّقة والبلاغة فى التّراث العبرى مصنّفة على حسَب أبواب المعانى والبيان والبديع فى مباحث البلاغة العربيّة.

وفى حركة تأليف المَعاجِم العبريّة عند « اليهود » نجدهم يتتلمذون على القواعد التى أرساها « سيبويه » فى إرجاع أكثر الأفعال والأسماء إلى حروف أصليّة ثلاثة ، ويأخذون كل مصطلح الخاصّ بالإعلال والإبدال والحذف والإدغام وغيرها . فمن أشهرهم اللغوى القرّائى « ابوسليمان داود بن ابراهيم الفاسى » ، نزيل « مصر » فى القرن العاشر الميلادى ، وصاحب كتاب « جامع الألفاظ » وهومعجم أبجدى عبرى مشروح بـ« العربيّة » نكتفى هنا بذكر سطور من مقدمته يتبيّن فيها بوضوح أثر مصطلح النّحو العربى عليه ، فهو يقول :

«... الألفاظ العبرانيّة تدور على أحرف هى أمّهات الألفاظ وأسّها . واعلم أنّ الأمّهات على أربع أقسام: أحدها أن تكون الكلمة دائرة على حرف واحد ، وكل لواحقها ترتفع والحرف ثابت ، مثل : ויך - ויד - ויטם - ויר . والثّانى هو ما تدور الكلمة على حرفين ، ترتفع اللواحق وتثبت وهى مثل :

צא - בא - לך - דד - נשב - שב ،

والثالث هو مايكون أصلها ثلاث حروف ، ولواحقها ترتفع وهى ثابتة ، مثل : אמר - נשמר - חמוד - עמוד - גדר . والرابع ، فهى الذى أسّها أربع حروف ، وهى على ضَرْبين: أحدهما أربع حروف أصليّة ، مثل : רטפש والثّانى أربع مكرّرة ، مثل : מכלכל ומי כלכל . ولا يزيد على اللغة العبرانيّة من هذه الأربع ، وعليها ينبنى كل منطقهم: من الأمر والنّهى ، والآنف والمستأنف ، والفاعل والمفعول ، والاسم والمصدر ، والتذكير والتأنيث ، ماخلا (أسماء) الأشخاص الّتى غير متصرّفة ، فإنّها تزيد على أربع أحرف ، مثل : זרובבל - ישמעאל - אשכנז - תוגרמה ...» .

٣ - جهود « سعد يا الفيّومى » فى الرّبط بين اللغة العبريّة ومناهج اللغويّين العرب

يعتبر « سعد يا سعيد بن يوسف الفيّومى » أعظم شخصيّة ربطت بين النّحو العربى حسب منهج «سيبويه» وبين التفكير اللغوى الناشىء عند «اليهود». وقد وُلد هذا الرجل فى «الفَيّوم» من أقاليم «مصر» فى أواخر القرن التاسع الميلادى، ثم تركها فى صباه إلى « فِلَسطين» بعد أن كان قد تلقّى قدرا صالحا من العلم بـ«العربيّة» و « العبريّة» و « آراميّة التَرْجُوم » و «التَلْمود» ، ودرس الشّريعة الإسرائيلية. اتّجه من« مصر »بعد ذلك إلى « فِلَسْطين» حيث أقام بها بضع سنين يتتلمذ عل شيخ من شيوخ مفسّرى اليهود وعلمائهم هو «ابو كثير يحيى بن زكريّا الطبرى » .

وانتقل بعد ذلك إلى « بغداد »، فشارك المسلمين فى دراسة النّحو واللغة، وعلم الكلام. وهناك أحسّ بقوّة اليهود القرّائين أتباع « عنان بن داود » ، فشجّعه ذلك على مزيد من التبحّر فى فلسفة العقائد الإسلاميّة ، وفى مناهج تفسير « القرآن » الكريم ، وخرج على النّاس بكتاب فى العقائد اليهوديّة مكتوب بـ«العربيّة» اسمه « كتاب الأمانات والإعتقادات». ويبدو أثر « المتكلّمين المعتزلة » واضحا جدّا فى هذا الكتاب، ذلك أنّ المؤلّف كان قد وجدهم فى «بغداد» يتولّون قيادة الفكر الدّينى عند المسلمين ، ويعملون بكفاءة فى إفحام «الزّنادقة» و «الملاحدة» بالحجج العقليّة فى « العراق » و « ايران » ، لدرجة اضطرّته إلى الإنزواء، والإنسحاب من الحياة العامّة ، ومن منصب «حاخام بغداد الأكبر » ، و «رأس المثيبة» (وهى المعهد العالى للدّراسات الاسرائيليّة) فى بلدة «سُورة» القريبة من «بغداد» . وفى مدّة اعتزاله هذه الّتى يجعلها مؤرّخوه بين سنتى ٩٢٨-٩٣٧ ميلاديّة انصرف إلى الدّراسة ، وتفرّغ للتأليف ، فكان أضخم عمل انجزه فى ذاك الوقت هو ترجمة عربيّة للكتاب المقدّس العبرى، راعى فى تحريرها اختيار المصطلحات الدّينيّة الّتى تؤيّد بدلالتها فى اللغة العربيّة مذهبه فى «الإعتزال»، مع مطابقة ذلك فى معظم الأحيان لـما جاء فى الترجمتين الآراميّتين القديمتين للكتاب المقدّس : ترجمة « اونكلوس» وترجمة « يوناثان» . كذلك فسّر ترجمته العربيّة - بالعربيّة أيضا - تفسيرَيْن ، أحدهما مختصر والآخر مطوّل مفصّل . وما تزال بين أيدينا

أجزاء كبيرة من الترجمة ، وبعض قطع من التفسير المختصر نشرها « يوسف درنبورج » وابنه «هارتويج » فى باريس فى أواخر القرن الماضى .

ولعل أهم جهود «سعديا » على الإطلاق هى اقتباسه المنهج العربى الوارد على «بغداد» من مدرسة « سيبويه » بـ«البصرة » فى تقنين البحث اللغوى والنحوى فى اللغة العبرانية بشكل واضح ومتسق مع النمط العربى .

فإلى جانب معجم ألفه ـ ورتبه بحسب الحروف الأخيرة للألفاظ ـ وسماه «اجرون»، أى «جامع اللغة» ، و إلى جانب ما لاحظه من فائدة هذا الترتيب فى تسهيل العثور على «ألفاظ القوافى» عند كتابة الشعر العبرى ، مما جعله يختم هذا الكتاب بدراسة بعنوان «كتاب الشعر العبرانى» نجده يسبق العلماء اليهود جميعا فى تقييد قواعد النحو العبرى كاملة فى كتاب ضخم سماه « كتاب اللغة » . وواضح من كتابات علماء اليهود فى الجيل الذى جاء بعد «سعديا » أن المصطلح النحوى العربى الذى أقره «سيبويه» قد دخل معظمه فى هذا الكتاب ، وعنه أخذ نحاة العبريين بعد ذلك ، بحيث ظل النحو العبرى حتى الآن ، وحتى عند من لم يعرفوا العربية من نحاة اليهود ، مطبوعا بطابع «سيبويه» .

وقد ذكرنا من معاصرى «سعديا» فى «مصر» و «شمال إفريقية» اللغوى القرائى «أبو داود سليمان بن ابراهيم الفاسى» ، صاحب كتاب «جامع الألفاظ» .

فمن عاصروا «سعديا» فى «المغرب العربى» ، وجروا على نهج اللغويين العرب :

« دونش بن تميم» ، المولود فى «القيروان» فى أواخر القرن التاسع أو أوائل العاشر الميلادى ، وكانت أسرته من المهاجرين من « بغداد » . وقد اشتهر عنه تأليفه معجما للغة العبرية مشروحا بـ«العربية» ، وقد عنى فيه ـ على طريقة « سعديا الفيومى» ـ بالمقارنة بلغات أخرى كـ«الآرامية» و «الفارسية» وغيرهما . ذكر ذلك «نوباور» فى دراسته عن بدايات النحو واللغة عند «اليهود» .

ومن هذه المدرسة أيضا ، ومن معاصرى «سعديا الفيومى» ، النحوى المغربى «يهودا ابن قريش» . وهو من بلدة « تاهرت» فى المغرب . ألف معجما كبيرا للعبرية ، مرتبا على حروف المعجم ، ومبنيا على تجريد الألفاظ من الزوائد والعودة بها إلى أصولها الأولى ،

التى كان يرى أنّ حرفين منها هما عصب المادّة كلّها ، حتى أن أنصار القول بما يسمّى «الثّنائيّة» فى تصريف الألفاظ العربيّة ، فى مقابل «الثّلاثيّة» التى تبدوا واضحة فى أعمال «سيبويه» وتلاميذه ، يشيدون بجهود هذا الرّجل فى إقامة نظريّة الثّنائيّة هذه . ولكن شهرته فى الحقيقة ترجع الى رسالة كتبها بالعربيّة إلى «يهود» مدينة «فاس» ، ونشرها فى «باريس» سنة ١٨٥٧ م. العالمان «بارجيس» و «جولدبرج» مع مقدّمتين إحداهما عن حياة «ابن قريش» والأخرى عن أعماله العلميّة . وهو فى هذه الرّسالة ينادى بضرورة تعلّم اللغويّين «اليهود» للغة «العربيّة» و «الآراميّة» حتّى يستطيعوا فهم كتابهم وشريعتهم ، بل ينادى بتعلّم اللغات غير السّاميّة التى يعيش «اليهود» فى ظلّها كـ «الفارسيّة» و «البربريّة» ، ويرى أنّ نحاة العرب يجب أن يكونوا بمناهجهم الرّوّاد والقدوة فى تأليف قواعد «اللغة العبريّة» .

ووراء هذا الجيل من العلماء ، تطالعنا فى النّحو العبرى ـ بعد انتقال النّشاط الفكرى اليهودى من الشّرق إلى «المغرب» و «الأندلس» كما رأينا ـ مجموعة من اللغويين والنّحاة يعتبرون التلاميذ الأمناء ، والمقلّدين الأوفياء للمدرسة البصريّة العربيّة ، بلاشكّ بعد تحوير تعرضت له فى رحلتها الطويلة من «البصرة» الى «اسبانيا» ، ومن لغة «القرآن» إلى لغة «التّوراة» .

فمن هذه الجماعة اثنان متعاصران ، مختلفان على بعض تفاصيل فى تطبيق المنهج العربى ، بحيث أصبح اختلافهما مشهورا بين «اليهود» كشهرة اختلاف «سيبويه» و «الكسائى» و «البصرة» و «الكوفة» فى المحيط العربى . هاذان العالمان هما : «مناحم بن سروق» ، من مدينة «طرطوشة» (٩١٠-٩٧٠م.) . ذاع صيت هذا اللغوى اليهودى حتى وصل الى مسامع «حسداى ابن اسحق بن شبروط» ، الأديب الإسرائيلى الكبير الذى كان وزيرا لـ «عبدالرحمن» الثّالث الأموى فى «قُرطُبة» ، فاستدعاه وألحقه بقصره ، وجعله جليساله ، ومعلّما لأولاده ، وشاعرا لـ «ليهود» فى بلده. وهناك جمع «مناحم» ألفاظ اللغة العبريّة المستعملة فى الكتاب المقدّس ورتّبها فى معجم أبجدى ـ يقولون أنّه يجرى على نظريّة الثّنائيّة مثل «ابن قريش» ـ وسمّاه بالإسم العبرى «محبيرت» أى «الدّفتر» . وكان شرحه لألفاظ «التّوراة» بالعبريّة لا بالعربيّة ، ممّا جعل المتزمّتين من اليهود ، الحاسدين للمسلمين على حضارتهم الشّامخة ، يتحمّسون له جدّا ،

لأنّ عمله كان أوّل عمل علمی يظهر من أوّله إلى آخره مكتوبا بلغتهم القوميّة ، وغير معتمد على لغة العرب . و يظهر ممّا بقى لنا من كتاباته أنّه كان يجهل اللغة العربيّة ، أو أنّه على الأقلّ كان يعرف منها لهجة العوام فی «الأندلس» و «المغرب» معرفة ضعيفة ، دون أن تكون له ثقافة فی داخل الفكر العربی الرّسمی العالی .

أما منافسه «دونش بن لبرط» (٩٢٠-٩٩٠م.) فإنّه كان سليلا لبعض الموالی اليهود لدى المسلمين ، ومن هنا جاء لفظ « لبرط » وهو تحريف من العاميّة الاسبانيّة فی وقته «لبرادو» أی «المُعتَق» أو « المُحرَّر» . وهو من مواليد مدينة « فاس» على التّحقيق ، وعلى هذا استند المؤرّخون الّذين ردّوا على من يعتبرونه هو و «دونش بن تميم » شخصيّة واحدة .

كان «دونش بن لبرط» ، بعكس «مناحم بن سروق» ، متبحّرا فی علوم العربيّة ، متابعا متابعة دقيقة لآثار « سيبويه » وأستاذه « الخليل بن أحمد » ، ومن هذا الأخير أخذ علم العروض العربی فأدخله فی الأدب العبری ، وكان بهذا العمل مفجّرا لثورة أدبيّة هائلة ظهرت فی حقبة دامت قرونا طويلة فی العصور الوسطى ، هی التی يسمّيها مؤرخو الأدب العبری « عصر الشّعراء» .

فبفضله عرفنا شعرا عبريّا موزونا مقفّى ، على طريقة «القصيد العربی » ، أو «الرّباعيّات الفارسيّة» ، أو «الموشّحات الأندلسيّة» ، بأقلام كتّاب موهوبين من أمثال : «ابن جبيرول» ، « يهودا اللاوی» ، «ابراهيم بن عَزرا » ، «موسى بن عَزرا » ، « يهودا الحريزی» . . . الى آخره .

وتحتدم المنافسة بين « مناحم » و « دونش » عند ما يختلف الوزير « حسدای بن شبروط » مع « مناحم » ، فيبعده عن قصره ، ويحلّ محلّه « دونش بن لبرط » . و يبدأ صاحبنا هذا بنقد قاموس « مناحم» المسمّى « محبيرت » فی رسالة بعنوان « هصاجوت הצגות » بمعنى «استدراكات» يبدو فيها شديد الكراهية لـ«مناحم» لدرجة أنّه يصفه فيها شعرا بقوله :

שפת-קדש שבר וחטא אל חטא צבר
ולך בן שם קפץ לפני במסגרי □

« لقد حطّم اللغة المقدّسة   ووضع فيها الأخطاء مكدّسة
ولو فهم لأغلق فـــه   بأقفـــال محكمـــة »

ولم تمرّ هذه المعركة مرّ الكرام ، بل تحزّب فيها لـ«مناحم بن سروق» جماعة من العلماء «اليهود» ، فيهم كثيرون ممّن يعرفون العربيّة حق المعرفة مثل «اسحق بن جقطيلة» ، «افرايم ابن قفرون» ، «أبوزكريّا يحيى (يهودا) بن داود حيّوج». وقد ظهرت عن هذا الجماعة من العلماء رسالة فى الردّ على «دونش» والإنتصار لـ«مناحم» ، جاء فى أوّلها شعرا:

וזה הוא בן-לברט אשר לשוא חרט וחשב כי פרט
וכלל באמרים
לשון קדש הכרית אשר היא לשארית בשקלו העברית
במשקלים זרים

« ذلك هو المدعوّ ابن لبرط   يتعب نفسه فيغـــلط
ويظنّ نفسه قد حـــلّل   كلّ المسائل وعـــلّل
وهو قد اقتلع اللغة الشّريفة   بإخضاعها لموازين غير معروفة »

واستمرّ الهجاء - شعرا ونثرا - بين المدرستين بما يطول ذكره .

ويخطو النّحو العبرى خطوة حاسمة نحو مقاييس « سيبويه » على يد لغوى منهجى الفكر هو : «أبوزكريّا يحيى (يهودا) بن داود حيّوج» ، من مواليد «فاس» بـ«المغرب» فى هذا القرن العاشر الميلادى. والظاهر أنّ اسم «حيوج» يتضمّن فى آخره نسبة عاميّة اسبانيّة بهذه الواو والجيم ، التى نجدها فى أسماء مثل « البدروجى » الفلكى البرتغالى فى العصور الوسطى . وعلى ذلك فانّه لابدّ أن ينتمى إلى جدّ اسمه «حيّا» ، لعلّه هو الذى حمل اسمه بين العرب والمسلمين فأصبح يدعى يحيى .

أخذ «حيّوج» نظريّة «القياس» من «سيبويه» ، وكتب على ضوءها :

١ - «كتاب التنقيط»، وفيه يبيّن الأحكام النّحويّة الّتى يخضع لها توزيع الحركات والسّكون على الألفاظ العبريّة، مع مباحث فى الإشتقاق و الإدغام و المجرّد و المزيد والإضافة و حروف الحلق، واشتقاق معظم ألفاظ اللغة العبريّة - كالعربيّة - من أصول ثلاثيّة.

وكان المترمّتون من «اليهود»، ما يزال أكثرهم يجهل أحكام الإعلال والإبدال والتّشديد والتّضعيف والإدغام فى اللغة العربيّة، وما يقابل ذلك فى اللغة العبريّة، فراحوا يخطّئون «حَيُّوج»، ويعترضون على نظريّته فى كون الأفعال لا يمكن أن تقلّ أصولها عن عن ثلاثة أحرف، ويسوقون دليلا على ذلك من العبريّة أفعالا مضعّفة مثل «بزّ» و «دقّ»، وأفعالا جوفاء مثل صيغة «قُمْ» و «سِمْ». ولإيضاح هذه النّقطة ألّف «حَيُّوج» كتابين آخرين هما:

٢ - «كتاب الأفعال ذوات المثلين».

٣ - «كتاب الأفعال ذوات حروف اللين».

وقد وصلت هذه الكتب الثّلاثة إلينا، ونشرها فى القرن الماضى المستشرق «دُوكْس» سنة ١٨٤٤م. والمستشرق «نَتْ» سنة ١٨٧٠ م.

ومن خلال العمل النّحوى لـ«حَيُّوج» تأخذ أركان القياس البصرى مكانها بصورة نهائيّة فى اللغة العبريّة.

وهكذا نجد الجهود التى بدأت بمدرسة «ابن قريش» وقبله «أبو سعيد هارون بن موسى بن آشر» الذى سبقت الإشارة اليه تستمرّ وتنتصر على يد «حَيُّوج». كان أولئك العلماء - حتى أمام الكثير من خصوصيّات اللغة العبريّة - يحاولون تفسيرها وتنسيقها على ضوء القواعد العربيّة. فـ«ابن آشر» مثلا عند ما اهتمّ بالقراءات الشّرعيّة لـ«التّوراة» وجد حركات الضّبط والتّشكيل سبعة عند «اليهود» هى:

١ - القامص קמץ وهى الفتحة الطويلة الممدودة ā

٢ - الپاتح פתח وهى فتحة قصيرة كالفتحة العربيّة. ă

٣ - الصيرى وهى إمالة نحو الكسر طويلة ممدودة. ē

٤ ـ السجول סֶגּוֹל وهى إمالة مثل سابقتها ولكنّها قصيرة . ֶ

٥ ـ الحولم חוֹלם وهوضمّ ممال نحوالفتح وليس ضمّا صريحا قويّا . ֹ

٦ ـ الحيرق חִירק وهوكسرصريح مثل الكسرة العربيّة . ִ

٧ ـ القبوص קבוץ وهو ضمّ صريح مثل العربيّة . ֻ

و يضيفون الضمّة الصّريحة الممدودة بالواو : «الشورق שׁוּרק » إلى هذه السّبعة. וּ

وقد أوضح « بن آشر » ، وتبعه فى ذلك من جاء بعده من نحاة اليهود أنّ أصول الحركات هى الفتح والضمّ والكسر الصّريح المعروف فى العربيّة ، وأنّ ما زاد على ذلك ، بالإمالة نحو الكسر أو الضّم ، أو بالمدّ والتّطويل ، ليس إلّا تفريعا يقتضيه التّصريف ، وبعض أحكام الإعلال والإبدال . وبهذا نجدنا ونحن فى الفكر اللغوى العبرى النّاشىء نقف بقدم ثابت فى صميم دراسات «الخليل بن أحمد» و«سيبويه» .

٤ ـ «ابن جنَاح» والخطوة النّهائيّة فى تطبيق نحو « سيبويه » على اللغة العبريّة

« أبو الوليد مروان بن جنَاح القُرطبي الأندلسى » اليهودى ، شيخ نحاة اليهود على الإطلاق، وإمامهم الأعظم بكتابه «اللُمَع » فى النّحو العبرى ، الذى يعتبر عندهم كـ«كتاب سيبويه » عند العرب .

وُلد فى « قُرطُبة » حوالى سنة ٩٩٠ ميلاديّة ، ويبدو من ثقافته وأسلوبه الجيّد فى استعمال لغة العرب ، والاستشهاد بكثير من أشعارها وأمثالها وأقوالها المأثورة ، أنّه منذ طفولته كان يدرس «العربيّة» مع «العبريّة» . و «العربيّة» فى «الأندلس» كانت من حيث النّحو واللغة تقوم على مذهب «أهل البصرة» ، وعلى فكر «سيبويه» ، وكتابه على الخصوص . بحيث نستطيع أن نقول انّ أثر «الكوفة» فى «الأندلس» لايكاد يكون محسوسا ، اللّهم إلّا عندما يكتب نحاة «الأندلس» الكبار كتبا موسّعة فى النّحو ، فيعنون باعطاء بعض الأصداء لمسائل الخلاف بين الكوفيّين والبصريّين ؛ نجد ذلك فى كتب « أبى بكر محمد بن الحسن الزُبيدى » ، وفى استدراكاته على «سيبويه» ، كما نجده فى «كتاب الأفعال» لـ«ابن القوطيّة» وشروحه ، وفى أعمال «الأعلم الشّنتمرى» ، أحسن من شرحوا شواهد «كتاب سيبويه » ، كما يظهر عند

كبار النّحاة المدرّستين الأندلسيّين كـ«ابن خروف» و «ابن عصفور» و«ابن مالك».

كان «سيبويه» فى «الأندلس» قد أصبح الإمام الذى ليس قبله ولا بعده، والمرجع الذى ينهل منه كل متخصّص فى النّحو العربى. حتّى انّ «أبابكر محمد بن الحسن الزُبَيْدى» النّحوى المشار إليه آنفا وإلى كتابه فى «الإستدراك على سيبويه» يقول: «فانّى رأيت علماءَ النّحو فى زماننا هذا وما قاربه، قد أكثروا التّأليف فيه، وأطالوا القول على معانيه، فأملّوا النّاظرين، وأتعبوا الطّالبين، بتكرار معانٍ قد بُيِّنت، وركوب أساليب قد نُهجت. فلم يُخلِ ّ أكثرهم بغير إعادة ماتُقُدّم إليه، والتّكثير فيما سُبِق إلى القول عليه. وقد كان ينبغى لِمن هم ّ بذلك منهم أن يتصفّح كتاب «عمرو بن عثمان» ـ المعروف بـ«سيبويه» ـ فينظر إلى مبادى كتابه، وعنوانات أبوابه، ويرى لطائف معانيه، ودقائق حجاجه. إلى الايجاز فى قوله، والايعاب لمراده، فيزجره ذلك ـ إن كان ذا حجى ـ عن تكلّف مالا حاجة إليه، ويمنعه الاعتناء بما لامعوّل عليه» (من مقدمة الإستدراك على سيبويه).

فإذا كان العربى المسلم فى «الأندلس» قد قرّ قراره على منهج «سيبويه» فى دراسة أبنية اللغة العربيّة ونحوها، فانّ «اليهود» ـ وهم قد تلمّسوا للغتهم نحوا لدى العرب كما رأينا ـ لايمكن أن يكون لهم باب آخر غير «سيبويه» ينفذون منه إلى أسرار لغتهم.

وثمّت سبب آخر لإلتئام منهج «سيبويه» مع مطالب اللغة العبريّة فى ذاك الوقت. ذلك أنّ منهج الكوفيّين ـ خصوم «البصرة» العلميين، وخصوم «سيبويه» شخصيّا ـ كان مذهبا يعطى للسماع فى اللغة أهميّة لا يأخذها عندهم القياس. واللغة العبريّة كانت قد ماتت قبل تلك العصور بأكثر من ألف سنة، ولم يكن السّماع والحالة هذه ممكنا عندهم، وكان لابدّ من التّعويل على القياس، لا فى اللغة فحسب بل فى الدّين أيضا. فلمّا افتتح «اليهود» عيونهم على «كتاب سيبويه» منذ عهد «سعديا الفيّومى» وجدوا فى منهجه ضالّتهم المنشودة. وكان من يحسن منهم العربيّة يتفوّق فى العبريّة نفسها على أقرانه من العلماء لاعتماده على مقاييس متينة من لغة العرب وقواعدها. فمثلا نجد الأندلسى اليهودى «موسى بن عزّرا»، فى كتابه «المحاضرة والمذاكرة» ـ الذى ما يزال مخطوطا فى «مكتبة اكسفورد» بانجلترا ـ يقول وهو يتكلّم عن علماء مدينة «أليسنة» الأندلسيّة القريبة من «قُرطُبة» فى عهد «مروان

ابن جنَاح » : « ... و« ربى اسحق ابن چقطيله » ، و « ربى اسحق بن شاءول الأليسانيان » (فى المخطوطة تحريف : اللسانيون) فرَسا رهان ، إلّا أنّ « ابن چقطيلة » كان منهما السّابق ، لوفور حظّه من العربيّة ... » . وفى موضع آخر يذكر المستعربين من أولئك الأدباء اليهود فيقول : « ... و بـ « أليسنة » فى ذلك الوقت « أبوالوليد (بن) حسداى » ، و« أبوسليمان ابن راشلة » ، و « أبوإبراهيم ابن برون » ، ودونهم « ابن أبي يقوا » ، الملقب بـ « المتنبّى ... » .

فى هذا الوسط ، الذى كانت فيه اللغة العربيّة هى أعلى صيحات الفكر فى ذلك العصر ، نشأ « مروان بن جنَاح » متردّدا بين الحاخامين المتبحّرين فى الكلّية اليهودية فى « أليسنة » ، وبين الأدباء والشّعراء والنّحاة والقضاة والفقهاء المسلمين فى بلده « قُرطُبة » القريبة من « أليسنة » . وجرى على سنّة الكثيرين من يهود بيئته حتى فى اسمه : فاسمه العبرى « يونا » وهوالذى يقابل فى العربية « يونس » . وكان « اليهود » إذا دعا بعضهم بعضا يلقّبه بالسيّد تأدّبا ، وهى عندهم كلمة « مار » . فكان صاحبنا يدعى فى الأوساط اليهوديّة « ماريونا » . فلمّا أراد أن يتشبّه بالعرب حوّل « ماريونا » إلى أقرب نطق منها وهو « مروان » . ونظرا لأنّ معنى كلمة « يونا » فى اللغة العبريّة هو « الحامة » أو « اليمامة » ، فإنّه ـ لكى يشير إلى معنى اسمه العبرى ـ زاد عليه « ابن جنَاح » ، وعلى ذلك فاسم أبيه علمه عندالله ، لأنّ « جنَاح » وردت رمزا لاسمه العبرى لا اسما لأبيه . ولأنّ المروانية من الخلفاء الأمويّين كانوا يكثرون من تسمية أبنائهم « الوليد » ، مثل « الوليد بن عبدالملك بن مروان » ، و « الوليد بن يزيد » فإنّه اتّخذ كنيته العربيّة « أبا الوليد » ، وأصبح اسمه المعرّب كما قلنا هو « أبوالوليد مروان ابن جنَاح » .

درس « ابن جنَاح » إلى جانب « التّوراة » و« التّلمود » جملة طيّبة من « القرآن » والحديث ، وأتقن النّحو العربى ، على « مذهب سيبويه » ، لدرجة أنّه ذكره صراحة وباسمه فى كتابه « اللُّمَع » فى النّحو العبرى وهو يتحدّث عن الإيجاز والحذف فى اللغة العبريّة فيقول (« اللُّمع » بتحقيق « يوسف درنبورج » ـ « باريس » سنة ١٨٨٦ ـ ص ٢٦١) : « ... ولا تنكرنّ حذفهم بعض الكلمة ، مثل قولهم « اى نقى אי נקי » مكان « ايش איש » ، وغيره مما ذكرته . فإنّ الكلمة إذا جرت على ألسنتهم كثيرا يخفّفونها . وقد يفعل غير

العبرانيّين أيضا مثل هذا ، كما قالت العرب « المنا » مكان « المنايا » ومكان « المنازل » فحذفت. وقد يحذفون أكثر من هذا ، حتى إنّهم لقد يستجزئون من الكلمة بذكر أوّل شبهة منها ، حكى ذلك عنهم سيبَوَيْهُهُمْ ، وأنشد لبعضهم :

بالخَيرِ خيرات وإنْ شَراً فَآ   ولا أُريدُ الشَرَّ إلّا أَنْ تَآ

أراد : وإن شرّا فَشَرًّا ، فاستجزوا بالفاءِ فقط . وأراد بقوله إلّا أَنْ تَآ : إلّا أن تريد ، فاستجزى بالتّاء فقط » .

فهذا برهان ملموس على معرفة « مروان بن جَنَاح » للنّحو العربى مباشرة من « كتاب سيبويه » وشواهده واستخدام ذلك فى نحوه العبرى .

ولم يكن « مروان بن جَنَاح » مهتمّا بالدّراسات الأدبيّة والدّينيّة فقط ، بل كان متخصّصا فى الطّب والصّيدلة ، ومارس الطّب فترة من حياته ، وألّف كتابا فى العقاقير اسمه « كتاب المفردات » .

وكان « مروان بن جَنَاح » فى « قُرطُبة » معاصر أللإمام « احمد بن حَزم » . وكانت « قُرطُبة » فى هذا الوقت زاخرة بالشّعراءِ والعلماءِ والأدباءِ ، وبمشجّعيهم من الأمراءِ وأثرياءِ التّجار ، وفيها وجد « مروان » مكانا مرموقا يبدأ فيه نَشاطه اللغوى والنّحوى .

وكانت المعركة محتدمة بين أنصار « دونش بن لبرط » المعجبين بالثّقافة العربيّة ، وأنصار « مناحم » المتعصبين ضدّها ، وكان « مروان » من المعسكر الأوّل .

فأخذ على عاتقة أن يدافع عن نظريّة أستاذه « ابى زكريّا يحيى بن داود حَيُّوْج » فى تقسيم الأفعال إلى مجرّد ومزيد ، وكون المجرّد لا يمكن أن يقلّ عن ثلاثة أحرف . فألّف كتابا يضيف فيه أمثلة كثيرة ومُشْكِلَة من الأفعال التى استعملت فى « الكتاب المقدّس » ، ويتخلّل ذلك آراء ونظريّات فى النّحو والصّرف تنمّ عن منتهى الوفاء لمنهج « سيبويه » . ورد فى المستلحق (ص ١٢ - ١٣ ، باريس) قوله فى الحديث عن علاقة المصادر بالأفعال : « وأمّا المصدر فهو عندى بمنزلة الجنس الأعلى ، وهو أقدم من الفعل قدمة طبيعيّة ، أعنى الفعل يرتفع بارتفاع المصدر ، وليس يرتفع المصدر بارتفاع الفعل ، والفعل مأخوذ منه وصادر عنه ، أعنى : المصدر اسم الفعل » ، وهذا هو نفسه رأى « سيبويه » ، ورأى البصريّين

جميعا، كما نصّ عليه «ابن الأنبارى» فى المسألة الثّامنة والعشرين من كتابه «الإنصاف، فى مسائل الخلاف، بين البصريّين والكوفيّين».

والظّاهر أنّ معسكر المتزمّتين من «اليهود» كان ينكر على «مروان» تأثّره بالنّحو العربى، فراح أعداؤه يكيدون له ويكتبون النّشرات السّرّيّة بعنوان «رسائل الرِّفاق»، فى محاولة فضحه وتجريحه، ولكنّه كان فارسا لا يُشقّ له غبار فى ردّ السّباب بالسّباب، والإستشهاد بالشّعر العربى فى السُّخريّة من أعدائه، فهو يصف بعضهم بأنّهم الجُهّال، والمَسَاكين، والأغبياء، والفِدَام، والسُّخَفَاء، والهاذِرُون، والهَامِرُون، والرِّعاع، وفاضحو أنفسهم، وينعتهم بقول الشّاعر:

يَتَعَاطَى كُلَّ شَيْءٍ وَهْوَ لا يُحْسِنُ شَيَّا

فَهْوَ لا يَزْدَادُ عِلْماً إِنَّمَا يَزْدَادُ غَيَّا

ويختم «ابن جَنَاح» هذه الرّسالة التى كتبها إلى صديق له، وسمّاها «رسالة التّنبيه»، وضمّنها ردّا علميّا بصريّا سيبويهيّا على أعدائه بقوله: «هذا يا سيّدى ما نُمِى لى من اعتراضهم علىّ، رأيت إعلامك به، وتوقيفك عليه، لتعجبَ من جهلهم، وقلّة فطنتهم وأيضا لتكون هذه الرّسالة لمن عساه لم تتأدّ إليه من الأحداث أوّلَ وهلةٍ فصولُ صدر كتاب «المستلحق» تنبيها على هؤلاء الرُّعاع، وإنقاذاً لهم من غَمْرة غفلتهم. وأعلمك أنّ هؤلاء السّخفاء، لقّبوا كتابهم بكتاب «الاستيفاء»، وعَزَوْهُ إلى بعض الأغمار، خوفا منهم - إن نسبوه إلى أنفسهم - يتّسع الرّدّ عليهم فيه، وتكثر السُّخرية منهم عليه، ولعلمهم أيضا أنّى لا محالة سابقهم: سَبْقَ الجَوَادِ إذا استولَى عَلَى الأمَدِ فلمّا بلغهم علم النّاس بأنّهم الهاذِرُون الهَامِرُون لا غيرهم، وتضاحك كل من فيه حُشَاشَة على ما بدا من جهلهم، ستروه كما تستر الهرّة جَعْرها، وجحدوه، غير أنّ النّاس لقّبوا لهم ذلك الكتاب بـ«كتاب الاستِخْفَاء» فهذا مبلغ علم عالمنا، ومنتهى فهم أديبنا דּוֹר טָהוֹר בְּעֵינָיו וּמִצֹּאָתוֹ לֹא רֻחָץ أعاذنا الله وإيّاك من الآراء المضلّة، والأهوية المُردية، بمنّه ورحمته»، (رسالة التنبيه، ص ٢٦٦ - ٢٦٧، باريس ١٨٨٠م.).

أما الشاهد العبرى الذى استعمله فهو من «سفر الأمثال» ٣٠ : ١٢ يقول: «انّه جيل يرى نفسه نظيفا بينما هو لم يغتسل من نجاساته».

ومن بداية نشاط «ابن جنّاح» فى النّحو نلاحظ وفاءه للمدرسة البصريّة العربيّة واضحا فى نقطتين هامّتين :

١ ـ القول بالأصول الثّلاثيّة فى الإشتقاق.

٢ ـ القول بالقياس على طريقة البصريّين ، نشعر بذلك عند ما يأتى فى ثنايا حديثه قوله « لم يفهموا ما اجتلبته من المقدّمات المنطقيّة ، والنّتائج العقليّة ، والدّلائل الحسّيّة ، برهانا على أنّ الأصل .... الخ » (نفس المرجع ؛ ص٢٥٧) بل انّه فى مكان آخر يقول بصراحة: «إنّا معشر أهل القياس...» (نفس المرجع ص ٣٦٦) .

وكان « مروان بن جنّاح » بعد الحوادث الّتى جرت على «قُرطُبة» بهجوم «البربر» عليها واحتلالهم لها عام ١٠١٢ ميلاديّة ، أى فى السّنوات الأولى من القرن الخامس الهجرى ، قد اضطرّ إلى الهرب والإلتجاء إلى مدينة سَرَقُسطَة فى الشّمال حيث اشتغل بتعليم اللغة العبريّة ، وتوّج عمله العظيم بموسوعة لغوية قيّمة من جزأين سمّاها «كتاب التّنقيح» .

قسّم « مروان» كتابه هذه قسمين مستقلّين ، الثّانى منهما سمّاه «كتاب الأصول » وهو معجم عبرى أبجدى مبنىّ على نظريّات «سيبويه» فى المجرّد والمزيد ، حسب التّرتيب المعروف فى المعاجم العربيّة الّتى ترتّب الألفاظ بحسب مواد اشتقاقها ، وعلى الحرف الأوّل من المادّة .

أمّا الكتاب الأوّل ، أو الجزء الأوّل من «التّنقيح» ـ وهو أهمّ الجزأين وأرسخهما قدَماً فى «نحو سيبويه» ـ فهو «كتاب اللُّمَع فى النّحو» الذى أشرنا إليه أكثر من مرّة .

وخلاصة القول أنّ « مروان بن جنّاح » كان رجلا منهجيّاً فى عمله بحيث قسّم هذا العمل إلى قسمين .

القسم الأوّل : وهو النّصوص الّتى يشتغل عليها ، ويمارس فيها بحثه ، وهى نصوص «التّوراة» بتحقيقات علماء «المِسُورة» وأئمّة القراءة والتّنقيط . يضاف إلى ذلك نصوص من «المِشْنا » و «التّلمود» و «التّرجوم» يعمد إليها للمقارنة . ثم يأخذ آراء السّابقين من علماء اليهود السّابقين عليه . يقول فى مقدّمة كتاب «اللُّمع» : « .... فلمّا كانت منزلة علم اللسان المنزلة التى وصفناها ، وكانت درجته الدّرجة الّتى ذكرناها ، اعتقدنا أن نؤلّف

فى ذلك كتابا ، نجمع فيه أبوابا ، تشتمل على أكثر علم اللغة ، ونحيط بجلّ استعمالاتها ومجازاتها وأنحائها ، ونودعه أيضا أكثر أصولها الموجودة عندنا فى «المقراء» ، وشرح غريبها ولا ندع فى «المقراء» شيئا يستفاد من المصادر وتصاريف الأفعال إلّا ونودعه كتابنا هذا ، ونبيّن ذلك ونبسطه بقدر وسعنا ، ومبلغ طاقتنا . وأنا أزعم أن أستشهد على شرح بعض الأصول بما أمكننى من الموجود فى «المقراء» ، وما لم أجد عليه شاهدا من «المقراء» استشهدت عليه بما حضرنى من «المِشْنا» و «التّلمود» واللغة السُّريانيّة ، إذ جميع ذلك من استعمالات العبرانيّين . مقتفيا فى ذلك أثر « رأس المثيبة الفيّومى » ـ رحمه الله ـ فى استشهاده على السّبعين لفظة المفردة فى «المقراء» من «المِشْنا» و «التّلمود» ، وأثر غيره من «الجأونيم» أيضا ، كـ«رب شريرا» ، و «رب هاي» ـ رضى الله عنهما ـ وأثر غيرهما أيضا. وما لم أجد عليه شاهدا ممّا ذكرته ووجدت الشّاهد عليه من اللسان العربى ، لم أنكل من الإستشهاد بواضحه ، ولم أتحرّج عن الإستدلال بلائحه ، كما يتحرّج عن ذلك من ضعف علمه ، وقل تمييزه ، من أهل زماننا . لاسيما من استشعر منهم التّقشّف ، وارتدى بالتّديّن ، مع قلّة التّحصيل لحقائق الأمور. وقد رأيت «رأس المثيبة رب سعديا » ـ نضّر الله وجهه ـ يتوكّأ على مثل ذلك فى كثير من تراجمه ، أعنى أنّه يترجم اللفظة الغريبة بما يجانسها من اللغة العربيّة. وقد رأيت الأوائل ـ رضى الله عنهم ـ وهم القدوة فى كلّ شىء ، يستشهدون على شرح غريب لغتنا بما جانسه من غيره من اللغات » . وهكذا يُرسى «مروان بن جنّاح» ، بعد «سعديا الفيّومى » ، الأسس الأولى لأحدث علوم اللغة التى يزعم الغرب أنّه مخترعها ، وهو «علم اللغة المقارن» .

القسم الثّانى : وهو المنهج المأخوذ عن العرب ، وهو عنده يبدو فى مظهرين :

١ ـ محتوى الكتاب ، وهو فيه تتبّع «سيبويه» فى تقسيم الكلام إلى اسم وفعل وحرف . وتقسيم الإسم إلى جامد ومشتق . وتقسيم الفعل إلى ماض و مضارع ، مع الإشارة إلى أنّه قد يفيد الخبر أو الأمر أو التأويل بمصدر . وهو أيضا يأخذ الأصول الثّلاثة ميزانا للإشتقاق ويستعمل كثيرا من مصطلح «سيبويه» ، وعبارته ، حتى النّادر منها : مثل الفعل « إتلأبّ»

بمعنى استقام واطّرد. فقد استعمله «سيبويه» مرّة واحدة فى الجزء الثّانى من كتابه ص ٢٩٧ من الطبعة الأروبيّة، ومرّتين فى اسم الفاعل «متلشّب» فى نفس الجزء الثانى (ص ٤٤٣ و٤٤٦). ويستعمله «مروان بن جناح» مرّتين مرّة بصيغة الفعل مثل «سيبويه» («اللُّمع» ص٨٦) ومرّة فى صيغة اسم الفاعل («اللُّمع» ص٨٣). ونجده يعتقد تبعا لـ«سيبويه» فى نظريّة العامل لدرجة أنّه يقول مرّة فى «كتاب اللُّمع» (ص٣٢٨): «وهذا ممّا اجتمع فيه عاملان» ويكرّر تعبيره ذاك مرارا، منها مثلا ص ٢٧٩، ٣٥٥.. الخ. كما أنّنا ذكرنا من قبل أنّه يؤمن بالقياس، وقد قال فى «كتاب المستلحق»: ص ٣٧ «حمل الأقلّ كحمل الأكثر أقيس فى اللغة». وفى نفس الكتاب ص ١٠١: «وأمّا أنا فإنّما مذهبى أن أضيف حرفا مجهولا إلى أصل معروف، دون أن يمنع من ذلك القياس والسّبار المستعمل فى تصريف اللغة».

وهو لا يغفل فى مناقشة الشّواهد والأمثلة المعانى البلاغيّة، فيرد عنده منها قدر من المصطلحات كالتّقديم والتّأخير والحذف والتّشبيه والإستعارة والمجاز والإتّساع والتّأكيد والتعظيم والإلتفات، ويقول عن هذا الأخير: «وهو، أعنى الإلتفات، قسم من أقسام البلاغة».

ويقول فى موضع آخر من «كتاب اللُّمع»: «... وهذا القسم من أقسام البلاغة يسمّى الإشتقاق والتجنيس، وهو عند الخطباء والبغاء مستحسن جدّا».

ويتحدّث عن الجمل الإعتراضيه فى الفصل الثالث والثّلاثين من «كتاب اللُّمع» حديثا بين البلاغة والنّحو.

٢ ـ التّقسيم الظّاهرى للكتاب وأسلوبه فى مناقشة الشّواهد، والإهتمام بما يسمّيه «العوامل» يثير عندنا سؤالا هامّا، فاللغة العبريّة لا إعراب فيها، والمتأخّرون من نحاة العرب يجعلون مدلول العوامل عندهم محصورا فى الأثر الإعرابى، فهل كان الأمر كذلك عند «سيبويه»؟ أم أنّ مفهوم العامل عنده أنّه عنصر له وظيفة فى نظم الكلام ومعنى الجملة يأتى الإعراب تبعا له فى العربيّة لأنّها معربة، ولا يأتى فى العبرية الموقوفة، دون أن يمنع ذلك شيخ نحاتهم من استعمال كلمة العوامل فى بحثه النحوى. أمّا شواهده فإنّها كما قلنا كانت فى الأغلب الأعمّ من «الكتاب المقدّس»، وقد بلغ عددها فى «كتاب اللُّمع» وحده

أكثر من ثمانية آلاف آية وهو قدر يزيد على ثلث «الكتاب المقدّس» ، ممّا يجعل من عمل هذا النحوى عملا أساسيًا فى التفسير عند «اليهود» أيضا.

كلّ هذا التألّق فى النّظرية النّحويّة فى الوسط المثقّف اليهودى ما كان ليتأتّى لهم لولا سماحة الإسلام التى أتاحت لليهود أن يتعلّموا العربيّة فيتقنوها ، وأن يتخصّص بعضهم فى «سيبويه» فيطبّقه على لغة «بنى إسرائيل» بهذا الإحكام الذى قام به «مروان ابن جنَاح» .

وقد ترجم «يهودا بن شاؤل بن تبّون» كتاب «اللُّمع» إلى العبريّة بعد وفاة المؤلّف بقرن من الزّمان باسم «سفر هارقمه ספר הרקמה» ظلّ مرجعا لقواعد اللغة العبريّة ونحوها ومنه استمدّت المراجع الحديثة كما قلنا .

كلّ ذلك يضيف بلاشكّ أشعة جديدة تتألّق من عمل شيخ نحاة العربيّة ، صاحب «الكتاب» الذى يعتبر دستور كلام العرب ، «سيبويه» رحمه‌الله .

المراجع و المصادر

«ابن الأنبارى» ، أبوالبركات عبدالرحمن بن محمد :

«نزهة الألبّاء فى طبقات الأدباء» ، القاهرة - ١٩٤٥م.

«ابن جنّى» أبوالفتح عثمان :

«كتاب اللُّمع فى النّحو» ، مخطوط بمكتبة بلديّة الإسكندريّة - رقم ١٩٩٢- د.

«الأعلم الشَّنْتَمَرى» ، سليمان بن عيسى :

«شرح شواهد كتاب سيبويه» (على هامش طبعة القاهرة سنة ١٣١٦ه‍.ق.)

«ألبير حبيب مطلق» :

الحركة اللغويّة فى «الأندلس» ، منذ الفتح العربى حتّى نهاية عصر ملوك الطوائف:

المكتبة العصرية ، صيدا - بيروت ، ١٩٦٧م .

«ابن مَضاء القُرْطُبى» ، أبوالعبّاس أحمد بن عبدالرّحمن اللّخمى :

«كتاب الردّ على النُّحاة»، تحقيق الدّكتور شوقي ضيف، القاهرة - ١٩٤٧م.

«الفتح بن خاقان»:

صفة جزيرة الأندلس (في الرّوض المعطار) - القاهرة ١٩٣٧م.

«المقّري»، الشيخ أحمد بن محمد المقّري التلمساني، المتوفى ١٠٤١ هـ.ق.:

«نَفح الطيب من غُصن الأندلس الرّطيب»، تحقيق الشيخ محيي الدين عبدالحميد القاهرة ١٩٤٧م.، نشرة مُعادة في دار الكتاب اللبناني - بيروت.

«سيبويه»: «الكتاب»:

الطبعة الأوروبيّة، بتحقيق «هارتويج در نبورج»، الجزء الأوّل: «باريس» ١٨٨٥م.، والثاني ١٨٨٩م.

الطّبعة المصريّة، مع «شرح الشّواهد للأعلم الشّنْتَمري»، ومقتطفات من «شرح السّيرافي»: المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٣١٦هـ.ق.

«سعديا، سعيد بن يوسف الفيّومي»:

«ترجمة التوراة بالعربيّة»، وأسفار أخرى من العهد القديم: تحقيق «يوسف درنبورج» وابنه «هارتويج». في خمس مجلّدات، «باريس» من سنة ١٨٩٣ الى سنة ١٨٩٩م.

BIBLIOGRAPHIE

BACHER (Wilhelm) -Abul'walîd Marwân ibn G'anah und die neuhebräische Poesie; dans Z. D. M. G. ; 1882, pp. 401 et ss.

—Die grammatische Terminologie des Jehûdâ ben Davide(Abû Zakarjjâ Jahjâ ibn Daûd) Ḥajjûg, nach dem arabischen Originale seiner Schriften und mit Berücksichtigung seiner hebräischen Uebersetze zer und seiner Vorgänger dargestellt; Vienne, 1882

—Jossph Kimchi et Abulwalid...

Extrait de la «Revue des Etudes Juives» T. VI.

—Die hebräisch-arabische Sprachvergleichung des Abulwelîd.. ; Vienne, 1884.

—Die hebräitch - neuhebräische und hebräisch - aramäische Sprachvergleiehung des Abulwalîd... Vinne, 1885.

—Die Anfänge des hebräischen Grammatik; dans : Z. D. M. G.; Leipzig, 1895.

IBN DJANÂḤ (Abu' l - Walîd Marwân, ou R. Yônah) - Opuseules et Traités d' Abou'l - Walîd Merwân Ibn Djanâḥ de Cordoue; publiés par Joseph et Hartwig Derenboug:, Paris, 1880.

—Kitâb Al-Luma, : Le Livre des Parterres Fleuris; Grammaire Hébraîque, publié par Joseph Derenbourg; Paris, 1886.

—Kitâb Al - Usûl; The Book of Heberew Roots, by Abu'l-walîd Marwân ibn Janâḥ; otherwlse called Rabbi Yônâh. Publié par Adolf Neubauer; Oxford, at the Clarendon press, Tome I, de Alef à Kâf, 1873. Tome II de Lâmed à Tâw, plus un supplêment de textes lexicographiques d'auteurs divers, 1875.

EWALD (H.) - R. Jona oder Abulwalîd ibn G' anâch; dans : Beiträge zur Gescichte der ältesten Auslegung und Spracherkläung des

Aten Testamantes; t. I. p. 126 à 150, Stuttgart, 1844.

IBN EZRA (Mo"ise) - Kitâb al-Muḥâḍarah; « La Rhétorique » ; Bodl-Hunt. 599, Neubauer 1795.

JASROW (Marcus) - Dictionary of the Targumim, The Talmud Babli and yerushalmi and the Midrashic Literature; 2 vols. Newyork, Berlin, London, 1926.

MALTER (Heney) - Saadia Gaon, his Life and Works? Philadelphia, 1921.

MUNK (S.) - Notice sur Aboul'-Walîd Merwan Ibn-Djanâḥ; Paris 1851 - Extrait du Journal Asiatique 1850, t. I et II, 1851 t. I

NEUBAUER (Ad.) - Notice sur la lexicographie hébraïque; avec des remarques sur quelques grammairiens postérieurs à Ibn-Djanâḥ. Paris-Imprimerie Impériale, 1863.

Extrait no.10 du Journal Asiatique. Année 1861.

— The Book of Hebrew Roots by Abu'l-Walîd. (v. Ibn Djanâḥ).

RENAN (Ernest) - Histore générale et système comparé des langues sémitiques; tome I, Paris 1885.

SKOSS (Salomon L.) Fragments of the Unpublished works of Saádia Gaon; Philadelphia : The Dropsie College for Hebrew and Cognate Learning-1933; Reprinted from the J. Q. R. s. n. s. ; vol. XXIII no. 4.

— - The Hebrew-Arabic Dictionary of the Bible, known as : Kitâb Jâmi' Al-Alfaẓ (Agrôn), of David ben Abraham Al-Fasî, the Karaïte (Xth. Cent.).

edit. from mss. in the State Public Library in Leningrad and in Bodleian Library in Oxford. t. I Alef à Hêt 1936, t. II, 1945. New Haven.

STEINSCHNEIDER (Moritz) - Die hebräischen Uebersetzungen des Mittelalters; Berlin 1893.

— Die Arabische Literatur der Juden; Berlin 1902; (Complété par

S. Poznanski Zur Judischarabischen Literatur; dans: Orientalistiche Literaturzeitung, VII, 1904, pp. 257 à 274; pp. 304 à 315 et 345 à 359; (tirage à part)-

VAJDA (Georges) - Introduction à la pensée Juive du Moyen-Age; Paris, 1947.

ZAZA (Hassan) - Essai sur les termes religieux dans le Pentateuque, comparés avec la version arabe de Sa'adia Gaon (Thèse présentée à l'Ecole des Hautes Etudes Sorbonne, 1948)

— L' OEure grammaticale d' Ibn-Djanâḥ, et ses rapports avec les différentes théories arabes, (Thèse Complémentaire de Doctorat ès Lettres de la Sorbonne, Paris, 1958.

— מקראות גדולות :

-חמשה חומשי תורה ; ה׳ כרכים

עם פירושים והוספות רבות -ווילנא 1923

-נביאים וכתובים ; ו׳ כרכים

פרדס ، תל-אביב 1954

- נִצָּנֵי הַדִּקְדּוּק :

חקירה היסטורית בקדמוניות הדקדוק העברי

מאת : ר׳ בנימין זאב ד״ר בָּכֶר

מתורגם מגרמנית ע״י : א. ז. רבינוביץ.

ונלוה לזה קונטרס מיוחד :

השלמות ותקונים לספר פירוש לכתבי הקדש

מר׳ יונה הספרדי אבן גנאח.

תל-אביב 1926

— משה צבי סגל :

דקדוק לשון המשנה ; תל-אביב 1936.

— דוד ילין :

תורת השירה הספרדית ; ירושלם 1940

— תלמוד : בבל וירושלמי ،

הוצאת שוקן ; תל-אביב .

— אבן שושן : מלון חדש ; ירושלים 1967



صلاح الدّين المُنَجِّد (الدّكتور...)
(لبنان)

أ ـ مصادر عَربيّة لِدراسَة «سِيبَوَيْه»

١ ـ المصادر المخطوطة

١ ـ ابن وَلّاد، محمد بن الوليد (٣٣٢هـ. ـ ٩٤٣م.)

الانتصار، أو نقض ابن وَلّاد على المبرِّد في ردّه على «سيبويه»

(مخطوطة دار الكتب ـ تيمورية، نحو ٦٠٥).

(ومخطوطة المتحف العراقي رقم ١٣٥٢).

٢ ـ اليميني، عبدالباقي بن عبدالمجيد (٧٤٤ هـ. ـ ١٣٤٣ م.)

إشارة التّعيين إلى تراجم النّحاة واللغويين

(مخطوطة دار الكتب المصرية، تاريخ ١٦١٢)

٣ ـ الذهبي محمد بن أحمد (٧٤٨ هـ. ـ ١٣٤٧م.)

١ ـ تاريخ الإسلام

(مخطوطة أيا صوفيا ٣٠٠٦، وفيات سنة ١٨٠)

٢ ـ سير أعلام النّبلاء

(مخطوطة أحمد الثّالث ٢/٢٩١٠، ورقة ٢٣٨ آ ـ ب)

٤ ـ ابن مكتوم ، أحمد بن عبدالقادر (٧٤٩ هـ. ـ ١٣٤٨م.)
تلخيص أخبار النحويين المذكورين فى كتاب الإنباه
(مخطوطة دار الكتب ، تيمور ، تاريخ ١٠٦٩)

٥ ـ الصَّفَدى ، صلاح الدين خليل بن أيبك (٧٦٤ هـ. ـ ١٣٦٣ م.)
الوافى بالوَفَيات
(مخطوطة أحمد الثالث)

٦ ـ ابن قاضى شُهْبة ، أبو بكر بن أحمد (٨٥١ هـ. ـ ١٤٤٧ م.)
طبقات النحويين واللغويين
(مخطوطة الظاهرية بدمشق ، رقم ٣٤٦٨)

٧ ـ الحنبلى ، محمد بن عبدالله (كان حياً سنة ١٢٨٣ هـ. / ١٨٢٢ م.)
منتخب من بُغْية الوُعاة
(مخطوطة الآصفية بحيدر آباد ـ تراجم)

٢ ـ المصادر القديمة المطبوعة

١ ـ ابن قُتَيْبة الدِّينورى ، عبدالله بن مسلم (٢٧٦ هـ. / ٨٨٩ م.)
المعارف ، ص ٥٤٤
(ت : ثروة عُكاشة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٩م.)

٢ ـ ابن عبد ربّه ، أحمد بن محمد (٣٢٨ هـ. /)
العِقد الفريد ، ج٥ ص ٣٩٠ـ٣٩١
(ت : أحمد أمين ورفقاؤه . لجنة التأليف ، القاهرة ١٩٤٦م.)

٣ ـ الزَّجّاجى ، عبدالرحمن بن اسحاق (٣٣٧هـ. / ٩٤٨ م.)
١ ـ مجالس العلماء ، ص ٨ـ١٠
(ت : عبدالسلام هارون ، الكويت ١٩٦٢م.)

٢ - الإيضاح في علل النحو

(ت : مازن المبارك ط ٢، بيروت ١٩٦٢ م.)

٤ - أبو الطيب اللغوي، عبدالواحد بن علي (٣٥١ هـ./ ٩٦٢ م.)

مراتب النحويين، ص٦٥

(ت: محمد أبوالفضل ابراهيم، مكتبة نهضة مصر، القاهرة ١٩٥٥ م.)

٥ - السيرافي، الحسن بن علي (٣٦٩ هـ. / ٩٧٨ م.)

أخبار النحويين البصريين

(ت : كرنكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٣٦م.)

٦ - الأزهري، محمد بن أحمد (٣٧٠ هـ. / ٩٨٠ م.)

تهذيب اللغة. المقدمة ج١ ص١٩

(ت: عبدالسلام هارون. المؤسسة المصرية العامة، القاهرة ١٩٦٤م.)

٧ - الزُّبَيْدي، محمد بن الحسن (٣٧٩ هـ. / ٩٨٩ م.)

١ - طبقات النحويين واللغويين، ص٦٦-٧٤

(ت: محمد أبوالفضل ابراهيم. القاهرة ١٩٥٤م.)

٢ - الاستدراك على سيبويه

(ت: جويدي، روما ١٨٩٠)

٨ - العسكري، الحسن بن عبدالله (٣٨٢ هـ. /٩٩٢ م.)

المَصُون في الأدب، ص١١٩-١٢٠

(ت : محمد عبدالسلام هارون، الكويت ١٩٦٠م.)

٩ - المرزباني، محمد بن عمران (٣٨٤ هـ. / ٩٩٤ م.)

الموشح : ص ٢٤٧ (هجاء بشار له)

(المطبعة السلفية، ١٣٤٣ هـ.)

١٠ - ابن النديم، محمد بن اسحاق (بعد ٣٨٥ هـ./ ٩٩٥ م.)

الفهرست، ص٥٧

(ت : رضا تجدّد، طهران، ١٩٧١ م.)

١١ - الخطيب البغدادى ، أحمد بن على (٤٦٣ هـ. / ١٠٧١ م.)

تاريخ بغداد ١٢/١٩٥

(نشرة الخانجى، القاهرة ١٩٣١م.)

١٢ - ابن خير الإشبيلى ، محمد (٥٧٥ هـ. / ١١٧٩ م.)

فهرست ما رواه عن شيوخه

(ت : كوديرا، المكتب التّجارى، بيروت ١٩٦٨م.)

١٣ - ابن الأنبارى ، عبدالرحمن بن محمد (٥٧٧ هـ. / ١١٨١ م.)

١ - نزهة الألبّاء فى طبقات الأدباء ، ص٣٥-٣٩

(ت : عطيّة عامر، استكهولم، ١٩٦٣م.)

٢ - الإنصاف فى مسائل الخلاف

(ت : محمد محيي الدين عبدالحميد، القاهرة ١٩٥٣م.)

١٤ - ابن مَضاء القُرطُبى ، أحمد بن عبدالرحمن (٥٩٢ هـ. / ١١٩٦ م.)

الردّ على النّحاة

(ت : شوقى ضيف، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٤٧ م.)

١٥ - الحموى ، ياقوت بن عبدالله (٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م.)

معجم الأدباء، ١٦/١٤

(ط . الرّفاعى، القاهرة)

١٦ - القِفْطى ، علىّ بن يوسف (٦٤٦ هـ. / ١٢٤٨ م.)

إنباه الرّواة ج٢/٣٤٦-٣٦٠

(ت : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الكتب، القاهرة ١٩٥٢م.)

١٧ - ابن العديم ، عمر بن أحمد (٦٦٠ هـ. / ١٢٦٢م.)

الإنصاف والتّحرّى فى دفع الظّلم والتّجرّى

(فى : تعريف القدماء بأبى العلاء، ص ٥٤٠)

(دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٤٤م.)

١٨ ـ الحافظ اليغموري ، يوسف بن أحمد (٦٧٣ هـ / ١٧٣١ م)

نور القبس المختصر من المقتبس ، ص ٩٥

(ت : رودلف زلهايم ، ويسبادن ١٩٦٤م.)

١٩ ـ الذهبي ، محمد بن أحمد (٧٤٨ هـ. / ١٣٤٧م.)

دول الإسلام ص ٤٨

(ط : حيدر آباد ، ١٣٦٤ هـ.)

٢٠ ـ اليافعي ، عبدالله بن أسعد (٧٦٨ هـ. / ١٣٦٦ م.)

مرآة الجنان ٣٤٨/١

(ط . حيدر آباد الدكن)

٢١ ـ ابن كثير ، اسماعيل بن عمر (٧٧٤ هـ. / ١٣٧٢ م.)

البداية والنهاية ١٧٦/١٠

(مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٣٢م.)

٢٢ ـ الفيروزآبادي ، محمد بن يعقوب (٨١٧ هـ. / ١٤١٤م.)

البلغة في تاريخ أئمة اللغة ، ص ١٧٣

(ت : محمد المصري ، دمشق ١٩٧٣م.)

٢٣ ـ ابن الجزري ، محمد بن محمد (٨٣٣ هـ. / ١٤٢٩م.)

طبقات القرّاء

(ت : برجستراسر ، القاهرة ، ١٩٣٢م.)

٢٤ ـ الدلنجي ، شهاب الدين أحمد بن علي (٨٣٨ هـ. / ١٤٣٥م.)

الفلاكة والمفلوكون ، ص ١١٠

(نشرة مكتبة الأندلس ، بغداد ١٣٨٥ هـ.)

٢٥ ـ ابن تغري بردي ، يوسف (٨٧٤ هـ. / ١٤٦٩ م.)

النجوم الزاهرة ٩٩/٢

(ط . دارالكتب ، القاهرة)

٢٦ ـ السَّخاوى ، محمد بن عبدالرحمن (٩٠٢ هـ. / ١٤٩٦م.)

الإعلان بالتّوبيخ لِمن ذمّ أهل التاريخ ص ٤٣٢ـ٤٣٣

(ت : روزنتال ـ ترجمة صالح أحمد العلى ، بغداد ١٩٦٣م.)

٢٧ ـ السّيوطى ، عبدالرحمن بن أبى بكر (٩١١ هـ. / ١٥٠٥ م.)

١ ـ المزهر فى علوم اللغة ج٢ ، ص٤١٩ـ٤٢٣ ؛ ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٤٤ ، ٤٦٢

(ت : محمد أحمد جاد المولى ورفقاؤه ، ط ٢ ، البابى الحلبى القاهرة)

٢ ـ بُغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنّحاة ، ٢٢٩/٢ـ٢٣٠

(ت : محمد أبوالفضل ابراهيم ، البابى الحلبى ، القاهرة ١٩٦٥م.)

٢٨ ـ طاش كُبري زاده ، أحمد بن مصطفى (٩٦٨ هـ. / ١٥٦٠ م.)

مِفْتاح السعادة ، ١٥٣/١

(ت : كامل بكرى وعبدالوهاب أبوالنّور. القاهرة ١٩٦٨م.)

٢٩ ـ المَقّرى ، أحمد بن محمد (١٠٤١ هـ. / ١٦١٥ م.)

نَفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٧٩ـ٨٥

(ت : احسان عباس ، بيروت ١٩٦٨م.)

٣٠ ـ حاجى خليفة ، مصطفى بن عبدالله (١٠٦٧ هـ / ١٦٥٦ م)

كشف الظّنون عن أسامى الكتب والفنون ص ١٤٢٦

(ط . وزارة المعارف ، استانبول)

٣١ ـ ابن العماد الحنبلى ، عبدالحىّ (١٠٨٩ هـ. / ١٦٧٨م.)

شذَرات الذّهب فى أخبار من ذهب ٢٥٢/١

(نشرة حسام الدّين القدسى ، القاهرة)

٣٢ ـ البغدادى ، عبدالقادر بن عمر (١٠٩٣ هـ. / ١٦٨٢م.)

خِزانة الأدب ١٦/١ـ١٨

(ت : عبدالسّلام هارون ، القاهرة ١٩٦٧م.)

٣٣ ـ الزَّبيدى ، مرتضى ـ محمد بن محمد (١٢٠٥ هـ. / ١٧٩٠ م.)
تاج العروس من جواهر القاموس ، ص٣٠٥ ، مادة « سيب »
(مط . الخيرية ، مصر ١٣٠٦ هـ.)

٣٤ ـ الخوانسارى ، محمد باقر الموسوى (١٢٢٦هـ. / ١١٨١م.)
روضات الجنّات فى أحوال العلماءِ والسّادات ، ص٥٠٢
(ط . إيران)

٣ ـ المعاجم الحديثة

٣٥ ـ سركيس ، يوسف (١٩٢٣ م. / ١٣٥١ هـ.)
معجم المطبوعات العربيّة والمعربة : ١٠٧٠/١

٣٦ ـ الزِّرِكْلى ، خير الدين
الأعلام ٢٥٢/٥
(الطبعة الثّالثة ـ بيروت)

٣٧ ـ كحّالة ، عمر رضا
معجم المؤلّفين ١٠/٨

٤ ـ عن المخطوطات

٣٨ ـ بروكلمن ، كارل (١٣٧٦ هـ. / ١٩٥٦م.)
تاريخ آداب اللغة العربية
الطّبعة الالمانيه : الذيل الأوّل ، ص ١٦٠
التّرجمة العربية ، تعريب عبد الحليم نجار ، ج ٢ ص ١٣٤ـ١٣٥
(دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٠م.)

٥ ـ الدّراسات الحديثة

مرتّبة حسَب تاريخ صدور الطّبعات التي رجعنا إليها

٣٩ ـ برجستراسر ، ج (١٣٥٢ هـ / ١٩٣٣ م.)
التطوّر النّحوى للغة العربية
(مطبعة السماح ، القاهرة ، ١٩٢٩م.)

٤٠ ـ خفاجى ، محمد عبدالمنعم
شواهد الكتاب لسيبويه (فى ذيل فصيح ثعلب)
(المطبعة النموذجية ، القاهرة ، ١٩٤٩م.)

٤١ ـ السيد ، عبدالرحمن
مدرسة البصرة النّحوية : نشأتها وتطوّرها
(القاهرة ، ١٩٤٩م.)

٤٢ ـ داغر ، يوسف أسعد
مصادر الدراسة الأدبية ١/١٠٣
(مط . دير المخلّص ، لبنان ، ١٩٥٠م.)

٤٣ ـ الأفغانى ، سعيد
فى أصول النّحو ، ص ٦٣ ، ٦٤
(مط . الجامعة السورية ، ط ١ ، ١٩٥١م.)

٤٤ ـ فوك ، يوهان
العربية : دراسات فى اللغة واللهجات .
تعريب عبدالحليم نجار
(مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ١٩٥١ م.)

٤٥ ـ ناصف ، على نجدى
سيبويه إمام النّحاة

(مطبعة . لجنة البيان العربى ، القاهرة ١٩٥٣م.)

٤٦ ـ بدوى ، أحمد أحمد

سيبويه : حياته وكتابه

(مكتبة نهضة مصر ، القاهرة)

٤٧ ـ جب ، هـ ، ا ، ر

خواطر فى الأدب العربى

فى كتاب المنتقى من دراسات المستشرقين ، للدكتور المنجّد ، ص ١٣٣ (القاهرة ، ١٩٥٥ م.) .

٤٨ ـ الأبراشى ، محمد عطيّة ، والتونسى ، أبو الفتوح

سيبويه

(فى المجموعة الأولى من تراجم أعلام الثقافة العربيّة . .) ص ٥ ـ ٧٢ وانظر المصادر المذكورة فى آخر البحث ففيها ما هو مهمّ

(مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ١٩٥٦م.)

٤٩ ـ أمين ، احمد (١٣٧٣ هـ. / ١٩٥٤ م.)

ضحى الإسلام . ج ٢ ص ٢٩١ـ٢٩٢

(ط . الخامسة ، مكتبة النهضة المصريّة ، ١٩٥٦م.)

٥٠ ـ المخزومى ، مهدى

١ ـ سيبويه .

(فى مجلة المعلم الجديد العراقيّة ، ج ٥ـ١٩/٩/١٩٥٦م.)

٢ ـ الكتاب لسيبويه

(فى مجلة كلية الآداب والعلوم ببغداد ، العدد الثانى . حزيران ١٩٥٧ م.)

٥١ ـ زيدان ، جرجى (١٣٣٤ هـ. / ١٩١٤ م.)

تاريخ آداب اللغة العربية . ج ٢ ص ١٣٢

(طبعة دار الهلال ، ومراجعة شوقي ضيف . القاهرة)

٥٢ - عوّن ، حسن

أوّل كتاب نحو في اللغة العربيّة

محاضرة الأستاذيّة

(مجلة كلّيّة الآداب بجامعة الاسكندرية ، المجلد ١١ (١٩٥٧م.) ديسمبر.

٥٣ - المبارك ، مازن

١ - الرُّماني النحوي في ضوء شرحه لِكتاب سيبويه

(دِمشق ، ١٩٦٣م)

٢ - النّحو العربي - العلّة النّحويّة (ط ٢ ؛ دار الفكر ١٩٧١ م .)

٥٤ - الحديثي ، خديجة

١ - أبنية الصرف في كتاب سيبويه

(بغداد ١٩٦٥م.)

٢ - كتاب سيبويه وشروحه

(بغداد ، ١٩٦٧م.)

٥٥ - هارون ، عبدالسّلام

مقدّمة الجزء الأوّل من كتاب سيبويه ص٣—٦٠

(دار القلم ، القاهرة ١٩٦٦م.)

٥٦ - ضيف ، شوقي

المدراس النّحويّة ، ص ٦٣ : ٦٤

(المعارف ، القاهرة ١٩٦٨م.)

٥٧ - الطّنطاوي ، محمد

نشأة النّحو وتاريخ أشهر النّحاة

الطبعة الثانية مع تعليقات: عبدالعظيم الشناوي ، ومحمد عبدالرحمن الكردي . ص ٦٦ وما بعدها

(القاهرة ، ١٩٦٩ م.)

٥٨ ـ النفّاخ ، أحمد راتب
فهرس شواهد سيبويه : شواهد القرآن والحديث والشّعر
(دار الإرشاد ، بيروت ، ١٩٧٠م .)
٥٩ ـ مدكور ، إبراهيم بيومى
فى اللغة والأدب : منطق أرسطو والنّحو العربى ص ٤١ ـ ٥٣
فى سلسلة اقرأ . رقم ٣٣٧ ـ (دار المعارف القاهرة ، ١٩٧٠ م .)
٦٠ ـ الأنصاى ، أحمد مكى
١ ـ الموزانة بين المناهج البصريّة
(حوليّات كلّيّة الآداب ، مجلد ٢٤ ، ج ٢ ديسمبر ١٩٦٢ م .)
٢ ـ أبو زكريّا الفرّاء ومذهبه فى النّحو واللغه
(القاهرة ، ١٩٦٤م .)
٣ ـ سيبويه والقراءات
(القاهرة ، ١٩٧٢م .)
٤ ـ المعارضة الصريحة للقراءات عند سيبويه
(مجلة جامعة القاهرة بالخرطوم ، العدد ٣ ، ١٩٧٢م .)
٥ ـ الدّفاع عن القرآن ضدّ النحويين والمستشرقين
(القاهرة ، ١٩٧٣ م .)
٦١ ـ كحّالة ، عمر رضا
اللغة العربية وعلومها
(دمشق ، ١٩٧١ م .)
٦٢ ـ عمر ، أحمد مختار
البحث اللغوى عند العرب ، الفصل الثالث ص ٩٤
(القاهرة ، ١٩٧١ م .)
٦٣ ـ السّعدى ، جاسم
الدّراسات النّحوية واللغوية ومنهجها التعليمى فى البصرة فى القرن الثّالث (بغداد ، ١٩٧٣م .) .

ب ـ مَخطوطات «كتاب سيبويه»

في العَالم

مع ملاحظات على طبعة «الكتاب» الأخيرة

تمهيد

كتاب سيبويه صَرْحٌ مُفْرَدٌ فى تراثنا العربى، لا يُعادله فى شأنه أيّ كتاب آخر. فهو على قول السّيرافى: «لم يسبقه إلى مثله أحد قبله، ولم يلحق به مَنْ جاء بعده». لقد شاد سيبويه بنيان النّحو العربى، بفكر عبقرىّ، واطّلاع واسع، واستقراء شامل. وما زال النُّحاة منذ اثنى عشر قرناً عيالاً عليه، يأكلون من مائدته، و يرجعون إلى ما خطّه ورسمه فلا يأتون بجديد.

وقد شغل «الكتاب» علماء المسلمين فى القرون الماضية، فشرحوه، أو اختصروه، أو اعترضوا على بعض ما فيه، أو دافعوا عنه. وعُنى المستشرقون ـ قبل العرب والمسلمين ـ بطبعه وتحقيق نصّه. فقد ظهرت أوّل طبعة منه فى باريس بعناية المستشرق ديرنبورغ عام ١٨٨١ م. ثمّ توالت طبعاته فى الهند و مصر. لكن هذه الطبعات «المشرقية» لم تبلغ حدّ الإتقان، فطبعتا مصر البولاقية والهارونية هما، فى الأساس، عالة على طبعة ديرنبورغ، مع قليل من التّصحيح أو التّحسين.

ففى سبيل التمهيد لطبعة علمية جديدة متقنة: لكتاب سيبويه، رأيت أن أخصّ بحثى بأصوله المخطوطة المعروفة فى العالم، التى ينبغى الرجوع إليها، و ذلك ممّا أتيح لى الإطّلاع عليه أثناء تطوافى بين مكتبات العالم، أو ما أُحطتُ به علماً من زملائى، وأردفت ذلك بملاحظاتى على طبعة «الكتاب» الأخيرة.

المخطوطات

انّ المخطوطات المعروفة من كتاب سيبويه هى على ثلاثة أقسام :

١ ـ مخطوطات معروفة استخدمت فى طبعات الكتاب المختلفة .

٢ ـ مخطوطات ذكرها بروكلمن .

٣ ـ مخطوطات جديدة لم يذكرها بروكلمن ولم يُرجَع إليها فى تحقيق النّصّ .

القسم الأوّل

انّ أوّل طبعة لكتاب سيبويه وهى طبعة المستشرق درنبورغ التى صدرت فى باريس عام ١٨٨١ و ١٨٨٩ م. كانت تعتمد على المخطوطات التالية :

١ً ـ مخطوطة باريس ، رقم ١١٥٥ ، ليس عليها تأريخ النّسخ ، و رجّح ديرنبورغ أنّها ترجع إلى منتصف القرن الثامن الهجرى.

٢ً ـ نسخة المتحف الآسيوى فى بطرسبرغ رقم ٤٠٣ . تاريخ نسخها سنه ١١٣٨هـ.

٣ً ـ نسخة المكتبة الامبراطورية العامّة فى بطر سبرغ ، رقم ١٦١ . لم يذكر تاريخ نسخها .

٤ً ـ نسخة مكتبة فينا رقمها ٧٦٩ ، فيها الثّلث الأخير من الكتاب . لم يذكر تاريخ نسخها .

٥ً ـ نسخة دار الكتب المصرية ١٣٩ نحو قال: ربما رجع خطّها إلى القرن الثالث. الجزء الأوّل فقط .

٦ً ـ نسخة دار الكتب المصرية . رقم ١٤٠ نحو . وهى حديثة .

٧ً ـ نسخة دار الكتب المصرية . رقم ١٤١ نحو ، كتبت سنة ١١٣٩ هـ .

٨ً ـ نسخة الاسكوريال الثانية ، كتبت بخط مغربى . لايذكر تاريخ نسخها .

٩ - مخطوطة اعتمد عليها ناشر الطبعة الثانية من الكتاب الأستاذ كبير الدين أحمد. وقد صدرت فى كلكتة سنة ١٨٨٧ م. يقول الأستاذ هارون: لها أصل مستقل لم يعرف. قلت: لعلّه اعتمد على إحدى مخطوطات الهند.

١٠ - مخطوطات اعتمد عليها ناشر الطبعة الثالثة من «الكتاب» - أعنى طبعة بولاق الصادرة سنة ٣١٦ - ١٣١٨ هـ. (١٨٩٨ - ١٩٠٠ م.)، لعلّها مخطوطات دار الكتب المصريّة. لكن هذه الطبعة اتخذت طبعة ديرنبورغ أصلاً لها.

١١ - والطبعة الأخيرة الرّابعة هى بتحقيق العالم الاستاذ عبدالسلام هارون. اتخذت أصلاً لها المخطوطة ٦٥ نحو م، الموجودة بدار الكتب. وصفها الأستاذ هارون فقال: «مجهولة الكاتب والتاريخ». ولم يحدّد تاريخ كتابتها على وجه التقريب، بالإستناد إلى خطّها أو ورقها، ولا ذكر المزايا التى دفعته إلى اتّخاذها أصلاً.

وبعد أن مضى فى التحقيق ظهر له أن المخطوطة رقم ١٤١ نحو الموجودة بدار الكتب أصحّ من أصله الأوّل. فاعتمد عليها. وهذا يدلّ على أنّه لم يدرس المخطوطات الموجودة قبل البدء بالتّحقيق. والمخطوطة رقم ١٤١ هى التى اعتمد عليها ديرنبورغ. وقد كتبت سنة ١١٣٩ هـ. فهى مخطوطة حديثة نسبياً.

١٢ - ورجع الأستاذ هارون أيضاً إلى مخطوطة بدار الكتب رقمها ١٢ نحو ش، وهى حديثة جدّاً، كتبت سنة ١٣٠٥ هـ.

وكذلك رجع إلى المخطوطات التى انتفع بها من قبله المستشرق ديرنبورغ. أى: المخطوطة ١٣٩ م نحو. التى قال عنها الأستاذ هارون: «الانتفاع بهذه النسخة جدّ عسير، ولا تصلح لغير الاستئناس، وأنّها أوراق متناثرة، بخطوط مختلفة، بعضها أحدث من بعض، فيها كثير من القفزات...» (مقدمة هارون، ص ٥٥، ٥٦).

والمخطوطة ١٤٠ نحو، وهى نسخة حديثة أيضاً.

القسم الثانى

ماذكره بروكلمن من المخطوطات (الأصل ١ ص ١٠٠ - الذيل الأوّل ص ١٦٠، ٤٩٥).

١ - نسخة فى الموصل رقم ٢٥٢
٢ - نسخة فى مشهد
٣ - نسخة فى باتنة (الهند) رقم ١٥٩٦

القسم الثّالث

ما عرفناه من المخطوطات ولم يذكره بروكلمن .

١ - مخطوطة كتاهية (مكتبة كتاهية - وحيد باشا) بتركيا، رقم ١٤٨٤ من أوّل الكتاب إلى الجزء الثّانى.

فى آخر الجزء الأوّل : « تجز الجزء الأوّل من كتاب سيبويه ، وهو عشر الكتاب بخط عبدالله بن عيسى بن عبيدالله المرادى الأندلسى ، المتوطن بدمشق فرغ من كتابتها فى ربيع الآخر سنة أربع وثمانين وخمسماية (٥٨٤هـ) » .

وهى فى ١٧٠ ورقة .

٢ - مخطوطة كوبرولى ، استانبول ، رقم ١٥٠٠ ، من القرن السّابع الهجرى ، وهى رواية الرّباحى . وعلى أطرافها هوامش ثمينة جداً . وهى فى ٤٦٧ ورقة .

٣ - مخطوطة مراد مـلا ، رقم ١٧١٧ . بخطّ مغربى مشكول . قوبلت وصُحّحت . كتبها عبدالرحمن بن عبدالعزيز السّعدى المرّاكشى ، وفرغ من كتابتها لستة عشر خلون من ذى الحجة لسنة خمس وستماية . وهى فى ١٥٨ ورقة .

٤ - مخطوطة شهيد على ، استانبول ، رقمها ٢٤٦٧ . كتبت سنة ٦٤٥ هـ . وجاء فى آخر الجزء الثانى : تم الجزء الثانى من كتاب سيبويه رحمه الله ، و فرغ من زبره عتيق بن أبى بكر بن على بن المظفّر النّحوى القرشى . . وذلك سلخ جُمادى الآخرة من سنة خمس وأربعين وستمئة بمحروسة البصرة حامداً لله ربّ العالمين ...

٥ - مخطوطة حكيم أوغلو - استانبول . رقمها ٨٩٧ . كتبت سنة ١١١٩ هـ . أوّلها : قرأتُ على ابن ولّاد . .

آخرها :

تمّت كتابة سيبويه ... وصار بالحسنى مُوَفَّى
لسنى تسعٍ بعد عشرٍ ... قد تلت مائةً وألفا
بيد الفقـــيرِ لـربّه ... عبدِ اللطيف يروم لُطْفا
للسيّدِ المـــولى الذى ... قد حاز نوراً ليس يُطفا
صدرِ القضاةِ محمـــدٍ ... نسلِ الرّضَى طه المُصطَفَى

٦ ـ مخطوطة جامعة برنستن، مجموعة يهودا، رقم ١٣٣٣

أوّلها : قال أبوعبدالله محمد بن يحيى : قرأتُ على ابن ولّاد . . .

آخرها : نُقِل النّصف الثّانى منه من خطّ ابن يَعيش، والنصف الأوّل من نسخة قديمة ومن نسخة بخطّ ابن بَرّى . وكتبه الفقير عبدالله بن زين الدين بن أحمد البصروى الشافعى الأشعرى الدّمشقى .

وكاتب النسخة عالم دِمشقى معروف، توفى سنة ١١٧٠ هـ . (أنظر كتابنا : المؤرّخون الدّمشقيون فى العهد العثمانى : ص ٧٠)

٧ ـ مخطوطة خزانة الأوقاف ببغداد . ذكرها المرحوم الدكتور أسعد طلس فى الكشّاف برقم ٢٥٢٦ (ص ١٨٧) وقال : نسخة نفيسة عتيقة . ولم يذكر تاريخ نسخها .

٨ ـ نسخة فى أسبارطة (تركيا) . مكتبة خليل حامد باشا ، رقم ١٦٦٨ كتبت سنة ١١٦٥ . ٤٠٣ ورقات

٩ ـ نسخة فى نَوْشَهر (تركيا) رقم ٢٢٣ ، كتبت فى القرن الثّانى عشر ٢٢٦ ورقة .

فهذه تسع مخطوطات من الكتاب لم يذكرها بروكلمن .

وقد يكون هناك أيضاً مخطوطات أخرى، لم نحط بها علماً ، ستظهر مع الأيّام .

قيمة الطّبعة الأخيرة من « الكتاب »

انّ قواعد تحقيق النّصوص توجب على المحقّق أن يعرف أماكن وجود نسخ المخطوط

المراد تحقيقه . وأن يحاول دراسة خصائص هذه النّسخ و مزاياها و عيوبها قبل المضى فى التحقيق ، ليُتاح له اختيار الأصل الذى يجب أن يعتمد عليه . أو بعبارة أخرى ، ليجد النسخة الأمّ . وفى اختيار الأصل يجب :

١ - تقديم أقدم النسخ على حديثها ، لأنه كلّما قَدُم الأصل المعتمد عليه قلّ الخطأ فيه ، لأنّ الخطأ إنّما يأتى من التصحيف والتحريف اللذين يقع فيهما النّاسخون الماسخون .

٢ - أو النُّسخ التى كتبها أحد العلماء ولو كانت متأخّرة عن نسخة المؤلّف نفسه ، أو عن نسخة قديمة قوبلت على الأصل . .

فإذا رجعنا إلى الطبعة الأخيرة من « الكتاب » نجد أن المحقّق :

لم يدرس جميع مخطوطات « الكتاب » الموجودة فى المكتبات قبل البدء بعمله .

ولم يعتمد على أصل قديم لكتاب سيبويه .

ولم يعارض الأصل الذى اتّخذه أساساً بمخطوطات قديمة مقابلة على نصّ المؤلّف .

فالنسخة التى اتّخذها أصلاً كتبت سنة ١١٣٩ هـ . والنسخ التى عارض بها أصله هى « حديثة » أو كتبت سنة ١٣٠٥ هـ ، أو « لا تصلح لغير الاستئناس » . . . وكلّها لا تصلح لإخراج طبعة علمية من الكتاب . (أنظر فوق ، ص ٥)

فعلى ضوء ما ذكرناه من مخطوطات كتاب سيبويه ، و بينّاه من تواريخ نسخها نرى أنّه ليس من المقبول أبداً أن يُتّخذ فى نشر مثل هذا الكتاب أصلاً مملوءاً بالتّحريف ، كما يبدو من الهوامش التى جاءت فى الطبعة ، و تُترك أصول قديمة معتبرة أشرنا إليها ، كمخطوطة كوتاهية المكتوبة سنة ٥٨٤هـ . أو مخطوطة كوبرولى المكتوبة فى القرن السابع ، أو مخطوطة مراد مـلا المكتوبة سنة ٦٠٥ هـ ، أو مخطوطة برنستن المنقولة من خط عالمين كبيرين هما ابن برّي وابن يَعيش .

فكتاب سيبويه ذو شأن كبير فى تراثنا ، وليس شأنه كشأن أىّ كتاب آخر ، ولابدّ من البحث عن أصول قديمة موثوق بها عند نشره . ولا يجوز التّساهل فى نشره بالاعتماد على أصل حديث .

ولقد رجع الأستاذ المحقّق إلى بعض شروح «الكتاب» ، وفي عمله هذا أيضاً يبحث عن الأصول القديمة المعتبرة .

فأقدم نسخة من شرح السيرافى موجودة فى مكتبة أحمد الثالث برقم ٢٦٠١ ، وهى مكتوبة سنة ٤٤٣ هـ . ولم يرجع إليها .

وهناك مخطوطة أخرى كتبت سنة ٦٠٤هـ . لكنّها منقولة عن خطّ السيرافى نفسه ، وقد قوبلت على الأصل وصُحّحت ، وهى فى شهيد على رقم ٢٤٦٦ .

و شرح البَطَلْيَوْسى الصفّار توجد منه نسخة فى كوبرولى برقم ١٤٩٢ كتبت فى القرن السّادس ، وهى أكمل وأقدم من القطعة التى اعتمد عليها من دار الكتب (٩٠٠ نحو) .

وشرح الشَنْتَمْرى المطبوع فى طبعة بولاق ، عن نسخة قال عنها الأستاذ هارون « مفعمة بالتحريف » ، يوجد منه نسخة قديمة ، فى عاشر أفندى . كتبت سنة ٥٧١ هـ .

فعند وجود هذه الأصول القديمة ، لا يجوز نشر كتاب سيبويه على الشكل الذى ظهر فيه .

وهناك أمر آخر . فقد أشار الأستاذ المحقّق فى هوامشه إلى بعض شروح الكتاب وأهمل بعضها الآخر .

وكان المنهج الصحيح يقضى بأن يتّبع أحد طريقين :

١ ـ إمّا أن ينشر النّص وحده محقّقاً .

٢ ـ أو أن ينشر النّص ويذيّله بجميع الشروح المعروفة الموجودة ، فلا يكتفى بشروح السيرافى والصفّار والشنتمرى ، بل يضيف إليها : شرح أبى نصر هارون بن موسى المتوفى سنة ٤٠١هـ . ، الموجود فى المتحف البريطانى ، وشرح الحسن بن على الواسطى المتوفى سنة ٦٩٩هـ . ، الموجود فى كوبرولى رقم ١٤٩٢ ، وشرح ربيع بن محمد بن منصور الكوفى الموجود فى ينى أحمد خان برقم ١٠٦٤ ، لأنّ فى كلّ شرح ما لا يوجد فى غيره . وعندئذ يكون عمله كاملاً متقناً لا شائبة فيه .

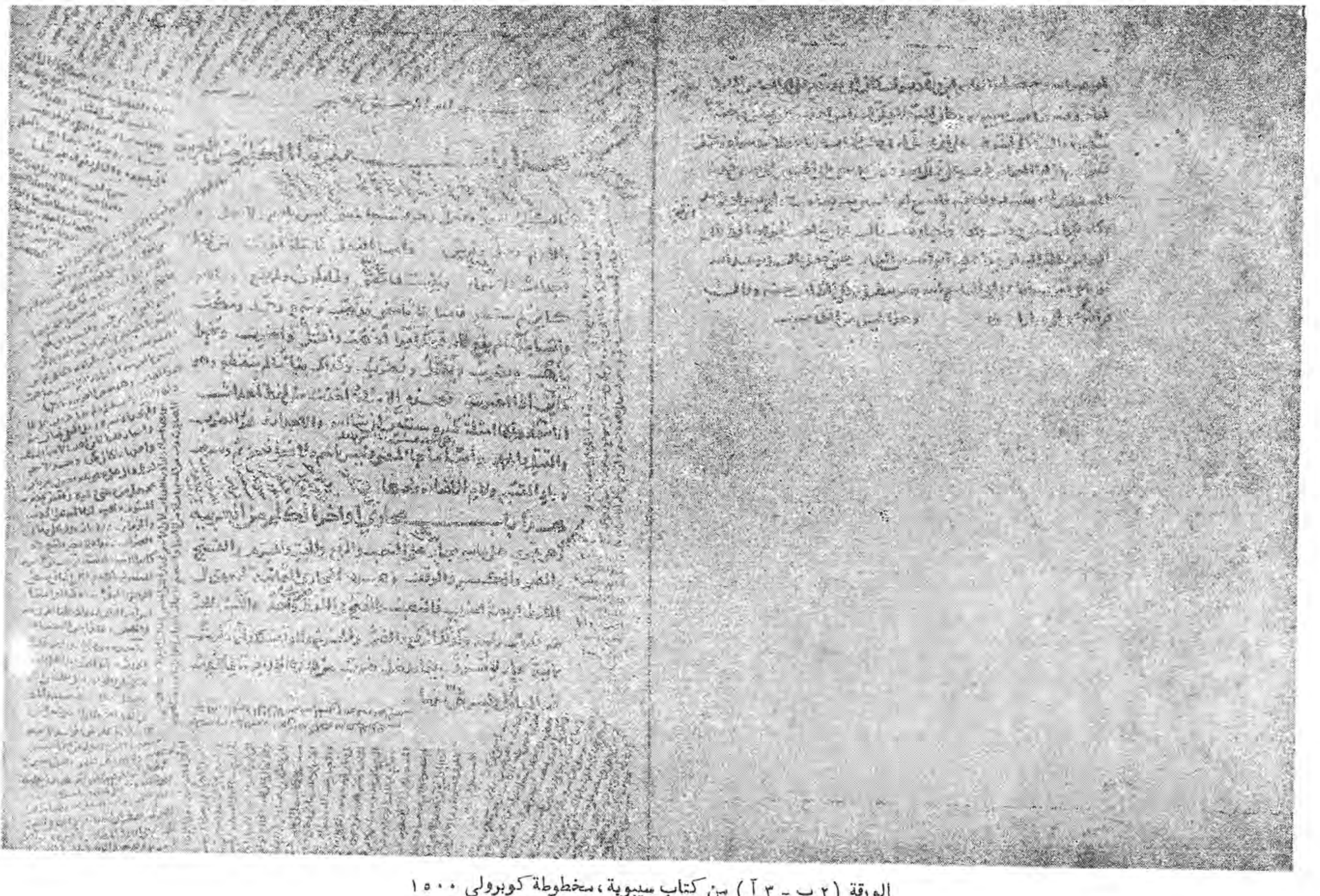
فمّا ذكرنا نرى أنّنا ما زلنا بحاجة إلى طبعة علمية متقنة اتقاناً تامّاً لكتاب سيبويه ، تعتمد على الأصول القديمة الموثوق بها ، تبتعد عن الغاية التجارية ، وترتفع بحقّ إلى مستوى «سيبويه العظيم» .

أنموذجات

من مخطوطات «كتاب سيبويه»

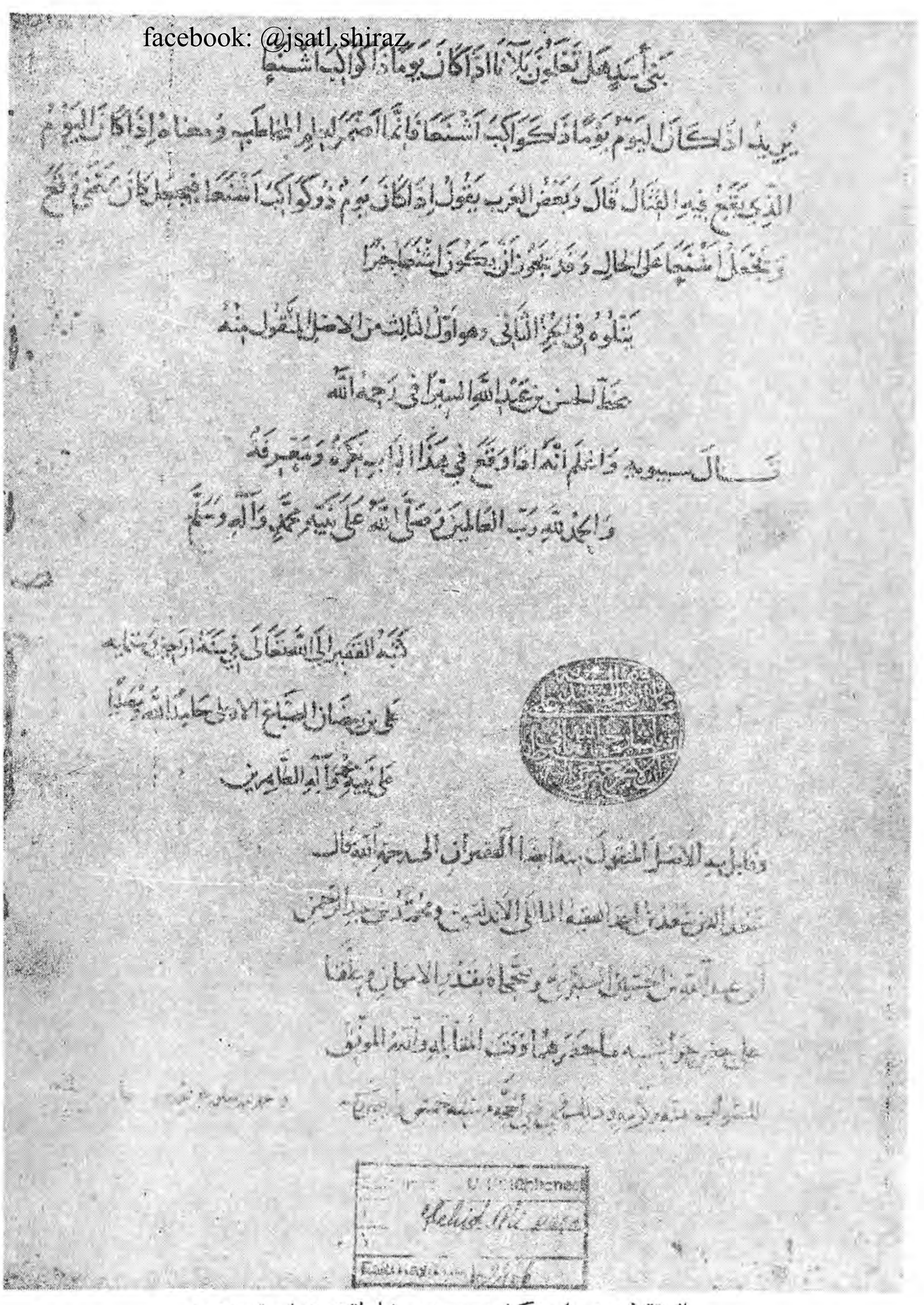
facebook: @jsatl.shiraz

facebook: @jsatl.shiraz



الورقة (٢ ب - ٣ آ) من كتاب سيبويه، مخطوطة كوبرولي ١٥٠٠

facebook: @jsatl.shiraz



بني أسدٍ هل تعلمون بلاءنا إذا كان يوماً ذا كواكب أشنعا

يريد إذا كان اليوم يوماً ذا كواكب أشنعا فإنما أضمر لعلم المخاطب ومعناه إذا كان اليوم الذي يقع فيه القتال قال وبعض العرب يقول إذا كان يومٌ ذو كواكب أشنعا فيجعل كان بمنزلة وقع ويجعل أشنعا على الحال وقد يجوز أن يكون أشنعا خبرا

يتلوه في الجزء الثاني وهو أول الثالث من الأصل المنقول منه

خط الحسن بن عبد الله السيرافي رحمه الله

قال سيبويه واعلم أنه إذا وقع في هذا الباب نكرة ومعرفة

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبيه محمد وآله وسلم

كتبه الفقير إلى الله تعالى في سنة [illegible]

علي بن رمضان [illegible] حامداً لله ومصلياً

على نبيه محمد وآله الطاهرين

الورقة (١٥٧ ب) من كتاب سيبويه ، مخطوطة شهيدعلي رقم ٢٤٦٦

facebook: @jsatl.shiraz



الورقة (٢١٨ ب) من كتاب سيبويه ، مخطوطة شهيد علي رقم ٢٤٦٨

facebook: @jsatl.shiraz



الطيّب البكّوش
الجامعة التّونسيّة
(دار المعلّمين العُليا)

النّظريّات الصّوتيّة في كتاب «سيبويه»

عندما نُطالع كتبا تبحث في تاريخ العلوم اللّسانيّة ، ولاسيّما العلوم الصّوتيّة منها فإنّنا لانكاد نعثر فيها على أثر لِما خلّفته الحضارة العربيّة الإسلاميّة من تُراث في هذا المجال ، في حين انّه تُراث يكون من الإنصاف إبراز قيمته العلميّة والتّاريخيّة .

و إذ تذكر جُلّ الكتب[1] أنّ أشهر النّصوص المعروفة في مجال الوصف الصّوتي ، و ربّما أقدمها أيضا ، ترجع إلى « بانيني Panini » الهندي (ق٥ ق.م.) ، و هو الذي ضبط في كتابه الثّماني نحو السّنسكريتيّة و خصائصها الصّوتيّة بدقّة كُبرى ، باعتبارها اللغة الّتي ضمّت كتب « الفيدا » المقدّسة ، فإنّ هذه المؤلّفات الغربيّة تذكر بعد ذلك ما خلّفه «اليونان» و «الرّومان» و قد يتخلّل ذلك إشارة إلى التّفكير اللّغوي العبري[2] إلّا انّها تقفز بعد ذلك قفزة رائعة إلى العصور الحديثة ، مبرزة بذلك فراغا يدوم قرونا ، والحال انّ الحضارة العربيّة الإسلاميّة قد ملأت ذلك الفراغ بآثار زاخرة وتفكير لغوي ثريّ عميق .

---

(١) نكتفي بذكر كتاب حديث نسبيّا على سبيل المثال :

G. Mounin : Histoire de la linguistique, PUF, coll. Sup, le linguiste, Paris 1970, 226p. p 67-68.

(٢) نفس المصدر : ص ٨٥ .

و إذا كان العذر الأساسي - بغضّ الطّرف عن الدّوافع الذّاتيّة المتباينة - هو الجهل بهذا التّراث ، فانّ ما يلفت الإنتباه و يدعو إلى الإستغراب هو أنّ مؤرّخي اللّسانيّات لم يستغلّوا بتاتا الأعمال الهامّة الّتي خلّفها في هذا الصّدد عدد كبير من المستشرقين ، و لا سيّما الا لمان منذ القرن التّاسع عشر ، نذكر منهم على سبيل المثال دون الحصر[1] « فالين Wallin » ، و « فولارس Vollers » ، ثم خاصّة في بداية القرن العشرين « شاده Schaade » صاحب كتاب «علم الأصوات عند سيبويه».

و من الطبيعي أن يكون اهتمام المستشرقين قد اتّجه أوّلا إلى « سيبويه » ، فكتابه أوّل كتاب[2] مصنّف في وصف قواعد اللّغة العربيّة حسب ما وصلنا .

و لئن كنّا نعلم أنّه أخذ عن أيمّة كبار و لا سيّما عن « الخليل بن أحمد » الّذي يذكره في « الكتاب » أكثر من خمسمئة مرّة ، فانّه يبقى صاحب الفضل في تنظيم قواعد العربيّة في كتاب مبوّب ضخم ، بقي إلى اليوم مرجعا أساسيّا رغم تقادم العهد .

ولئن تعرّض «سيبويه» إلى بعض النّواحي الصّوتيّة في غضون « الكتاب » ، مثل حديثه عن الهمز (٢/١٩٠ - ١٩٩) ، فإنّه قد خصّص قسما من « الكتاب » (٣٠ صفحه تقريبا) للمسائل الصّوتيّة . وانّ علاقة هذا القسم بسائر الكتاب ليست ظاهرة كلّ الظهور ف«سيبويه» لم يقدّم لهذا القسم و إنّما استهلّه مباشرة بقوله : « هذا باب عدد الحروف العربيّة و مخارجها ومهموسها ومجهورها وأحوال مجهورها ومهموسها واختلافها » (٢/٤٨٨) ثمّ بعد استعراض كلّ ذلك ختمه بعبارة هامّة سبقت استعراضه لأوجه

---

(١) انظر عرضا مفصّلا في مقدّمة كتاب « كنتنو » - J. Contineau, Cours de phonétiqne arabe Paris 1960) تعريب صالح القرمادي « دروس في علم أصوات العربيّة » نشريّات مركز الدّراسات و البحوث الإقتصاديّة و الإجتماعيّة ، الجامعة التّونسيّة ١٩٦٦ م .

(٢) الطبعة العربيّة الّتي اعتمدناها في هذه الدّراسة هي طبعة بيروت الثّانية ١٩٦٧م. الّتي تقع في جزئين (١=٥٨٢ ص . - ٢=٥٢٦ ص.) .

الإدغام وهي قوله «و إنّما وصفتُ لكَ حروف المعجم بهذه الصّفات لِتعرف مايحسن فيه الإدغام وما يجوز فيه ، و ما لايحسن فيه ذلكَ و لا يجوز فيه ، و ما تبدله استثقالا كما تدغم ، و ما تخفيه وهو بزنة المتحرّك» (٤٩١/٢) .

فهذهالعبارة تدلّ بوضوح علىإنّ محور هذاالقسم من«الكتاب» إنّما هوالإدغام، و إنّ كلّ ما قيل فى الحروف إنّما الهدف منه توضيح ظاهرة الإدغام الّتي تشغل أعظم جزء من هذا القسم الأخير من «الكتاب» .

و إذا لاحظنا انّ لفظ « الإدغام » و عدّة مظاهر من هذهالظّاهرة الّصوتيّة قد ذُكرت في مواطن عدّة من «الكتاب» ، ولا سيّما إدغام المتّصلين ، فإنّنا نتَساءَل عن أسباب تخصيص قسم كبير في آخر «الكتاب» للإدغام .

أغلب الّظن انّ «سيبويه» لم يفكّر في ذلكَ من الأوّل ، و لم يضع هذا القسم في تخطيطه لـ«الكتاب » ، فتعرّض إلى الإدغام بصفة طبيعيّة عندما استعرض الحالات الّتي يلتقي فيها حرفان متماثلان أوّلها ساكن ، ولا سيّما فى نطاق الأفعال المضاعفة (مثل: مَدَّ ، يَمُدُّ) ، و سائر حالات التّضعيف (مثل: إفعلّ وفعّل و تفعّل الخ . . .)

ولكنّ «سيبويه» قدلاحظ إنّ ظاهرةالإدغام تقع فيمواطن أعقدكما فيالمنفصلين (مثل: جعل لّكَ) ،وكذلكَ بالخصوص فيحالات إدغامالحروف غير المتماثلة ، والّتي تكون في الغالب متقاربة ، سواء اتّحدت مخارجها أو تقاربت أيضا (مثل: من لّكَ) . و انّ هاتين الحالتين هما اللّتان جعلتا «سيبويه» يشعر بالحاجة إلى إفراد قسم للإدغام في نهاية «الكتاب»كما انّ نوع العلاقة الّتي تربط الحروف بعضها ببعض هي التي جعلته يبدأ هذا القسم ببيان مخارج الحروف و صفاتها .

وهكذا فإنّ الخوض فيهذهالمسائل الّصوتيّة قدكان أمراًطارئا عرضا وقع وعي الحاجة إليه شيئا فشيئا بتقدّم الدّراسة النّحويّة ولا سيّما الّصرفيّة منها و بتعمّق الكاتب في تحليل أصولها و فروعها . و لم يحد الّذين أتوا بعد « سيبويه » عن منهجه كثيرا و إن حاولوا تنظيم المادّة أكثر مثلما فعل «الزّمخشري» (٥٤٨ هـ.) في «المفصّل»الّذي اختصر فيه «كتاب سيبويه» ونظّمه . فقد تعرّض إلى المسائل الّصوتيّة في قسم خاص في آخر

«الكتاب» سمّاه «المُشْتَرِك» أي مااشترك فيه الإسم والفعل والحرف أواثنان منهما . وليس في ايرادها في آخر «الكتاب» مايجعلها ثانويّة القيمة ، فهذا « ابن يَعيش» (٦٤٣ هـ .) يؤكّد في شرحه[1] للمفصّل انّ « هذا القسم الرّابع آخر أقسام الكتاب ، و هو أعلاها و أشرفها إذكان مشتملا على نُكت هذا العلم و تصريفه ، و أكثر النّاس يضعف عن الإحاطة به لغموضه ، و المنفعة به عامة» (٥٣/١٠) . فهذا العلم ليس إذا ذيلا هامشيّا و إنّما هو قِمّة هرم تقوم على ركائز ثلاث ، فلا تكون بداية و إنّما تكون نهاية .

و يمكن أن نقسّم المسائل الصّوتيّة الّتي عالجها « الكتاب » إلى قسمين كبيرين إذا نحن شئنا تناولها بمنهجيّة و مصطلحات حديثة دون أن يكون في ذلك مطلقا تحميل «الكتاب» مالايحتمل .

المجموعة الأولى من المسائل تدور حول «**وصف النّظام الصّوتي العربي**»

و المجموعة الثّانية تدور حول «**وصف تعامل الأصوات العربيّة**» .

ففي القسم الأوّل الخاصّ بالنّظام الصّوتي العربي ، نجد في « كتاب سيبويه » مجموعة من المسائل الهامّة التي يثيرها « سيبويه » بكامل الدّقة و الإيجاز و التي يمكن أن نرتّبها كما يلي مقتصرين على أهمّها .

١) عدد الحروف العربيّة .

يذكر «سيبويه» انّ « أصل حروف العربيّة تسعة و عشرون حرفا : الهمزة و الألف . . . و الواو» (٤٨٨/٢) .

ولايشير «الكتاب» هنا إلى أيّ رأي آخر في الموضوع في حين انّ «ابن يَعيش» يذكر في شرحه (١٢٦/١٠) اختلافات بعض النّحاة ، من ذلك انّ «أباالعباس المُبرِّد» بعدّها ٢٨ حرفا بإلغاء الهمزة منها .

و نكتفي هنا في تحليل هذه القضيّة بلفت النّظر إلى انّ «المبرِّد» ، لئن كان محقّا في العدد ، فانّه أخطأ التعليل و الحجّة ، لإنّ الهمزة حرف . ولكن «سيبويه» أيضا قد

---

(١) نشر إدارة الطّباعة المنيريّة بمصر - بدون تاريخ .

أخطأ ، فكانت حجج جماعته في تفنيد رأي المُبَرِّد أو هي . و نلخّص هنا أهمّ أسباب هذا الخطأ في النّقط التّالية :

- إطلاق لفظ «ألف» في نفس الوقت على «الألف الحرف» وهي الهمزة، وعلى «الالف الحركة» ، و هي ألف المدّ واللين ، أي الحركة الطويلة . و « ألف » هو اسمها تاريخيّا في «الآراميّة» وكذلك في «النّبَطيّة» التي أخذ العرب الخطّ عنها .

- رسم الهمزة « ألفاً » بصفة تاريخيّة إذا، دون تمييز في العادة بين الصّوتين أي الحرف و الحركة .

- إطلاق لفظ «حرف» على علامات المدّ في حين انّها حركات لا حروف وذلك لأنّ مدلول الحرف يشمل الحركات ولاسيّما انّ النّحاة العرب يعتبرون الحركات «أبعاض الحروف» كما حلّل ذلك جيّدا «ابن جنّي» (ق ١٠/٤) في « سرّ صناعة الإعراب» [1] (١٩/١) .

و انّ التّناقض الّذي وقع فيه « سيبويه » هنا ، يتمثّل في زيادة «الألف» دون «الواو» و « الياء » وهما أيضاً من علامات المدّ ، فكان يجب اعتبار حروف العربيّة ٢٨ بدون «الألف» أو ٣١ بزيادة «الواو» و«الياء» اذا كانتا مدّا، و إن كانت هذه الأصوات الثلاثة من النّظام الحركي لا الحرفي .

٢) مخارج الحروف العربيّة و صفاتها :

ذكر « سيبويه » للحروف العربيّة ١٦ مخرجا . و هذه المخارج مرتّبة من الحلق إلى الشّفتين[2]. و إذا كان الوصف الصّوتي اليوم يبدأ من الشّفتين إلى الحلق إنطلاقا ممّا يكون أسهل في الرّؤية ، فإنّ القُدامى جميعا منذ « الخليل » و « سيبويه » قد اتّبعوا هذا التّرتيب تماشيا ولا شكّ مع اتّجاه مجرى النّفَس إذ يعبر جهاز التّصويت .

---

(١) ط. ١ مصر ١٩٥٤. انظر تحليلي «نظريات ابن جنى» فى : « التصريف العربى من خلال علم الاصوات الحديث» (تونس ١٩٧٣ م).

(٢) « ء، ه، ا، ع ، ح ، غ ، خ ، ق ، ك ، ج ، ش ، ى ، ض ، ل ، ن ، ر ، ط ، د ، ت ، ز ، س ، ص ، ظ ، ذ ، ث ، ف ، ب ، م » (٤٨٨/٢-٤٨٩)

والغريب في ترتيب «سيبويه» للحروف انّه يخالف استاذه «الخليل» كثيرا دون أن يشير ولو بكلمة إلى ذلك . فقد كان «الخليل» يُخرج «الهمزة» من حسابه لوضعه إيّاها في مرتبة «الألف» و «الواو» و «الياء» ، و يبدأ بـ«العين» ثم «الحاء» . وهو على كلّ حال ترتيب خاطئ أصلحه «سيبويه» إصلاحا موفّقا جدّا لا يختلف عمّا يقدّمه علم الأصوات الحديث من ترتيب في الجملة .

ثمّ عدّد «سيبويه» صفات الحروف العربيّة ، فذكر منها ١٢ صفة و يمكننا أن نُرجع هذه الصفات إلى مجموعتين كُبْرَيَيْنِ :

١- المجموعة الأولى تتعلّق بصفات تدخل في علاقات ثنائيّة تقابليّة تجعل من هذه الصّفات في الغالب أزواجا تربطها علاقة تلازم و تكون إحداهما صفة إيجابيّة تسم الّصوت ، و الثّانية صفة سلبيّة تمثّل إنعدام الّصفة ، من ذلك خاصّة «الجهر» و «الهمس» و «الإطباق» و «الإنفتاح» . و يمكن أن نضيف إليهما «الشّدّة» و «الرّخاوة» وما بينهما و إن تميّزت هذه الّصفات الأخيرة بدرجة انفتاح الحاجز القائم في جهاز التّصويت .

على إنّنا تلاحظ في محاولة «سيبويه» تحديدَ «الجهر» و «الهمس» و «الشّدّة» و «الرّخاوة» و تحليل العلاقة بينها جميعا ، غموضا واضحا و تداخلا يجعل تعريفه لـ«المجهور» بأنّه «حرف أشبع الاعتمادُ في موضعه و مُنع النّفَسُ أن يجرى معه» (٤٨٩/٢) لا يختلف عن تعريفه للشديد بأنّه «الذي يُمنع الصوتُ أن يجرى فيه» (٤٩٠/٢) . و هذان التّعريفان المتماثلان ينطبقان على «الشّدّة» لا على «الجهر» . و لعلّ عجزه عن تعريف «الجهر» يرجع إلى جهل القُدامى بدور الوترين الّصوتيّين في ظاهرة «الجهر» . و لكن ذلك لم يمنع «سيبويه» من تمييز المجموعتين بكامل الدّقة باستثناء «الهمزة المهموسة» اذ عدّها «مجهورة» لاختلاطها في ذهنه بـ«الألف المجهورة» لأنّ كلّ الحركات مجهورة .

أمّا ما يوجد من اختلاف في وصفه بالنّسبة إلى مانعرفه اليوم من خصائص هذه الحروف كـ«القاف» و «الطاء» فإنّ ذلك ولاشكّ لا يرجع إلى خطأ و إنّما إلى تطوّر في نطق هذين الحرفين ، وكذلك الأمر بالنّسبة إلى «الجيم» التي تطوّرت ايضا كثيرا تطوّرا متنوّعا حَسَب الجهات .

أمّا وصفه لـ«الإطباق» فإنّه من أدقّ مايوجد في هذه الصّفحات ؛ و إنّ عبارته المشهورة : «ولولا «الإطباق» لصارت «الطّاء» «دالا» و«الصّاد» «سينا» و«الظاء» «ذالا» و لخرجت «الضّاد» من الكلام لأنّه ليس شيء من موضعها غيرها» (٤٩١/٢) لتبرز بوضوح شعوره بوظيفة هذه الصّفات التّمييزيّة و بالعلاقة التّقابليّة التي تربطها ، و هو ما أصبح اليوم من مشمولات علم «الفونولوجيا» أي علم وظائف الأصوات .

أمّا بقيّة الصّفات كـ«الإنحراف» لـ«اللّام» و«التكرير» لـ«الراء» و«الغنّة» لـ«الميم» و «النون» ، و «اللين» لـ«الواو» و «الياء» الخ . . . فهي ثانويّة تخصّ الأصوات البينيّة ، و هي التي وصفها «سيبويه» بأنّها بين الرّخوة والشديدة [1]

٣) الحروف الفرعيّة :

و هذه الحروف الّتي ضبط مخارجها وصفاتها هي الأصل . إلّا أنّه يذكر حروفا فروعا ، ستّة منها مستحسنة [2] لأنّها «يؤخذ بها و تستحسن في قراءة القرآن والأشعار» (٤٨٨/٢) و ثمانية غير مستحسنة [3] أو مستهجنة ، مسترذلة كما عبّر عنها «الزّمخشري» و «ابن يعيش» (١٠-١٢٦) .

و إنّ أبرز مانستنتجه من تحليلنا لهاتين المجموعتين من الأصوات دون دخول في التفاصيل أنّ المجموعة المستحسنة ترجع أساسا إلى اختلاف اللّهجات العربيّة من ناحية و إلى التغييرات الصّوتيّة الناتجة عن تأثير الجوار الصّوتي في السّلسلة الكلاميّة من ناحية أخرى ، ممّا يجعل كلّ صوت من هذه الأصوات الفرعيّة مجرّد عوض تعاملي للصّوت الأصلي .

---

(١) ع ، ل ، ن ، م ، ر ، و ، ي ، ا .

(٢) «النون الخفيفة» و«همزة بين بين» و«ألفا الإمالة والتفخيم» و«الشين» التي كـ«الجيم» و«الصاد» التي كـ«الزاي» .

(٣) «الكاف» التي بين «الجيم» و«الكاف» و «الجيم» التي كـ«الكاف» و «الجيم» التي كـ«الشّين» و«الضاد الضّعيفة» و«الصّاد» التي كـ«السّين» و «الطاء» التي كـ«التاء» و «الظاء» التي كـ«الثاء» و «الباء» التي كـ«الفاء» .

أمّا المجموعة المستهجنة فإنّها ترجع أساساً إلى تأثير النّطق الأعجمي و إلى اللهجات العاميّة الّتي بدأت تظهر منذ ذلك الوقت نتيجة تداخل اللغات و تفاعلها ؛ وهو ما يجعل هذه الفقرات من «كتاب سيبويه» ذاتَ قيمة تاريخيّة عُظمى بالنّسبة إلى من ينظر إلى اللغة نظرة تطوّرية زمانيّة لا نظرة تقعيديّة تقنينيّة إن لم نقل توقيفيّة .

ولا يسعنا إلّا أن نلاحظ في نطاق وصف للنّظام الصّوتيّ العربي نقصا يتمثّل في إهمال النّظام الحَرَكي العربي . فلئن كانت الحركات العربيّة الوظيفيّة ثلاثا فحَسب بالنّسبة إلى ما يقارب الثّلاثين حرفا (أي بنسبة العشر) فانّ أهمّيتها التّوزعيّة تفوق الأربعين في المئة في العربيّة .

و يجب انتظار القرن الرّابع مع « ابن جنّي » لنجد اهتماما أوسع بالحركات من حيث جروسها و وظائفها في «سِرّ الصّناعة» و في «الخصائص» .

ولاشكّ انّ طبيعةَ اللغةِ العربيّةِ الإشتقاقيّة ، والخطّ العربيّ الحرفيّ ، والفرق الكبير بين عدد الحروف و الحركات ، إلى جانب النّظريّة التي تعتبر الحركات متفرعةً عن «الواو» و «الياء» و «الألف» ، من الأسباب الّتي جعلت «سيبويه» يهمل الحركات في وصفه الّصوتي الذي امتاز في ما عدا ذلك بالدّقة والإيجاز في نفس الوقت .

أمّا المجموعة الثّانية من المسائل الّتي تدور حول تعامل الأصوات في العربيّة ، فقد تعرّض «سيبويه» إلى الكثير منها في غُضون «الكتاب» ولا سيّما في الجزء الثاني منه أثناء حديثه عن الإمالة والحذف والقلب وكذلك التّضعيف والإدغام لارتباط الظّاهرتين في الأفعال المضاعفة ولكن «سيبويه» قد عاد إلى الإدغام في القسم الأخير من «الكتاب» ليستوفي تعريفه و تحديده و يستكمل جوانبه المختلفة .

ولعلّه لاتوجد ظاهرة حلّلها «سيبويه» بتفصيل و دقّة مثلَ الإدغام ، حتّى انّه ليبدو محور دراسته الصوتيّة الذي تلتقي عنده بقيّة الظّواهر . وانّ تحليل كلّ التّفاصيل الهامّة التي تعرّض إليها «سيبويه» ليطول في هذا المقام بين إدغام المتماثلة والمتقاربة والمتّصلة و المنفصلة ، وما يمتنع من ذلك ومايجوز ، و ما يُستحسن وما يُستكره ، و ما عمّ قياسا وما شذّ استعمالا .

وانّ الفقرات العديدة التي خصّ بها «سيبويه» الإدغام، لتزخر بالآراء والملاحظات الهامّة التي تحتاج إلى تحليل عميق. و نقتصر هنا على الإشارة إلى بعضها مثل شعوره الواضح بأنّ الأصوات تتعاقب بصفة خطيّة بما في ذلك الحركات التي تتبع الحروف صوتيّا و ليست فوقها أو تحتها أو معها فتمثّل حواجز بين الحروف في حالات الإدغام. و من ذلك أيضا إلحاحهُ على تفاوت الحروف في القوّة ممّا يجعل بعض الحروف لاتدغم في غيرها وإنّما يدغم فيها لأنّ لها «فضلا» يَنتُجُ عن فقدانه بالإدغام «إجحافٌ» بها. وهذه نظريّة تحتاج الى تحليل طويل في ضوءِ علم الأصوات الحديث ولاسيّما قانون «قْرامون Grammont».

كما نجد عباراتٍ هامّة جدّا لاتخلو من الغرابة مثلَ قوله «لأنّ حرف المدّ بمنزلة متحرّك في الإدغام» (٤٩١/٢)، في حين انّ النّظريّة العامّة عند القُدامى هي أنّ حروف المدّ ساكنة لأنّها لاتحمّل الحركات. و في هذا تأثّر بالخطّ العربيّ [1] وغفلة عن أنّ المدّ حركة قبل كلّ شيء.

و انّ مثل هذه الآراء و العبارات كثيرٌ في «الكتاب» و لا يتّسع المجال لتعديدها فضلا عن تحليلها.

إلّا انّنا نريد أن نركّز الحديث في تحليل هذا القسم الثّاني على محوره الأساسي وهو الإدغام باعتباره أهمّ الظواهر التّعليميّة في «كتاب سيبويه»، و أن نحاول تحديد الإدغام كما يبدولنا في «الكتاب» مع مقارنته بمفهوم الإدغام عند علماءِ الأصوات المحدثين.

لايعرّف «سيبويه» الإدغام كمصطلح و لكنّه يذكر من العبارات و من الأنواع مايكفي لفهم المقصود به عنده.

من ذلك انّه يقابل دائما بين الإدغام والبيان أو الإظهار، ممّا يجعل الإدغام ضربا من الإخفاء الصّوتي.

---

(١) انظر تحليل هذه النّظرية في:
«الطّيّب البكّوش»، «التّصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث» (تونس ١٩٧٣ م، - ٢٠٠ ص. المقدمة)

كما انّه يخصّص فصلا لإدغام « الحرفين الّذين تضع لسانك لها موضعا واحدا لا يزول عنه» (٤٩١/٢) .

وهو مايجعل الإدغام عمليّة عضويّةنطقيّة قبل كلّ شيء فيها اقتصاد في المجهود وهي أن لا يرتفع الحاجز في جهاز التّصويت ويُخفض مرّتين و إنّما يرتفع مرّة واحدة أطولَ و أشدَّ ثمّ ينخفضُ ، و لا يكون ذلك إلّا في الحرفَين المثلين وهو التّضعيف. فإذا كان الحرفان مختلفين سبقت عمليّة الإدغام عمليّة قلب ليحصل التّماثل بين الحرفين و بذلك يبقى الإدغام عمليّة قائمة على التّماثل .

وقد بقي الّذين أتوا بعد «سيبويه» على تعليمه ، وأن ضبطوا المفهوم أكثر كمافعل « ابن يعيش » عندما عرّف الإدغام اصطلاحا بأنّه : «أن تصل حرفا ساكنا بحرف مثله متحرك من غير أن تفصل بينهما بحركة أووقف ، فيصيران لشدّة اتّصالها كحرف واحد يرتفع اللسان عنهما رفعة واحدة شديدة » (١٤/١٠) . فمن حيث تعامل الأصوات نلاحظ انّ الإدغام عند «سيبويه» و الجماعة يقوم أساسا على تماثل أصليّ وهو التّضعيف أو على تماثل ناتج عن قلب .

و يحسن هنا أن نقابل هذا التّحديد بتعريف المفهوم الصّوتي المقابل في علم الأصوات العام و هو «Assimilation» و الذى يُعرَّف بأنّه نزعة صوتين إلى التّقارب في المخارج أو الصّفات سواء تماثلا أو لم يتماثلا[1] . و واضح انّ الفرق بين المفهومين جوهرى :

ففي حين يدلّ المفهوم العصري على ظاهرة تعامليّة تقرّب بين الأصوات المختلفة يدلّ المفهوم العربي على ظاهرة نطقيّة تُدمِجُ الأصواتَ المتماثلة . ولايلتقي المفهومان إلّا في الحالة التي يصل فيها التقريب إلى التّماثل إلّا انّهما يتشاركان في الهدف و هو اجتناب الثّقل وفي الاختصار المجهود أى في الإقتصاد .

وهذه الفوارق هي الّتي جعلت الإدغام العربيّ مقصورا على الحروف بينما تشمل «assimilation» الحركات أيضا . و لا شكّ انّ هذا من الأسباب التي دفعت بعض

١- B. Malinberg, la phonétique. P. U. F - 1962 - Que sais - Je. 637- p. 69 .

الألسنيّين العرب المعاصرين إلى اختيار مصطلح آخر لترجمة «assimilation» مثل لفظ «مماثلة»[١].

فاتّساع مفهوم الإدغام من ناحية إذ يشمل التّضعيف، وضيقُه من ناحيه أخرى بالنّسبة إلى «assimilation» فلا يشمل التّقريب في الحروف والحركات، يجعله مصطلحا غير صالح للتّعبير عن الظاهرة التّعامليّة وإنّما هو صالحٌ للتعبير عن الظاهرة النّطقيّة. على انّ هذه المسألة في حاجة الى تحليل أطول.

و في ختام هذا العَرْض الموجَز لبعض النّظريّات الصّوتيّة الواردة في «كتاب سيبويه»، يحسن الإلحاح على أهمّية «كتاب سيبويه» التّاريخيّة و ذلك من ناحيتين:

تتمثّل الأولى في انّه أقدم نصّ وصلنا، يدلّ على المستوى الّذى بلغه علم الأصوات في عهده، بفضله هو و بفضل من سبقه من اللغويين. فلو لم يزد «سيبويه» على الجمع فالتّبويب لِما تعلّمه عن شيوخه لكفاه فضلا، و لكنّه ولا شكّ قد زاد من عنده بما يدلّ على تضلّعه و عبقريّته. فـ«الكتاب» حلقة هامّة في تاريخ علم الأصوات عند أهل العربيّة و عند سائر الأمم.

والناحية الثّانية هي انّ «الكتاب» وثيقة تاريخيّة لا تُضاهى في وصف ماكانت عليه اللغة العربيّة منذ أكثرَ من ألف عام، من حيث خصائصها الصّوتيّة العامّة واختلاف لهجاتها و اشكال استعمالها، وهو مالاغنى لنا عنه اليوم لنتبيّن مدى تطوّر هذه اللغة عبْر الزّمن، في مستواها الرّسمي «الفصيح» و مستوياتها العاميّة الحيّة المتنوّعة.

و رغم أهميّة «الخليل بن أحمد» و عبقريّته، و حضوره في «الكتاب»، فانّ «سيبويه» يبقى عن جدارة إمام اللغويّين فى تاريخ اللغة العربيّة.

الطّيّب البكّوش
أستاذ اللغة بدار المعلّمين العُليا
(الجامعة التّونسيّة)

---

(١) ابراهيم أنيس: «الأصوات اللغويّة» (مصر: ط ٤ - ١٩٧١ م.).



عباس خضر
(مصر)

« سيبويه » : شخصيّته و كتابه

شكرا لـ« ايران » ، هذا البلد الذى جمعتنا به أواصر القُربى ، منذ فجر الإسلام ، شكرا له مرّتين : أوّلا لأنّه أهدى إلينا - منذ انعقدت تلك الأواصر بينه و بيننا - رجالا من عظماء رجال الفكر فى تاريخ العالم خدموا الفكر الإسلامى العربى فى ميادين الأدب واللّغة والدّين والفلسفة ، منهم « سيبويه » الّذى يُقام هذا المؤتمر العلمى بمناسبة مرور اثنَى عشر قرنا على وفاته . وثانيا لإهتمامه بذكرى هذا الرّجل الّذى خدم اللّغة العربيّة و كان من الأساطين الّذين أثروا قواعدها ومباحثها وكان من أساتذة نحوها الأوّلين الّذين تتلمذت عليهم أجيال متعاقبة من علماء اللغة العربيّة إلى وقتنا الحاضر . وينفرد « سيبويه » بسمات خاصّة جعلته فى نظر الأمّة العربيّة الحارس الأوّل لقواعد اللغة العربيّة وصار اسمه ذا دلالة خاصّة على حراسة اللغة والغيرة عليها والغضب من أيّ سوء يمسّها ، ونظر إليه الجميع حتّى عامّة النّاس على تعاقب الأزمان حتّى هذا العصر ، على انّه المسؤول الأوّل عن صحّتها وسلامتها من اللّحن .

فالنّاس إذا سمعوا من يلحن فى اللغة قالوا : لقد أغضب « سيبويه » وأقلقه فى قبره ، وإذا رأوا رجلا نابها متبحّرا فى اللغة شبّهوه بـ« سيبويه » ، كأن يقولوا : انّه « سيبويه » زمانه أو خليفة « سيبويه » .

اسمه عربى ، فهو « عمرو بن عثمان بن قنبر » ، ولقبه فارسي وهو « سيبويه » وذكراه

ذات جذور فى وطنَيْه : «فارس» و«العراق» . . ولد بـ«البيضاء» ونشأوعاش بـ«البصرة» ثمّ مات فى «البيضاء» أوْ فى «شيراز» على اختلاف فى ذلك . قدم مِن موطنه الأوّل إلى موطنه الثّانى حَدثا صغيراً يطلب العلم العربى الإسلامى وكان همّه الأوّل طلب الحديث النّبوى ، فلزم أحد أستاذة الحديث بـ«البصرة» ، وهو «حَمّاد بن سَلَمة» وصار يكتب عنه ما يرويه له . وذات مرّة كانَ «حَمّاد» يُملى عليه حديثا فوقف «سيبويه» عند نطق أستاذه لكلمة فى الحديث ، فأراد أن يُنبّهه على صحّتها كما تراءى له ، فقال له الأستاذ : لحنت يا «سيبويه» . كبر على «سيبويه» أن يلحن ، فقال ، لِـ«حَمّاد» : سأطلب علما لاتلحننى فيه . ويعنى بهذا علم النّحو ، وكان «الخليل بن أحمد» أبرز أعلام هذا العلم فى ذلك الوقت ، فاتّجه إليه «سيبويه» ، ولزم درسه ، وصار أبرع تلاميذه ، ثمّ ألّف كتابه المشهور باسم «الكتاب» وهواسم يعرف به إذا أطلقت كلمة «الكتاب» دون سائر الكتب ، وقد ضمنّه كثيرا من علم «الخليل» مع مناقشات ذكيّة صارع فيها التلميذ الأستاذ .

ونستطيع أن نقف على بعض صفات «سيبويه» المعنويّة والمادّيّة ممّا روي عن بعض معاصريه من النّحويّين وغيرهم . قال «أحمدبن معاوية بن بكر العليمى» : «ذُكر «سيبويه» النّحوى عند أبى . فقال : «عمرو بن عثمان» ؟ فقد رأيته ، وكان حديث السّن كنت أسمع فى ذلك العصر أنّه أثبت من حمل عن «الخليل بن أحمد» ، وقد سمعته يتكلّم ويناظر فى النّحو ، وكانت فى لسانه حبسة ، ونظرت فى كتابه فعلمه أبلغ من لسانه» .

وقال «الأخفش» : «كان «سيبويه» إذا وضع شيئا من كتابه عرضه علىّ ، وهو يرى انّى أعلم منه ، وكان أعلم منّى» .

وقال «ابن عائشة» : «كنّا نجلس مع «سيبويه» النّحوى فى المسجد ـ وكان شابّا جميلا نظيفا ، وقد تعلّق من كلّ علم بسبب ، وضرب فيه بسهم ، مع حداثة سنّه وبراعته فى النّحو ـ فبينما نحن عنده ذات يوم إذ هبّت ريح أطارت الورق ، فقال لبعض أهل الحلقة : أنظر أيّ ريح هى ؟ ـ وكان على منارة المسجد تمثال فرس ـ فنظر ثمّ عاد فقال : مايثبت الفرس على شىء ، فقال «سيبويه» : العرب تقول فى مثل هذا : تذاءبت الرّيح ، أيّ فعلت فعل الذئب ليختل (يخدع) فيتوهّم النّاظر انّه عدّة ذئاب» .

ويضاف إلى ذلك ما قيل فى سبب تلقيبه بـ« سيبويه » - والكلمة معناها« رائحة التفاح » أو « ثلاثون رائحة » - ممّا يدلّ على انّه كان طيّب الرائحة .

ومن هذا النّصوص نستطيع ان نتمثّله شابّا نظيفا جميلا جادّا فى تحصيل العلوم والمعارف، طموحا إلى استكمال كلّ عناصر الشّخصيّة المثقفة الممتازة ، حريصا على أن يأخذ من كلّ شيء بطرف ويضرب فى كلّ علم بسهم .

وكانت حياته قصيرة عريضة ، فهو لم يجاوز الشّباب ، إذ مات فى الثّالثة والثّلاثين على أصحّ الأقوال ، وفى هذا العمر القصير فعل الكثير وخاصّة فى مجال تخصّصه وهو « النّحو » .

وكان طبيعيّا ألّا يشتهر فى حياته بمقدار ما اشتهر بعد مماته ، وهذا لقصر عمره من جهة ، ومن جهة أخرى لأنّ كتابه الّذى أودعه محصول عمره العلميّ لم يعرف على مدى واسع إلّا بعد وفاته ، ولم يدع له الأجل المحدود وقتا لكى يقرأه على النّاس وعلى تلاميذه حسبما كان متّبعاً فى ذلك العصر .

ويعدّ « كتاب سيبويه » إماما فى موضوعه ، ولم يضع له اسما معيّنا ، فصارت كلمة « الكتاب » له اسما لاتدلّ - إذا أطلقت فى مجال النّحو - إلّا عليه . كان يقال : قرأ فلان « الكتاب » فيُعلم انّه « كتاب سيبويه » ، أو فلان قرأ نصف « الكتاب » فلا يشكّ أحد انّه « كتاب سيبويه » ، كأنّهم يعدّونه وحده الجدير بأن يسمّى « الكتاب » ، وهو الأصل والمرجع الّذى لاغنى عنه .

وقد روى عن فقيدنا الكبير الدّكتور « طه حسين » أنّه قال : تعلّمت النّحو من « كتاب سيبويه » ، ومعنى هذا - على ما نتصوّر - انّ الدّكتور « طه » إنّما فهم دقائق النّحو وعرف أسرار هذا العلم على مستوى عال من قراءته لـ « كتاب سيبويه » ، لا انّه تعلّم منه النّحو ابتداء ، إذ انّ مستوى التّخصّصى العميق لـ « الكتاب » لايتيح لقارىء أن يتفهّمه إلّا إذا كان قد وقف على قاعدة عريضة من هذا العلم .

وكان القدماء يعجبون بـ « الكتاب » ، ولم ينتقص أحد من شأنه . حتّى الّذين قالوا بأنّه شُورك فى تأليفه وانّه ليس كلّه من عمله ، إذ استكثروا عليه أن يأتى به وحده بل

انّ هذه الدّعوى تعدّ إكبارا لـ«الكتاب» واعترافا بأنّه عمل كبير لا يقدر عليه واحد.

وممّا قيل فى الثّناء عليه ما رواه «ابن النّديم» فى كتابه «الفهرست» قال: «كان «المازنى» يقول: من أراد أن يعمل كتابا كبيرا فى النّحو بعد «كتاب سيبويه» فليستح..»

وقال «الجاحظ»: «أردت الخروج إلى «محمد بن عبد الملك»، ففكّرت فى شىء أهديه إليه، فلم أجد شيئا أشرف من «كتاب سيبويه»، فقلت له: أردت أن أهدى لك شيئا ففكّرت، فإذا كلّ شىء عندك، فلم أرَ أشرف من هذا الكتاب، وهو كتاب اشتريته من ميراث «الفرّاء» ـ فقال: والله ما أهديت إلىّ شيئا أحبّ منه».

وجاء فى «أخبار النّحويّين البصريّين» فى صدد الكلام على «سيبويه»:

«وعمل كتابه الّذى لم يسبقه إلى مثله أحد، ولم يلحق به من بعده» وقال صاحب «معجم الأدباء»:

«وذكر «صاعد بن أحمد الجيّانى» من أهل «الأندلس» فى كتابه قال: لا أعرف كتابا ألّف فى علم من العلوم قديمها و حديثها، فاشتمل على جميع ذلك العلم، وأحاط بأجزاء ذلك الفنّ غير ثلاثة كتب: أحدها «المجسطى» لـ«بطليموس» فى علم هيئة الأفلاك، والثّانى كتاب «أرسطوطاليس» فى علم المنطق، والثّالث «كتاب سيبويه البصرى» فى النّحو، فإنّ كلّ واحد من هذه لم يشذّ عنه من أصول فنّه شىء إلّا مالا خطر له».

وليس «الكتاب» كلّه مقصورا على «علم النّحو»، بل اشتمل على معارف أخرى فى «اللغة» و«الأدب» و«البلاغة»، وفى ذلك الوقت لم يكن قد نشأ «علم البلاغة». ولكن «سيبويه» بدأ فيه بالحديث عن «المجاز» و «التّشبيه»، وهما من مباحث «البلاغة» و«النّحو» متشابكان فى كثير من المسائل.

وقد نقل عنه علماء «البلاغة العربيّة» بعض النّصوص المتضمّنة «مسائل بلاغيّة». ولعلّ «سيبويه» بذلك هو أوّل من وضع بذور «علم البلاغة العربيّة».

وفى «الكتاب» كذلك مسائل تعدّ من أصول «النّقد الأدبى» و«علم القراءات» و«علم الأصول».

والواقع انّ « الكتاب » هوالذى خلّد ذكرى « سيبويه » ، وأذاع صيته ، فما كاد يطّلع عليه العلماء - بعد ممات مؤلّفه - حتّى شغلوا به وعكفوا على دراسته ، و شرحوه وعلّقوا عليه ، وناقشوا مسائله وقضاياه ، ومنهم من اختصره ، ومن شرح الشواهد التّى وردت فيه . وكان له لكلّ عمل كبير أنصار يتعصّبون له ونقّاد يحملون عليه .

* * *

ونعود إلى الشّاب الدّارس الجادّ «سيبويه» فنراه فى «البصرة» يأخذ مكان الصدارة والشّياخة على علماء «النّحو» بها وزعامة « مدرسة البصرة النّحويّة » التّى أدارت دفّة هذا العلم منذ ولادته ، ثمّ نافستها مدرسة الكوفه وعلى رأسها «الكسائى» .

ولكن الشّاب الطّموح المتطّلع إلى الكمال لايقنع بمكانته فى «البصرة» ، فيرحل إلى «بغداد» عاصمة الخلافة التّى كانت قبلة لكلّ طموح ، حيث يأخذ المكانة التّى يتطلّع إليها لدى الخلفاء ويظفر برعايتهم وتقديرهم .

رحل إلى « بغداد » لـكى يعلو شأنه ، ولكن القدر كان له بالمرصاد ، فأخذه فى نهاية المطاف بقسوة أصابته بأزمة نفسيّة شديدة لم يخرج منها إلّا إلى القبر .

وكان ذلك فى عهد «هارون الرّشيد » ووزرائه «البرامكة» الذين أكرموا العلماء ، والشّعراء وأسبغوا عليهم ما أكسبهم شهرة ومالا كثيرا .

ولكن ذلك البريق كان لـ« سيبويه» كالنّار للفراشة . . اجتذبه البريق فأعقبه الحريق . هناك «الكسائى» شيخ النّحويّين الكوفيّين مقرّبا من « الرشيد » و«البرامكة» واستاذا لأولاد « الرشيد» ، وله صيت ذائع ومكانة مرموقة . ولكن جرأة « سيبويه » وطموحه يأبيان إلّا أن ينافس الأسد فى عرينه .

قصد إلى « يحيى بن خالد البرمكى» يسأله أن يجمع بينه وبين «الكسائى» فى مناظرة علميّة على طريقة أهل ذلك العصر ، فجعل له « يحيى » موعدا . وحضر «سيبويه » فى الموعد ، فوجد أصحاب « الكسائى » هناك ، منهم « الفرّاء » و « الأحمر » ، وقد قدم هو من «البصرة» وحده ، فوجد أمامه «شيوخ الكوفة» يأتمرون به دفاعا عن مكانتهم . ويقال

فى رواية أخرى عن الرّوايات الّتى روى بها حادث هذه المناظرة - يقال: لمّاورد «سيبويه» «بغداد» شقّ أمره على «الكسائى» فأتى «جعفر بن يحيى برمكك» و«الفضل بن يحيى بن برمكك» وقال: أنا وليّكما وصاحبكما، وهذا الرّجل إنّما قدم ليُذهب محلّي. قالا: «فاحتل لنفسك»، فإنّا سنجمع بينكما. فجمعا عند «البرامكة».

وجرى الأمر كأنّه مدبّر مخطّط لهزيمة الوافد المنافس القوىّ، بادر «الأحمر» و«الفرّاء» بالأسئلة قبل أن يحضر «الكسائى»، حتّى يستنفدا طاقته فى المناقشة، فإذا حضر «الكسائى» لقيه متعبا كليلا، وتعمّدوا إثارته وتحقير شأنه ليوهنوا أعصابه، برز له «الأحمر» أوّلا فسأله عن مسائل كلّما أجاب «سيبويه» عن واحدة منها قال له: «أخطأت يابصرىّ»، دون أن يذكر اسمه، ولمّا ضاق به «سيبويه» قال: هذا سوء أدب.

وتقدّم «الفرّاء»، وصنع معه ما صنع «الأحمر». فلمّا أكثرا عليه وضايقاه قال: «لست أكلّمكما أو يحضر صاحبكما فأناظره».

وحضر «الكسائى» ومعه ناس من «عرب البادية» كان يقصدهم فى ديارهم ليأخذ عنهم اللغة، ويدعوهم إلى داره فيكرمهم و يفيض عليهم، فقال لـ«سيبويه»: تسألنى أو أسألك؟ فقال «سيبويه»: بل تسألنى أنت، فقال «الكسائى»: ماتقول أو كيف تقول: «قدكنت أظنّ العقرب أشدّ لسعة من الزّنبور فإذا هو هى أو فإذا هو ايّاها» قال «سيبويه»: «فإذا هو هى ولا يجوز النّصب». فقال له «الكسائى»: لحنت! وناقشه «سيبوية» محاولا أن يقنعه بأنّ «إيّاها» ضمير نصب والموضع موضع رفع لأنّه خبر المبتدأ فهو يتطلّب ضمير الرفع «هى» ولايقع حالا لأنّه معرفة والحال لاتكون إلّا نكرة. فقال «الكسائى»: «ليس هذا كلام العرب، العرب ترفع فى ذلكك وتنصب».

ولمّا اشتدّ بينهما الجدل قال «يحيى بن خالد»: قد اختلفتما وأنتما رئيسا بلديكما فمن ذا يحكم بينكما؟ قال «الكسائى»: الأعراب، وهاهم أولاء بالباب، وهم فصحاء النّاس، و«أهل الكوفة» و«أهل البصرة» يسمعون منهم ويقتنعون بهم، فيُحضرون ويُسألون. فقال «يحيى» و«جعفر»: قد أنصفت.

ودخل الأعراب، فقالوا ما يقول «الكسائى» ، فوجم «سيبويه» ، وانصرف القوم يتحادثون ويتجاولون فيما كان ...

قال بعضهم : انّ الأعراب الذين شهدوا لـ«لكسائى» كانوا من الذين أقام فيهم «الكسائى» وأخذ عنهم اللغة . وقال بعضهم ، انّهم رُشُوا أو علموا منزلة «الكسائى» عند «الرّشيد» فوافقوه ، وقال غيرهم : إنّهم قالوا:

« القول قول الكسائى » ولم ينطقوا بالنّصب ، فإنّ ألسنتهم لا تُطاوعهم عليه .

ويقال انّ «الأمين ابن الرّشيد» - وهو تلميذ «الكسائى» - أمر أعرابيّا أن يقول بقول «الكسائى» ، أى ينطق بالعبارة بما يوافق رأيه ، فاعتذر بأنّ لسانه لا يسبق إلّا إلى الصّواب ، فأمر «الأمين» أن يقول شخص : قال «سيبويه» كذا ، وقال «الكسائى» كذا ، فما الصواب؟ فيقول العربى : الصواب ما قال «الكسائى» .

كانت هذه الأقوال تعليقا بعد المناظرة على ما حدث عليها ، أمّا «سيبويه» فإنّه شعر بالهزيمة والإخفاق وخيبة المسعى .

وإذا عدنا إلى ماروُى من انّ «سيبويه» كانت فى لسانه حُبسة تمنعه عن الاسترسال فى المناقشة ، فإنّنا نرى انّ هذه الحُبسة لابدّ كانت من أسباب هزيمته ، لا فى هذه المناظرة فقط ، بل فى مناظرات أخرى سبقتها منها مارواه «الأصمعى» قال : «عُرض علىّ شىء من الأبيات الّتى وضعها «سيبويه» فى كتابه ، ففسّرتها على خلاف ما فسّره ، فبلغ ذلك «سيبويه» ، فبلغنى انّه قال : لاناظرته إلّا فى المسجد الجامع ، فصلّيت يوما فى الجامع ثمّ خرجت ، فتلقّانى فى المسجد فقال لى : يا «أبا سعيد» ، ما الذى أنكرت من بيت كذا وبيت كذا ؟ ولِمَ فسّرت على خلاف مايجب ، فقلت: ما فسّرت إلّا على مايجب، والذى فسّرتَه أنت و وضعته خطأ ، تسألنى وأنا أجيب ؟ ورفعت صوتى ، فسمع العامّة فصاحتى ، ونظروا إلى لكنته، فقالوا لقد غلب «الأصمعى» «سيبويه» .» .

وقد علّق على ذلك أحد العلماء، وهو «يونس بن حبيب» الّذى شاهد «الأصمعى» و«سيبويه» يتناظران ، فقال : الحقّ مع «سيبويه» وقد غلب ذا - يعنى «الأصمعى» - بلسانه .

ومن ذلك نرى ان حُبسة لسان « سيبويه » كانت من العوائق عن استرساله فى المناقشات وبيان الحق الذى يراه .

على ان أهم الأسباب فيما لحق بـ« سيبويه » من الهزيمة والاستكانة فى مناظرته لـ«لكسائى» هو ما أحاط بها ولابسها من التدبير والتحامل عليه من قبل « مدرسة الكوفة » التى تنافس «مدرسة البصرة»، فقد اعتبروها منافسة بين المدرستين أكثر مما هى مناظرة بين رجلين .

وقد يكون « الكسائى » بريئا من التدبير ضد « سيبويه » ولكن أشياعه هم الذين دبروا وتحاملوا وطمسوا الحق إرضاء له وتعصبا للمدرسة التى هو على رأسها ، أو تقربا اليه ومجاملة له . و يؤيد هذا ما رُوى ان «الكسائى» طلب من الوزير « يحيى » ان يُجيز «سيبويه» بجائزة تعينه على أمره فأجازه بعشرة آلاف درهم .

وهو موقف طيب كريم من «الكسائى» يشبه ما تعبر عن مثله فى عصرنا هذا بالروح الرياضية التى تعلو على الدوافع الشخصية فى منافسة الخصم .

غادر «سيبويه» « بغداد » حزينا لم يحقق ما تطلع إليه من رحلته إليها . وتختلف الروايات فى وجهته بعد ذلك ، ولكن المجمع عليه أنه أصابه هم وكمد واستكانة لم يلبث بعدها إلا قليلا حتى مات سنة ١٨٠ هـ. على أرجح الأقوال.

واختلفت الروايات فى البلد الذى قصده وتوفى فيه ، فقيل مات فى «ساوه» ، وقيل فى «البصرة» وقيل فى «شيراز» ، وقيل فى «البيضاء» ، والمرجح انه قصد «البيضاء» وتوفى فيها ، لأنها وطنه الأول و مسقط رأسه ، والإنسان يحن إلى مسقط رأسه و يفزع إليه فى الشدائد كى يستروح منه ذكريات تشعره بالعطف والحنان . ويؤيد هذا ما روى من أنه توفى بين يدَىْ أخيه ، إذ قالوا انه لما اعتل وضع راسه فى حجر أخيه ، فبكى أخوه لما به ، فقطرت من دمعه قطرة على وجه «سيبويه» ، فرفع رأسه اليه فرآه يبكى ، فقال :

أخيين كنا ، فرق الدهر بيننا ... إلى أبد الأقصى ، ومَن يأمن الدهرا؟

وقدصارت مناظرته لـ«الكسائى» و إخفاقه فيها موضع أحاديث كثيرة، تناولها المؤلّفون فى كتبهم، ونُظم فيها شعر كما نُظم فى رثائه. ومن ذلك قول «حازم بن محمد الأنصارى الأندلسى» فى منظومة نحويّة:

لذاك أعيت على الأفهام مسألة   أهدت إلى «سيبويه» الحتف والغُمما
قد كانت العقرب العوجاء أحسبها   قِدماً أشدّ من الزّنبور وقع حمى
و فى الجواب عليها هل إذا هو هى   أو هل إذا هو إيّاها؟ قد اختصما
وخطّأ «ابن زياد» و «ابن حمزة» فيـــــما   قال فيها «أبا بشر»، و قد ظلما
وغاظ «عمرا» «علىٌّ» فى حكومته   ياليته لم يكن فى أمره حكما

فهو يرى أن الحقّ كان فى جانب «أبى بشر عمرو» ـ «سيبويه» ـ و إنّ عليّا «الكسائى» ظلمه هو وصاحبه ابن زياد (الفرّاء) و «ابن حمزة» هو «الكسائى».

فإن يكن منافسو «سيبويه» قد ظلموه فى حياته، فقد أنصفه التّاريخ بعد مماته وخلّد ذكره بين النّاس، بل تخيّل بعضهم انّ قدره لم يقف عند النّاس، بل تعدّاهم إلى «الجنّ» فقد قال بعضهم إنّه سهر ليلة يدرس، ثمّ نام فرأى جماعة من الجنّ يتذاكرون الفقه والحديث والحساب والنّحو والشّعر، فقال لهم: أفيكم علماء؟ قالوا: نعم. قال: همّى فى النّحو ـ أي اهتمامى إنّما هو بالنّحو ـ فإلى مَن تميلون من النّحويّين قالوا: إلى «سيبويه».

سلام على «سيبويه» من وطنه الأوّل (شيراز) وسلام عليه من «مصر» الّتى لا يزال ولن يزال اسمه يتردّد فيها بين خاصّة الدّارسين وعامّة النّاس.

وشكر الـ«جامعة [illegible]» الّتى أتاحت لنا فرصة هذه الذّكرى المجيدة.

٦

عبدالعزيز بنعبدالله
(المغرب)

«سيبويه» و نحاة المغرب

اهتمّ «المغرب» و «الأندلس» بـ«سيبويه» و «كتابه» كمصدر من أبرز مصادرعلم النّحو فى اللغة العربيّة و يهمّنا فى هذا البحث خاصّة أن نبرّز مدى تفاعل «سيبويه» مع «نُحاة المغرب» و الحركة القويّة الّتى هزّت رحاب هذا العنصر الحيوى من علوم الآلة العربيّة وقد يضيق نطاق هذه العجالة إذا حاولنا تتبّع نشاط أعمدة هذه الحركة فى مختلف العصور و الأقاليم المغربيّة و الأندلسيّة غير أنّنا سنكتفى باستخلاص نماذج من أقطاب النّحاة الّذين كان لهم ضلع بارز فى توجيه هذا التّيّار الغامر الّذى كاد يطغى على معظم علوم الآلة و إن كان قد اتّسم فى بعض الأحيان بالحشو والتّكرار.

و إذا كان القرن الرابع الهجرى قد بدأ يمتاز بنوع من الفنّيّة المصطنعة أبعدته تدريجيّا عن سليقة القرون الثّلاثة الأوّل فإنّ جانب التّشكليّات فى النّحو أمسى أشدّ طغيانا إلى حدّ انّ هذا العلم أصبح يعتبر فنّا فى ذاته لا مُجرّد وسيلة لتّقويم اللسان من أوّد اللحن وقد ظهر فى هذا القرن «أبوالقاسم ابراهيم بن عثمان ابن الوزّان»[1] شيخ «المغرب» فى النّحو و اللغة القيروانى الأصل الّذى لم يُبدع جديدا فى هذا المجال و انّما برز فى حفظ «كتاب سيبويه» ، و «المصنّف الغريب» و «كتاب العين» وغيرها كما ظهر فى نفس

١ـ المتوفى عام ٣٤٦ هـ. / ٩٥٧ م. (العبّر للذّهبى ج ٢ ص ٢٧١).

الفترة «أبوبكر محمّد بن الحسن الزُبيدى الإشبيلى» [١] فحاول تحقيق نوع من التّوضيح و التّبسيط لتعقيدات النّحو فى كتابه «الواضح فى النّحو» [٢] و وضع قوائم للعلماء الذين اهتموا بهذا الفنّ فجاء كتابه «طبقات النحويّين و اللغويين» [٣] مصدرا أصيلا لسلسلة الأبحاث الّتى حفلت بها العصور التّالية و من أهمّها «بغيةالوعاة» لـ«لسّيوطى» وكانت انتفاضته لغايتَين اثنتين يستهدف كلاهما تقويم اللّسان عن طريق إصلاح اللّغة و النّحو ولذلك كان كتابه «لحن العوام» [٤] أوّل محاولة فى «المغرب» و «الأندلس» لتبسيط المقول مبنى و معنى و هذا لم يمنعه من الإنسياق فى التّيّار العام عندما اختصر [٥] «كتاب العين» لـ«لخليل بن أحمدالفراهيدى» . و لم يخل هذا القرن الرّابع من نُحاة تقليديّين ساروا على النّهج مع حفظ وضبط و تحقيق ومن بينهم برابرة مثل «أحمد بن عبدالعزيز بن فرَج بن

(١) المتوفى عام ٣٧٩ هـ . / ٩٨٩ م . «اليتيمة للثّعالبى» ج١ ص ٤٠٩/ تاريخ بروكلمان ج ١ ص ١٤٠/ «بغُية الوُعاة» ص ٣٤/ «بُغْية المُلْتمِس» ص ٥٦/ «ابن الفرضى» ص٣٨٣/ «الشّذرات» ج٣ص٩٤/ «جَذوةالمُقْتَبِس» ص٤٣/ «الوَفَيات» ج ١ ص ٥١٤/ «المُغرِب فى حُلى المَغرب» ج ١ ص ٢٥٠ .

(٢) توجد نسخة منه فى «مكتبة الاسكوريال» عدد ١٩٧ .

(٣) توجدنسخة فى «دارالكتب المصريّة» (٨٧٦ تاريخ) وقد كُتبت فى حياةالمؤلّف عام ٣٥٨ هـ . كما توجد نسخة فى المكتبة الملكيّة بـ«الرّباط» عدد (٢٨٣) . هذا قول صاحب المقال . أقول : طبع هذاالكتاب مرّتان (سنة ١٩٥٤م. و ١٩٧٣ م .) فى مصر، بتحقيق الأستاذ ابوالفضل إبراهيم ، و كما يقول الأستاذ محقّق الكتاب (مقدّمة الطبعة الأولى ص٤ و مقدّمةالطبعة الثّانية ص٤) النسخةالمصوّرة التى فى «دارالكتب المصريّة» (٨٧٦ تاريخ) أصلها فى تركيا (مكتبة فاتح ١٨٨١) وكتبت سنة ٦٠٨ هـ . و ما أدرى من أين جاء صاحب المقال بالموضوع : «و قدكتبت فى حياة المؤلّف عام ٣٥٨ هـ.»؟! ناشر المحاضرات أحمد افشار شيرازى .

(٤) طبع بـ«القاهرة» أخيرا .

(٥) توجد ثلاث نسخ فى المكتبة الملكيّة بـ«الرّباط» (عدد٢٣٩ و ١٧٨١) .

أبي الحُباب المَصْمودي القُرْطُبي » المتوفى عام ٤٠٠هـ ./١٠٠٩م . وكان من جلّة شيوخ الأدب واللّغة[١] وهكذا سار معظم النّحاة على هذا المنوال فصار همّهم الشّرح والتمحيص كـ« ابن يَسْعُون يوسف بن يبقى » صاحب الأحكام في « المَرِيّة »[٢] الذي صنّف كتاب « المِصْباح في شرح أبيات الإيضاح » لـ« لفارسي » في النّحو وكان الشّرح ينصب أحيانا على « كتاب سيبويه » الّذي شغل الفكر بابتكارات استثارت الإعجاب تارة و النّقد تارة أخرى و من هؤلاء « ابن أبي الرُّكَب ، أبوبكر محمد بن مسعود الجَيّاني »[٣] الّذي وضع شرحا لـ« لمكتاب » كما شرحه « ابن الباذِش ، علي بن أحمد بن خلف الغرناطي » (٥٢٨هـ. ق./ ١١٣٣ م.)[٤] بالإضافة إلى شرح كلّ من « أصول ابن السّرّاج » و « الإيضاح » لـ« أبي علي الفارسي » الّذي كان مدار شروح كثيرة منها شرح « ابن باق محمد بن حَكَم أبو جعفر السَّرَقُسطي » الّذي ولِيَ الأحكام و أفتى بـ« فاس » (٥٣٨ هـ.)[٥].

وقد رفع هذا التبريز بعض النّحاة إلى مكان الصّدارة أمثال « ابن السَّرّاج أبي بكر محمد بن سعيد الشَّنْتَمَري »[٦] الذي أصبح إمام العربيّة بـ« الأندلس » و « المغرب » وهو

---

(١) كتاب « الصّلة » لـ« ابن بَشْكوال » طبع « مَجريط » (عام ١٨٢٢م.) ج١ ص ٢٠.

(٢) المتوفى عام ٥٤٢ هـ. / ١١٤٨م. (« بُغية الوُعاة » ص ٤٢٤/ « كشف الظنون » ص ٢١٣) و منهم أيضا « عبدالرحمن بن عبدالله بن أحمد السّهيلي النّحوي » المتوفى عام ٥٨١ هـ . (العِبَر للذّهبي ج ٤ ص ٢٤٤) و هو ينتسب لـ« سُهَيل » قرية بالقرب من « مالقة » (« شذرات الذهب » ج ٤ ص ٢٧٢) .

(٣) المتوفى عام ٥٤٤هـ./١١٤٩م. (« معجم ابن الأبّار » ص١٥٧/ « التّاج » ج ٩ ص ١٩٢) .

(٤) « بُغية الوُعاة » ص٣٢٦/ « إنباه الرُّواة » (ج ٢ ص ٢٢٧).

(٥) « التكملة » ص ١٧٤/ « مهرجان جامعة دمشق » ص ٣٤٤ .

(٦) المتوفى بـ« مصر » عام ٥٤٩ هـ./ ١١٥٤م . (وقيل ٥٤٥ هـ . أو ٦١٩ هـ .) : « النّفح » ج ١ ص ٤٤٢/ ج ٣ ص ٧/ « تاريخ بروكلمان » ج ١ ص ٣٧٧ .

صاحب « تنبيه الألباب في بعض عوامل الإعراب »[1] وكذلك « الحسن بن صافى بن عبدالله بن نزار » الّذى لُقّب بملك النّحاة [2] و هو تلميذ « محمد بن جعفر القزّاز القيروانى » وقد درس بـ« بغداد » وتنقّل بين « خراسان » و « كرمان » و « غزنة » و « الشّام » حيث توفّى بـ« دمشق » ومنهم أيضا « عمر بن عبدالله بن محمد بن عبدالله بن عمر السُّلمى الأغماتى الفاسى »[3] أحد رؤساءِ النّحاة و صديق « ابن خروف » (توفى عام ٦٠٣ هـ.) بـ« إشبيلية » بعد أن استقضى بـ« فاس » و هو ابن عشرين سنة ثم « تلمسين » و « أغمات وريكة » و « إشبيليّة » .

و هنا ظهر نوع من التّخصص أدّق وخاصة حول فكرة بدأت تشغل بال النّحاة فى « المغرب » و « الأندلس » بعد أن استسلموا ردحا من الزّمن لـما وضعه « سيبويه » من قواعد و أنماط و هذا المشكل هو مشكل العامل فى الإعراب حيث اقترن هذا الإتّجاه بإتّجاه جديد عرفه « الغرب الإسلامى » و هو الإجتهاد الّذى بدأت سماته الجذّابة تطبّع كلّ مناحى التّفكير و خاصة فى الأصول والخلاف العالى و الفقه و العقيدة وكان ذلك من ذيول الإبداع الفلسفى والعلمي الذى انطلق من بلاط « المرابطين » و « الموحّدين » فى « مرّاكُش الحمراء » خلال القرن السّادس حيث ظهر أمثال « ابن رُشد » و « ابن طُفيل » و « بنى زُهر » و تساوق البّحث العلمى التجريبى يتبادل عدوتى البحر المتوسط الشّماليّة و الجنوبيّة من « قرطُبة » إلى « فاس » ، وهكذا ظهر « ابن مضاء »[5] (« أحمد بن عبدالرحمن بن

---

(١) توجد نسخة مخطوطة فى « برلين » (عدد ٦٥٢٣) .

(٢) المتوفى عام ٥٦٨ هـ. « الحُلَل السُّندسيّة فى الأخبار التّونسيّة » لـ« محمد بن محمد الأندلسى » ص ١٠٢ .

(٣) « الأعلام » لـ« المرّاكُشى » ج ٦ ص ١٠٩ (خ) .

(٤) « التّكملة » ص ٦٥٩ / « صلة الصّلة » ص ٧٢ / « الذّيل و التكملة » ص ٥٥ / « الجذوة » ص ٢٨٦ .

(٥) المتوفى بـ« إشبيلية » عام ٥٩٢ هـ . ١١٩٥ م . وكان قاضيا بـ« فاس » و قاضى الجماعة بـ« مرّاكش » (الأعلام للمرّاكشى » ج ١ ص ٢٣٣) .

سعيد القُرطُبي») فعمد ـ استجابة لرأي «الموحّدين» المتزعّمين لحركة الاجتهاد ـ إلى محاولة نقض «كتاب سيبويه» فصنّف ثلاثة كتب هي :

١) «المشرق فى النّحو» .

٢) «تنزيه القرآن عمّا لايليق بالبيان» .

٣) «الرّد على النُّحاة» .

وقد لاحظ على «سيبويه» أنّه بنى علم النّحو على أنّ الكلمة تُرفع و تُنصب و تُخفض بعامل فإن لم يكن العامل ظاهرا أوّلوه كما حاول الدلالة على أنّ الذى يصنع الظّواهر النّحوية فى الكلمات من رفع ونصب وجرّ إنّما هوالمتكلّم لامايزعمه النُّحاة من الأفعال وما شاكلها وقد أشار «ابن جنّى» في «الخصائص» إلى هذه النّظرية و لكن «ابن مَضاء» وسّعها و أوضحها وقد جرّ التأويل إلى علل وأقيمة تكون أحيانا غير مقبولة (كما لاحظ ذلك «أحمدأمين»)[1] والواقع أن «ابن جنّى» هوأوّل من أنكر العامل فلاحظ أنّ فعل «ضرب» مثلا انتهى بمجرّد النّطق به فلا يمكن أن يكون عاملا فى «زيد» أو «عمرو» الخ .

وهنا بدأالّصراع يحتدّ حول «كتاب سيبويه» فكان من جملة أنصاره شخصان هما:

أوّلا : «أبوبكر الخِدَبّ، محمد بن أحمد بن طاهر الإشبيلى الفاسى» .

ثانياً : «ابن يَلَّبْخْت عيسى بن عبدالعزيز الجُزولى المرّاكُشى» فأمّا «الخِدَبّ» فقدكان رئيس النُّحاة بـ«المغرب» فى عصره بلا مدافعة[2] و قد بذل جهدا مشكورا فى الدّفاع عن «كتاب سيبويه» و إفهام أغراضه وكان دفاعه مخلّلا بملاحظات قيّمةبسطها تلميذه «أبوالحسن بن خَروف» فى شرحه لـ«كتاب سيبويه» وقدتتلمذ لهالنّحاة فى الشّرق حيث ناظر بـ«مصر» كبيرالنّحاة «عبدالله بن بَرّى» وكبيرالنّحاة بـ«دمشق» «أباالیُمن زيدبن الحسن الكِندى» فحكم الحاضرون بأنّ «أبابكر الخِدَبّ» أعرف من «أبى اليُمن» بـ«كتاب سيبويه» و إن كان «أبواليُمْن» أنبه نفسا وقدتصدّى «الخِدبّ الفاسى» لتدريس

---

(١) «ظهرالإسلام» لـ«أحمد أمين» ج٣ ص٩٦ و «ظهرالإسلام» ج٢ ص١١٨ .

(٢) «الذّيل و التّكملة» لـ«ابن عبدالملك» م ٥ ص ٦٥٠ .

«الكتاب» فى «البصرة» عاصمة النّحاة و من فضل «الخدب» أنّ زعامته فى النّحو لم تعقه عن امتهان حرفة الخياطة[١] لأنّ الإحتراف كان ديدن العلماء بـ«المغرب» و«الأندلس» كما كان شنشنة كبار رجالات الفكر بالشّرق[٢].

أمّا «ابن يَلَّبْخْت المرّاكُشى» فقد لازم «عبدالله بن برّى» بـ«مصر» وأخذ عنه العربيّة[٣] وكان إماما لا يُجارى انتهت اليه الرّياسة، له «الإعتماد أو القانون» (حاذى به «أبواب الجُمل للزّجاجى») و«الدرّة الألفيّة فى علم العربيّة» و«شرح الإيضاح» لـ«لفارسى».

وقد أخذ عنه فى «جزائر بنى مَزْغانة» «يحيى بن مُعْط بن عبدالنّور الزّواوى» المعروف به «زين الدّين» بـ«دمشق» الذى هو صاحب «الأرجوزة» فى النّحو وقد برز على «أبى على الشّلوبين» فى محاضرة بـ«مرّاكُش» وكان ذلك أثناء تدريس «ابن يَلَّبْخْت» فى مسجد «باب دُكّالة» بـ«مرّاكُش» حيث مرّ «الشّلوبين» فسمع أصوات الطّلبة قد تعالت وهم يتدارسون و يتباحثون حول «كتاب سيبويه» فتسلّل «الشّلوبين» متطلّعا إلى معرفة مدى تضلّع طلبة «مرّاكُش» فى علم النّحو فاستطرف المناظرة وتدخّل فى الحديث فدخل «ابن يَلَّبْخْت» مبتذل الملبس في زيّ برابرة البوادى فأطرق الطّلبة إجلالا لأستاذهم الذى أخذ يحاضر فى بعض أبواب العربيّة فى منهجيّة تستهدف ضبط القوانين و تقييد المسائل و إحكام الأصول بما لا عهد لـ«إبى علىّ الشّلوبين» بمثله فبهت وصار يناجى نفسه بهذه العبارات التى ينقلها لنا «عباس بن ابراهيم المرّاكشى»: «اذا كان مثل هذا الموضع الخامل الّذى لا يكاد يؤبه له ولا يعدّ من كبار مجالس العلم لكونه فى أخريات بلد «مرّاكُش» ينتصب للتدريس فيه مثل هذا البربرى البعيد فى بادئ الرأي عن التّعلّم فضلا عن مثل هذا الإستبحار فى النّحو فما الظّن بالمجالس المختلفة و المساجد المشهورة التى يعتنى بها ويدرسها ولاة الأمر و يعظم فيها الحفل و يجتمع اليها أكابر طلبة العلم . . . هذا بلد لا أسود فيه بعلمى» فعاد

---

(١) «جذوة الإقتباس» لـ«ابن القاضى» ص١٦٨.

(٢) راجع بحثنا حول العلماء الحرفيّين فى مجلّة «اللسان العربى» (المجلد العاشر).

(٣) المتوفى بـ«أزمّور» عام ٦٠٧ هـ. / ١٢١٠م. - «الأعلام للمرّاكشى» ج ٦ ص ١٦٠ (خ).

إلى «إشبيلية» و«الشلوبين» هذا هو «عمر بن محمد بن عمر بن عبدالله الأزدى» صاحب «القوانين» (فى علم العربيّة) و «شرح المقدّمة الجُزولية» فى النّحو[١] و المعلّق على «كتاب سيبويه» وقد وصف بالأستاذيّة وقدم من «شلوبين» (Salobrena) بساحل «غرناطة» إلى «مرّاكُش» أيّام «المنصور الموحّدى»[٢]، وقد برز فى عصره فى «مرّاكُش» «يحيى بن حسّان المرادى الشّلبى المرجيقى النّحوى الحافظ» (٦١٤ هـ. / ١٢١٧ م.) («صلة الصّلة» ص ١٩٢) و مع ذلك فقد كان لحّانا فلو أنّ شخصا من العرب سمع كلامه و هو يقرئ درسه لضحك بملء فيه ـ كما يقول «المقّرى» فى «النّفح» (ج١ ص ٢٠٦) من شدّة التّحريف و هذه الظّاهرة تؤكّد انّ النّحو كان غاية لا وسيلة لتقويم اللّسان.

وكانت بعض قرى الأطلس البربريّة مثل «أغمات» و «تينمل» فى هذا العصر مركزا انطلق منه بعض كبار النّحاة مثل «التينملى، عثمان بن سعيد بن عبدالرحمن بن أحمد برتولو» الذى سمع بـ«مصر» و «دمشق»[٣] كما حفلت السّهول بنحاة جهابذة أمثال «سحنون عبدالرحمن بن عبدالحليم بن عمران أبوالقسم الأوسى الدُّكّالى» (نسبة الى دُكّالة) المالكى المقرئ النّحوى الّذى كان إماما علّامة ورعا (توفى عام ٦٩٥ هـ. / ١٢٩٥ م.)[٤]، ومن أبرز تلامذة «الشّلوبين» «ابن عُصفور، على بن أبى الحسن بن مؤمن بن محمد الحَضْرَمى الإشبيلى» الذى سكن «أنفا» («الدّار البيضاء» الحاليّة بـ«المغرب») و «مرّاكش» و «تونس»

---

(١) يوجد جزء من هذا الكتاب فى مكتبة «جامعة القرويّين» بـ«فاس» (ل ٣٢٧/٨٠).

(٢) «الذّيل والتكملة» لـ«ابن عبدالملك» ج٥ ص ٤٦٠/ وقد توفى عام ٦٤٥هـ. / ١٢٤٧م. (وفيات الأعيان ج١ ص٣٨٢) / «معجم البلدان» ج ٥ ص ٢٩٠/ «الدّيباج» ص ١٨٥/ «كشف الظّنون» ص ٥٠٨ و ١٨٠٠ و ١٤٢٨ / «التاج» ج٩ ص ٢٥٥/ «إنباه الرّواة» ج ٢ ص ٣٣٢.

(٣) توفّى عام ٦٠٥هـ. /١٢٠٨م. / («درّة الحجال» ج٢ ص٤١٩ طبعة «الرّباط» ١٣٥٤ هـ. / ١٩٣٦م.).

(٤) («شذرات الذهب» ج ٥ ص ٤٣١).

حيث توفى عام ٦٦٩هـ .[1] وكان خاتمة أقطاب النّحاة . (كما قال الشاعر :

بدأ النّحو علي وكذا ختم النّحو ابن عصفور علي)

وقد شرح « كتاب سيبويه » و « جُمل الزّجاجي » وله « المُغرب في النّحو » و « المُمتِع في التّصريف » وهو حامل لواء العربيّة يشرف على مشهورها وشاذّها وقد نقض كتابه « المُمْتِع » « ابن البَرْذَعي ، محمد بن يحيى الخضراوي » (من « الجزيرة الخَضراء » المتوفى بـ « تونس » عام ٦٣٦هـ ./١٢٤٨م .)[2] صاحب « الإفصاح في شرح الإيضاح » الخ ، و « فصل المقال في تلخيص أبنية الأفعال » . ومن تلامذة « الشّلوبين » في النّحو « أحمد بن يوسف اللبلي » (« النّفح » ج٢ ص٤٠٦) و « علي بن محمد بن حسن الأنصاري الإشبيلي الجيّاني » نزيل « مرّاكُش » الّذي استقضي بـ « حصن القصر » بـ « إشبيليّة » واستكتبه « الرّشيد الموحّدي » وتولّى خطة الإشراف على بلاد « حاحة » من عمالة « مرّاكش » حيث توفى بـ « تامطريت » عام ٦٦٣هـ . / ١٢٦٤م . وقد حاول الجمع بين تفسيرَي « الزّمخشري » و « ابن عطيّة » فلخّص « جملة ابن أبي الحُباب » و « خلَف بن سليمان بن عمرون » و « أحمد بن أبان و عبدالله بن إبراهيم الأصيلي » و « زكريّا الأشجّ » (الأعلام لـ « لمرّاكشي » ج ٦ ص٤٧ « خ ») و لعلّه استهدف « التّنبيه على ماخالفا فيه سيبويه » كما فعل « ابن معزوز يوسف المَرسي الجزيري » (من « الجزيرة الخضراء ») المتوفّى عام ٦٢٥هـ . / ١٢٢٨م . (« كشف الظّنون » ص٢١٢و١٧٧٦) و « بغية الوعاة » (ص٤٢٤) في « تنبيهاته على أغلاط الزّمخشري في المفصّل » و اختلافه مع « سيبويه » بالإضافة إلى شرحه لـ « إيضاح الفارسي » وهذا مظهر للقداسة الّتي أضفاها « المغاربة » و « الأندلسيّون » في الغالب على « كتاب سيبويه » حيث كانوا يتتبّعون حتّى « تفاسير القرآن » بالنّقد استمدادا من آراء « سيبويه » .

---

(١) قيل انّه توفّي عام ٦٥٩هـ . / ١٢٦٠م . (« عنوان الدّراية » ص ١٨٨) / « فوات الوفيات » ج٢ ص٩٣/ « شذرات الذّهب » ج٥ ص ٣٣٠/ « وفيات ابن قُنْفُذ » (ذكر أنّه توفى عام ٦٦٧هـ .) / « كشف الظّنون » ص١٨٢٢/ « بغية الوُعاة » ص٣٥٧/ ملحق « بروكلمان » ج١ ص٥٤٦/ « صلة الصّلة » ص١٤٢ .

(٢) « تكملة ابن الأبّار » ص ٣٦١/ « بُغيْة الوُعاة » ص ١١٥

و ممّا يبرز قوّة نشاط حركة البحث فى مجال النّحو فى «المغرب العربى» فى القرنين السّادس والسّابع انّه لم يكد ينتشر «كتاب المُقرِب لإبن عصفور» حتّى تصدّى له بالدية صاحب «المقصورة» «حازم القرطاجنى بن محمد بن حسن التونسى» (المتوفّى عام ٦٨٤هـ./ ١٢٨٥م.) [١] فانتقده فى كتابه «شدّ الزّيار على جحفلة الحمار» وقد انتقد أيضا «مُقرب ابن عُصفور» «ابن هشام الجزيرى» فى كتابه «المنهج المُقرِب فى الرّد على المُقرب».

ومن ائمّة صناعة العربيّة الّذين تصدّوا لإلقاء محاضرات حافلة بـ«اشبيلية» و«فاس» و «مرّاكُش» أواخر القرن السّادس «ابن خروف، على بن محمد بن على بن محمد الحَضْرمي ألإشبيلى، ضياء الدين» [٢] الذى صنّف شرحا لـ«كتاب سيبويه» سمّاه «تنقيح الألباب فى شرح غوامض الكتاب» قدّمه إلى «الناصر الموحّدى» فى أربعة مجلّدات و شرحا على «الجُمل للزّجاجى» كما عقّب فى بحوث نحويّة على «السّهيلى» و«ابن ملكون» و«ابن مَضا» و قد تتلمذ بـ«فاس» على «أبى بكر بن طاهر الخِدَبّ» كما تتلمذ على «ابن رُشد» الحفيد فكان له فكر فلسفى حداه إلى الرّد على «ابن حزم» فى بعض مقالاته وكان يتاجر فى أوانى الخشب المخروطة يتردّد بين «رُندة» و «إشبيلية» و «سَبْتة» و «فاس» و «مرّاكُش» يقرئ الطلبة بجُعْل خاص لا يتسامح فيه كما كان لـ«الشلوبين» مستفاد من طلبته يبلغ أربعة آلاف درهم فى الشّهر الواحد ولعلّ لبعض النّحاة شذوذا فى فهم مجّانيّة التّعليم كما كان يتصوّرها الفقهاء و المحدّثون.

وممّن شرح «كتاب سيبويه» و «الجُمل» لـ«الزجاجى» و ردّ على «ابن عُصفور»

---

(١) راجع ترجمته فى «تاريخ الدولتين» و «بُغية الوعاة» و «رحلة العبدرى» و «رحلة ابن رُشَيد» وله «قصيدة فى النّحو».

(٢) المتوفى عام ٦٠٩هـ. ١٢١٢م. (وذكر «المقّرى» فى «النّفح» أنّه توفى بـ«جلد» عام ٦٠٣ هـ. أو ٦٠٥هـ.) / «الأعلام للمرّاكُشى» ج٧ ص ١٢ (خ) و ج٦ ص ١٥٢ (خ)/ «جذوة الإقتباس» ص ٣٠٧/ «ابن خلّكان» ج ١ ص ٣٤٣/ «فوات الوفيات» ج٢ ص ٧٩ / «ارشاد الأريب» ج ٥ ص ٤٢٠ (ذكر أنّه توفّى عام ٦٠٦ هـ.).

فی هذه الآونة «ابن الضّائع، علی بن محمد بن علی بن یوسف الکتامی الإشبیلی»[١] و قد شرح «الإیضاح» و «الجُمل» «أبو ذر مُصعب بن محمد بن أبی الرُّکب الخُشنی» (٦٠٤هـ./ ١٢٠٨م.) قاضی «جیّان» من طرف «المنصور الموحّدی».

و دار فی فلک علم النّحو علماء آخرون من «المغرب» و «الأندلس» أمثال «محمد ابن علی السّلاقی الإشبیلی المرّاکُشی»[٢] و «محمد بن طاهر الدّانی»[٣] و «أحمد بن عبدالمؤمن ابن موسی بن عیسی بن عبدالمؤمن»[٤] (صاحب «شرح الإیضاح» و «شرح الجُمل») و «شرف الدّین محمد بن عبدالله الضریر المُرسی»[٥] (الّذی زار «خراسان» و «بغداد» و «دمشق» و «مصر» وهو صاحب «الکافی فی النّحو») و «ابن مالک محمّد بن عبدالله الطّائی الجَیّانی» صاحب «الألفیّة»[٦] و «الکافیة الشّافیة» فی النّحو المحتویة علی ثلاثة آلاف بیت

(١) المتوفی عام ٦٨٠ هـ . /١٢٨١ م . («بغیة الوعاة» ص ٣٥٤ / «الأعلام للزّرکلی» ج ٥ ص ١٥٤ / راجع ترجمة «الخُشنی» فی «السّلوة» ج ٣ ص ٢٩١ / «الذخیرة السّنیّة» ص ٤٤/ «زاد المسافر» ص١٠٥) .

(٢) المتوفی عام ٦٠٥هـ./ ١٢٠٨م. («بُغیة الوعاة» ص٨٤ «الأعلام للمرّاکُشی» ج ٣ ص ٧٠) .

(٣) المتوفی عام ٦١٩ هـ . / ١٢٢٢م. («النّفح» ج ٢ ص ٣٤٢).

(٤) المتوفی بـ«شَریش» عام ٦١٩ هـ ./ ١٢٢٧م . («الأعلام» «للمرّاکُشی» ج٦ ص ٣١٤ «خ») .

(٥) المتوفّی عام ٦٥٥ هـ . / ١٢٥٧م. («بُغیة الوُعاة» ص ٦٠/«النّفح» ج ١ ص ٣٤٤ / «الوافی بالوفیات» ج ٣ ص ٣٥٤) و هو صاحب تفاسیر کُبْریٰ و وُسطی و صُغری فی ثلاثة و ثلاثین جزء أسماها «رَیّ الظمآن»

(٦) المتوفّی بـ«دمشق» عام ٦٧٢ هـ . / ١٢٧٤ م . («بُغیة الوعاة» ص ٥٣ / «فَوات الوفیات» ج ٢ ص ٢٢٧ / «النّفح» ج ١ ص ٤٣٤/ «طبقات السُّبکی» ج ٥ ص ٢٨ / «الوافی بالوفیات» ج ٣ ص ٣٥٩ / «تاریخ بروکلمان» ج ١ ص٣٥٩ وملحقه ج ١ ص٥٢١) و یوجد کتاب فی النّحو لـ«ابن الحاجب» یسمّی «الحاجبیّة» شرحه «ابراهیم بن محمد بن عبدالقادم الشّاذلی» (١٣١١ هـ . / ١٨٩٣م.).

و «الضَّرَب فى معرفة لسان العرب» و «لاميّة الأفعال» و «شواهد التوضيح والإعتضاد، فى الفرق بين الظاء و الضاد» و «ابن حَمدون، نورالدين على بن أحمد المالقى» ألذى ختم سلسلة نُحاة القرن السّابع بوفاته آخر هذاالقرن [١] هو و «أبوزكريّا ابن حُبيش على بن سلطان اليفرنى» الملقّب فى المشرق بـ«جبل النّحو» [٢] و قد برز فى القرن الثّامن كذلك نُحاة أفذاذ واصلوا شرح و نقد آراء زملائهم حول قوانين «كتاب سيبويه» و من جملتهم :

– «ابن الفخّار، محمد بن علي الجُذامى الأركُشى» [٣] الذى شرح مشكلات «سيبويه» و «قوانين الجُزوليّة» .

– «ابن آجرّوم، محمد بن محمد بن داود الصّنهاجى البَوبَرى» المتوفى عام ٧٢٣ هـ./ ١٣٢٣ م. صاحب المقدّمة المشهورة بـ«الآجروميّة» (طبعت مرارا بـ«فاس» و «مصر») .

– «محمد بن أحمد بن يعلى الحسنى» المدعو بـ«الشريف» المتوفى فى نفس السّنة [٤] وهو صاحب «الدرّة النّحوية فى شرح الآجروميّة»، توجد نسختان إحداهما فى المكتبة العامّة بـ«الرّباط» (رقم ١٦٥٠ د) ونسخة بمكتبة «الجزائر» رقم ١٤٦ (٧٢٤) .

– «أحمد بن عبدالله بن محمّد الأزدى المرّاكُشى» النّحوي نزيل «القاهرة» [٥] الذى جنح إلى التّصوّف الفلسفى فرماه «أبوحيّان» بالزّندقة .

---

(١) «النّفح» ج ٣ ص ٣٦٥.

(٢) «النّفح» ج ٥ ص ٢٧٦ .

(٣) «أركش Arcos» بـ«الأندلس». توفى بـ«مالقة» عام ٧٢٣ هـ./ ١٣٢٣ م . («بُغية الوُعاة» ص ٨٠ / «الدّرر الكامنة» ج ٤ ص ٨١) .

(٤) أي عام ٧٢٣ هـ . / ١٣٢٣ م . («ملحق بروكلمان» ج ٢ ص ٣٣٢).

(٥) توفّى فى حدود ٧٣٠ هـ . / ١٣٢٩ م. («الأعلام للمرّاكُشى» ج ٢ ص ٢) (نقلا عن «الدّرر الكامنة» ج ١ ص ١٩٧) .

ـ «أبو حيّان، محمدبن يوسف بن علي بن يوسف أثيرالدّين النّفزى الغرناطى»[1]

صاحب: ١ـ «منهاج السّالك إلى ألفيّة ابن مالك» (المكتبة الملكية بـ«الرّباط» رقم ١٣٦٢)

٢) «طبقات نُحاة الأندلس».

٣) «التّذييل و التّكميل فى شرح التّسهيل».

٤) «المُبدع فى التّصريف».

٥) «ارتشاف الضّرب من لسان العرب».

٦ـ «اللمحة البدريّة فى علم العربيّة».

وله كتب فى اللغات منها: «زهو المُلْك فى نحو التّرك» و «منطق الخُرْس في لسان الفُرس» و «نور العبش فى لسان الحبش».

ـ «ابن المجراد محمد بن محمد بن محمد بن عمران الفنزارى السّلاوى» صاحب «لاميّة الجُمل» و «شرح الدّرر»[2] و ختم هذه السّلسلة لا فى «المغرب العربى» بل فى العالم العربى كلّه رجل من «غُمارة» (مصامدة الرّيف) هو «محمد بن محمد بن على بن عبدالرّزّاق الغُمارى المصرى»[3] الّذى انتهت اليه رياسة علوم العربيّة فى زمانه وتفرّد على رأس المائة الثّامنة فى النّحو حسب «السّيوطى» فى طبقاته و هو تلميذ «أبى حيّان» لازمه و درس فى «بيت المقدس» و «مكّة» و «الإسكندرية».

و الواقع أنّ العلماء النّظار فى النّحو و غيره بدأوا يقلّون فى القرن الثامن كما لاحظ

---

(١) المتوفّى بـ«القاهرة» عام ٧٤٥ هـ./ ١٣٤٤ م. («النّفح» ج ٣ ص ٢٨٩، ٣٤١ / «الدّرر الكامنة» ج ٤ ص ٣٠٢ / «بُغية الوُعاة» ص ١٢١ / «فوات الوفيات» ج١ ص ٥٩٨ / «الشّذرات» ج ٦ ص١٤٥/ «طبقات السّبكى» ج ٦ ص٣١/ «النجوم الزّاهرة» ج ١٠ ص ١١١ / «تاريخ بروكلمان» ج ٢ ص١٣٣ و ملحقه ج٢ ص١٣٥).

(٢) المتوفى عام ٧٧٨ هـ./ ١٣٧٦م. («الإستقصا» ج٢ص١٤٣/ «شجرة النّور» ص ٢٣٥).

(٣) توفّى بـ«القاهرة» عام ٨٠٢هـ./١٣٩٩م. («الضّوء اللامع» ج٩ ص١٤٩/ «شذرات الذهب» ج ٧ ص ١٩/ «نيل الإبتهاج» ص ٢٨١).

ذلك شاهد عيان هو « ابن خلدون »[1] فاتجهت الهمم إلى الفروع بدل الأصول وقل النزوع إلى الإجتهاد و الإبداع أو تفصيل ما أجمل فى المدونات فظهر أمثال :

— « يحيى بن عبدالرحمن بن محمد العجيسى الزرمانى البربرى » الذى نشأ فى « بجاية » و رحل إلى الشرق سنة ٨٠٤ هـ . / ١٤٠١ م . و توفى بـ « القاهرة » و شرح « الفية ابن مالك » فى أربعة أو ثلاثة مجلدات[2] .

— « عبدالرحمن المكودى » المتوفى عام ٨٠٧ هـ . / ١٤٠٥ م .[3] و له أيضا شرح على « ألفية ابن مالك » وآخر على « الآجرومية » و « البسط والتعريف فى نظم علم التصريف » (توجد نسختان منه فى المكتبة الملكية بـ « الرباط » عدد ٥٢٧ و ٥٤٣) وقد شرحه « محمد بن محمد بن أبى بكر الصغير الدلائى » فى كتابه « الفتح اللطيف » الذى طبع بـ « فاس » عام ١٣١٥ هـ . / ١٨٩٧ م .

— « ميمون بن عبدالله الفخار » المتوفى عام ٨١٦ هـ . / ١٤١٣ م . له « رجز فى النحو » (طبع على الحجر بـ « فاس »).

— « عبدالرحمن بن محمد بن محمد بن عمران الفنزارى السلاوى المجرادى » (٨١٩ هـ . / ١٤١٦ م .) له « القصيدة المجرادية » على هامش « نظم الجمل » (خع ٤٩٧ / « الجزائر » ١٢٢-١٩٠) شرحها :

أ) « عبدالرحمن بن أحمد الجزولى الرسموكى » (١٠٤٩ هـ . / ١٦٣٩ م .) فى « مبراز القواعد النحوية » (خع ٥٣٣ / باريس ٢٤٧٣ - ٣٢٠٤ - ٥٣١٧ - ٥٣٥٠ / « الجزائر »

---

(١) راجع كتابنا « تطور الفكر و اللغة فى المغرب الحديث » (ص ١٤٣) حيث أبرزنا مظاهر الضلاعة و المشاركة والعمق عند علماء « المغرب » فى هذا القرن فى مختلف المجالات العلمية .

(٢) « الضوء اللامع » ج ١٠ ص ٢٣١ / « نظم العقيان » ص ١٧٧ / « الأعلام للزركلى » ج ٩ ص ١٨٩ .

(٣) « نيل الإبتهاج » ص ١٤٥ / « الجذوة » ص ٢٥٩ / « السلوة » ج ١ ص ١٨٧ / « بغية الوعاة » ص ٣٠٠ / « النور السافر » لـ « لعيد روسى » ص ١٣ .

١٨٧ / «القيروان» ٥٩-١٨٦-١٨٨٤/ «القاهره» ١٥٦، وعليه حاشية لـ«محمد المهدي بن محمد الوزاني»، طبعت بـ«فاس» ١٣٢٣هـ. / ١٩٠٥ م.)؛

ب) «الحسين الزياتي» («الجزائر» ١٨٩-١٩٠-١٣٠٨).

ت) «ابراهيم بن أبي الحسين النظيفي» (خع ٥٠٠).

ج) «محمد بن أحمد ميارة».

- «محمد بن الحسن بن محمد الفاسي النحوي» (المتوفى بـ«حلب» عام ٩٥٦ هـ./ ١٥٤٩ م.) له «الفريدة البارزية في حل القصيدة الشاطبية»[١]

- «سعيد بن علي بن محمد بن عبدالعزيز الجزولي الحامدي» نحوي عصره[٢] (توفي بـ«مراكش» ٩٨٠ هـ. / ١٥٧٢ م.)

- «ابن مجيرة، محمد بن أحمد المساري النحوي»[٣] (٩٨٤ هـ. / ١٥٧٦ م.).

- «محمد بن يوسف العبدالوادي الزياتي النحوي» (توفي في «كانون» بـ«السودان» ٩٩٢ هـ. / ١٥٨٤م.)[٤]

- «محمد بن محمد الكومي الغماري المكناسي النحوي»[٥] (١٠٠٢هـ./ ١٥٩٣م).

- «عبدالرحمن بن أحمد بن محمد الرسموكي»[٦] (١٠٤٩هـ. / ١٦٣٩م.)، له:

١) «ميزان القواعد النحوية في شرح المجرادية».

٢) «تقييد الأمثلة المستحضرة» (أو المختصرة) لبعض مسوغات الإبتداء والنكرة («باريس» ٥٣١٧ / خع ٥٠٤).

٣) «الإبتداء» (طبع بـ«فاس» ١٣٢٣ هـ.).

---

(١) توجد نسخة بمكتبة معهد الأبحاث الإسلامية بـ«باكستان».

(٢) «الأعلام للمراكشي» ج ٨ ص١٧٦ (خ).

(٣) «نشر المثاني» ج ١ ص ٣١.

(٤) «مرآة المحاسن» ص ١٦٥/ النشر ج١ ص ٢٦.

(٥) «الجذوة» ص ٢٠٧.

(٦) «الصفوة للافراني» ص١٢٥.

٤) «مسائل نحويّة» .

– «أبونافع أحمد بن محمد الفاسى النّحوى»[1] (١٢٦٠ هـ . / ١٨٤٤م.).

– «حسن الفلالى المرّاكُشى» شيخ الجماعة فى علم النّحو[2] (١٢٧٠ هـ . / ١٨٥٣م.) لهفيه تأليف مع «شرح مقدّمةابن آجرّوم» (على طريق الإشارة) ومشيخةالجماعة فى النّحو فى هذاالعصر تبرّزمَدى استمرارالتّخصّص فى هذاالعلم مع التّقاعس عن الإبداع و الإقتصار على الشّرح و الإيضاح .

– « أحمد بن محمد بن على المَرْنيسى الفاسى النّحوى»[3] (١٢٧٧هـ./١٨٦٠م.).

– « على بن محمد السّوسى الفاسى » (١٣١١هـ./ ١٨٩٣ م) له شرح على «ألفيّة بن مالك» [4] .

– « محمد بن المبارك الهشتوكى» ١٣١٣ هـ ./ ١٨٩٥ م.) [5]، له :

١) «المسالك السّنيّة ، فى شرح الألفيّة» (أو «شرح الآجروميّة» كما فى «السّعادة الأبديّة» لـ«ابن الموقّت» ج١ ص٥) .

٢) «أثْمَدُ المُقَلْ فى شرح مهمّة الجُمَل».

وكان التّضلّع بـ«كتاب سيبويه» هو مدار التّخصّص فى النّحو فكان النّحاة ينقدون كلّ انتاج جديد على ضوء قواعد «الكتاب» وحتى فى أوائل هذا القرن بلغ هذا النوع من التّضلّع مبلغا حدا العلماء إلى تلقيب العـلامة « محمد بربيش » (١٣١٦ هـ . / ١٨٩٨ م .)[6] بـ«سيبويه» لمهارته الفائقة فى النّحو حفظا و ذوقا . وإذا كانت الدّراسات والأبحاث النّحويّة قدتركّزت حول «الزّجّاجى» و «ابن مالك» و «ابن آجرّوم» فأنّ

(١) «السّلوة» ج ٣ ص ٢٣٦ .

(٢) «الأعلام للمرّاكُشى» ج ٧ ص ٥٥ (خ) .

(٣) «السّلوة» ج ١ ص ٢٥٩ .

(٤) «الأعلام للمرّاكُشى» ج ٧ ص ١٣٠ (خ) .

(٥) «السّعادة الأبدية» لـ«ابن الموقّت» ج ١ ص ٥٥ .

(٦) «من أعلام الفكر المعاصر» ج ٢ ص ١٠٢ .

بعض خلفهم كانوا أكثر تخصصا كـ«محمد العطار المراكشي» الذي كان أنحى من «ابن مالك»[١] و قد اتسع نطاق هذه الشروح فشملت الشرق العربي و أقاصي البلاد الإسلامية و لنستعرض للايضاح نماذج من هؤلاء النحاة :

فمن شراح «ابن مالك» :

١) «شرح الألفية» لـ«شمس الدين حسن بن القاسم المرادي المعروف بابن أم قاسم»[٢] (المكتبة الوطنية بـ«تونس» ١٤٩٠م)

٢) «حاشية أحمد الكوراني» على «شرح الكافية» توجد نسخة بـ«الموصل» وأخرى في «بوهر» و ثالثة في المكتبة الوطنية بـ«تونس» (١٠٠٦ م).

٣) «محمد المرابط بن محمد القشتالي الدلائي» له «نتائج التحصيل في شرح كتاب التسهيل»[٣].

٤) «جلال الدين السيوطي» صاحب «المهيع في النحو» الذي كاد يبذ «كتاب سيبويه» له «نكت على الألفية والكافية والشافية و نزهة الطرف و شذور الذهب» توجد نسخة بخط المؤلف في «القاهرة» نسخت عليها أخرى بالمكتبة الوطنية بـ«تونس» (١٥٤٨ م).

٥) «محمد بن محمد بن حمدون بناني» ، له شرح على «خطبة الألفية». نسخة بـ«الرباط» و أخرى بالمكتبة الوطنية بـ«تونس» (١٧٦٧م).

٦) «تقي الدين أحمد بن محمد الشمني». له «منهج السالك الى ألفية ابن مالك». (المكتبة الوطنية بـ«تونس» (٢٥٥٦م) علاوة على نسختين في مكتبتي «الإسكوريال» و «هانوفر»).

٧) «أحمد بن عمر الاسقاطي الحنفي» ، له : «تنوير الحالك على منهج السالك

---

(١) «الأعلام للمراكشي» ج ٥ ص ٤٩.

(٢) «بركلمان» ج ١ ص ٢٩٨ و ملحقه ج ١ ص ٥٢٢/ «كشف الظنون» ج ١ ص ٥٢٢.

(٣) «ملحق كشف الظنون للبغدادي» ج ٢ ص ٦٢١.

إلى ألفيّة ابن مالك». (نسخة بـ«القاهرة» وثانية بالمكتبة الوطنيّة بـ«تونس» ١٠٥٦م).

٨) «ابراهيم بن موسى الشّاطبي اللّخمي الغرناطي» له شرح على «الألفيّة»، يوجد الجزء الثّاني منه في المكتبة الوطنيّة بـ«تونس» (٣٢٧٦م) كما توجد نسخة بالمكتبة الملكيّة بـ«الرّباط» لم تدرس بعد (٩٨٧١).

٩) «الحسن بن قاسم المرادي» ـ له: «التّوضيح على الألفيّة»

توجد نسخة بـ«برلين» (٦٦٣٨) قوبلت عليها نسختا المكتبة الوطنيّة بـ«تونس» (١٧٦٧ م / ١١٦٥ م) و يوجد تقييد على هذا الشّرح لـ«ابن غازي التّلمساني» (نسخة بـ«القاهرة» وأخرى بالمكتبة الوطنيّة بـ«تونس» ١٧٦٧م) و لـ«ابن غازي» العثماني «كتاب التّفصيل» الذي شرحه «عبدالرحمن بن محمد القصري» في:

«بذل العلم والودّ في شرح تفصيل العقد» («ملحق الكشف» ج١ ص ١٨٤/ المكتبة الوطنيّة بـ«تونس» ٣٦٢٢ م).

١٠) «علي بن إدريس قصارة الفاسي»، له حاشية على «أوضح المسالك إلى ألفيّة ابن مالك» (خم ٦٦٨٦/٦٤٤٣) و حاشية على «توضيح ابن هشام» (خم ٤٧٢).

١١) «محمد بن عبدالمجيد أقصبي» (١٣٦٤هـ. / ١٩٤٥ م.)[1]

له «المنح الوفيّة على الألفيّة» (منظومة في نحو خمسمائة بيت مع تعليق عليها).

أمّا «مقدّمة ابن آجرّوم» المعروفة بـ«الآجروميّة» و الّتي تحفظ في الوطن العربي كلّه كأصل و متن فتعدّ شروحها بالعشرات منها عدد كبير في المكتبة الوطنيّة بـ«تونس» وحدها عدا باقي المكتبات العربيّة.

١) شرح «يوسف الفيشي»، المكتبة الوطنيّة بـ«تونس» (٣٢٦ م).

٢) «محمد بن علي الخرشي». المكتبة الوطنية بـ«تونس» (٣٩٥٤م).

٣) «زين الدين جبريل»، نسختان بـ«برلين» (٦٦٨٤/١١٢) قوبلت عليهما نسختان أخريان بالمكتبة الوطنيّة بـ«تونس» (١٣٧٧ م / ١٣٧٧ م).

---

(١) «من أعلام الفكر المعاصر» ج ٢ ص ١٧٣.

٤) «محمد بن اسماعيل الرّاعي الأندلسي النّحوي» :

«عنوان الإفادة لإخوان الإستفادة» («ملحق كشف الظّنون» ج٢ص١٢٧) ، (المكتبة الوطنيّة بـ«تونس» ٢٨٦٥ م) .

٥) «أبو الصّلاح عليّ بن عبدالواحد الأنصاري الخزرجي» : «منحة القيّوم على مقدّمة ابن آجرّوم» (المكتبة الوطنيّة بـ«تونس» ١٥٠٦م) .

٦) «أحمد بن أحمد البجائي» (المكتبة الوطنيّة بـ«تونس» ٣٠٣م / ٤٤١٥م) .

٧) «محمد بن محمد بن أحمد بن علي الصبّاغ الهواري» : «الدُّرَر الصبّاغيّة في شرح الآجروميّة» (المكتبة الوطنيّة بـ«تونس» ٤٠٩١ م) .

٨) «أحمد بن عجيبة» له شرح بمقتضى قواعد النّحو ثم بطريقة الإشارة المسمّى «الفتوحات القدسيّة» خع ٢٠٠٤ د (م ١ - ٢١٩) .

٩) «أحمد بن محمد بن أحمد السّوداني» قاضي «تمبكتو» (١٠٤٤هـ.) : «الفتوحات القيّوميّة في شرح الآجروميّة» طبع على الحجر بـ«فاس» مرارا .

١٠) «خالد بن عبدالله الأزهري» (٩٠٥هـ./ ١٤٩١ م.) .

١١) «أحمد بن محمد بن حمدون بن الحاج السّلمي الفاسي» (١٣١٦هـ./١٨٩٨م.) :

له حاشية على «شرح الأزهري» سمّاها «العقد الجوهري من فتح الحيّ القيّوم في حلّ شرح الأزهري على مقدّمة ابن آجرّوم» ، طبع مرارا بـ«فاس» في ١٧٢ و ١٧٦ و ٢٦٤ ورقة .

١٢) «يوسف الفيشي» له حاشية على «شرح الأزهري» (خم ٤٢٢٨/ ٥٢٣٢) .

١٣) «عبدالرّحمن بن علي المكودي» (٨٠٧ هـ. / ١٤٠٤م.) :

«شرح معتمد بالمغرب» (طبع مرارا) . ولـ«محمد المكودي» ثلاث منظومات في النّحو (خم ٨٥٨) .

١٤) «عبدالله بن التاودي بن عبدالسّلام» له : «مفتاح العربيّة على توضيح ألفاظ الآجروميّة» (خم ٥٨٠٠) .

١٥) «عبدالله بن محمد بن عبيدالله الفاسي» : «الجواهر السّنيّة في شرح الآجروميّة» .

١٦) «عليّ بن محمد بركة التّطواني» : «النّصيحة الضّروريّة على مقدّمة الآجروميّة» [خع ٢٢٢٣د (م ٣٩٧-٥٤٠)] (في سفر واحد).

١٧) «عليّ بن ميمون الغُماري الإدريسي» : (شرح بالطّريقة الصّوفيّة)، [خع ١٧٨٠ (م ٧٨-١١٨)].

١٨) «محمد بن أحمد بن أبي يَعلى الشّريف الغَرناطي» : «الدّرة النّحوية في شرح الآجرومية» (شهير متداول) خع ٢٢١٤ (م ١٨٠ - ٣١٩) و أربع نسخ في خم (المكتبة الملكيّة بـ«الرّباط» : ٨٢٥١/٦٥٣١/٤٥٧٨/٣٦٢٨) المكتبة الوطنيّة بـ«تونس» ٣٦٢٩م، ٣٦٧٧/ نسخ أخرى في «باليرم» و «تِلِمْسان» و «القاهرة» و «الرّامفورية» و «باريس» و «الجزائر».

١٩) «محمد بن المُبارك بن عليّ الكدسي» : «كنز العربيّة في حلّ ألفاظ الآجروميّة» (خم ٥٦٠٢).

٢٠) «محمد بن محمد» المعروف بـ«الرّاعي الأندلسي» نزيل «المغرب» (٨٥٣هـ./ ١٤٤٩ م.) : «المستقلّ بالمفهوميّة في شرح ألفاظ الآجروميّة».

٢١) «أبوحامد محمد العربي بن يوسف أبي المحاسن الفاسي» (١٠٥٢هـ./١٦٤٢م.) له نظم يحاذي «الآجروميّة».

وقد نظمها أيضا «أبوالفضل ميمون بن عبدالله المَصْمودي الفَخّار» (٨١٦هـ./ ١٤١٣ م.) (طبع على الحجر بـ«فاس» دون تاريخ).

٢٢) «أبوعيسى المهدي بن محمد الوزّاني (١٣٤٢هـ/ ١٩٢٣) :

له حاشية على «شرح الآجروميّة» المسمّى «ايضاح المسالك الخفيّة إلى الفتوحات القيّوميّة» (طبع على الحجر بـ«فاس» مرّتين في ٢٥٩ و ٢٦٦ صحيفة).

٢٣) «نجم الدين بن يحيى الغرضي» : «القواعد السّنيّة في إعراب الأمثلة الآجروميّة» (خم ٥٥٨١).

٢٤) «عليّ الأندلسي» له شرح توجد نسخة منه بمكتبة «سعيد حمزة» بـ«دمشق».

وقد شرح «كتاب الجُمَل» كما أفردت تآليف بشرح شواهده منها: شرح

لـ«أبي القاسم القيسي» وآخر لـ«لسيد البطليوسي» توجد نسخة من كليهما في «مكتبة الكتاني» الملحقة بالمكتبة الوطنية بـ«الرباط»، كما توجد أراجيز في النحو كـ«أرجوزة أبي جميل زيان بن قائد الزواوي الجزائري» (خم ٧٢٦٣/٤٥٥٦) التي شرحها «يحيى بن محمد بن أحمد السوسي البعقيلي» (خم ٤٧٤٢) و قصائد كثيرة لأدباء و محدثين و فقهاء كقصيدة «عبدالواحد بن عاشر» في موضوع الإتباع و التوكيد (٤٦ بيتا) (خم ١٦٤٨).

و قد أمسى لقب النحوي صفة بارزة اقترنت بباقي مواد الاختصاص في مختلف الأعصار و الأمصار و كلها انطلقت من «كتاب سيبويه» و من هؤلاء النحاة:

— «أبو علي الفسوي النحوي» وهو من مدينة «فسا» بـ«فارس» («معجم الأدباء» طبعة دار المأمون ج ٢ ص ١٦٩)

— «أبو الفضل بن النحوي»: «الترجمانة الكبرى للزياني» (ص١٠٦).

— «أبو علي الحسن بن علي بن طريف التاهرتي النحوي» (معجم الصدفي ص ٧٢).

— «أحمد بن شعيب الطيب النحوي» («درة الحجال» ج١ ص٢١).

— «أحمد بن محمد الحباء الفاسي النحوي» (البلوي ج ٣ ص ٣٦٩ / «النيل» ص ١٧٧ / «الجذوة» ص ٦٦).

— «أحمد الشاوي المراكشي النحوي» («الأعلام للمراكشي» ج٢ ص٢٠٦).

— «جودي بن عثمان النحوي المغربي المورورى» («أنباه النحاة» ص ٢٧١).

— «الإمام المغربي النحوي» (ذكره صاحب «الوشاح» ولم يسمه «أنباه النحاة» ص ٢٣٨).

— «ابن جكارتي، محمد النحوي»، شيخ «ابن فرنبذ» («الجذوة» ص ١٤٨).

و هكذا يتجلى بوضوح أن «كتاب سيبويه» كان المنوال الذي نسج عليه نحاة «المغرب» و «الأندلس» و أحاطوه بكل عناية و تقدير وانصب هذا التأثير على لهجات سامية أخرى كالعبرية حيث أصبح «كتاب سيبويه» منطلقا لتجديد النحو العبري بـ«فاس» كما اعترف بذلك علماء أمثال الأستاذ «ماسينيون» في محاضرته التي ألقاها في مؤتمر

«مجمع اللغة العربيّة» بـ«القاهرة» عام ١٩٥٩م . «مجموعة البحوث والمحاضرات» (ص ٢١٨ ، ١٩٥٩- ١٩٦٠ م .) على أنّ اللغة العربيّة كانت منذ القرن الثّالث الهجرى أداة الكتابة و الحوار عند اليهود فى مجموع افريقيا الشّماليّة و معلوم أن الفيلسوف الإسرائيلى «موسى بن ميمون» استوطن «فاسا» قبل الإرتحال إلى «مصر» وكتابه «دليل الحائرين» صورة حيّة لتضلّعه فى علوم العربيّة[1] .

وقدنبغ كثير من اليهود كان لهم الفضل فى بعث اللسان العبرى و «الدّراسة التّلموديّة» ودعم الحركة العلميّة من خلال اللغة العربيّة فقد ظهر حوالى ٩٦٠م. عالم يهودى أندلسى هو «منّاحم بن سَروق» حاول ، فى معجم شهير معروف باسم «محبرت»، الإعتناء بلغة العهد القديم فتصدّى الحبر الفاسى «دونش ابن لبرات» للدّعوة إلى فكرة جريئة هى وجوب العناية بالعربيّة والإستعانة بها فى فهم مصطلحات «العهدالقديم» وضرب لذلك مثلا بنحو مائتى كلمة عبريّة ماكان لأحبار «التّلمود» أن يستكنهوا معانيها لولا رجوعهم إلى اللغة العربيّة .

وقد حدث منذ هذا العصر بـ«فاس» صراع بين أنصار التّعريب و خصومه (أي أنصار تعريب العبريّة) حيث نجد «أبا زكريّاء يحيى بن داود حيّوج الفاسى» يرحل إلى «قُرطُبة» أوائل القرن الحادى عشر الميلادى للإقتباس من آراء «منّاحم» المذكور ، وقد تزعم الحركة الهادفة إلى إحياء التّراث العبرى فكان بحقّ المؤسّس الأوّل لعلم «فقه اللغة العبريّة» و قد استطاع بفضل ضلاعته فى اللغة العربيّة تركيز قواعد العبريّة التى استكمل نقصها بالمصطلحات العربيّة «أبوالوليد مروان بن جنّاح القُرطُبى» المولود فى النّصف الأوّل من القرن الحادى عشر و الّذى ألّف كتاب «التقريب والتسهيل» كما عالج القواعد العبريّة فى كتابه «اللُّمع» و اعتمد فى «كتاب الأصول» مؤلّفات عربيّة كـ«خصائص ابن جنّى» فى فلسفة أصول الكلمات و تخريجها التّخريج اللغوى السّليم .

وقد حثّ «يهوذا بن قريش» صاحب كتاب «فقه اللغة المقارن» (Philologie - comparée) يهود الشّمال الأفريقى على وجوب المزيد من العناية بالعربيّة تعزيزا لفهم

---

(١) لاحظ ذلك «كودار فى تاريخ المغرب» (ج ٢ ص ٤٥٣) .

أسرار العبريّة و « العهد القديم » و وضع قاموسا عبريّا لم يصلنا ، بينما وَضع معاصره «داود بن ابراهيم الفاسى » قاموسا سمّاه « أجرون » يحمل نفس الإسم و يتّسم بنفس القيمة مع شرح بالعربيّة للألفاظ العبريّة وكان « يهوذا بن قريش » يستشهد فى مؤلّفاته بالشّعر العربى[1] كاسار «ابن جنّاح» و خلفه فى تصانيفهم على منوال اللّغويّين والنّحاة العرب و قلّد «الحريزى» « مقامات الحريرى » فأدخل فى الأدب العبرى فنّا جديدا لم يكن لليهود به عهد ، وكذلك الأمثال العربيّة ، وقد ترجمت أسرة « تبون » إلى العبرى عديدا من الكتب العربيّة فى الفلسفة و الطّب و الرّياضيّات و القصص الشّعبى ، أمّا «اسحاق بن يعقوب الكوهن» الملقّب بـ«الفاسى» (الّذى ولد عام ٤٠٤ هـ . / ١٠١٣م.) فى « قلعة ابن أحمد » قرب « فاس » و توفّى بـ«الوسينة » بـ«الأندلس » عام ٤٩٧ هـ . (١١٠٣ م .) فله شرح على «التّلمود» فى عشرين مجلّدا يعتبر لحدّ الآن من أهمّ كتب التّشريع التّلمودى و له أيضا ثلاثمائة و عشرون فتوى محرّرة كلّها بالعربيّة وقد أسّس بـ«الوسينة » قرب «غرناطة » عام ١٠٨٩ م . معهدا للدّروس العُليا التّلموديّة كان الطّلاب يؤمّونه من كلّ الجهات .

و بهذه العُجالة تتجلّى أهميّة الدّور الّذى اضطلع به « نُحاة المغرب » فى دعم الدّراسات النحويّة انطباقاً من« كتاب سيبويه »الذى كان طوال ألف عام المرجع الأوّل للبحث فى هذا المجال الحيوى من علوم اللغة العربيّة

١ـ «محاضرات من الأدب العبرى» للدّكتور «فؤاد حسنين على» ـ طبعة الجامعة العربيّة (١٩٦٣ م . ص ١٤٧) .



عبدالعزيز مطر (الدكتور...)
(قطر)

فى ضوءِ آراءِ « سيبويه »
ردّ ابن هِشام اللَّخمىّ
على الزُّبيدىّ وابن مَكّىّ « فى لَحْن العامّة »

سادتى الأجلّاء :

منذ عشر سنوات ؛ كان لى شرف الإسهام فى الإحتفال بمرور اثنَى عشر قرناً ، على وفات وليد « البيضاء » وإمام «البصرة» وعالم العربيّة : « سيبويه ».

كان مكان الأحتفال : جامعة« القاهرة » ، وكان المشتركون فيه : جمهرة من المثقّفين العرب . وكانت صورة الإحتفال : مناقشة علميّة لرسالة جامعيّة ، قدّمتُها لنيل درجة الدكتوراه فى « علم اللغة » . . وشملت المناقشة قضية انتهيتُ إليها فى خلال بحثى ، تقرّر أنّ «سيبويه » سبق اللغويّين المحدثين إلى ابتكار نظريّة المضارعة ، أو المماثلة (Assimilation) بين « الأصوات المتجاورة » . . وكشف البحث ، وأعربت المناقشة عن مظهر من مظاهر عبقريّة «أبى بشر عمرو بن عثمان » .

لم يكن ما صنعتُ إلّا جهداً متواضعاً فى تقدير عالمنا العظيم . . فكم من بحث أدقّ وأشمل ، وكم من احتفال أسمى وأروع . . فى آلاف من مجالس العلم ، وقاعات الدّرس ، وكتب اللّغة ، فى الشرق والغرب . . كان ضيف الشرف فيها : «سيبويه» فهو « الزائرُ الذى لا يُملّ » كما كان أستاذه «الخليل بن أحمد» يقول ، كلّما دخل عليه «سيبويه» المحراب !

وأعود اليوم لأشارك فى مهرجانكم الكبير ، ممثّلا لِـ« دولة قطر » النّاهضة ، ولأوّل

كليّة تنشأ فى جامعتها « كليّة التربية » ، وفاءً لهذا الرائد الفذّ ، وتمجيداً لذكراه ، وعرفانا بفضله على الثّقافة الإسلاميّة والعربيّة.

والبحث الذى أشارك به فى هذه المناسبة العلميّة ، لايتناول - بصورت مباشرة - جانباً من جوانب شخصيّة «سيبويه» . . . . . . فما أكثر ماقيل وما يُقال عن هذه الجوانب المُضيئة . .

ولكنّى اخترت أن أبحث فى مخطوط لغوى ، يقرّبه موضوعه من علم «سيبويه» ، ويتّصل مؤلِّفه بفكر «سيبويه» ، إذ هو أحد الدّارسين لكتابه ، والمتعمّقين فى شرحه . . وهو إلى ذلك يعتمد فى ردّه على كثير من آرائه ، ويشمل ردّه عالما ذا صلة بآراء «سيبويه» ، هو «الزُّبَيْدى» صاحب «الاستدراك على أبنية سيبويه» .

أما المخطوط فهو : « المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان »[1] .

وأمّا المؤلِّف فهو : الإمام اللغوى ، «أبوعبدالله محمد بن أحمد بن هشام اللّخمىّ السّبتى الإشبيلىّ» ، مؤدّب العربيّة بـ«الأندلس» و «المغرب الأقصى» ، فى القرن السّادس الهجرى (ت ٥٧٧ هـ. / ١١٨١ م.) ومؤلِّف «النُّكت على شرح أبيات سيبويه للأعلم» و «المُجْمَل فى شرح أبيات الجُمَل» لـ«لزّجّاجىّ» و « شرح الفصيح » لـ«ثعلب» ، و «شرح المقصورة » لـ«ابن دُرَيد » . .

أمّا الموضوع الّذى اخترته لبحثى اليوم فهو دراسة ماجاءَ فى هذا المخطوط ردّاً على عالِمَين جليلَين سبقاه فى مضمار التأليف فى «لَحن العامّة » مع الإهتمام بما جاءَ فى هذا الرّد عن «سيبويه» ، هذان العالمان هما :

١ - « أبوبكر محمد بن الحسن الزُّبيدىّ الإشبيلىّ » (ت ٣٧٩ هـ. / ٩٨٩ م.) ويتناول كتابه «لحن عامّة الأندلس» ، فى القرن الرابع الهجرى ، وعنوانه : « لحن العامّة »[2].

---

(١) توجد منه نسختان فى «الأسكوريال» أولاهما برقم «٤٦» و الأخرى برقم «٩٩» .

(٢) نشر فى « الكويت » بتحقيق الدّكتور « عبدالعزيز مطر » . الناشر : « مكتبة الأمل » - ١٩٦٨ م.

٢ : « أبوحفص عمر بن مكّى الصقلّىّ » (ت ٥٠١ هـ. - ١١٠٧ م.) ويتناول كتابه لحن عامّة « صقلّيّة » ، فى القرن الخامس الهجرى ، وعنوانه : « تثقيف اللّسان وتلقيح الجنان »(1).

ويقع ردّ « ابن هشام » على « الزّبيدىّ » و « ابن مكّى » فى عشرين ورقة (لكلّ ورقة وجهان) من اثنتين وسبعين ، هى كلّ أوراق الكتاب ، فى النّسخة الّتى اعتمدنا عليها ، وهى برقم : ٤٦ « الأسكوريال » وعنوانها : « كتاب الرّدّ على الزّبيدىّ فى لحن العوام » وعنوان النّسخة الثّانية (رقم : ٩٩) : « كتاب المدخل إلى تقويم اللّسان وتعليم البيان » ، وهذا العنوان الأخير أقرب إلى أن يكون العنوان الأصلى للكتاب . وقد ذكره « السّيوطىّ » فى « بغية الوعاة » (١/٤٨) نقلاً عن « التّجيبىّ » ، ويرجّح ذلك أنّ الكتاب ليس ردّاً على « الزّبيدىّ » وحده ، بل هو ردّ عليه وعلى « ابن مكّىّ » ، وهو بعد الرّدّ من كتب اللّحن الّتى تقصد إلى تقويم اللّسان ، وأنّ « ابن هشام » ذكر فى مقدّمته مايستشفّ منه هذا العنوان ، وإن لم ينصّ عليه صراحة ، حيث يقول : « وجعلت هذا الكتاب مدخلاً إلى تقويم اللّسان ، وتعليم الفصاحة الّتى هى جمال الإنسان » .

وقد أوضح « ابن هشام » فى مقدّمته غايته من تأليف كتابه ، بقوله : « وألّف الزّبيدىّ - رحمه الله - فى لحن عامّة زمانه ، وما تكلّمت به فى أوانه ، فتعسّف عليهم فى بعض الألفاظ ، وأنحى عليهم بالإغلاظ ، وخطّأهم فيما استعمل فيه وجهان ، وللعرب فيه لغتان . فأوردت فى هذا الكتاب جميع ذلك ، وما تعسّف عليهم هنالك ، وبيّنت ماوقع فى كلامه من السّهو والغلط ، والتّعنيت والشّطط » .

« وأردفته بذكر أوهام « ابن مكّى » فى كتابه المسمّى : « تثقيف اللّسان وتلقيح الجنان » وابتدأتُ بالرّدّ عليهما فيما أنكراه ، وأضفتُ إلى ذلك كثيراً ممّا لم يذكراه ، ممّا غُيّر فى زماننا ، ولحنت فيه عوامنا » .

(1) نشر فى سلسلة « التّراث الإسلامى » بالمجلس الأعلى للشئون الإسلاميّة « بالقاهرة » عام ١٩٦٦ م. بتحقيق الدكتور « عبدالعزيز مطر » .

وبعد أن فرغ « ابن هشام » من ردّه تناول لحن عامّة « الأندلس » ، فى القرن السّادس الهجرى ، فى الأبواب الأربعة التّالية:

١ - « باب ما جاء عن العرب فيه لغتان فأكثر ، استعملت العامّة منها أضعفها ، وربّما استعلمت أقواها ، و ربّما عدلت عن الصّواب فى ذلك، ونطقت باللّحن » .

٢ - « باب ما تلحن فيه العامّة ممّا لا يحتمل التّأويل ، ولا عليه من لسان العرب دليل » .

٣ - « باب ماجاء لشيئين أو لأشياء ، فقصروه على واحد » .

٤ - « باب ما تمثّلت به العامّة ممّا وقع فى أشعار المتقدّمين ، تلقّنوها عن الفصحاء ، وهم لا يعرفون الأشعار التى أخذت منها ، وربّما حرّفوا بعض ألفاظها »[١].

* * *

منهج « ابن هِشام » فى ردّه

يتناول ردّ « ابن هشام » على « الزُّبَيْدى » أربعا وستّين مسألة ، تقع فى اثنتى عشرة ورقة (= ٢٤ صفحة) .

وفى ردّه على « ابن مكّىّ » يتناول اثنتين وستين مسألة ، تقع فى ثمانى ورقات (= ١٦ صفحة) .

وفى كلّ حالة يورد « ابن هشام » نصّ « الزُّبَيْدىّ » ، أو « ابن مكّىّ » . ثمّ يتبعه قوله : « قال الرّادّ » ، ويذكر رأيه فيما قال المؤلّف .

---

١ - حقّق هذا الباب الأخير الدّكتور « عبدالعزيز الأهوانى » ، ونشره مقرونا بدراسة قيّمة ، ضمن كتاب : « إلى طه حسين فى عيد ميلاده السّبعين » - دار المعارف ١٩٦٢م. كما حقّقتُ القسم الخاص بالردّ على « الزُّبيدىّ » و « ابن مكّى » ، ونشرت أوّلها فى مجلّة معهد المخطوطات العربيّة (المجلّد الثّانى عشر ١٩٦٦ م.) ونشرت ثانيهما فى مجلّة كليّة البنات - جامعة عين شمس - (المجلد السّابع : ١٩٧٣ م.) .

اتّجاه الرّدّ :

ومن دراسة الرّدّ تبيّنت أنّ الخلاف - فى جمهرة المسائل - بين «ابن هشام» وسابقيه فى ميدان تصحيح اللّحن، إنّما يرجع إلى اختلاف المقياس الصّوابىّ الّذى يجرى على أساسه الحكم بالصّحة والخطأ .

فـ«ابن هشام» - كما يتّضح من ردّه ومن تصريحه - يقبل من كلام العامّة ما وافق لهجة من لهجات العرب، ولو كان غيره أفصح منه وأشهر، ويجيز ما يمكن أن يلتمس له وجه من الصّحّة ؛ أو يروى عن لغوىّ، ولو انفرد بروايته . وهو يصرّح بذلك فى أكثر من موضع فى كتابه ، فيقول مثلا (ورقة ١٠ - ب) فى ردّه على «الزّبيدىّ» : «وأكنيته فهو مُكْنَى ليست بالفصيحة إلّا أنّها ليست بخطأ، ولا يجب أن تلحّن بها العامّة، لكونها لغة مسموعة . ومن اتّسع فى كلام العرب ولغاتها لم يكد يلحّن أحداً ، ولذلك قال «أبو الخطّاب عبدالحميد بن عبدالمجيد» (الأخْفَش الأكبر) : « أنحى النّاس من لم يلحّن أحداً» وقال «الخليل» - رحمه الله - «لغة العرب أكثر من أن يَلْحَنَ فيها متكلّم»، وروى « الفرّاء» أنّ « الكسائى » قال : « على ما سمعتُ من كلام العرب ليس أحدٌ يلحن إلّا القليل » .

وهو يعقب على قول «ابن مكّى» : «والصّواب جُمادَى الأولى وجُمادَى الآخِرة، ولا يجوز: جُمادَى الأوّل ولا الآخر» بقوله (ورقة ٢٠ - ب) : «قد أجاز ذلك قُطْرُب » وقال: «إذا قلت: الأوّل والآخِر فعلى تذكير الشّهر، وإذا قلت: الأولى والآخِرة فعلى تأنيث جُمادَى » .

وهو يعترف بأن ما ذهب إليه «ابن مكّىّ» فى بعض المسائل أحسن من غيره، ولكنّه لا يرضى بتخطئة العامّة إذا قالوا غير الأحسن، فقد قال «ابن مكّىّ» : « ويقولون نعق الغراب . والصواب : نغق بالغين معجمة » .

فردّ عليه « ابن هشام » قائلاً (ورقة ١٧ - أ) : « قد جاء فى كلامهم : نَعَق الغراب ونَغَق بالغين معجمة فلا معنى لإنكاره على العامّة ، ولكن نغق بالغين معجمة أحسن، وكذا حكى صاحب (العين) » .

وفى ردّه على «الزُّبيدى» (ورقة ١٠ ـ أ) يستشهد برأى لـ«ابن مكّى» قائلاً:

«حكى «ابن مكّى» فى كتابه المسمّى «تثقيف اللّسان وتلقيح الجَنان» أنّه يقال «خيزَران» بفتح الزّاى. قال: والضّم أكثر». قال الرّادّ: «فعلى هذا القول لا يكون فى الكلام لحن».

والإتّجاه إلى التّيسير عند «ابن هشام» يقابله تشدّد واضح عند «الزُّبيدى»، واتّجاه إلى الأخذ بالمشهور عند «ابن مكّى»، رغم وقوفه إلى جانب العامّة فى بعض أبواب كتابه.

وإذا كان هذا المسلك هو الطّابع العامّ فى ردّ «ابن هشام» على صاحبَيْه، فإنّ فى الرّدّ حالات كان الحقّ فيها إلى جانبه، ولكى يتّضح ذلك كلّه قمت بتصنيف مسائل الرّدّ على النّحو التّالى:

أ ـ مسائل يعترف فيها «ابن هشام» بأنّ ما قاله «الزُّبيدىّ»، أو «ابن مكّى»، صحيح. ولكنّه يضيف إلى ما قال إضافة جديدة، أو يستدرك عليه بما فاته أن يذكره.

وهذه المسائل عند «الزُّبَيْدى»: ٨ من ٦٤ بنسبة ١٢/٥٪

وعند «ابن مكّى»: ٦ من ٦٢ بنسبة ٩/٧٪

ب ـ مسائل يُخَطِّىء فيها «ابن هشام» رأى صاحبه، ويستدلّ على رأيه:

وهى عند «الزُّبيدى»: ٩ من ٦٤ بنسبة ١٤٪

وعند «ابن مكّى»: ٧ من ٦٢ بنسبة ١١/٣٪

ج ـ مسائل نشأ الخلاف فيها عن اختلاف المقياس الصّوابى بين التّيسير والتّشدّد:

وهى عند «الزُّبيدى»: ٤٧ من ٦٤ بنسبة ٧٣/٥٪

وعند «ابن مكّى»: ٤٩ من ٦٢ بنسبة ٧٩٪

* * *

استشهاده بآراء « سيبويه »

اقتضى الموقف الّذى حدّدناه لـ« ابن هِشام » فى مواجهة صاحبَيْه ، أن يتجوّل بين مصادر كثيرة ، وأن يستقى كبار الّلغويين ، ملتمسا من رواياتهم عن الّلهجات ، وآرائهم فى بعض الّصيغ والكلمات ، ما يؤيّد به وجهة نظره المناصِرةَ لكلام العامّة ، المعارضةَ لموقف صاحبَيْه . .

وفى مقدّمة الّلغويين الّذين رجع إليهم ، فى ردّه : « الخليل بن أحمد » ، و« سيبويه » ، و« الأخْفَش الأكبر » (عبدالحميد بن عبدالمجيد) و « الفرّاء » ، و « أبوعمرو الشّيبانىّ » ، و« الأخْفَش الأوسط » ، و« ابن الأعرابىّ » ، و« ابن السِّكّيت » ، و« ابن قُتَيبة » ، و« أبو حنيفة الدّينوَرىّ » ، و« المبرِّد » ، و « ثَعلب » ، و « أبو إسحاق الزّجاج » ، و « ابن دُرَيد » ، و« ابن الأنبارى » ، و« أبوالقاسم الزّجاجىّ » ، و « أبوعمر الزّاهد » (المطرِّز) ، و « أبوعلى القالىّ » ، و« أبوعلى الفارسىّ » ، و « أحمد بن فارس » ، و « ابن جِنّى » ، و « ابن سيده » ، و« ابن السِّيد البَطَلْيَوْسى » . .

بيد أن ملاحظتى أسفرت عن أنّ أكثر هؤلاء الّلغويين تردُّداً فى ردّ « ابن هِشام » : « الخليل » ، و « سيبويه » ، و« ابن سيده » . .

وكان رجوع « ابن هِشام » إلى « الخليل » من خلال معجمه « العين » وإلى « ابن سيده » من خلال معجمه « المحكم » . .

أما رجوعه إلى « كتاب سيبويه » ، و استشهاده بآرائه ، فهو ذو طابع متميِّز ، يقتضينا أن نلق عليه الأضواء من خلال تحليلنا للحالات التّسع الّتى احتكم فيها « ابن هِشام » إلى « سيبويه » ، على النّحو التّالى :

أوّلا ـ الإستشهاد بآراء « سيبويه » فى الأبنية :

(١) التّفعال والتِّفعال :

فى ردّ « ابن هِشام » على قول « ابن مكّى » : « وممّا يَطّرد فيه غلطهم : كسرهم

التّاءَ من « التّفعال » أينما وقع من الكلام . . . والصّواب : الفتح فى جميع هذا النّوع من المصادر، كـ« التّعداد »، و« التّطلاب »، و« التّسآل »، إلّا فى حرفَيْن : « تِلقاء » و« تِبيان »، ومنهم من يجعل « تِلقاءً » اسماً لا مصدراً ، وزاد بعضهم ثالثاً فقال : و« تِمثال » مصدر « مَثَّلت »[1].

قال الرّادّ : « التّلقاء » و« التّبيان » عند « سيبويه » اسمان للمصدر وليسا بمصدرَين . . وتِمثال أيضاً ليس بمصدر ، وإنّما هو اسم للمصدر .

و« التّلقاء » ، و« التّبيان » ، والتّمثال ذكرها « سيبويه » فى « الكتاب »[2] .

واعتمد « ابن هِشام » على قول « سيبويه » ، وعلى شرح « أبى سعيد السّيرافىّ » فى الإحتجاج لكون « التّمثال » ليس بمصدر ، فقال[3] : « لأنّ التّفعال ليس بمصدر لفَعَّلت ، وإنّما مصدره « التّفعيل » . وزعم الكوفيّون أن التّفعال بمنزلة « التّفعيل » ، وأنّ الألف فى « التّرداد » و« التّكرار » ونحوهما عوض من الياء فى « التّكرير » و« التّرديد » . ثم قال - مع « أبى سعيد السّيرافىّ » - : **والقول ما قاله « سيبويه »** ، لأنّه يقال : « التّلعاب » ، ولا يقال : « التّلعيب » .

ثم أضاف « ابن هِشام » إلى ما أورده « ابن مَكّىّ » من أسماء جاءت على « تِفعال » (بالكسر) ثلاثة وعشرين اسما لم يذكرها « ابن مَكّىّ » .

(٢) بناء « فُعْلَيْل » :

فى ردّ « ابن هِشام » على « الزُّبيدىّ » الذى خَطَّأ « عامّة الأندلس » فى قولهم لطائر من طيور الماء : « غَرنوق » ، وقال : إنّ الصّواب : « الغُرْنَيْق » . أمّا « الغَرنُوق » ، و« الغِرْنَوق » ، و« الغُرانِق » فهو الشّاب النّاعم[4] .

قال « ابن هِشام » : حكى « الخليل » أنّه يقال لواحد « الغَرانِيق » ، الّتى هى طيور الماء : « غُرنَيْق » و« غُرنوق » ، بضمّ الغين والنّون ، وحكى مثل ذلك « أبو حاتِم » فى « كتاب الطّير » وقال « ابن سيده » فى « المحكم » : « الغُرنُوق والغُرْنَيق طائر أبيض ، وقيل هو طائر أسود من طير الماء » .

(١) « تثقيف اللّسان » : تحقيق د . عبدالعزيز مطر : ١٣٦ ، ١٣٧ .

(٢) ٢/٢٤٥ و ٣٢١ (٣) الردّ : ١٤ - ب .

(٤) « لحن العامّة » : تحقيق د . عبدالعزيز مطر : ٢٢١ .

وما جاءَ فيه عن العرب لغتان فلا معنى لتلحين العامّة به ، وحكى « السّيرافىّ » أيضاً أنّ « الغُرْنَيق » : السّريع .

ثمّ احتكم إلى « سيبويه » فى بيان البناء الذى منه « الغُرْنَيق » ، فقال : « وذكر « سيبويه » : « الغُرْنَيق » فى بنات الأربعة ، وذهب إلى أنّ النّون فيه أصل زائدة »[١] .

ونصّ « سيبويه » : ويكون على مثال « فُعْلَيل » ، وهو قليل فى الكلام ، قالوا : « غُرْنَيق »[٢] .

وقد أيّد « أبوعلى الفارسىُّ » « سيبويه » فى أنّ النّون فى « غُرنَيق » أصليّة ، حين سأله « ابن جنّى » عن ذكر « سيبويه » « الغُرْنَيق » فى بنات الأربعة ، وجعل النّون فيه أصلاً لازائدة ، قائلاً : « من أين له ذلك ، ولانظير له من بنات الأربعة يقابلها » ؟ فلم يزد « أبوعلىّ » على أن قال فى جوابه : « قد ألحق به « العُلّيق » ، والإلحاق لايوجد إلّا بالأصول »[٣] .

(٣) بناء « فُعُلُّل » :

قال « ابن مكّى » : « إنّ صواب كلمة « الزُّمرَّذ » أن تكون بالذّال معجمة وفتح الرّاء ، وقد تضمّ »[٤] .

وكان ردّ « ابن هشام » : بل الصّواب : « زُمُرُّذ » بضمّ الرّاء[٥] وقد استند فى ردّه على قول « سيبويه » : « ويكون على مثال « فُعُلُّل » ـ وهو قليل ـ قالوا : الزُّمُرُّذ »[٦] .

(٤) « فَعَلة وفَعْلة » :

خطّأ « ابن مكّى » عامّة « صِقِلّيَّة » فى قولهم للسّاحة : « رَحَبة » بالفتح ،

---

(١) الرّدّ : ٤ ـ أ .

(٢) « الكتاب » : ٣٣٧/٢ .

(٣) « اللّسان » (غرنق) .

(٤) « تثقيف اللّسان » : ٦١

(٥) « الرّد » : ١٧ ـ أ .

(٦) « الكتاب » : ٣٣٩/٢ وفيه أيضاً : الصُّفُرُّق (نبت) وجاء « الصُّفُرَّق » أيضاً فى « الخصائص » لـ « ابن جنّى » ٤٨٨/٢ .

وذكر : «أنّ الصواب بإسكان الحاء»[١].

واستدلّ « ابن هشام » فى ردّه، بتمثيل « سيبويه » بهذه الكلمة فى جمع ما كان على وزن « فَعَلة » فى أدنى العدد وبناء الأكثر . وذلك قول «سيبويه» : « وأمّا ما كان على «فَعَلة» فهو فى أدنى العدد و بناء الأكثر بمنزلة «فَعْلة» و ذلك: رَحَبة ورحَبات و رِحاب، ورقَبة ورقَبات و رِقاب » .

ويؤيّد « ابن هشام » قول صاحب « القاموس » : « ورحَبة المكان ، وتسكّن، ساحته »[٢] .

ثانيا ـ حول جمع «فَعْلاء» على «فعلاوات» :

خطّأ « الزُبيديُّ » قول العامّة : « سَوْدانات » فى جمع «سَوْداء» ،وقال إنّها تجمع على « سُودٍ » و « سَوداوات »[٣] .

وقال « ابن هشام » فى ردّه : « أمّا « سُود » فصحيح . وأمّا « سوداوات » فخطأ»[٤].

وقد اعتمد « ابن هشام » على رأى « سيبويه» ،ونصّ كلامه :

« ولا يجمع بالواو والنون « فَعْلان » ، كما لايجمع «أفعل» ،وذلك لأنّ مؤنثه بالتاء ، كما لايُجْمع مذكّره بالواو والنّون،وكذلك أمر « فَعْلان » و « فَعْلَى » ، و « أفعل» و«فَعْلاء» إلّا أن يضطرّ شاعر»[٥] .

وإذا كان « ابن هشام » قد أخذ برأى « سيبويه» فى عدم جواز جمع « سوداء » على «سوداوات» ـ وهوماصحّحه «الزُّبَيدىّ» ـ فإنّ ذلك لايضعه فى جانب المتشدّدين..

---

(١) « تثقيف اللّسان » : ٢٤٥ .

(٢) مادّة « رحب » .

(٣) «لحن العامّة» : ٢٧٠ .

(٤) «الردّ» : ٦ ـ ب .

(٥) « الكتاب » : ٢١٢/٢ .

بل إنّى ألا حظ أنّه خطّأ «الزُّبَيدىّ» فى هذا الجمع لكى يصل إلى إجازة قول عامّة «الأندلس» : «سَودانات» فى جمع «سوداء»، مع أن «سوداوات» - و إن خالفت رأى «سيبويه» - أقرب إلى القياس من «سودانات» ، ولها وجه صحيح لدى لغويّين آخرين لم يذكرهم «ابن هِشام»[1].

وقد اضطرّ «ابن هِشام» إلى تأويلٍ اعترف هو به ، حيث رأى أنّه يمكن أن يصاغ من السّواد وصف على «فُعْلان» ، أى «سُودان» ويكون مفرده المؤنث بالتّاء فيقال : «سُودانة» ، قياساً على «أُدمانة» التى هى «الأدماء» من الظّباءِ ، وقد جاءت «أُدمانة» فى شعر «ذى الرُّمة» ، وقياس جمع «أُدمانة» : «أُدمانات» .

ثم قال «ابن هِشام» : «ولا يمنع على هذا أن يقال : «سُودانة» و «سُودانات» - كما تقول العامّة - إلّا أنّهم يفتحون السّين وحقّها على هذا أن تُضمّ. واعترف بتكلُّفه لكى يُجيزما تقوله العامّة فقال : «ولا أعلم هذا مسموعاً ، و إنّما قلته عن طريق التّجويز والإمكان ، لأنّ له نظيراً من كلام العرب ، كما أريتك» .

وهكذا نراه يأخذ بقول «سيبويه» لكى يخطِّىء «الزُّبَيدىّ» فى جمع «سوداء» على «سوداوات» ، ولها وجه . . على حين يبعد عن «سيبويه» ، ويتكلّف فى غير المسموح ليحقّق غايته فى الوقوف إلى جانب العامّة .. !

ثالثا - فى النَّسَب إلى فصول السَّنة :

خطّأ «الزّبيدىُّ» عامّة «الأندلس» فى النّسَب إلى فصول السّنة ، فقال إنّ النَّسَب إلى الشّتاء : «شَتْوِىّ» (بفتح فكسون) لا «شَتَوِىّ» (بفتح الشين والتاء) و إلى الرّبيع : «رِبْعِىّ» (بكسر الراء وحذف الياء) و إلى الصّيف : «صَيْفِىّ» ، و إلى الخريف : «خَرْفِىّ» (بفتح فسكون وحذف الياء) [2] .

---

(١) منهم «ابن كَيسان» ، راجع «شرح المفصّل» : ٥/٥٩ ، ٦٠ .

(٢) «لحن العامّة» : ٢٧٢ .

وأجاز « ابن هشام » في ردّه [١] قول العامّة : « الرَّبيعي » و « الخَريفي » (بإثبات الياء) ووافق « الزُّبَيدي » في خطأ العامّة في « شَتَوِي ».

وقد اعتمد « ابن هشام » في تصحيح « الخَريفيّ » على قول « سيبويه » : « وقال بعضهم : خَرْفِيٌّ ، أضاف إلى الخَريف ، وحَذَفَ الياء ، والخَرْفِيُّ في كلامهم أكثر من الخَريفيّ » [٢] .

ولكن « ابن هشام » لم يهتمّ بكون « الخَرْفِيّ » أكثر ، فأجاز الأقلّ على ماجرى عليه في تصحيح كلام العامّة .

واعتمد على « أبي حَنيفة الدّينوَريّ » في النّسَب إلى الفصول الأربعة ، ونقل قوله : « فالرُّبع الأوّل من الشّتاء يسمّى : الفصل الشَّتْوى (بفتح الشين و سكون التّاء) والرُّبع الثّاني منه يسمّى : الفصل الرَّبيعيّ ، و يسمّى الرُّبع الأوّل من الصّيف : الفصل الصّيفيّ ، ويسمّى الرُّبع الثّاني منه : الفصل الخَريفيّ » .

على أنّ صاحب « اللّسان » نقل عن « أبي حنيفة » أن النَّسَب إلى الخريف ، « خَرْفِيّ » (بسكون الراء) وخَرَفِيّ (بالتّحريك) [٣].

ثمّ انتهى « ابن هشام » إلى أنّ العامّة لاتُلَحَّن في النّسَب إلى الفصول إلّا في فصل الشّتاء ، حيث يقولون : « شَتَوِيّ » (بفتح التّاء) كرواية « الزُّبَيديّ » ، والصّواب إسكانها ، و استشهد ببيت لـ « لمّراعي النُّميريّ » ، كما استشهد « الزُّبَيدي » ببيت لـ « لذي الرُّمة » .

ولكن يبدو أنّ « ابن هشام » - مع اطّلاعه الواسع على « كتاب سيبويه » - لم تقع عينه على ما جاءَ في « الكتاب » : « وقالوا في الشّتاء : شَتَوِيّ (بالتحريك) » [٤] ولو أنّه رأى ذلك لسارع إلى الرّدّ به على « الزُّبَيديّ » وتصحيح كلام العامّة .

---

(١) « الرّدّ » : ٩ - ب ، ١٠ - أ .

(٢) « سيبويه » : ٦٩/٢ .

(٣) « اللّسان » : (خرف) .

(٤) ٦٩/٢ .

رابعا - فى معانى صيغ الزّوائد :

حاول « ابن هشام » - فى ردّه على « الزُّبَيدىّ » - أن يستدلّ بما أورده « سيبويه » من أنّ صيغة « أفعل » تأتى بمعنى الصيرورة من حال إلى حال ، **متّخذاً طريق التأويل لكى يصل إلى الحكم بالصّواب على ما يقوله عامّة الأندلس** : « تاجرمُردّ ، ومُخْسِر ، ومُرْبِح ، بصيغة اسم الفاعل من الرّباعى » . بدلا من : « رادّ ، وخاسر ، ورابح ، بصيغة الثّلاثى » .

وفى سبيل تصحيح كلام العامّة يفترض « ابن هشام » أنّ قولهم : « مُرْبِح » مصوغ من الرباعى أربح ، بمعنى صار ذا ربح ، و« مُخسر » مصوغ من أخسر أى صار ذا خسارة ، و« مُرِدّ » من الفعل « أردّ » أى صار ذا « ردّ » . ثمّ أورد نصّ « سيبويه » : « تقول : « أجرب الرّجل » و« أنحز » و« أحال » أى صار صاحب « جرب » ، و« نُحاز » ، و« حيال » فى ماله . ومثل ذلك : « رجل مُشِدّ » و« مُقْوٍ » ، و« مُقْطِف » أى صاحب « شدّة » و« قوّة » و« قطاف » فى ماله . ومثله : « ألام الرّجلُ » ، أى صار صاحب لائمة »[1] .

خامسا - الإحتجاج بشواهد « سيبويه » :

قد يبدو الإستشهاد بأحد شواهد « الكتاب » أمراً متوقّعا فى مؤلّف لغوى ، ولكن الّذى يدعونا إلى إبراز استشهاد « ابن هشام » فى ردّه بشواهد من « الكتاب » ، هو أنّ الإستشهاد جاء فى مقام الإحتكام إلى « سيبويه » ، والثّقة فيما يرويه ، والنّص على وجوده فى « الكتاب » . وذلك فيما يلى :

١ - عند ما قال « الزُّبَيدىّ » : « لايجوز دخول الألف واللام على « ذو » و« ذات » فى حال إفراد ولاتثنية ولا جمع ، ولا تضاف إلى المضمرات ، و إنّما تقع أبداً مضافة إلى الظاهر » .. وعندما وجد « الزُّبَيدىّ » ينكر الإستشهاد ببيت لـ« لكُمَيت بن زيد » ، ويرى أنّه « ليس من كلامهم المعروف »[2] .

---

(١) « الكتاب » : ٢٣٥/٢ .

(٢) « لحن العامّة » : ٤٩ .

عندئذ احتكم « ابن هِشام » إلى « سيبويه » الّذى أدخل بيت « الكميت » فى شواهده ، فقال « ابن هِشام » :

« وأدخل « سيبويه » بيت « الكميت » شاهداً على جمع « ذى » جمع السّلامة ، وإفراده من الإضافة ، وإلزامه الألف واللام ، وهو :

فلا أعنِى بذلك أسفَلِيكُم ولكنّى أُريد به الذّوِينا » [1]

وهذا الشّاهد فى كتاب « سيبويه » [2].

٢ ـ فى مجال دفاعه عن « أبى تمّام » الّذى نسب إليه « الزُّبَيدىّ » الغلط فى قوله : « عبد مَناه » ، بالهاء بدلا من التاء [3] ، قال « ابن هِشام » : « لم يغلط « حبيب » فى هذا الإسم ـ كما زعم ـ و إنّما أجرى الوصل مجرى الوقف ضرورة ، فلمّا كان الوقف على « مناه » بالهاء كما وقف على « اللّات » بالهاء ، أجراها فى الوصف ذلك المجرى ، والعرب كثيراً ما تفعل ذلك » [4] .

واستشهد « ابن هِشام » على ذلك بشاهدَين ، كلاهما من شواهد « سيبويه » .

ولكنّه نصّ على أحدهما بأنّه « من أبيات الكتاب » وهو قول « رُؤبة » :

« ضَخْمٌ يُحِبُّ الخُلُقَ الأَضْخَمّا » [5]

بتشديد الميم ، يريد الأضخَم بالتّخفيف ، لأنّ التّضعيف إنّما يلحق الإسم فى الوقف ، فأمّا فى الوصل فالقياس ألّا يلحقه التّضعيف ، لكن أجرى الوصل [6] مجرى الوقف ضرورة .

---

(١) « الردّ » : ٣ ـ أ .

(٢) ٤٣/٢ .

(٣) « لحن العامّة » : ٢٩٩ .

(٤) « الردّ » : ١٢ ـ ب .

(٥) « الكتاب » : ١١/١ ، ٢٨٣/٢ .

(٦) المراد وصل القافية بالألف ، فخرجت الميم من حكم الوقف .

والشّاهد الثّانى الّذى لم ينصّ على أنّه من أبيات «الكتاب» وهوفيه قول الرّاجز[١]:

ببازلٍ وجناءَ أو عيْهَلِّ[٢]

و قال «الأعلم»: «الشّاهد فيه تشديد «عَيْهل» فى الوصل ضرورة، و إنّما يشدّد فى الوقف ليعلم أنّه متحرك فى الوصل».

وقد استشهد به «ابن هِشام» فى الموضع السّابق نفسه، لكى يدفع عن «أبى تمام» ما نسبه إليه «الزُّبَيدىّ» من الغلط فى نطق «عبدمناه» بالهاء.

ملاحظات على استشهاد «ابن هِشام» بـ«سيبويه»:

١ - يتّضح من تحليلنا السّابق لإستشهاد «ابن هِشام» بآراء «سيبويه» و أبيات «الكتاب»، و أبنيته، أنّ هذه النّقول تركّزت على مبادىء و قوانين لغويّة، و قضايا كلّيّة، لامسائل جزئيّة كما لاحظنا عند استشهاده بروايات «الخليل» فى «العين» و «ابن سيده» فى «المُحكم» وغيرهما، على الوجوه الجائزة فى كلمة ما..

إنّ هذا يدلّ على ثقة بصاحب «الكتاب»، ووضعه فى موضع الحَكَم بين المتخاصمين.

٢ - مع رجوع «ابن هِشام» إلى المسائل التّسع السّابقة فى «كتاب سيبويه»، لاحظنا أنّ فى «الرّد» مسائل أخرى كان من المنتظر أن يلجأ فيها إلى «سيبويه»، ولكنّه رجع إلى بعض من نقلوا عن «سيبويه» كـ«ابن قُتَيْبة»، أو إلى بعض من خالفوا «سيبويه» كـ«أبى عمروالشيبانىّ».. وفيما يلى توضيح ذلك:

(١) تناول «ابن هِشام» فى ردّه تخطئة «ابن مَكّى» لعامّة «صِقِلِّيَّة» فى قولهم لبعض العَقاقير: «صَبْر» (بفتح الصّاد و سكون الباء) والصّواب: «صَبِر»، بفتح فكسر[٣].

---

(١) «منظور بن مرثد الأسدى» كما فى «اللسان» (عهل) أمّا فى «سيبويه» فهو رجل من «بنى أسد».

(٢) «الكتاب»: ٢٨٢/٢.

(٣) «تثقيف اللسان»: ١٢٥.

فقال «ابن هشام»[1] : «إنكاره تسكين الباء من «الصَّبْر» عجب». وقد حكى «ابن قُتَيْبة» فى «أبنية الأسماء»[2] : «أن كلّ ما كان على «فَعِل» مكسور العين، أو مضمومها، فإنّ التخفيف فيه جائز، و إذا خفّفوا مثل هذا فربّما ألقوا حركة الحرف المخفّف على ما قبله، و ربّما تركوه على حركته، فيقولون فى «فَخِذ» : «فَخْذ» و«فِخْذ»، وفى «عَضُد» : «عَضْد» و«عُضْد»..» ولنا هنا ملاحظتان :

أ ـ إنّ جواز التخفيف فى الثّلاثى المتحرك وارد عن «سيبويه» وهو فى كتابه[3] تحت هذا العنوان : «هذا باب ما يُسَكَّن استخفافاً و هو فى الأصل عندهم متحرّك، وذلك قولهم فى «فَخِذ» : «فَخْذ»، وفى «كَبِد» : «كَبْد»، وفى «عَضُد» : «عَضْد»، وفى «الرَّجُل» : رَجْل».

و «ابن قُتَيْبة» ينقل عن «سيبويه» كثيراً، وبخاصّة فى «باب الأبنية» فما كان أحراه أن يرجع إلى صاحب «الكتاب»..

ب ـ لم يوفّق «ابن هشام» برجوعه إلى «ابن قُتيبه» فى جواز تسكين باء «الصَّبِر»: لأنّ «ابن قُتيبة» ينصّ صراحة فى موضع آخر من كتابه على التّفرقة بين «الصَّبِر» الّذى هو من العقاقير، و «الصَّبْر» الّذى هو ضدّ «الجَزَع»، فيقول : «وهو «المرّ» و «الصَّبِر» (بكسر الباء) فأمّا ضدّ الجزَع فهو «الصَّبْر»، ساكن»[4].

وهذا يبطل استشهاده بالنّصّ السّابق من «ابن قُتيبة».

(٢) وفى الرّد مسألة أخرى استشهد فيها «الزُّبَيدى» برأى «سيبويه»، فلجأ «ابن هشام» إلى الرّأى المخالف، ووجده فى حكاية لـ «السّيرافى» عن «أبى عمرو»..

فـ «الزُّبَيدىّ» يرى أنّ الفعل «وَهَب» لايتعدّى إلى المفعولين بنفسه، و يخطّىء

---

(١) «الرّدّ» : ١٦ ـ ب.

(٢) «أدب الكاتب» : ٤٣١ (تحقيق «محمد محيى الدين عبدالحميد»).

(٣) ٢/ ٢٥٧.

(٤) «أدب الكاتب» : ٢٩٧.

قول العامّة: « وهبت فلاناً مالاً» والصّواب: «وهبت لفلان مالا». وقال: هكذا ذكر «سيبويه»[1].

وكان ردّ «ابن هشام»: هذا الّذى ذكرهوقول «سيبويه». ثمّ استند إلى حكاية لـ«السّيرافىّ» عن «أبى عمرو» أنّه سمع أعرابيّاً يقول لآخر: «انطلق معى أهبْكَ نبلاً»[2].

وقال: «فقول العامّة على هذا ليس بلحن».

(٣) صيغة «فُعْلُول»:

وهذه مسألة أخرى لم يرجع فيها إلى «سيبويه»، مع شيوع روايتها عنه.

والسّبب فى عدم رجوعه إلى «سيبويه» هنا واضح، لأنّ رأى «سيبويه» يؤيّد خصمه، ولا يؤيّد كلام العامّة الّذى يدافع عنه «ابن هشام».

فـ«ابن مكّىّ» يُخطّىء قول عامّة «صِقِلِّيَّة» فى فتح الفاء من صيغة «فُعلُول»، وقولهم: «عَنْقُود»، و«زَعرور»، و«زَنْبور»، و«زَرزور»، و«بَهلول»، و«قَرقور»، و«بَرغوث» بفتح أوائلهن. والصّواب الضّمّ. ثمّ ينصّ على أنّه: «ليس فى كلام العرب «فَعْلول». بفتح الأوّل إلّا قولهم: «بنو صَعْفُوق» لاغير، لخَوَل (أى خَدَم) بـ«اليمامة»[3]».

وهذا الّذى ذهب إليه «ابن مكّىّ» هوقول «سيبويه»، وقدذكر صيغة «فُعْلول» بالضّمّ، فى موضعين من كتابه، فقال فى أحد الموضعين: «ويكون على مثال فُعْلول فى الاسم والصّفة، فالاسم: «عُنقود» و«عُصفور» و«زُنبور». والصّفة: «شُنْحوط» و«سُرْحوب» و«قُرْضوب». ونظيرها من بنات الثّلاثة: «بُهلول»[4]». وذكر فى الموضع الثّانى من الأسماء: «طُخرور»، و«هُذْلول» و«شُؤْبوب»، ومن الصّفات:

---

(١) «لحن العامّة»: ٢٠١.

(٢) «اللّسان» (وهب).

(٣) «تثقيف اللسان»: ١٢٥.

(٤) «الكتاب»: ٣٣٦/٢.

« حُلْكوك » و « حُلْبوب »[١] .

ولم يذكر « سيبويه » مثالاً جاء على « فَعْلول » ـ بفتح الفاء و سكون العين ـ كما تقول العامّة .

ويدلّ على ذلك أنّ « ابن جنّي » قد استدرك على « سيبويه » مثالين جاء بفتح الفاء ، وهما : « زَرْنوق » ، و « صَعْفُوق » . أمّا « صَعفوق » فقيل أنّه أعجمي[٢] . وحكى « أبو زيد » : « زَرْنوق » بالفتح ، فهذا « فَعْلُول » وهو غريب[٣] .

فلا عجب أن نرى « ابن هشام » يلجأ إلى غير « سيبويه » ـ وهو « أبو عمرو الشّيبانيّ » ـ وأضاف إلى المثال الّذى استثناه « ابن مكّي » وهو « صَعْفوق » أمثلة أخرى تؤيّد مايقوله العامّة ، فأضاف : « زَرْنوق » ، للّذى يبنى على البئر ، و « بَرْشوم » ، وهى أبكر نخلة بالبصرة ، و « صَندوق »[٤] ثمّ نقل قول « أبي عمرو » : « ولا يضمّ[٥] أوله » .

وقد جرى « ابن السّكيت »[٦] و « ابن قُتَيبة »[٧] و « الحَريريّ »[٨] و « ابن الجوزيّ »[٩] و « ابن الأنبارى »[١٠] ، على رأى « سيبويه » ، ولكنّهم استثنوا كلمة « صَعفوق » فقط . .

---

(١) « الكتاب » : ٣٢٩/٢ .

(٢) « الخصائص » : ٢١٥/٢ .

(٣) نفسه : ٢١٨/٢ .

(٤) « الرّدّ » : ١٧ ـ ب .

(٥) في « القاموس » : الزُرنوق ، والصُندوق ، والبُرشوم بالضّم وقد تفتح .

(٦) « إصلاح المنطق » : ٢١٨ .

(٧) « أدب الكاتب » : ٤٧٧ .

(٨) « درّة الغوّاص » : ٦١ .

(٩) « تقويم اللّسان » : ١٢٤ .

(١٠) « الإنصاف » : ٨٠٠/٢ (تحقيق « محيي الدين ») .

وقد شاع فتح فاء « فَعْلول » فى المشرق والمغرب منذ القرن الثّالث ، ممّا دعا هؤلاء العلماء إلى التّنبيه على وجه الصّواب ، وهو الضّم .

وبهذه المناسبة أسجل هنا أن صيغة « فُعْلول » بضمّ الفاء ، التى تطوّرت فى بيئات كثيرة ، قديمة ، وحديثة ما زالت تنطق فى لهجة « دولة قطر » **بالنّطق الفصيح الّذى رواه « سيبويه »** .

وقد سمعت نطق « القَطَرِيّين » للكلمات الآتية بضمّ فاء « فُعلول » ، وهى :
« غُرنُوق » ، « يُربُوع » ، « يُرْبُور » (جُرْجُور) ، « قُرْقُور » (وتنطق بالكاف) ، « بُلبُول » ، « طُرثُوث » ، « عُصْفُور » ، « عُنْصُوص » ، « صُلْبوخ » ، « زُرْنوق » و « سُنْبُوك » (فارسية معربة) .

هذه ظاهرة فصيحة أشار إليها « سيبويه » ولا تزال حيّة على ألسنة « أهل قطر » .

ومع ملاحظاتنا السّابقة ، ومع ما يتّسم به ردّ « ابن هشام اللّخمى » من توسّع فى حدود الصّحة اللغوية .. نشهد بأنّ هذا « الرّدّ » يدلّ على سعة اطّلاعه ، وطول باعه ، وقوّة احتجاجه .

ولكنّا نشهد أيضاً بأنّ هذا « الرّدّ » لم ينل من المكانة الرّفيعة الّتى يتبوّأها العالمان اللّذان ردّ عليهما ، وهما « أبوبكر الزُّبَيدىّ » إمام العربيّة فى « الأندلس » ، و« ابن مكّىّ » إمام العربيّة فى « صِقِلّيّة » .

عبدالعزيز مطر



عبدالقادر المهيرى
(المغرب)

«كتاب سيبويه» بين التّقعيد و الوصف

إذا كان «كتاب سيبويه» قديما عمدة تدريس النّحو والتّعمّق فيه والتّصنيف الّذى يصبو أئمة النّحو إلى شرحه [1] فإنّه ينبغي أن يكون اليوم المنطلق لدراسة تاريخ النّحو العربي والمقياس الّذى به تُقوّم طريقة التّحليل اللّغوى في بدايتها و يضبط تطوّر المفاهيم النّحويّة ووسعها بما يفي بها من المصطلحات .

ولكن «الكتاب» وصاحبه مازالا ضربا من اللّغز ، فالرّجل الّذى تدين له العربيّة بأقدم دستور نعرفه لها يبدو أنّه عاش مغمورا لم يعرف الشّهرة حيّا ، ولا بوّأه المجتمع - أو بالأحرى أولياء النّعمة من كبار القوم - المكانة الّتي كان يحظى بها مَن كانوا مثله أو دونه درجة في العلم . والأخبار الّتي احتفظت بها كُتُب التّراجم عن حياته ليست نزرة فحسْب ، بل انّها لم تسلم من الإضطراب حتّى في شأن تاريخ وفاته [2] وليس من المألوف أن تتضارب الأخبار حول وفاة المشاهير من الرّجال .

أما « الكتاب » فأمره أغرب ، إن أنقذه الزّمان من التّلف فقد قضى على كلّ

---

(١) انظر : «خديجة الحديثي» : « كتاب سيبويه و شروحه» ، بغداد : ١٣٨٦هـ . - ١٩٦٧ م .

(٢) انظر في المصدر السّابق التّواريخ المختلفة : ص ٤٦ .

وثيقة تقدّمته ، و إذا اعتبرته من أوّل ما ألّف في النّحو أدهشكَ بضخامة حجمه و غزارة مادّته واستقصائه لمعطيات اللّغة واستعمالاتها ، وتساءلتَ هل يمكن لرجل في ظرف حياة قصيرة أن يجمع ماجمعه «سيبويه» من المعلومات عن اللّغة و يسيطر على تنوّع جوانبها وتشعّب وجوهها دون أن يكون عمله امتدادا التقاليد عريقة في التّأليف النّحوى[1]. و إذا بدا فقدان كلّ ماكتب في النّحو قبل «سيبويه» من شأنه أن يبرز قيمة صاحب « الكتاب » و أن يوكّد فضله على العربيّة فإنّه قد يكون أيضا ممّا يشجّع الحاسدين على الطّعن في نزاهة صاحبه و جعل الشّكوك تحوم حول نسبته أو نسبة بعض جوانبه اليه[2] . فقدان الآثار السّابقة لـ«لكتاب» يحرم الدّارس من كلّ وسائل المقارنة ، و يحول دونه و دون إرجاع الأمور إلى نصابها . و إذا كان الطّاعنون في « سيبويه » والذّائدون عنه على حدّ سواء في افتقارهم إلى الحجّة التّاريخيّة و الوثائق المكتوبة الّتي تثبت طرافة « سيبويه » أوعدم طرافته فأولئك يكفيهم أن يشكّكوا في نزاهة محسودهم بينما هؤلاء لايقرّ قرارهم إلّا إذا قضوا على الشّكوك و استأصلوا الظّنون .

ولكن ماهوالموقف الّذى ينبغي أن يتوخّاه الباحث اليوم من «الكتاب» ؟ لاشكّ أنّه يستطيع أن يستغلّ الأخبار الواردة عن هذا التّصنيف في كتب التّراجم فيخضعها للتّمحيص و النّقد ، و يخرج من كلّ ذلك برأى في هذه القضيّة ، و هذه الأخبار قد استغلّها فعلا جُلّ من اعتنى بإمام البصريّين وكتابه ، وحاولوا أن يستنطقوها لينصفوا « سيبويه » و سلفه[3] ، و يمكن له أيضا أن يكتفي بإجماع كبار النّحاة على نسبة مادّة «الكتاب» إلى تلميذ «الخليل» . والرّأى عندنا أنّه يجدر بالباحث ألّا يدرس هذه القضيّة

---

(١) انظر «الفهرست» : «مطبعة الاستقامة» بـ«مصر» ص ٨٢ .

(٢) أنظر : القفطي : « إنباه الرّواة » ج ٢ ص ٣٤٦ . « الفهرست » ص ٨٢ .

(٣) أنظر على سبيل المثال «سيبويه» إمام النّحاة لعلي النّجدى «ناصف» (القاهرة ١٣٧٢ هـ . = ١٩٥٣ م .) و «كتاب سيبويه و شروحه» لـ«خديجة الحديثي » و مقدّمة « الكتاب » لـ«عبد السّلام هارون» : دارالقلم : ١٣٨٥هـ . - ١٩٦٦ م .

بالإقتصار على عناصر خارجيّة فحسْب ، بل لعلّه يمكن أن نجد في النّصّ - نصّ «الكتاب» - ما يساعد على تقدير مجهود «سيبويه» فيه . و فرضنا هنا أن نقترح عناصر طريقة قد تساعد بالإعتماد على نصّ «الكتاب» عن تحديد دور «سيبويه» فيه .

انّ مادّة «الكتاب» متشعّبة متنوّعة الجوانب كثيرة الجزئيّات ولا مجال هنا لاستقرائها كاملة و استنطاق جميع جوانبها و انّما سنقتصر على بعض النّواحي و نختار عددا من الأمثلة نرجو أن نكون وفّقنا في اختيارها ومن الجوانب الّتى نراها مفيدة في هذا المضمار طريقة التّبويب و تصنيف المعلومات و منهج تقديم المفاهيم و التّعاريف و الأحكام و نوع المصطلحات .

و من الجوانب الّتي لا نتعرّض لها - لا لقلّة أهمّيتها و إنّما لأنّها يمكن أن تكون وحدها موضوع دراسة خاصّة بها - هو مايستشهد به «سيبويه» من آراء غيره من النّحاة . و بهذه المناسبة نشير إلى أنّ دراسة هذه الآراء ينبغي أن تتجاوز مجرّد الإحصاء إلى الجمع والتّبويب تبويبا يساعد على معرفة مدى مشاغل النّحاة قبل «سيبويه» .

* * *

إنّ الّذى يطالع «كتاب سيبويه» و يمعن النّظر في معطياته يلاحظ ضربا من عدم الإنسجام و لربّما اختلال التّوازن بينها ، فليس في «الكتاب» طريقة واحدة لتصنيف المسائل و تقديمها و توضيع المواضيع و تعليل الأحكام و تسمية المفاهيم ؛ والشّعور الّذى يحصل له أنّه تارة أمام عمل تأليفيّ يغلب عليه الإيجاز و الأحكام العامّة الجامعة لشتات المعطيات ، وطورا إزاء دراسة تحليليّة مفصّلة إلى أبعد حدود التّفصيل - تستعرض فيها المعطيات واحدة واحدة بحثا عن الإستقصاء والشّمولى ، و هذا يؤدّى بنا إلى القول بأنّ المؤلّف يتردّد بين مانسميّه التّقعيد و الوصف ، فهو تارة يدخل الباب من القاعدة أى من الحكم العامّ الّذى يشمل كلّ مسائل الباب أو جلّها ، و طورا يقف موقف الواصف لايبادر إلى التّقنين إلّا بعد استقراء شتات الإستعمالات ، و هذا يمكن أن نلاحظه في كلّ جانب من الجوانب الّتي ذكرناها .

١- تبويب المادّة

إذا كان التّوازن حاصلا تقريبا بين موضوعَي الدّراسة الكبيرَين - أعني النّحو والتّصرف [1] - فإنّه يعسر أن نجزم بذلك في شأن أبواب المسائل و خاصّة ماينتهي منها إلى قسم النّحو . لاشكّ أنّ التّبويب الّذى توخّى في « الكتاب » لم يبلغ بعد في كلّ موضوع درجة الوضوح الّتى ستكون له عندالخلق ، كما أنّ بعض جوانب المسألة الواحدة لاترد دائما ضمن الباب الّذى ننتظر أن نجدها فيه ، و بصفة عامّة يمكن القول انّ بعض المسائل استغرقت من الأبواب و من الّصفات في مختلف الّطبعات مالايبدو لنا متناسبا مع أهميّتها إذا ماقيست مع مسائل أخرى . هذا هو - في نظرنا - شأن تلك الأبواب العديدة الّتى يخصّصها لدراسة أنواع من التّراكيب المختصرة الّتي ينصب فيها المصدر أو ماكان شبيها بالمصدر ، فقد خصّص لها في طبعة «بولاق» مايقرب من سبعين صفحة ، هذا هو كذلك شأن الأبواب المخصّصة للتّصغير و قد استغرقت في طبعة « بولاق » ما يناهز الأربعين صفحة و شأن الأبواب الّتي درست فيها النّسبة إذ درست فيما يقرب من عشرين صفحة في طبعة «بولاق» .

ليست هذه الملاحظات انتقادا لطريقة « سيبويه » فلا شكّ أنّ الإطالة في مثل هذه الأبواب لها ما يبرّرها ، و يبدو لنا أنّ سببها هو أنّ « سيبويه » يقف هنا موقف المحلّل أكثر منه موقف المقعّد ، و يمكن - من هذه النّاحية - تقسيم أبواب « الكتاب » إلى قسمين : قسم بُوّب على أساس الأحكام و قسم بُوّب على أساس الأمثلة و تشعّب الإستعمال .

فالقسم الأوّل يبدو أنّ أساسه نظرة عامّة شاملة لجوانب الباب أو المسألة ، و لذا يبدأ عادة بتعداد تلك الجوانب قبل تحليل كلّ واحد منها ، و نذكر على سبيل المثال : « باب مجارى أواخر الكلم من العربيّة و هي تجرى على ثمانية مجار : على النّصب

---

(١) يستغرق مايدخل عادة في باب النّحو ٥٥٨ ص من طبع بولاق و يستغرق مايدخل في باب التّصرف ٣٦٢ ص .

و الجرّ و الرّفع و الجزم و الفتح و الضّم و الكسر و الوقف» [١] .

نجد بعد هذه المقدّمة تفصيلا لهذه المجارى وما يختصّ بها من أقسام الكلام .

هذا هو أيضا شأن «باب الإستثناء» إذ يبدأ المؤلّف بذكر « حروف الإستثناء » و تعدادها [٢] و بالإشارة إلى كيفيّة تناوله لجوانب هذه المسألة .

و أحيانا يبدأ هذا النّوع من الأبواب بتوضيح بعض المفاهيم الّتي لابدّ منها للباب المعنيّ بالامر . نجد ذلك مثلا في باب مجرى نعت المعرفة عليها إذ يبدأ ببيان أنواع المعارف :

« فالمعرفة خمسة أشياء : الأسماء الّتي هي أعلام خاصّة ، و المضاف إلى المعرفة إذا لم ترد معنى التّنوين ، والألف واللام ، والأسماء المبهمة ،و الإضمار » [٣] .

ومرّة أخرى تفتتح هذه الأبواب بذكر حكم أوأحكام الظّاهرة المدروسة حسب تنوّع جوانبها كما فعل في «باب النّداء» إذ بدأ ، بقوله :

«اعلم أنّ النّداء كلّ اسم مضاف فيه فهو نصب على إضمار الفعل المتروك إظهاره، والمفرد رفع وهو في موضع اسم منصوب» [٤] .

و يمكن أن نلحق بهذا التّصنف مابدىء من الأبواب بتعريف المفهوم و توضيحه كما هو الشّأن في باب النّدبة :

«أعلم أنّ المندوب مدعوّ و لكنّه متفجّع عليه فأن شئتَ ألحقت في آخر الإسم الألف لأنّ النّدبة يترنّمون بها و إن شئت لم تلحق كما لم تلحق في النّداء» [٥] .

وكذلك « باب الترخيم » : « و التّرخيم حذف أواخر الأسماء المفردة تخفيفا كما

---

(١) «الكتاب» ط . ع . هارون ج ١ ص ١٧ .

(٢) المصدر السّابق ج ٢ ص ٣٠٩ .

(٣) المصدر السّابق ج ٢ ص ٥ .

(٤) المصدر السّابق ج ٢ ص ١٨٢ .

(٥) المصدر السّابق ج ٢ ص ٢٢٠ .

حذفوا غير ذلك من كلامهم تخفيفا » [1] .

نرى إذا أنّ المسائل الّتي كانت موضوع هذه الأبواب قد كان للمؤلّف عنها فكرة تأليفيّة تمكّنه من الإشراف على جوانبها بسهولة أو من تقديمها أوّلا تقديما مجرّدا ، و يبدولنا أنّ ذلك راجع إلى أنّها حظيت بالدّرس قبل « سيبويه » أكثر من غيرها ، و سُبرت مختلف شعابها ، و وُضّحت معالمها ، فأصبحت مألوفة ، و سهلت السّيطرة عليها . وليس معنى هذا إلّا فضل لـ«سيبويه» في تقديمها ولكنّ معناه أنّ سبيل الوصول إليها و الظّفر بها ممهّدة نسبيّا ، فتسنّى تقديمها بالإنطلاق من العامّ الى الخاصّ و من النّظريّ إلى التّطبيقيّ .

ولكن بجانب هذا الصّنف من الأبواب توجد أبواب عديدة أخرى ينطلق فيها المؤلّف من الإستعمال و تشعّبه . فالمفاهيم هنا لاتوضَع في بداية الباب والأحكام لايبادر إلى وضعها من أوّل وهلة ، و انّما ترد جزئيّة أو يستنبطها القارئُ باجتهاده أو يجمع شتاتها من الوجوه المعروضة . هذا مانجده عادة في أبواب لاتتضمّن عناوينها تسميته الظّاهرة المدروسة تمكّن من تصنيفها ضمن وظيفة من الوظائف النّحويّة كالفاعل والمفعول والحال من هذه العناوين نذكر على سبيل المثال :

- « باب ما يضمر فيه الفعل المستعمل إظهاره في غير الأمر و النّهي » (ج ١ ص ٢٥٧) .

- « باب ما ينتصب على إضمار الفعل المتروك اظهاره استغناء عنه » (ج ١ ص ٢٧٣) .

- « باب ماجرى من الأسماء مجرى المصادر الّتي يدعى بها » (ج١ ص ٣٢٤) .

و هذه الأبواب لاتعدو أن تكون عادة مجموعة من الأمثلة و الإستعمالات يقارن المؤلّف بعضها ببعض و يقرّب بينها و يتثبّت من تشابه أحكامها الإعرابيّة ، و يلوح فيها «سيبويه» مستقرئا أكثر منه عارضا للأحكام و القواعد أو جامعا لشتات المعطيات

(١) المصدر السّابق ج ٢ ص ٢٣٩ .

تحت قاعدة مضبوطة واضحة و كأنّه في عمله ذلك يمرّ بمختلف أطوار العمليّة القياسيّة المفضية إلى الأحكام العامّة .

و هذا ما يفسّر في نظرنا تعدّد الأبواب المذكورة وكثرة الأمثلة و الإستعمالات الموصوفة ، وتعدّد الأبواب هنا ليس سببه تعدّدالأحكام ولكنّ مرجعه ـ حسَب مايبدو ـ أنّ المادّةالمعالجة لم تندرج بعد نهائيّا في سياق الأبواب الّتي استقرت أحكامها واتّضحت قواعدها و تبوّأت مكانها الطّبيعي في تسلسل الفصول . وصاحب «الكتاب» يبدو واصفا سابرا لجوانب اللغة وشعابها لا مصنّفا للمادّة على أساس مااستنبطه السّلف و أقرّوا أسسه و بلوروا أحكامه .

٢ـ تقديم المفاهيم و الأحكام :

أمّا الظّاهرةالثّانية الّتي تلوح لنا مترجمة عن مدى مااستفاده «سيبويه» من أعمال سلفه ومدى ما أضافه هو إلى المادّة النّحوية فهو ماسمّيناه بتقديم المفاهيم والأحكام .

هذه الظّاهرة تابعة في نهاية الأمر لطريقةالتّبويب ونجد أيضا نوعَين من المناهج: المنهج المتمثّل في الإنطلاق من المفهوم المجرّد والّذى لايعتمد على المثال إلّا لتجسيم ذلك المفهوم ؛ و المنهج القائم على الإنطلاق من المثال للبحث عن كيفيّة معاملة المتكلّم له من حيث البنية و الإعراب .

ولنا في الأبواب الأولى من «الكتاب» أحسن مثال للصّنف الأوّل ومنها مثلا باب «مجارى أواخر الكلم العربيّة» [1] فهو مثال للعرض التّقريرى القائم على نظرة تأليفيّة للمعطيات ، فهو استعراض للأحكام النّحويّة من إعراب و بناء و رفع و نصب و جرّ وجزم يصنّفها المؤلّف حسَب أقسام الكلام تصنيفا لايخلو من إحكام ، ولا شكّ أنّ عرضا من هذا القبيل لايتسنّى ما لم توجد تحت تصرّف المؤلّف مادّة بلغت من التّبلور والتجرّد مايمكن من فصلها عن الإستعمالات الّتي استمدّت منها و ترتيبها ترتيبا نظريّا .

هذا أيضا هو شأن مجموعة الأبواب الّتي تتناول عمل الفعل أو ما شابهه كاسمى

(١) المصدر السّابق ج ١ ص ١٣ ـ ٢٣ .

الفاعل و المفعول و الّتي افتتحت بهذه المقدّمة الّتي تذكر عادة مثالاً لتعقّد كلام « سيبويه »[١] :

«باب الفاعل الّذى لم يتعدّ فعله إلى مفعول و المفعول الّذى لم يتعدّ اليه فعل فاعل ولا يتعدّى فعله إلى مفعول آخر ، و ما يعمل من أسماء الفاعلين و المفعولين عمل الفعل الّذى يتعدّى إلى مفعول ، وما يعمل من المصادر ذلك العمل وماجرى من الّصفات الّتي لم تبلغ أن تكون في القوّة كأسماء الفاعلين و المفعولين التي تجرى مجرى الفعل المتعدّى إلى مفعول مجراها ، و ما أجرى مجرى الفعل و ليس بفعل و لم يقوقوّته و ماجرى من الأسماء الّتي ليست بأسماء الفاعلين الّتي ذكرت لك ، ولا الّصفات الّتي هي من لفظ احداث الأسماء و تكون لأحداثها أمثلة لـِما مضى و لـِما لم يمض ، و هي الّتي لم تبلغ أن تكون في القوّة كأسماء الفاعلين و المفعولين الّتي تريد بها ماتريد بالفعل المتعدّى إلى مفعول مجراها ، و ليست لها قوّة أسماء الفاعلين الّتي ذكرت لك ولا هذه الّصفات كما أنّها لايقوى قوّة الفعل ماجرى مجراها وليس بفعل» .

إنْ ذكّرنا بهذه المقدّمة المعروفة فلنشعر عند قرائتها بعدد النّواحي الّتي تشير إليها و بحرص المؤلّف على استقصاء تلك النّواحي مع التّحرّى لِتميز بعضها عن بعض ، و تشعُّبُ التركيب إلى حدّ الغموض يدلّ ـ حَسَب مانعتقد ـ على رغبة « سيبويه » في تقديم مقتضب لكلّ ما يتعلّق بعمل الفعل أو ماجرى مجراه ، و لم يكن ذلك ليتسنّى لو لم تكن عناصر المادّة متبلورة في ذهنه نتيجة نضجها بفضل جهود الّسلف .

و يمكن أن نذكر أيضا دليلا على هذه الطّريقة في العرض الأبواب الخاصّة بالابتداء و بعمل انّ و أخواتها[٢] : انّ هذه الأبواب المذكورة على سبيل المثال تبدأ عادة إمّا بذكر القاعدة المتضمّنة للحكم الإعرابى و تعليله :

«هذا لباب الفاعل الّذى لم يتعدّ فعله إلى مفعول والمفعول الّذى لم يتعدّ اليه فعل

(١) المصدر الّسابق ج ١ ص ١٤ .

(٢) المصدر الّسابق ج ٢ ص ١٢٦ ـ ١٥٦ .

فاعل ولم يتعدّه فعله إلى مفعول آخر و الفاعل و المفعول في هذا سواء يرتفع المفعول كما يرتفع الفاعل لأنّك لم تشغل الفعل بغيره و فرغته له كما فعلت ذلك بالفاعل»[١] و إمّا بتحديد الظّاهرة المدروسة و بيان عناصرها و شروطها و حكمها :

« هذا باب الإبتداء فالمبتدأ كلّ اسم ابتدىء ليبني عليه الكلام ، و المبتدأ المبنيّ عليه رفع ، فالإبتداء لايكون إلّا بمبنيّ عليه ، فالمبتدأ الأوّل و المبنيّ مابعده ، فهو مسند و مسند إليه . و اعلم أنّ المبتدأ لابدّ له من أن يكون المبنيّ عليه شيئا هو هو ، أويكون في مكان أو زمان وهذه الثّلاثة يذكر كلّ واحد منها بعد مايبتدأ»[٢] .

ولابدّ أن نشير في هذا الموضع من كلامنا إلى أنّ الكثير من المبادئ الّتي يعلّل بها «سيبويه» الظّواهر المدروسة أو ستصبح عللا عند الخلف من النّحاة قد ورد ضمن هذه الأبواب الّتي نعتبر مادّتها متبلورة أكثر من غيرها لما حظيت به من عناية المتقدّمين . وهذه مثلا بعض العلل الّتي نجدها في الصّفحات الأولى من «الكتاب» :

«وليس في الأسماء جزم لتمكّنها و للحاق التّنوين ، فإذا ذهب التّنوين لم يجمعوا على الإسم ذهابه و ذهاب الحركة ، و ليس في الأفعال المضارعة جرّ كما أنّه ليس في الأسماء جزم لأنّ المجرور داخل في المضاف إليه معاقب للتّنوين و ليس ذلك في هذه الأفعال» (ج١ ص ١٤) .

« واعلم أنّ بعض الكلام أثقل من بعض فالأفعال أثقل من الأسماء لأنّ الأسماء هي الأولى وهي أشدّ تمكّنا . . .» (ج١ ص ٢٠) .

«واعلم أنّ النّكرة أخفّ عليهم من المعرفة وهي أشدّ تمكّنا لأنّ النّكرة أوّل..» (ج ١ ص ٢٢) .

«واعلم أنّ الإسم أوّل احواله الإبتداء . . . » (ج١ ص٢٣) .

ولكن بجانب هذه المفاهيم الّتي يبدو أنّها قداستقرّت والظّواهر الّتي قدصنّفت

---

(١) المصدر السّابق ج ١ ص ١٢٦ ـ ١٢٧ .

(٢) المصدر السّابق ج ٢ ص ١٢٦ ـ ١٢٧ .

واتّضحت أحكامها و سهل إرجاعها إلى المسألة ، نجد مفاهيم و ظواهر لانظنّها درست قبل «سيبويه» درساكافيا وحدّدت تحديدا محكما لتتسنّى السّيطرة عليها بسهولة . فترى المؤلّف لايقدّم للظاهرة المدروسة تعريفا مجرّدا ليقرّبه إلى الأذهان ، و لا يسكت عنها باعتبارها معروفة واضحة ، و إنّما يحاول أن يحدّد خصائصها و يوحي بدورها بواسطة المقارنة . و من الظّواهر الّتي كان هذا شأنها «الحال» ، فـ«سيبويه» لم يعرّفه كما فعل للمبتدأ والإبتداء مثلا ولاسكت عنه واعتبره في غير حاجة إلى التّعريف كالفاعل و إنّما سعى إلى ضبطه حتّى لايختلط بمنصوب آخر ، مقرّبا بين الأمثلة مستغـلّا المعنى اللّغوى لكلمة «الحال» :

« هذا باب مايَعْمَلُ فيه الفعلُ فينتصبُ و هو «حالٌ» وقع فيه الفعلُ و ليس بمفعول كالثّوب في قولك كسوتُ الثّوبَ و في قولك كسوتُ زيداً الثّوبَ ، لأنّ الثّوب ليس بحال وقع فيه الفعلُ ولكنّه مفعولٌ كالأوّل ، ألا ترى أنّه يكون معرفةً ويكون معناه ثانياً كمعناه أوّلاً إذا قلتَ كسوت الثّوب ، وكمعناه إذا كان بمنزلة الفاعلِ إذا قلتَ كُسِيَ الثّوبُ »[1].

فبمنهج تقديم هذا العنصر من عناصر الجملة في هذا الباب يعتمد التّنقّل من التّركيب المتضمّن لمفعول أو مفعولَين و المقارنة بينهما لإبراز مابينهما من فروق شكليّة ومعنويّة و هذه طريقة من طرق الملاحظة و الوصف وهي أبعد مايكون عن تقديم المفاهيم تقديما يعتمد التّجريد و التّصوّر الذّهني للأمور .

وطريقة المقارنة هذه كثيرا مايلجأ إليها «سيبويه» عندما تتشابه الظّواهر المدروسة في شكلها و خاصّة إعرابها و تختلف في دورها فيخشى أن تكون مصدر التباس . و هو يعتمدها أيضا عند مالا يكون التّقديم النّظرى كافيا لإبراز طرافة الظّاهرة المدروسة كما فعل عندما تحدّث عن «كان» و معمولَيْها :

«هذا باب الفعل الّذى يتعدّى اسمَ الفاعل إلى اسم المفعول واسمُ الفاعل والمفعول فيه لشيءٍ واحد ، فمن ثمّ ذُكِر على حِدَته ولم يُذْكَر مع الأوّل ولايجوز فيه الإقتصارُ

---

(١) المصدر السّابق ج ١ ص ٤٤ .

على الفاعل كما لم يجز في «ظننتُ» الإقتصارُ على المفعول الأوّل ، لأنّ حالكَ في الإحتياج إلى الآخر هٰهنا كحالكَ في الإحتياج اليه ثَمَّةَ و سنبيِّن ذلكَ إن شاءَ الله» [1] .

والغالب على الظّن أنّ تقديم هذه الظّواهر لم يكن في حاجة إلى مثل هذه المقارنة لو كان المفهوم قد اتّضح واستقرّت خصائصه في أذهان أهل الذّكر وتبلور في مصطلح شاع بين النّاس . و لنلاحظ هنا أنّ «اسم كانَ» و خبرها أشير اليهما باسم الفاعل واسم المفعول أي الإسم الّذى يجري مجرى الفاعل و الإسم الّذى يجري مجرى الفاعل المفعول . فالمصطلحان نفسهما يعتمدان في اختيارهما طريقة المقارنة مقارنة «جملة كان» بالجملة الفعليّة لإبراز ما بينهما من شبه في البنية واختلاف في المعنى .

٣ - المصطلحات :

و هكذا ننتقل إلى النّاحية الثّالثة من دراستنا أعني المصطلحات و مدى دلالتها على دور «سيبويه» في بناء صرح النّحو العربي . ولعلّ المصطلحات من أحسن المقاييس التي تُقاس بها درجة اكتمال هذا الصرح ، فوجود المصطلح يدلّ على أنّ المفهوم المسمّى قد استرعى الإنتباه و حظي بدراسة يمكن اعتبارها عميقة بقدر ما بدا المصطلح متبلورا مكتفيا بذاته لايحتاج إلى توضيح أو تعليق . أمّا إذا انعدم المصطلح و اضطرّ المتكلّم إلى وصف الظّاهرة بدون تسميتها باسم خاصّ بها فأقلّ ما يُقال في الظّاهرة المعنيّة بالأمر أنّها لم تحظ بما يكفي من العناية . و الحقيقة هنا أن قضيّة المصطلحات لا تمكن دراستها بالمقابلة بين حالتين مختلفتين إذ أنّ الطّرق المستعملة في «الكتاب» لتسمية المفاهيم متنوعة و مستويات الإصطلاح عديدة تتراوح بين المصطلح الواضح التّام التّبلور الّذى لا التباس فيه و انعدام التّسمية الإصطلاحيّة .

ف«الكتاب» يتضمّن عددا كبيرا من المصطلحات التي يمكن اعتبارها قد استقرّت واصبحت شفّافة تعكس مفهومها بصورة لاتحتاج معها إلى توضيح أو تعليل . ومن هذا النّوع المصطلحات الخاصّة بالبناء و الإعراب وأحكامه ، و بما يمكن أن نسّميه المقولات

---

(١) المصدر السّابق ج ١ ص ٤٥ .

النّحوية من جنس وعدد وتعريف و تنكير ، و ببعض الوظائف كالفاعل والمبتدا والنّعت والبدّل ، و أخيرا ببعض المفاهيم التّصرفيّة والتّصوتيّة . و هنا لا نظنّ أنّنا نجازف إن قلنا أنّ «سيبويه» وجد هذه المصطلحات قد شاعت نتيجة لما حظيت به مفاهيمها من عناية و لكثرة تداولها على الألسن ، فما كان عليه إلّا أن يستعملها واثقا بتأديتها لما يحملها ايّاه من معان .

و لكن بجانب هذا نجد حالات لايبدو أنّ وضع المصطلحات فيها قد استقرّ و بلغ حدّ الوضوح . ومن ذالك مجموعة من الأسماء يكثر استعمالها في «الكتاب» ولكنّها تبدولنا متأرجحة بين معناها اللغويّ و معناها الإصطلاحي وهذا في نظرنا شأن كلمة «حال» فهي في أغلب الأحيان جاءت مقرونة بجملة نعتيّة توضح معناها ممّا يدلّ على عدم اكتمال الصبغة الإصطلاحية فيها . وهكذا نجد مثلا :

«وهو حال وقع فيه الفعلُ» (ج ١ ص ٤٤) .

« لأنّه حال وقع فيه الأمرُ» (ج ١ ص ٣٧٠) .

«ماينتصب أنّه حالٌ يقع فيه الأمرُ» (ج ١ ص ٣٧٦) .

« لأنّه حال صار فيه المذكور» (ج ١ ص ٣٨٤) .

« لأنّه حال يقع فيه السِّعرُ» (ج ١ ص ٣٩٥) .

« لأنّها أحوال تقع فيها الأمورُ» (ج ١ ص ٤٠٠) .

و كذلك الشّأن بالنّسبة إلى كلمة مفعول ، فلايبدولنا أنّ حدودها الإصطلاحيّة قد اتّضحت في كلّ استعمالات «سيبويه» لها فنحن نجده مثلا يستعملها في تراكيب من هذا النّوع : «لأنّه حال يقع فيه الأمرُ فينتصبُ لأنّه مفعول به» (ج١ ص ٣٩١) .

«فكلاهما مفعول و مفعول منه» (ج ١ ص ٢٧٤) .

فالجمع بين الحال و المفعول به من ناحية ، و طريقة استعمال « حرف الجرّ » بعد «المفعول» من ناحية أخرى يجعلنا نشكّك في اعتبار «سيبويه» لها مصطلحا و نرجّح أن مايهمّه منها هو قبل كلّ شيء معناها اللّغوي .

أمّا الحالة الثّالثة فهي حالة المفاهيم التي عبّر عنها «سيبويه» بجملة كاملة أو عبارة تبيّن بالمصطلح أو تحمل بذورة - إن صحّ التعبير - بدون أن تكون قد تضمّنت صيغته النّهائيّة : مثال ذلك قوله عند الحديث عن «اسم الفعل» : «هذا باب من الفعل سُمّي الفعلُ فيه بأسماءٍ لم تؤخَذْ من أمثلة الفعل الحادث » (١) أو تسميته للنّعت السّببي : «نعت ما كان من سببها» .

و يمكن الإشارة أيضا إلى مصطلحات لايبدو أنّها قد تبلور فيها مفهوم واحد فاستعملت في أبواب مختلفة للدّلالة على ظاهرتين مختلفتين و منها «اسم الفاعل» و «اسم المفعول» لتسميته «اسم كان» وخبرها من ناحية والصّيغتين الصّرفيّتين المشتقّتين من الفعل من ناحية أخرى ، وكذلك شأن كلمة « خبر » فهي « خبر » للمبتدأ و حال إلى جانب هذا لم يجد «سيبويه» لبعض المفاهيم تسميات اصطلاحية فاكتفي بتحليل معناها كما فعل بالنّسبة إلى المفعول لأجله اذ أشار إليه في عنوان الباب بعبارة « عذر لوقوع الأمر » (٢) و لئن سمّاه في غضون الباب « مفعولا له » فاستعماله لكلمة «مفعول» لاتبدو فيها القيمة الإصطلاحيّة ، كذلك الشّأن بالنّسبة إلى اسم الآلة إذ عبّر عنه بجملة «ماعالجت به» (٣).

انّ طريقة تسمية المفاهيم والظّواهر النّحويّة في «الكتاب» تتأرجح هي أيضا بين المنهج التّأليفي و المنهج التحليلي الوصفي . هي تأليفيّة كلّما كان المصطلح جاهزا قد صقله السّلف فاكتفى بذاته إذ طمس المعنى اللّغوى بالمعنى الإصطلاحي . وهي تحليليّة وصفيّة كلّما لم يتحقّق التّطابق التّام بين الإسم والمسمّى من أجل حداثة العناية بالظّاهرة المسمّاة أواستعصائها على الدّارسين لتشعّبها أو عدم الإنتباه إليها . أمام هذه الحالة لايمكن لصاحب «الكتاب» أن يكتفي بالمصطلح إن وجد ، بل عليه أن يشير إلى الظّاهرة بإبراز خصائصها و حاجته إلى وصف تلك الخصائص ملحّة بقدر ما تقل ملاءمة المصطلح للمفهوم ،

---

(١) المصدر السّابق ج ١ ص ٢٤١ .

(٢) المصدر السّابق ج ١ ص ٣٦٧ .

(٣) المصدر السّابق ، ط. بولاق ، ج ٢ ص ٢٤٩ .

والوصف يعوّض التّسمية تعويضا تامّا إذا لم يسبق أن سمّيت الظّاهرة المدروسة .

وخلاصة القول انّ الإمعان في مادّة «الكتاب» يكشف ـ كما رأينا من خلال بعض النّماذج ـ تفاوتاً في توزيع المسائل على مختلف الأبواب و تنوّعا في طرق المفاهيم و تقديمها و استعمال المصطلحات . ولذا نرى أن دراسة «الكتاب» من النّواحي الّتي ذكرنا بعضها تساعد على تصوّر مساهمة «سيبويه» في بناء صرح النّحو العربيّ و تحديد المواضيع الّتي لم تتناول قبله أو لم تحظ عند المتقدّمين على «سيبويه» بالعناية الكافية و تمكّن من التّمييز بين شخصيّة المقعّد الّذى وجد أحكاما جاهزة فألّف بينها و بوّبها تبويبا تغلب عليه الصبغة النظريّة ، و شخصيّة الواصف الّذى استنطق بعض جوانب المادّة اللغوية وحلّلها واستنبط منها أحكاما تقتضي تبويبها على حدة أو ضمّها إلى الأبواب الحاصلة بعد .

۹

عبدالله جراری
(المغرب)

في ذِكرى مرور ۱۲۰۰ سنة على وفاة العَبْقَرِىّ الفارسىّ
« سيبويه » طَيّبَ الله ثراه

الحمد لله القادر على مايشاء ، والموفِّق مَن شاءَ لِما شاءَ ،
والصّلاة والسّلام على رسوله المبعوث للخليقة جَمْعاء

لايكاد يخفى على المثقف البصير (و عقب حقبة ليست بالقصيرة) ماكان للأمية البغيضة في الأوساط العربيّة والإسلاميّة من تأثيرات سيّئة طالما حالتْ بينهم وبين التفتّح على حضارات الأمم البعيدة والمجاورة كعراقيل صارفة لهم عن التعرّف على ماضى تلك العهود و ماجرياتها المليئة بالأحداث و الجولات والقصص الموقظة ، و الحكايات الباعثة ممّا لانجهل آثاره الإنسانيّة و الفنيّة على العقول المفكّرة و الموفّقة لتلقف ما ترمى إليه مخطّطاتها من أهداف و غايات ، بَيْدَ انّ هذا التّصميم الهادف لم يعدم مجاهل غامضة الرّسوم ، ملتوية السُّبل ، اعترضت طريقه ، و وقفت حَجَر عثرة دون الوصول إلى الحقيقة المتوخّاة من وراء البحث المنتج و المجهود المُجدي إن هى سوى روايات وحكايات أقلّ مايقال عنها : « كثرة المقالات دليل الجهالات » ذلك انّه كلّما انقطعت صلة الحقيقة وانغلقت المسالك إلا وأعشو شبت الجوانب ببُنَيّات الطريق ، و تاهت الأفكار تيها لا تفتأ تزيد أشواكها في تعقيد المنعرج و تغطية كنه المطمح عن العقول أكثر كم متى

أخطر تألم له النفوس الكبيرة ، و تتنفس أمام سوآته الصُعَداء .

هكذا و بعد تلك المدد نجد الخالق المبدع جلّت قدرته يبعث في تلك الأمّة رسولا اُمّيا كَهُم ومن أنفسهم يقول سبحانه: « هوالّذى بَعثَ في الأمّيّين رسولا منهم يتْلوا علَيْهم آياتِهِ و يُزَكّيهِم و يُعَلِّمهُمُ الكتابَ وَالحِكْمَةَ وَ اِنْ كانوا من قَبْلُ لَفي ضَلالٍ مُبينٍ » (١) .

غير انّ بين الأمّيّين بَون ، فهى في الرّسول محمّد عليه السّلام للاعجاز و الكمال وفي سواه على العكس بأوفى مفهومه «وَ ماكُنْتَ تَتْلوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بيَمينِكَ اِذاً لارْتابَ المُبْطِلونَ» (٢) .

هذاماحفز الرّسول و بوحى لتعليم العرب و كلّ من آمَنَ من أبناء البشر ـ الكتاب وآياته حسبما نزل عليه من « قرآن » في شتّى الوقائع و الأحداث و هم يتلقّون ذلك عنه استظهارا و بقدر مانستطيع طاقتهم اللاقطة ـ فكان صلوات الله عليه وهو المعلّم الماهر يعيد الكلمة ثلاثا لتعقل عنه سالكا سبيل التّكرار في أسلوبه التلقينى كعناية بالآخذين والسّائلين بخاصّة المتوجّهين إليه يطرح مايشكل في الأثناء كاستيضاح واستفسار بعيدَين عن التعجيز والتعنّت .

و من هذه المدرسة المحمديّة الأولى تخرّج حفّاظ و حفّاظ لـ«لكتاب العزيز » مع الاستشراف و الطّموح إلى التّعرف على مفهوم الآى من جوانب شتّى : روايات ، و توجيهات ، وفقه وقصص ومواعظ وعِبَر . لذا نجد البعض منهم يمكث السّنين الطّوال في تلقّى السّورة الواحدة كـ«البقرة» . فهذا الخليفة الثّاني « فاروق » رضى الله عنه قطع اثنتى عشرة سنة في حفظ السّورة المذكورة . و ابنه عبدالله هوالآخر مكث ثمان سنوات

---

(١) الآية ٢ من سورة الجمعة .

(٢) الآية ٤٨ من سورة العنكبوت و هنا آراء و أفكار هل كتب عليه السّلام أو لم يكتب مستعرضين موقعة «الحُدَيْبيّة» و صلحها وماجرى بين «علي» كرّم الله وجهه و بين «الرّسول» .

أخذاً بالفحوى العالي للآى الكريمة والغوص في نفحاتها القدسيّة ، فكان الرّسول الأكرم يأمر النّاس ان يتعلّموا الفقه والقرآن من جيرانهم ، و يقوم عليه السّلام في النّاس أحياناً خطيبا مثنيا على طوائف من المسلمين خيرا كترغيب لهم على الأخذ و التّثقيف ، و مرّة أخرى تجده على العكس من ذلك يقوم خطيبا قائلا «مابال أقوام لا يتعلّمون من جيرانهم ولا يتفقّهون » كما ورد في « مَجْمع الزّوائد» تحت «باب تعليم مَنْ لا يعلم » (١) وكربط لهذه العناية الطّيّبة انتدبت نخبة من الصّحابة للتلقين و التّفقيه كالصّحابي المجاهد «أبي عُبَيْدة بن الجرّاح» ؛ و « رافع بن مالك» ، أحد النّقباء وأوّل من أسلم من «الخَزْرَج» ، و «أُسيد بن الحُضَيْر»(٢) وسواهم ممّن تصدّوا لأداء هذه الرّسالة الخالدة . و من هذا المنطلق الهادف أخذ الطّموح يخطو خطوات متتابعة وفي قوّة حول التّعليم و التّهذيب و رفع وصمة الأُميّة ، فبعد ماوضعت حرب « بَدْر الأولى » أوزارها ـ كلّفت جماعة من الأسرى الذين يحسنون القراءة و الكتابة بتعليم كلّ واحد منهم عشرة من أطفال المسلمين حيث يكون ذلك فداء له من الأسر في النّهاية ، ولا بدع أن تكون هذه ثاني مدرسة أُسّست في فجر الإسلام لمحو الأمّيّة . و ما يتلو ذلك من تكوين و تثقيف ، للشّعور بالحاجة المُلِحّة كتحرّر من مخازى الأمّيّة والجهل (٣) فما ذاكان المردود يا ترى من تلك

---

(١) عن التّراتيب الإدارية للمطلع الكتّاني بالجزء الأول .

(٢) «أُسيد» ك«أمير» سبعة صحابيّون وخمسة تابعون راجع «قاموس الفيروز آبادى» في المادّة . كل شيء فى العرب «أُسيد» على فَعيل سوى «أُسيد بن عمرو فى تميم» فإنّه على مثال التّصغير ـ من ج ٢ من «المزهر» ص ٤٥١ . الى هنا انتهى كلام الدّكتر «جرارى» وأقول ذكره الصّفدى فى « الوافى بالوفيّات» (ج ٩ ص ٥٩ ـ ٢٥٨) : « بضمّ الهمزة و فتح السّين » وذكره الزِّركلى ، فى «الأعلام» ، ج ١ ص ٢٣٠ ، بالنّقل عن « الطبقات لابن سعد» و «تهذيب التهذيب» و «صفوة الصفوة » أيضاً بالتّصغير . احمد افشار شيرازى .

(٣) في هذا الظّرف و في ظلّ أكنافه درس « زيد بن ثابت » فى جماعة من غلمان الأنصار .

الثّقافة ؟ كان انّ نخبة كريمة من أصحاب الرّسول رضوان الله عليهم اندفعوا بولوع ساندته مواهب كوّنت منهم تراجمة لما يكتب بـ«الفارسية» و «الرّوميّة» و «القبطيّة» و «الحبشيّة» على رأسهم العبقريّ «زيد بن ثابت الأنصاري النّجاري» الّذى و بعصاميّة نادرة استطاع تعلّم تلك الألسن و حذقها كأحد افرادها مبرّزا يقرأ جميع مايرد بها ، و يكتب بقلمها ، و يجيب عمّا يتطلّب الجواب بنفس اللّغة .

و قد يُقال عن « زيد » ، من أين توصّل لمعرفة هذه اللّغات ؟ يُجاب بما جاء في الجزء الثّاني من « العقد الفريد » لـ«ابن عبد ربّه » ص ١٤٤ و نصّه : « و قيل انّه أى « زيد بن ثابت » تعلّم الفارسيّة من رسول « كسرى » ، و « الرّوميّة » من حاجب الرّسول صلوات الله عليه ، و « الحبشيّة » من خادمه ، و « القبطيّة » من خادمته » ، وجاء انّ الرّسول عليه السلام أمره أنْ يتعلّم « كتاب اليهود » إذ قال له : «تعلّم « كتاب اليهود » فإنّي لا آمن يهوديّا على كتابة » ، قال «زيد» فتعلّمت في نصف شهر حتّى كتبتُ له إلى يهود ، و أقرأته إذا كتبوا إليه بخ بخ . فهكذا تتجلّى العبقريّة بأجلى مظاهرها و بسند من المواهب بلاشكّ .

و في هذا العهد النّبويّ أخذت الكتابة تأخذ طريقها و يغشى تعلّمها الجهات البعيدة كنتيجة لتلك العناية المُعطاة لها من طرف الرّسول الأكرم عليه السّلام ، و من يكون في مجالسه من الأصحاب ، و بطبيعة هذه الإلتفاتة الحميدة و دونما طول ـ ظهر التّدوين على المسْرح الثّقافي بخاصّة في العصر العبّاسى إذ أصبحت الحاجة تلحّ (وبدافع عقدي ديني أكثر على تفسير «الكتاب» ، و جمع الأحاديث و أحكام الأسانيد و تعديل من يعدّل النّاقلين تمييز الصحيح من السّقيم ، والطّيب من الخبيث) وقتا أُصيب فيه اللّسان العربي بتضعضع واضطراب جعلا يمسّان جوهره ، و يُفسدان عليه أسلوبه بما حصل من اندماج وامتزاج بين العناصر العربيّة و العجميّة ، هذا يقتبس من ذلك و ذا يلتقط من الآخر و هكذا ذواليك ممّا لم يكن منه بدّ في التّلقين جدّيا لوضع قوانين و ضوابط تحفظ اللّسان من التعجّم والإلتواء المفضيّين (لاكان ذلك) إلى التّحريف والتّصحيف والقلب الشّيء الّذى لايتورّع أن يمسّ المفهوم المغيا للكاتب من كتابته خاصّة العامّة من

فنون وعلوم لفروع المعرفة التي يتحتّم الإحتياط لها ولتدوينها كبضاعة غالية يُزوّد الفكر الإنساني بها في عامّة القضايا الثّقافيّة و الإنسانيّة على اختلاف مناحيها ، فكان شيء من هذا القبيل و بالدّرجة الأولى يستدعي أدوات آليّة ، تكون لها الصّلاحيّة العامّة في حفظ التّراث الثّقافي من الوقوع في أخطار التّشويه و التنقيص من القيمة المقدّسة ، و على التّصعيد العام لدى أبناء الألسن الأخرى ممّن لاحظتهم عيون السّعادة فدرسوا العربيّة دراسة علميّة استطاعوا من ورائها ان يتعمّقوا أسرارها ، و ما تنطوي عليه اساليبها من لطائف ونُكت لها أبعادها في تنوير الأفكار و بلورة المفاهيم وجعلها تنسجم عن طواعية مع الذوق السليم ، و الفكر النيّر دون تعثّر أو التواء يوقعان ريبا أو تردُّدا (فالعربيّة كالفرس الحَرون لاتذلّ لغير أهلها الحاذقين مادّتها عن مهارة و ممارسة) .

هذا ما حفز الفارسيّ الشّيرازيّ الشّاب الوضيء « أبابشر عمرو بن عثمان بن قنبر الملقّب بسيبويه » ليصعد القيمّة و يكون الفارع السّبّاق في الميدان فيتدارك اللّسان العربيّ بعبقريّة نادرة منقذا إيّاه من مَخاطر الإهمال و مَعاور المسخ والقلب و اللّحن كنقائص طفقت تمتطي متن تراكيبه الجزلة ، و أساليبه المعجزة بشتّى مراميها تحت نيّر العامل و سيطرته القاهرة وفق ما توحي به القواعد الموضوعة كدعائم لها مقاماتها الفنّيّة طالما هي وسائل تهدف لبلوغ مقصد أسمى ، و مدلول له و لأجله اتّخذت السّلالم . ذلك انّ المفهوم المتوخّى من بين التراكيب وكَلِمها و حروفها المرصّفة ترصيفا محكما في جهريّة وقوة و شدّة ليس هو عدا المعنى المنبثق من فحوى المركب الكلامي بما ينطوي عليه من خفّة وحلاوة في قالب جذّاب راضته الحقيقة في المقدّمة ثمّ المجاز عند التّعذر بارتكاب نوع فلسفي يقتضيه الخيال إزاء علاقة يخلوها الأسلوب ، ثمّ لاعجب أن ترى الشّاب الفاتح « أبابشر سيبويه » يشبّ إلى الميدان زامعا قواه لتقنين الفنّ النّحوي و وضعه على أسس ثابتة كحقائق لها فعّاليتها الإيجابيّة في تركيز المعاني ، وكشف مايمكن أن يعلوها من خفاء و غموض طالما كانت دعائم في الدّرجة الأولى من بين فنون الأدب لدى القُدامى من رجال العربيّة و أقطابها ، وفي عناية بحصر الفكرة في اثني عشر فنّا قالوا :

« صرف، بيان، معاني، النّحو، قافية

شعر، عروض، اشتقاق، الخطّ إنشاء

محاضرات ، و ثاني عشرها لغة

تلكث العلوم لها الآداب أسماء »

الفنّ الذى به و به وحده يُقرع باب العَويص من المركّبات فينفتح على مصراعَيْه طيّعا منقادا لآليّة القانون المحكم الحلقات الّتي لا يكاد يعتريها تفكّكٌ و انحلال ما دام تقعيدها مدينا لأبطالها من عرب وعجم امتزجت العربيّة بعروقهم ودمائهم إذ شربوها من ينابيع صافية المورد ، عذبة المنهل لحدّ الامتزاج بأرواحهم ، ظاهرة جعلت البعض منهم يتغنّى في تيه و اعتزاز بالمفرد التّالي قال :

« و لست بنحويّ يلوك لسانه و لكن سليقيّ أقول فأعرب »

فاستطاعوا لهذه الحالة أن يجرّدوا الأقلام ، و يسخّروا المواهب فيكتبوا ما ألهموا إليه من ضوابط وقواعد لاتفتأ تُلقي الأضواء الكاشفة على أساليب اللّغة ، وتوا تنقشع السّحب ، و تنار الطّرق أمام القارىء والباحث فيبصران ماقد يعترض سبيلها لَوْلا تلكث الجهود الجبّارة والخدمات الجُلّى الّتى أسداها أولئكث الموفّقون من أبناء الثّقافة الحقّ للغة ـ وفي المقدّمة الإشراف على مكنون الآى القرآنيّة ، و الأحاديث النّبويّة من أعلى شُرَفات تلكث التقنينات الباعثة ماا كتنز في قلبها كخضوع لنظام مضبوط و محدّد لا تكاد المدلولات الكلاميّة تنقلت من بوتقته الفنّيّة لما يكتنفها من أطُر متماسكة الزّوايا لها قوّتها الفعّالة في دعم الملكات وانفساح المَجال للخلق و الإبداع ، والجولان فى ثنايا النّصوص رغبة في استكناه ما انطوت عليه من أسرار كأثر للمنهجيّة الّتى تقمّصتها ، و غدت كوسائل أُعطيت حكم الصّنائع الآليّة الّتى كان الفضل في انتحالها لأبناء الحَضَر وليس هم عدا العجم أو مَن في معناهم من الموالى و أهل الحواضر الّذين هم تبع للعجم في الحضارة و قطاعاتها من صنائع و حرف (١) .

---

(١) من مقدّمة فيلسوف الإجتماع «عبدالرحمن بن خلدون» فى فصل : «انّ حَمَلَة العلم فى الإسلام أكثرهم العجم » . نعم فكرة قابلة للنّقاش .

فكان « الفارسي » العبقري الذي نحتفل بذكراه اليوم الملهم الاول للتبريز في الميدان فطلع علينا بكتابه في النحو المسمى بـ : «الكتاب» .

«سيبويه» :

هو لقب إمام من أئمة فقهاء النحو على مذهب البصريين إذ كانت هناك مدرستان : ١) بصرية . ٢) كوفية وكانتا تتنافسان في التوجيهات العربية حيث يبني كل منهما رأيه على لغة من اللغات منتصرا لها ، و موجها إياها حسبما توحي به قاعدته . فكان «أبو على الكسائي» ، رأس المدرسة الكوفية ، و شيرازينا «سيبويه» رائد مدرسة البصرة . ولا أنسى بهذه المناسبة قولتهم اللطيفة : (النصرة ثابتة لأهل البصرة) فـ«سيبويه» هو « أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر» مولى من موالى قبيلة «الحارث بن كعب» العربية .

والتركيب المزجي هذا ذهبت الآراء في إطلاقه على الشاب الفارسي مذاهب ، منها : ان مدلوله : «رائحة التفاح» لكون أمه كانت ترقصه بذلك في صغره ، و منها : ان كل من لقيه شم من رائحة الطيب ، و رأى ثالث : انه اعتاد شم فاكهة التفاح فلقب به ، إذ معنى «سيب» تفاح و « ويه » رائحة كمركب عكسي حسب اللغة الفارسية ، أو كانت خداه المتوردتان قريبتين من لون التفاح كتكميل لجماله ، آراء هي إلى الأدب الذي يشم ولا يفرك أمس منها بالأدب الواقعي الذي تعلوه صبغة الجدية .

فالمترجم الفارسي تحيط بتاريخ ولادته و وفاته و مكانهما غموضات فلا أريد أن أعرض لتفاصيلها مادامت تتصيد من ثنايا البحث .

أصله و نشأته :

أصله من « البيضاء » بأرض « فارس » و نشأته بالبصرة التي كانت وقتئذ تحج برجالات الفن .

شيوخه :

أخذ عن «الخليل بن أحمد الفراهيدي»[1] (الرجل الذي لم يقدر الناس أثره الثقافي

---

(١) أبوه أول من تسمى بأحمد بعد الرسول عليه السلام كما جاء في « فهرست ابن النديم» .

في العربيّة حقّ التّقدير وإلى حدّ السّاعة ولا غرابة فكم له من نظير أُغْفل وأُهْمل فضاعت من ثُراته المعلمة الإنسانيّة ، و «الخليل» يعدّ أشهر أساتيذ المترجَم «سيبويه»[1] و يقول بعض مترجميه : انّه قدم يوما على الشّيخ فقال له : مرحبا بزائرٍ لا يُمَلّ ـ كلمة من شيخ لتلميذ لها مكانتها و وزنها في الإعتبار والتّقدير ـ كما أخذ عن « يونس بن حبيب » يقول «أبوعبيدة» : قيل لـ«يونس» بعد موت «سيبوية» : انّ «سيبويه» صنّف كتابا في ألف ورقة من علم «الخليل» فقال : ومتى سمع هذا كلّه من «الخليل» ؟ جيئوني بكتابه ، فلمّا رآه قال : يجب أنْ يكون صدق فيما حكاه عن « الخليل » كما صدق فيما حكاه عنّي . كما أخذ عن « عيسى بن عمر » . و تلقّى اللّغات عن «أبي الخطّاب ، الاخفش الكبير ، عبدالحميد» ، وغيرهم من أقطاب اللّغة .

قيمة «الكتاب» :

كان «الكتاب» من أهمّ ما أُلّف في النّحو ، و من أولها كذلك لحدّ أطلق عليه البعض « مصحف النّحو » ليس فقط بالنّسبة لعلم البصريّين بل أصبح منذ تأليفه عمدة جميع الدّراسات العربيّة في المادّة حتّى كان «أبوالعباس المبرّد» [2] يقول لمن أراد دراسته عليه : «هل ركبتَ البحر» تعظما منه لـ«لمكتاب» واستصعابا (فى ذات الوقت) لما فيه ، و ناهيك بها شهادة من إمام هو الآخر له طابعه الممتاز في الفنّ ، و الّذى لو لم يكن له سوى كتاب «الكامل» أحد الكتب الأربعة [3] لكان كافيا ـ و يقول « المازني » : « من أراد أن يعمل كتاباً كبيراً في النّحو بعد «كتاب سيبويه» فليستحى» . و يقول « أبوعمر

---

(١) هناك أشخاص أربعة عُرفوا بـ«سيبويه» : ١) إمام الفنّ صاحب الذّكرى . ٢) محمد بن موسى المصرى . ٣) محمّد بن عبدالعزيز الإصبهانىّ . ٤) أبوالحسن على بن عبدالله الكومي المغربىّ . من المزهر للسّيوطى (ج ٢ ص ٤٥٤) .

(٢) صاحب «الكامل» المتوفى سنة ٢٢٤ هـ .

(٣) أ : كتاب «الكامل» . ب : «أدب الكاتب ، لابن قتيبة» . ج : «كتاب البيان والتّبيين للجاحظ» . هـ : «كتاب النّوادر لأبى على القالي» .

الجَرمىّ » (١) في « الكتاب » انّه : احتوى ألفاً و خمسين بيتا سألته عنها فعرف ألفاً و لم يعرف ٥٠ إذكانت لشعراء مجهولين ، ورغم ذلك كانت محلّ استشهاد لتركيز القواعد العربيّة الّتى جاءت بعد اعتماداً على ماحصل عليه «الكتاب» من ثقة ، و نجد « أباالحسن السّيرافيّ » يتصدّى لشرح تلك الأبيات مع عناية خاصة بشرح عدد من أشهر آثار «مدرسة البصرة» وهذا «أبوالقاسم الزّمخشرى» (٢) (جارالله) يقول فى «الكتاب» :

ألا صلّى الإله صلاةَ صدق على «عمرو بن عثمان بن قنبر»

فإنّ كتابه لم يغن عنه بنو قلم و لا أبناء منبر

وتلك شهادة من «الأعرج» الّذى لولاه كـ«يوسف السّكاكي الأصمّ» لذهبت بلاغة « القرآن» وهي لعمرى شهادة «خزيمة» ، و قديما قيل لايعرف الفضل إلّا ذووه :

لايعرف الشّوق إلّا من يكابده و لا الصّبابة إلّا من يعانيها

و لشهرة «الكتاب» فى عالم الفنّ كان إذا أطلق عند النّحاة انصرف إلى «كتاب سيبويه» إذ أصبح علمًا عليه لايخطر ببال عالِم من أعلام العربيّة سواه من مصنّفات الفنّ فكان يُقال في «البصرة» : قرأ فلان «الكتاب» أو نصفه فيعلم انّه « كتاب سيبويه » .

---

(١) هو صالح بن اسحاق الجَرمي بالولاء فقيه عالم بالنّحو واللغة من أهل «البصرة» سكن «بغداد» له «كتاب السّير» ، و «كتاب الأبنية» . و «غريب سيبويه» و «كتاب العروض» توفى سنة ٢٢٥ هـ. ق. ـ ٨٤٠ م .

(٢) «أبوالقاسم محمود الزّمخشرى» الّذى يقول فيه «أمير» مكة «على بن عيسى بن وهاس الحسنى» :

«جميع قُرى الدّنيا سوى القرية الّتى تبوّأها دارا فداء « زمخشرا »

وأحرى بأن تُزْهى «زمخشر» بامرىء إذاعُدّ فى أُسْدِ الشّرى زمّخ الشّرا »

والعادة انّ النّاس يمدحون الأمراء وهنا نجد العكس وماذلك إلّا لفضل الممدوح و علوّ شأنه العلميّ .

لم تتح الفرصة لدراسة المؤلّف كتابه :

ممّا أوردوه هنا انّ «سيبويه» لم تهيّىء له الأقدار دراسة «الكتاب» وقراءته على تلاميذه بل وقعت هذه المهمّة على عاتق شيخه «أبي الخطّاب الأخفش» الّذي اضطلع بعدوفاته بمراجعة «الكتاب» مراجعة دقيقة، على انّ الإهتمام بدراسته (كما ألمعنا اليه آنفا) لم تقتصر على البصريّين وحدهم بل شاركهم الغير ولا بدع في ذلك (فالمعرفة مشاعة) يتلقّفها المرء أين وجدها، وكدليل لهذه الحكاية ماجاء عن «الجاحظ» قال : «أهدى الوزير ابن الخيّاط نسخة من «كتاب سيبويه» بخط الفرّاء و مقابلة «أبي علي الكسائيّ» و تهذيب «عمرو بن بحر الجاحظ» يعني نفسه، فقال الوزير : «هذه أجلّ نسخة توجد و أعزّها» (١) .

مناظرته مع الكسائيّ :

ورد عبقريّنا الفارسيّ بغدادّ على «يحيى البرمكي» فما كان منه إلّا ان جمع بينه وبين «الكسائي» كإمامين بارزين في الصّناعة النّحويّة للمناظرة في دقيق الفنّ و مشاكله و إثر لحظات ـ وجّه «أبوعلي الكسائي» سؤالا إلى الشّاب قائلا : «كيف تقول قدكنت أظنّ انّ الزّنبور أشدّ لسعة من العقرب فاذا هو هي أو هو ايّاها»؟ فقال «سيبويه» : «فاذا هو هي ولا يجوز النّصب»، فقال «الكسائي» : «أخطأت، العرب ترفع ذلك و تنصبه»، وجعل يورد عليه أمثلة من ذلك : «خرجت فإذا زيد قائم أو قائما» و «سيبويه» في كلّ ذلك يمنع النّصب متشبّثا برأيه وفى هذه الأثناء المحتدمة بين العملاقين قال «يحيى» : «قد اختلفتما و أنتما رئيسا بلديكما فمن يحكم بينكما» ؟

قال «الكسائي» : هذه العرب ببابك قد وفدوا عليك، و هم فصحاء النّاس فأسألهم . فقال «يحيى» : «أنصفت» و أحضرهم، فسئلوا فاتّبعوا «الكسائي» ، فاستكان «سيبويه» وقال : «أيّها الوزير سألتك إلّا ماأمرتهم أن ينطقوا بذلك فإنّ ألسنتهم لاتجرى عليه فما كان منهم إلّا أن قالوا : «الصّواب ماقاله الشّيخ» يعنون «الكسائي» دون أن ينطقوا

---

(١) ولاغرابة فقد حظيت بالمراجعة والمقابلة وممّن لهم الكفاية الخاصّة فى المادّة .

مخافة أن يفتضحوا حيث ألسنتهم لانطاوعهم على النّطق بماجرى عليه «الكسائي» و هذا مايؤكّد الرّيبة و يثبت الإنحراف ، و هما بالطّبع يذهبان بالفكر مذهبا خطيرا نحو لعب المادّة والرّشوة أدوارهما مع ماالجانب «الكسائي» من شفوف كلّ ذلك أدّى مهمّته حول التّعصّب على الشّاب الغريب و مخالفته ، وكتغطية لذلك يقول أبو علي : ليحيى: «اصلح الله الوزير انّ الفتى الفارسي وفد اليك من بلده مؤمّلا ، فإن رايت أن لا تردّه خائبا» فأمر له بعشرة آلاف درهم و هذه أيضا ، و عن كثب نفذ القدر للإمام، و غادر بغداد متوجّها إلى «فارس» في تأثّر بليغ من الحيف السّافر الّذى كانت منه نهايته ، فقضى غمّا وغيظا شيمة الأحرار فى أمثال هذه المواقف الحاسمة تأبى عليهم كرامتهم الذّلّ والمهانة بخاصّة ماكان من هذا النّوع الّذى تشرى فيه الضّمائر و تطمس الحقائق ضحيّة المادّة و الإنحياز .

وقد أحسن الأديب «ابوالحسن حازم بن محمد الأنصارى القرطاجنى» في منظومته النّحويّة البسيطية حاكيا الواقعة و عارضا المسألة :

و العرب قد تحذف الإخبار بعد إذا
إذا عنت فجأة الأمر الّذى دهما

و ربّما نصبوا للحال بعد إذا
و ربّما رفعوا من بعدها ربما

فإنْ توالى ضميران اكتسى بهما
وجه الحقيقة من أشكاله غمما

لذاك أعيت على الأفهام مسألة
أهدت إلى «سيبويه» الحتف والغمما

قد كانت العقرب العوجاء أحسبها
قدما أشدّ من الزّنبور وقع حما

و في الجواب عليها هل إذا هو هي
أو هل هو ايّاها قد اختصما

وخطّأ «ابن زياد» و «ابن حمزة» في

ما قال فيها « أبابشر » و قد ظلما

وغاظ « عمرا » «علىّ» في حكومته

يا ليته لم يكن في أمره حكما

كغيظ «عمرو» «عليا» في حكومته

يا ليته لم يكن في أمره حكما

إلى آخر البسيط .

همة «ابن عثمان» و علوّ نفسه :

ممّا سطروه هنا وكان في مقدمة الأسباب المخوّلة الإمامة في الفنّ انّ «نصر بن علي» قال : كان « سيبويه » يستملي على « حمّاد » فقال «حمّاد» يوما : قال : رسول الله صلى الله عليه و سلّم : « ما أحد من أصحابي إلّا وقد أخذت عليه ليس أباالدّرداء » فقال «سيبويه» : ليس «أبوالدّرداء» ، فقال «حمّاد» لحنت يا «سيبويه» . فقال « سيبويه » : « لاجرم لأطلبنّ علما لاتُلحنني فيه أبدا » ، فطلب النّحو و لزم « الخليل » . و قيل سبب اعتكافه على الفنّ غير هذا .

ممّا قيل له فيه : يا «سيبويه» «لو أصلحت لسانك كان أنحى لك» : فكان لهذه الكلمة ذات الظّاهر الجارح أثر بليغ في نفسه كوّن منه رجل الإعتماد على النّفس والإعتكاف على دراسة المادّة بأكثر مايمكن إلى أن أصبح حاملا لواءها كأكبر رائد من رُوّاد «مدرسة البصرة» و أنّها ويم الحقّ لظاهرة عصاميّة لها فعّاليتها في تكوين العباقرة وخلق النّوادر من أبناء الثّقافة ، وقد لانعدم لهانظائر في تراجم الرّجال وطبقاتهم ممّاكان لأمثال تلك الكلمة من وقع لهأعقابه الحميدة في تكييف النّفس و توجيهها الوجهة الصّالحة فمن ذلك الرّعيل : «محمد بن حزم الظاهرى» الإمام الذى كوّنت منه بعض أخطائه في أداء نوافل لم تصادف أوقاتها المشروعة حوافز عصاميّة خطت به نحو التّبريز فى التّشريع ومقاصده خطوات بعيدة ، خلّدتها مناظراته الفائزة ، و مصنّفاته المحكمة الوضع أُصولا و فروعا

و أدبا ، هكذا وطالماكانت النّفوس كبيرة تهون عليها أجسامها فى سبيل الشّرف الثّقافي و لذّاته الكبرى .

«و إذا كانت النّفوس كِبارا　　　　تعبت في مُرادِها الأجسام»

ولله درّ «التاج السبكى» إذ يقول فى كتابه «جمع الجوامع» : «وحصر الشيخ الإمام اللّذة فى العلوم والمعارف» ومن هذه المدرسة الباعثة - انطلق مترجَمنا الفارسى كإمام محلّق فى أجواء المعرفة - العربيّة نحوا و صرفا و لغة و ما إليها من فنون جعلته مَضرب الأمثال فى الفنيّة لغاية كانت كلّما ظهر عبقريّ فى الفنّ الا وضح لقب «الشّاب الفارسى» : «سيبويه» كاعتزاز و فخر يتقمّص بهما المتشبّه سواء فى الشّرق و الغرب .

«هم القوم فاجهد فى اتّباع سبيلهم　　　　و إنْ لم تكن شِبْهًا لهم فتشبّه»

ولا بدع وقد سمّى الناس «الكتاب» : «قرآن النحو» كما أشير اليه قبل [1] و من هذا الفحوى عن «الكتاب» ماذكره «صاعد بن أحمد الجيّانى الأندلسيّ» فى كتابه قائلا : «لاأعرف كتابا ألّف فى علم من العلوم قديمها و حديثها و اشتمل على جميع ذلك العلم ، و أحاط بأجزاء فنّه غير ثلاثة كتب» :

١) «المِجسطى» لـ«بَطْليموس» فى علم الفلك .

٢) كتاب «أرسطاليس» فى علم المنطق .

٣) «كتاب سيبويه» البصرى النّحوى ، فكلّ واحد منها لم يشذّ عنه من أصول فنّه شيء إلّا ما لا خطر له [2] .

ماكان ينشده من شعر أو ينشئه :

كان صاحب الذّكرى كثيرا ما ينشد البيت التّالى :

اذا بلّ من داء به ظنّ انّه　　　　نجا، و به الدّاء الّذى هو قاتله [3]

---

(١) من كتاب «مراتب النّحويين» «لأبى الطّيّب الحلبى» المتوفى سنة ٣٥١هـ . (مطبوع) .

(٢) من «معجم الأدباء لياقوت» مجلّد ١٦ ص ١١٥ .

(٣) بلّ من مرضه و أبلّ إبلالاً : برأ .

ولا أخاله إلّا ملوحا للشيخوخة و الهرم حيث لاعلاج ينجع فيهما رغم انّه قضى شابّا من نحو ٣٢ سنة او نيّف و أربعين على ماصحّحوه (١) فكان يرى فى تفكيره الجدى بعيدا كمستحضر لتلك الصّورة الحتميّة الّتى لا تلبث تعجز مهرة الأطبّاء عن المقاومة حيث الأجل محدود و قريب فى هذه الأمّة حسب الوارد عنه عليه‌السلام : أعمار أمّتى مابين السّتّين إلى السّبعين و أقلّهم من يجوز ذلك (٢).

يمثّل ذو اللّبّ في عقله مصائب من قبل أن تنزلا
و إن هي قد نزلت لم ترعـ ـه لما كان من قبل قدمثـّلا

و من شعره الهادف نحو التّقوى جاعلا نصب عينيه إمامته الفنّيّة كخيال ما لم تسانده استقامة تعمل على رفع مكانته فى تلك المقامات قال :

لسانى لسان مُعْرب في حياته فيا ليته من موقف الحشر يسلم
فما ينفع الإعراب إن لم يكن تُقى و ما ضرّ ذا تقوى لسان معجّم

فنجده مع هذاالوعي اليقظ نحو الدّار الأخرى غير غافل أو ناس كفايته اللّسانيّة فى الحياة و لكن مع تمنّ أن يوفّق فى موقف القيام كتوفيقه فى البيان و الإعراب يقول «أبوسعيد الطوال» كراثٍ و آسف على ضياع «الشّاب الفارسي» على طريق الحكاية (٣) رأيت على قبر «سيبويه» هذه الابيات مكتوبة وهي لـ«سليمان بن يزيد العدوي» :

ذهب الأحبّة بعد طول تزاور
و نأى المزار فأسلموك و أقشعوا
تركوك أوحش ما تكون بقفرة
و لم يؤنسوك و كربة لم يدفعوا
قُضِيَ القضاء وصرت صاحبَ حُفرة
عنك الأحبّة أعرضوا و تصدّعوا

---

(١) كما لياقوت الحموى فى «المعجم» .

(٢) الحديث اخرجه «التّرمذى» و«ابن‌ماجه» عن«أبى‌هريرة» مرفوعا وصحّحه «ابن حبّان» و «الحاكم» وقال : انّه على شرط مسلم .

(٣) ولا عجب أن يكون بانشاده مشاركا .

العناية بـ«الكتاب» :

لقد لفت «الكتاب» النّادر من نوعه فى المادّة ـ أنظار النّحاة قديما وحديثا سواء معاصرو المصنّف القارسى وغيرهم ممّن جاؤا بعد لحدّ أصبح معه حديث المجالس وأندية الباحثين فيما اعتصى من تراكيب ، وأشكل فى ثنايا الأساليب العربيّة على اختلاف لهجاتها و ما يجرى على ألسنتها من كلم حسبما تعوّدته فى قبيلتها ، و تمرّنت عليه منذ النّشأة الأولى هناك طالما توجد فروق مابين الجهة و الجهة تحدث بطبيعتها نوع إشكال لا ينفكّ يفسح المجال للقرّاء والكتّاب فى حلّ مايبدو من إشكال داخل الجمل و أجزائها ممّا قديسرى لا محالة لجوهر التّركيب فيفكّك كلماته ، وعن كتب تذهب الآراء مذاهب حول المفهوم المتوخّى .

هذا وما يهدف إليه ماحفز الكتّاب والباحثين للعناية بـ«الكتاب» وتناوله بالدّرس والتحليل رغم ماهو عليه من صعوبات فى عرض مااحتوته أبوابه وفصوله لغاية كان البعض من الإخصائيّين في المادّة يتهيّبه و يقول لمريد دراسته :

«هل ركبت البحر »؟ كما المعنا لذلك سابقا . و ممّن وفقوا لشرح « الكتاب » و بذل الجهد و هم كثير من «رجال مدرسة البصرة» : « أبوالعباس المبرّد » ، و « على ابن سليمان الأخفش »[١] و «الرّماني » [٢] و « ابن السّراج » [٣] و «أبوالقاسم الزّمخشرى» [٤] و « ابن الحاجب » [٥] و « أبوالعلاء » [٦] و سواهم ممّن خاضوا غمراته و مسالكه الوّعرة قاطعينها عن بيّنة ومهارة . فكانت تلكم العناية من هذه النّخبة الموفّقة فتحا جديدا وتيسيرا

(١) توفى سنة ٣١٥ هـ .

(٢) هو «أبوالحسن على بن عيسى المعتزلي» من كبار النّحاة له نحو مائة مصنّف منها : «صنعة الإستدلال فى الإعتزال» . ، فى سبعة مجلّدات ، توفّي سنة ٣٨٤هـ .

(٣) المتوفّى سنة ٣١٦ هـ .

(٤) المتوفى سنة ٥٣٨ هـ .

(٥) توفّي سنة ٦٤٦ هـ .

(٦) المتوفى سنة ٤٤٩ هـ .

لـ«لمكتاب» و تسهيلا على طُـلابه ، و جعلهم فى نفس الوقت مشرفين فى اهتداء على ما كان ينغلق قبل من مفاهيم القواعده و أقيسته المنطقيّة في قضاياها الهادفة الفهم الصّحيح .

و من فروع هذه العناية بـ«الكتاب» و شرحه اننّا نجد بعض الأوربيّين يتناول قِطعًا منه بالشّرح و التحليل وترجمته إلى اللغة الالمانيّة[1] و ما ذلك سوى رغبة علميّة دفعتهم للإفادة من مادّته الغزيرة ممّا لا يلبث يلقح لسانهم بعربيتّها ، كما نفس الشّىء في سواها من الموادّ الإسلامية أصولا و فروعا ، كهيام ثقافى علمي يبعثهم على البحث والتنقيب فى التراث العربى الإسلامى تطلّعاللمعرفة وتلقّفها دونما اكتراث لِمايعترضهم في سبيل ذلك من عقبات ، و قديما قالت الحكمة : « من عرف ما قصد هان عليه ما وجد » .

العناية بدراسته فى « المغرب » و «الأندلس» :

و إذكانت الثّقافة فى مفهومها العامّ منفسحة المجال رحبة الوطن ، مشاعة بين الرُّوّاد والباحثين أين كانوا وحيثما وُجدوا ، وكان أبناء «القطرالمغربـي» الواقع فى الشّمال الغربى من «القارةالإفريقية» لهم طموح خاصّ ، وواوع علمي منذ عهود بعيدة ، و طوال حقب شاحطة وكان فى المقدّمة اللغة و علومها و آدابها ، و النّحو بالطّبع على رأسها مادام آلة فاتحة لها فعّاليتّها و أبعادها فى الوصول إلى الفهم الصّحيح ، و الإدراك البعيد عن التردّد و الإضطراب فى الدّلالة . اختارت نخبة من المغاربة : « الكتاب » للدّراسة والبحث والتّعليق منهم : «محمدبن هِشام اللّخمي السّبتى» (كان يعيش فى منتصف القرن السادس) له « نكت على شرح أبيات سيبويه » لـ«لأعلَم»[2] الذى يُعَدّ فى الأندلسيّين

---

(١) و التّرجمة التّي قام بها يان («R. Jahn» (برلين سنة ١٨٩٤ و ما بعدها) بريئة من الأخطاء راجع ج ١٢ ص ٤٠٩ من دائرة المعارف الإسلاميّة .

(٢) هو «يوسف بن سليمان الشّنتَمَري» المعروف بـ«الأعلم» ت: ٤٧٦ هـ ، راجع « بُغْية السّيوطى » ، ص ٤٢٢ هـ .

الذين عنوا بـ«الكتاب» . ـ و من المغاربة ـ «أبوالقاسم عبدالرّحمن المَصْمودى»[١] الملقّب بالنّحوى كان يقرىء «كتاب سيبويه» . ومنهم «أبوالقاسم عبدالعزيز العبدوسي» (عاش فى العصر المرينى) كان هوالآخر يقرىء «الكتاب» .

و من الدّارسين له «أبوزيد عبدالرّحمن بن صالح المكودي الفاسى» [٢] قالوا : انّه آخر من درسه بـ«فاس» .

ولاعجب أن يدرس « الكتاب» بعد « ابى زيد المكودي » حيث الإقبال من علماء « المغرب » على العربيّة متواصل الحلقات و دراستها بكّل ما ألّفت به من مصنّفات خاصّة «الكتاب» والمغربى بطبيعته متطلّع وشغوف بالبحث في أعلى ما كُتب وحرَّر حول المعرفة ما بين وسائل ومقاصد على السّواء .

وممن تصدّوا لِفتح أقفاله، وكشف غوامضه العالِم الرّحّالة «ابن رُشَيد السّبتى» [٣] فوضع عليه شرحا إن يكون دلّ على شىء فانّما يدلّ على عناية «المغاربة» بالفنّ عامّة و بـ«كتاب الفارسى» المبدع خاصّة .

وقدأصبح من المأثور عندنا بالمغرب سواء فى الأندية الأدبيّة أوغيرها من المجتمعات

---

(١) المتوفى سنة ٦٤٩ هـ .

(٢) نسبة إلى « بنى مكود » قبيلة قرب « فاس » (العلميّة من بيت علم له عدّة مؤلّفات : « شرح الألفيّة » و « الآجروميّة » و له منظومة سمّاها : «البسط و التّعريف فى علم التّصريف» وله مقصورة في مدح الرّسول عليه‌السلام و شرح على « المقصور و الممدود» لـ«ابن مالك» ، ومنها نظم ذكر فيه ماعُرّب من الألفاظ العجميّة)،توفّى سنة ٨٠٧ هـ . و «السّخاوى» في «الضّوء اللامع» جعلها سنة ٨٠١ والتّصحيح الأوّل .

(٣) المتوفى سنة ٧٢١ هـ . صاحب الرّحلة المسمّاة : «ملء العَيْبَة فيما جُمع بطول الغَيْبة في الرّحلة إلى مكّة وطيبة» ويعدّ فى طليعة علماء «المغرب» فى شتّى ينابيع الثّقافة الإسلاميّة ، الرّحلة تحتوى ستة أجزاء مخطوطة يوجد بعضها بـ « خزانة الأسكوريال » بـ«اسبانيا» و بعضها بخطّ المؤلّف .

العامّة إذ ما قرأ قاري، أوتحدّث متحدّث وانحرف لسانه عن الجادّة إلّا وأخذت الألسنة فى المناجاة بينهما تتبادل الألم والأسف للإعتداء الواقع على قواعد «سيبويه» وأسسها المحترمة.

وهذه الظّاهرة هى الأخرى لتعطينا القيمة الكبيرة الّتى تمتّع ويتمتع بها «الفارسى» المنعم طوال حياة الفنّ.

و بطبيعة هذا يسقط اللاحن من الأعين ولو بلغ في غير المادّة درجة الإختصاص فى سواها من الموادّ العلمية.

و ممّن عنوا بـ «الكتاب» من أبناء «الفردوس المفقود» (الأندلس) «أبوالحجّاج يوسف بن عيسى» [1] كتب عنه مقتصرا على شرح الشّعر و نقد آرائه النّحويّة.

ومن هؤلاء: «أبوالحسن علىّ الحَضْرَميّ» المعروف بـ «ابن خَروف الإشبيلى» [2] له شرح على «الكتاب»، ذلك ما جعله يحظى بالتبريز في الفنّ و إن ضرب فى غيره بسهم، و بعد فراغه من شرح «الكتاب» حمله إلى سلطان المغرب فأعطاه ألف دينار. ومنهم «أبوالعباس أحمد بن مَضاء اللَخميّ» رحل من «قُرْطُبة» إلى «إشبيلية» حيث «ابن الرّمّاك» فدرس عليه «كتاب سيبويه» تفهمّا [3].

وما هذه الإلتفاتة الثّقافيّة الكريمة ممّن ذكر من رجال العدوتين - «المغرب» و «الأندلس» - سوى رباط وثيق وصلة أخويّة خلقتها الثّقافة الحقّ و تخلقها بين أبناء الإسلام شرقا و غربا غير عابئة بمآت الأميال الشّاحطة بين القارّتين: «الإفريقيّة» و «الآسيويّة». فللإسلام طاقته الإشعاعيّة وجاذبيّته الرّوحيّة منذ كان و إلى الآن ولابدع، فها هى ذى اللحظات الّتى نعيشها وعلى حياة شخصيّة صاحب الذّكرى تجعلنا نؤمن بانّ رباط الإسلام رباط خالد لاتنفصم عُراه مَدى الدّهر حيث يعكس فى نفس الوقت روح التّضامن الحقّ ديناً وتاريخاً واتّجاها.

---

(١) المتوفّى سنة ٤٧٥ هـ. هذا قول الأستاذ «الجرارى» وعلى قول «الزِّرِكْلى» فى «الأعلام»، ج ٩ ص ٣٢٢: «سنة ٤٩٢ هـ. ق.».

(٢) توفى سنة ٦٠٩ هـ. ق.

(٣) توفى سنة ٥٩٢ هـ. ولى قضاء «فاس» وغيرها فأحسن السّيرة وعدل. له «كتاب الرّدّ على النّحاة» نشره وحقّقه الدكتور «شوقى ضيف».

تعرّض المؤرّخين وأصحاب الطّبقات لحياته:

لِما لِـ«سيبويه» من شهرة في عالم الثّقافة و طيب الصّيت في الوسط الإسلامي والعربي تناولت الأقلام حياته من جوانب عدّة كانت في مجموعها تهدف وجهة واحدة، وتضرب على وتر موحّد ناقلة أقدامها على خطّة مرسومة حتّى لو قُدّر للقارىء أن يتصفّحها جميعها لما ظفر بجديد في ثناياها إلّا نادرا ينفرد به البعض من المتحدّثين عنه.

على انّ الباحث الفاحص لو أنعم النّظر أكثر لأمكنه الوقوع على أبعد ممّا جالت فيه عشرات الأقلام حول الكاتب وكتابه و إن وسّعه البعض بالإطناب و الحجج المملّة المجهدة - فهو «الكتاب» الحافل بالآيات البيّنات، والشّواهد ذات الدّعم للقواعد وقضاياها الهادفة بلورة اللسان، وتعويد دراسيّة على النّطق الصّحيح والخلوص من عثرات اللّحن والتّحريف البغيضين، و حتّى إن وجد ما يقتضي النّقد فليس عيبا يلصق بـ«الشّاب الفارسيّ»، والرّائد الأوّل، والآية الكبرى في الفنّ الّذي أصبح من أجله يمتطي قمّته عن جدارة خوّلته (دون غيره) الإمامة.

وكتدليل على السّموّ الّذي فاز به صاحب الذّكرى - أنّ أمير المؤمنين في النّحو «أبا حيّان الجيّاني» صاحب «البحر والنّهر» - دار بينه وبين «شيخ الإسلام أبي العباس بن تيمية» كلام اندرج أثناءه «سيبويه» فأغلظ «ابن تيمية» القول فيه، وعن كتب نافره «أبو حيّان» وقطعه، وصيّر ذلك ذنبا لا يُغفر، وعند ما سئل أمير الفنّ عن السبب؟ قال: ناظرته في شيء من العربيّة فذكرت له كلام «سيبويه» ؟ فقال: ما كان «سيبويه»: «نبيّ النّحو ولا كان معصوما» بل أخطأ في «الكتاب» في ثمانين موضعاً ما تفهمها أنت؛ فكان ذلك سبب مقاطعته إيّاه وذكره في تفسيره «البحر» ومختصره «النهر» بكلّ سوء.

وبعد هذا كلّه فلاعار أن يوجد في الإنتاج والتّصنيف ما ينتقد فالكمال لله.

مراجع البحث

« ابن النّديم » :

« الفهرست » ص ٧٦ .

« الخطيب البغدادى » :

تاريخ بغداد ج ١٢ ص ١٩٥ .

« مراتب النّحويين » :

لأبى الطّيّب الحلبى ، بتحقيق وتعليق أبى الفضل ابراهيم ، ص ٦٥ .

« ابو سعيد السّيرافى » :

مراتب النّحويّين البصريّين ، نشر و تهذيب « فريتس كرنكو » ص ٤٨ .

« ابن مضاء القرطبى » :

« كتاب الرّد على النّحاة » نشر وتحقيق الدكتور « شوقى ضيف » فى غير ما موضع من الكتاب .

« ياقوت الحموى » :

معجم الأدباء ج ١٦ ص ١١٤ وما بعدها .

« ابن خلّكان » :

« وفيات الأعيان » ج ١ ص ٤٨٧ .

« ابن خلدون » :

المقدّمة .

« السّيوطى » :

« بغية الوعاة » .

« ابن الأبّار » :

الجزآن الأوّل والثّانى لكتاب « التّكملة » .

« الفيروزآباذی » :

فی مادّتی: « ز، م، خ، ش، ر» و « ا، س، د» .

« السّیوطی » :

« بُغْیة الوُعاة » ص ٣٦٦ - و «المزهر» .

« الأمیر » :

علی « مغنی اللبیب » .

« فرید وجدی » :

« دائرةالمعارف » ج ٥ ص ٣٤٣ .

« عبدالحیّ الکتانی » :

التّراتیب الإداریة : ج ١ ص ٤١ .

« لمؤلّفیها» :

دائرالمعارف الإسلامیّة - ج ١٢ .

« خیرالدین الزِّرکلی » :

« قاموس الأعلام » - ج ٥ ص ٢٥٢ .



عثمان كسكى أوغلو
(تركيه)

«سيبويه» وخدمته للسان العرب

إخوانى الأعزّاء.

تبليغى فى موضوع خدمة سيبويه للّغة العربيّة .

أبو بشر عمرو بن عثمان بن قَنْبر الملقّب بـ« سيبويه » ، فارسى الأصل ، هو إمام النُّحاه فى العربيّة ، ولد بـ«البيضاء » و نشأ بـ«البصرة» ، فـ«البصرة » أوّل مدينة عُنيت بالنّحو واللّغة واختراع القواعد و الضّوابط لها ، كما أشار إلى ذلك « ابن النّديم » فى «الفهرست» . أخذ النّحو عن «الخليل» ودوّن كتابا فى النّحو، لم يضع أحد مثل كتابه فى النّحو قبله . هو إمام فى علم النّحو، ثقة فى اللّغة بشهادة العلماء . وكتابه مرجع علماء النّحو، يحتوى قواعد العربيّه وأساس اللّغه . لم يسبقه إلى مثله أحد قبله . و هو كتاب ضخم قيّم لم يصنّف قبله كما شهد بذلك علماء العربيّة و أدبائها أمثال « الجاحظ » و « المبرِّد » . وقال « بكر بن محمّد المازنى » (- ٢٤٨) : « من أراد ان يصنّف كتابا كبيرا فى النّحو بعد «كتاب سيبويه » فليستحى ! » « وهو كتاب كبير وصل إلينا ربّما كتب قبله كتب فى اللّغة ولكن لم يشتهر ولم يستفد منه. وأمّا « كتاب سيبويه» مشهور فى أيدى النّاس فى كلّ عصور أثبت قواعد لسان العرب بتفرّعاته ، قد أخذ معلوماته عن اساتذته و زاد عليهم شيئا كثيرا ورتّب الأبواب والفصول :

كان السّلف يسمّون كتابه «البحر الخضمّ» تشبيها له بالبحر لكثرة مسائله، تعظيماً لشأنه حتّى كانوا يسئلون بعضهم بعضا: «هل ركبت البحر» يعنى هل قرأت «كتاب سيبويه».
وقد قيل فى حقّه:

لقد صلّى الإله صلوةً صدق على عمرو بن عثمان بن قنبر
فإنّ كتابه لم يُغنِ عنه بنو قـلم ولا أبناء منبَر

يقول «ابن خلّكان» فى وفياته: كان «كتاب سيبويه» لشهرته و فضله علَما عندالنّحويّين. فكان يقال بـ«البصرة»: قرأ فلان «الكتاب»، يريدون «كتاب سيبويه» وهذا لكمال شهرته. لأنّ الشّىء إذا ذكر مطلقا يصرف إلى كماله. وكان أهل العربيّة يفضّلونه على سائر كتب اللغة، حتّى قيل إنّ الكتب المصنّفة فى العلوم مضطرّة إلى غيرها وأمّا «كتاب سيبويه» لايحتاج إلى غيره. وقد أخذ معظم مسائله عن أستاده «الخليل»، و «الخليل» مكانته فى العربيّة معلوم لدى الجميع وقدره جليل. وفى «الكتاب» ألف بيت وخمسون من شعرالعرب وفيه كثيرمن كلام العرب وأمثالهم.

ولذا أكبّ علماء العربيّة على «كتاب سيبويه» وكتبوا عليه شروحا كثيرة وعلّقوا عليه تعليقات قيّمة، والعالم التّركى «حاجى خليفة كاتب چلبى» يذكر ذلك فى «كشف الظّنون». شرحه أوّلا «السّيرافى» واقتفى أثره علماء اللغة وأدباؤها وفى شارحيه «الزُّبيدى»، المتوفى سنة ٣٧٩، و «أحمدبن أبان اللّغوىّ الأندلسي» (٣٨٢) و «الرُّمّانى» (٣٨٤) و «أبوجعفر النّحاس النّحوى» (٣٣٨) و «أبوالعلاء المعرّى» (٤٤٩) و «ابن الحاجب النّحوى» (٦٤٦). كما شرح شواهده أيضا أبوالعباس الشهير «بالمُبرّد» (٢٨٥) والعلّامة «جارالله الزّمخشرى». وغيرهم وعددهم أكثر من خمس وثلاثين كما ذكر «كاتب چلبى» فى «كشف الظّنون» وكم من عالم شرح كتابه وكم من أديب شرح شواهده، وهذا دليل ظاهر وبرهان باهر على شهرة «الكتاب» وعظم قدره.

قال «الجاحظ»: أردت الخروج إلى «محمدبن عبدالملك» وزير «المعتصم»، ففكّرت فى شىء أهديه له فلم أجد شيئا ثمينا أهديه مثل «كتاب سيبويه». و اشتريته من ميراث

«الفرّاء» ، فلمّا قدّمته له قال : « والله ما أهدى لى شىء أحبّ إلىّ من هذا الكتاب » . وقيل إنّ «الجاحظ» لمّا أهداه «الكتابَ» قال له «محمد بن عبدالملك» : « أوظننت انّ خزانتنا خالية من هذا الكتاب» ؟ فقال «الجاحظ» : « ما ظننت ذلك ولكنّها بخطّ الفرّاء ومقابلة الكِسائى » . وفى الحالتين تدلّ القصّة انّ لِـ«لكتاب» مكانة عظيمة عند العلماء . و«الكتاب» حجّة فى اللّغة . و « سيبويه » واثق بعلمه و معتدّ بقدرته ، كما يدلّ مناظرته مع «الكِسائى» فى المثل العربى المشهور.

حافظ « الكتاب» قيمته بين علماء العرب طوال القرون الماضية حتّى فى «المغرب» كان كتاب درس فى العربيّة إلى قريب الزّمان . وهو كتاب قيّم ببحوثه وفصوله وشواهده وكلماته . بسط قواعد العربيّة فى شكل مسائل فرعيّة . ولذا حاز « الكتاب » ثقة العلماء كلّهم وتداولوه بالدّرس والشّرح كما بيّنّا كلّ من ألّف فى النّحو بعد «سيبويه» فمبنىّ عليه ومستمدّ منه.

قام «سيبويه» بخدمات جليلة فى النّحو . رحمه‌الله تعالى .

١١

عـلال الفاسي
(المغرب)

بسم الله الرحمن الرحيم

« سيبويه » و « المدرسة الأندلسيّة المغربيّة فى النّحو »

تحتفل « شيراز » ومعها العالَم العربى والإسلامى بذكرى رجل عظيم كان له الدّور الخطير فى خدمة «القرآن» و رواياته ؛ و فى تقعيد قواعد النّحو و فنونه ، ألا وهو إمام البصريّين وحجّة النّحويّين «أبو نصر محمد [1] بن عثمان » المعروف بـ«سيبويه» والمولود بإحدى قرى «شيراز» المسمّاة بـ«البيضاء» ، فارسى الأصل ، بصرىّ المُقام ، عربى الثّقافة ، وقد كان «سيبويه» درس الفقه والحديث والتّفسير فى أوّل حياته الدّراسيّة ، ثم لمّا رأى اللّحن يفشو فى النّاس آلمه ذلك فانصرف إلى طلب النّحو وجدّ فى درسه وتعلّمه على أئمة عصره وفى مقدّمتهم «الخليل بن أحمد » و « أبو الخطّاب الأخفش » ، وما زال يطلب هذا العلم حتّى أصبح فيه إمام .

وإذا كان محقّقو المؤرّخين للعلوم وتقسيمها اتّفقوا على أنّ أوّل من وضع النّحو هو الإمام «على بن أبى طالب» ، كرّم الله وجهه ، ثم تلميذه ومريده « أبو الأسود الدّؤلى» الّذى أخذ عنه الأصول ووضع هو من المناهج و القواعد الشّىء الكثير ، فإنّ عالمين من أعلام العربيّة يعتبران الواضعَين للعلم نفسه . وهما «علىّ بن حمزة» الملقّب بـ« الكسائى»

---

(١) كذا قول صاحب المقال .

الّذى نشأ بـ«الكوفة»، وأصبح أحد أئمة القرّاء وصاحب قراءة خاصّة به، فهو من القرّاء السبعة الّذين يتلى القرآن بحروفهم و هو مؤسّس المذهب الكوفي فى النّحو، وكان هو و«محمد بن الحسن» صاحب أبى حنيفة خطيبين عند «المهدي» ثمّ «الرّشيد» من بعده.

والثّانى هو «سيبويه» العظيم صاحب «الكتاب» الشّهير المعروف باسمه فى النّحو ومؤسّس المذهب البصري الّذى طبّق الآفاق.

و بهذين الرّجلين تكوّنت مدرستان عظيمتان فى النّحو جرى بينهما تنافس كبير وخلاف عظيم فى طرق البحث ومناهج الإستدلال، وطبعا فإنّ من المعروف أنّ سياسة الّدولة العبّاسيّة كانت قائمة على تفضيل «أهل الكوفة» وتقديمهم على «أهل البصرة» لأنّ هوى هؤلاء كان أمويّا بينما كان هوى الأوّلين عبّاسيّا.

وكانت المحافظة شعار «البصرة»، لذلك كانوا يقفون عند طلب الشّواهد الكثيرة، لايكفيهم الواحد و الإثنان منها، فاذا اجتمع لديهم منها ما يطمئنّون إليه أسّسوا عليه قواعدهم واعتبروا ماعداه شاذّا، بينما كان الكوفيّون يكتفون بالسّماع الصّحيح. ويستدلّون بالحديث المروي عن الرّسول (صلعم) وعندهم الشّاذّ قليل.

و امتاز علماء الكوفة بأنّهم أوّل من اشتغل بقواعد الصّرف، و من أوّل علمائهم فى هذا الشّأن «معاذ الهرّاء» و«أبو جعفر الرّؤاسي» المتوفّى عام ١٩٠ هـ. أستاذ «الكسائى» ينسب اليه «كتاب الفيصل» الّذى يقال أنّه أوّل ما ألّف فى النّحو على «الطّريقة الكوفيّة».

أمّا «المغاربة» وفى مقدّمتهم «الأندلسيّون» فقد عرفوا «نحو الكوفة» قبل أن يعرفوا «نحو البصرة» و وصل إليهم كتاب «الكسائى» قبل أن يصل «كتاب سيبويه»، و يذكر صاحب «البغية» إنّ «جودى بن عثمان الطّليطلى» انتقل إلى المشرق فاجتمع بـ«الكسائي» و«الفرّاء» وكان أوّل من أدخل «كتاب الكسائى» إلى «الأندلس»، و ألّف كتابا فى النّحو، ومات سنة ثمان وتسعين و مائة، وكان مولى لـ«آل يزيد بن طلحة العبشميّين»؛ وقام «البغل، مفرّج بن مالك» بشرح «كتاب الكسائي» ومات بعد المائتين.

أمّا «كتاب سيبويه» فأقدم من حفظه من «المغاربة القرويّين» «أبو عبدالله» الملقّب بـ«النّعجة» واسمه «حمدون بن إسماعيل» ومات بعد المائتين.

ومع الميل الّذى كان لـ«لمغاربة» عموما لـ«لمذهب الكوفي»، فقد وقع منهم إقبال كبير على دراسة «كتاب سيبويه» والعناية به، تأييدا ونقدا، وقبولا وردّا، ولعلّ الأسباب الّتى كانت تدعو «المغاربة» على الخصوص للميل لكلّ ما هو كوفىّ، هو حبّهم لآل البيت، العبّاسيّين أوّلا، ثم العلويّين بعد أن ثار هؤلاء على العبّاسيّين، يدلّ على ذلك أنّ «المغرب» فى أوّل أمره كان يميل إلى فقه «أبي حنيفة»، حتّى تأثّروا بدعوة «الحسين» صاحب فخ»، وتأييد «مالك» لدعوة «محمد النّفس الزّكيّة» حين قام بالدّعوة للخلافة العلويّة، فانحاز لـ«لمذهب المالكى» الّذى يزيد على ما سبق بميزته بالعناية بالحديث وكون إمامه عالم المدينة، أمّا فيما يرجع للنّحو فقد حافظ على ميله لـ«لمذهب الكوفى»، لأنّ «الكوفة» امتهد بها النّحو منذ تأسيس «على بن أبى طالب»، كرّم الله وجهه له، ناهيك ان «أبا حيّان» الّذى لم يكن يدرس كتاب النّحو إلّا فى «كتاب التّسهيل» أو فى «كتاب سيبويه»[1]. وهو بربرى الأصل من «نَفْزَة»، وكان شديد المحبّة لـ«على بن أبى طالب»، وانتقل من «المذهب الشّافعى» إلى «مذهب الظّاهريّة»، وكان يقول محال أن يرجع عن «المذهب الظّاهري» من ذاقه، والمذهب الظّاهري ينكر القياس فى الفقه فأحرى به أن ينكره فى النّحو.

واذا كان «الكِسائى» قرأ «كتاب سيبويه» على «الأخفش» سرّا، ومات «الفرّاء» و«كتاب سيبويه» تحت وسادته، مع أنّهما كانا يخالفان «مذهب سيبويه» حتّى فى ألقاب الإعراب وتسمية الحروف، فلا غرابة أن نرى «المغاربة» أيضا من الأوائل الّذين عرفوا «كتاب الأخفش» و«مؤلّف الكِسائى» ثمّ «كتاب سيبويه» إلى أمثال «ابن مالك» و«ابن آجرّوم الفاسى» صاحب المقدّمة المشهورة، يعتنون اعتناء كبيراً بـ«كتاب سيبويه» بينما يحافظون على «مذهب الكوفة» ثمّ يحاولون خلق «مدرسة أندلسيّة مغربيّة»

---

(١) «البُغية» ص١٢١.

ذات إضافات لما ذهب إليه « البصريّون » و « الكوفيّون » و ما اختلف معهما فيه « البغداديّون » .

فـ«ابن آجرّوم، محمد بن داوود الصُّنهاجي» صاحب المقدّمة المشهرة بـ«الجروميّة»: إمام النّحو واستاذه فى عصره، والّذى وقع الإقبال على دراسة مقدّمته الّصغيرة هذه حتّى كانت أوّل ما يدرس فى المعاهد الدّينية فى «المشرق» و«المغرب» قبل النّهضة الجديده، وحتّى أصبحت «الآجرميّة» نفسها تطلق على النّحو ويظنّ انّ منها اشتقت كلمة «جرامير » الأعجميّة للدّلالة على النّحو، كما اشتق «اللوجريتمو» من كلمة «الخوارزمي» Gramaire.

كان « ابن آجرّوم » هذا من الّذين يدرسون « كتاب سيبويه » و هو مع ذلك « كوفىّ » متمسّك بمذهبه، فقد عبّر بـ«الخفض» كما يعبّر الكوفيّون لا بـ«الجرّ»، وقال الأمر مجزوم وهو ظاهر فى أنّه معرب وذكر «كيفما» فى «الجوازم» والجزم بها رأى الكوفيّين وأنكرها البصريّون وكان مولده عام اثنين و سبعين و ستمائة و وفاته ثلاث وعشرين و سبعمائة، ودفن داخل باب الحديد بمدينة «فاس».

استمر «المغاربة» فى اختياراتهم الكوفيّة مع اتّصالهم بالمذهب البصري و بدراسة «كتاب سيبويه» ومناقشة الآراء جميعها حتّى تأتّى لهم ما يمكن أن يسمّى مذهبا رابعا إذا اعتبرنا الإختيارات البغداديّة مذهبا ثالثاً. وانّك لواجد فى كتب النّحو إضافات أحدثها علماء «الأندلس» و « المغرب » مثل أسماء « ابن خَروف » المتوفى سنة ٦٠٩ هو و«ابن عُصفور» و «الشّلَوْبين» و«ابن الضّائع» المتوفى سنة ٦٨٠ و إن كان الأستاذ «سعيد الأفغانى» لا يرى فى هذه الإضافات ما يميّزها عن غيرها من التّخريجات المختلفة المعروضة فى القضيّة الواحدة، أو بعبارة أخرى ليس لآراء « الأندلسيّين » هؤلاء سمات مدرسة خاصّة [1].

ويناقش بعد ذلك فيما قاله « أبو حَيّان » فى « شرح التّسهيل » من انّ « ابن

---

(١) « سعيد الأفغانى » : مقال « هل فى النّحو مذهب أندلسي » . من . « معهد الدّراسات الأسلاميّة » فى «مَدريد» ص٧٨. ع٧، ٨ .

خروف» و« ابن مالك » شرعا الإستشهاد في النحو بالحديث، مع ان ذلك كان معروفا عند جماعة في القديم والحديث مستدلا لذلك. يقول «السهيلي»: «لانعلم أحدا من علماء العربية خالف في هذه المسألة » (الإستدلال بالحديث في النحو) إلا ما ابداه الشيخ « أبوحيان » في «شرح التسهيل » ، و« أبوالحسن الصائغ » في «شرح الجُمَل» وتابعهما على ذلك « الجلال السيوطي» [1] .

والواقع ان الذين يتحدثون عن «المدرسة الأندلسية المغربية» لايرمون إلى إدعاء وجودها في هذه الفترة ، أي قبل «ابن حَزْم » وانتشار « المذهب الظاهري» في «الأندلس» و«المغرب» ، فقد سبق أن بيّنّا ان الفترة الأولى كانت فترة الميل إلى «المذهب الكوفي» وتفضيله على « المذهب البصري » ، ولاشك ان « الكوفيين » كانوا يقدمون العمل بـ«الحديث» على القياس على عكس « البصريين » ، ومن الملاحظ في عمل «سيبويه» انه لايستدل بـ«الحديث» ولايدلي به كحجة لتفسير آية مفردة لغوية أوتطبيق قاعدة نحوية ، وإن كانت مادة «الكتاب » مليئة بثايات «الكتاب الكريم » إلى جانب الأمثال و الجُمل التي تتداولها الناس ، وليس معنى هذا انه لايوجد من « البصريين » من لايستدل بـ« الحديث » ، فالمدرستان : « الكوفية» و« البصرية » التقيا عند كثير من النحويين في عدة مسائل ، ولولا ذلك لما صح ان يُقال أو يظن ان هنالك طريقة ثالثة هي طريقة «البغداديين» مثلا .

«فالثورة الظاهرية» على« المذهب المالكي» في الفقه زمن « ابن حزم» ، ولاسيما « الموحدين» ، صاحبتها فيما يظهر ثورة ظاهرية على المدارس النحوية ، لاأقول المشرقية كما يقول الأستاذ « شوقي ضيف» في مقدمة نشره لكتاب « ابن مَضاء » في «الرد على النحويين» ، ولكن على جميع الذين جنحو إلى القياس و إلى التعليلات وما يضمه النحو من الحشويات التي سبق ان قال عنها « الخليل بن أحمد» حسبما نقله «الجاحظ» في كتابه

---

(١) دراسات في العربية و تاريخها للشيخ « محمد الخضر بن الحسن» ، ص ١٦٨ ط. «دمشق».

«الحيوان»: «لا يصل أحد من علم النّحو إلى مايحتاج اليه حتّى يتعلّم مالايحتاج إليه»[(١)].

وقد درس «ابن مَضاء» كما سيأتى «كتاب سيبويه» و «شرح السّيرافى» عليه، ولكن الدّكتور «شوقى ضيف» يلاحظ بحقّ انّ «ابن مَضاء» لم يعن بـ«النّحو الكوفى»، ويعلّل ذلك بأنّه لم يحاول التّوفيق بين مذاهب النّحويّين و إنّما كان حريصا على مهاجمة النّحو جملة، وقد اختار «المذهب البصرى» (الّذى كان شائعا من حوله ولا يزال شائعا إلى عصرنا الحاضر) فاتّخذه مسرحا لمعاركه مع النّحاة.

ولم يصب «شوقى ضيف» فى هذا التّعليل، لأنّ «النّحو البصري» لم يكن شائعا فى «المغرب» ولايزال إلى اليوم بل العكس هو الصّحيح إذ انّ «النّحو الكوفى» هو الشّائع، و إنّ «المغاربة» «كوفيّون» من جهة المدرسة النّحويّة.

ولعلّ «ابن مَضاء» وجد فى «النّحو البصرى» ما يكون أهلا لأن يقاوم بينما «النّحو الكوفى» يعنى بالسّماع أكثر ممّا يعنى بالقياس كما سبق أن بيّنّا، فـ«المدرسة الجديدة» للنّحو فى «الأندلس» و «المغرب» قامت فى مهد كوفي وضدّا على «النّحو البصرىّ» الّذى كان «المغاربة» يعنون بدراسة كتبه الكبرى ولاسيّما «سيبويه» و إن لم يقولوا بالكثير من آرائه.

لقد أشار «ابن حزم» فى كتابه «التّقريب لحدّ المنطق» إلى أنّ علم النّحو: «يرجع إلى مقدّمات محفوظة عن العرب للّذى يريد معرفة تفهّمهم للمعانى بلغتهم، وأمّا العلل فيه ففاسدة جدّا».

ومفهوم ما يرمي إليه «ابن حزم» باظهاره فساد العلل النّحويّة، لأنّه إذا فسدت العلل لم يبق مجال للقياس، وهوما يريد «ابن حزم» أن يطبّق فيه مذهبه الفقهى بعدم القول بالقياس على النّحو، ولم يستطع السّيّد «سعيد الأفغانى» أن يتصوّر نحوا لاقياس فيه، كما لم يستطع الفقهاء أن يتصوّروا فقها لاقياس فيه، مع انّ وجهة نظر «الظّاهريّة» واضحة لمن أراد، لأنّ عدم القول بالقياس يبقى سالم يجيء فيه نصّ على فطرته اللّغوية أى سليقته العربيّة،

(١) مقدّمة «ابن مَضاء» لـ«شوقى ضيف».

كما ان ما لم يرد فيه نص يبقى على أساس إباحته التشرعية ، فـ«المذهب الظاهرى» فى النحو توسعة فى اللغة تمكن المجتمع من اعتماد السليقة فى ابتكار ما لم يقل لا فى القياس على ما قيل .

و إذن فقد ظل الميل المغربى بـ«مذهب الكوفة» فى «النحو» قائما حتى بدت نظرية «ابن حزم» أولا ثم جاءت «الثورة الموحدية» فانصرف نظارها للنظر فى ما يجب تغييره من علم الكلام . وذهب آخرون منهم إلى نقض «الفقه المالكى» ، وطائفة ثالثة يتزعمها «ابن مضاء» اتجهت إلى محاولة تفجير الرأى الذى عبر عنه «ابن حزم» تفجيرا ينبع «بنحو ظاهرى» مستقر ، وقد لا يكون «ابن مضاء» نجح كل النجاح ولكنه على كل حال فتح باب العمل على تعديل النحو بكيفية ايجابية أو فتح باب الإجتهاد فى «النحو» للتقدم به إلى الأمام .

ومن العبث أن يقال إن هذه المحاولات لاشىء ، لأن «ابن مضاء» لم يوفق فى بعض ادعاءاته ، فالنظرية لا تخرج كاملة من أول مرة ، ولذلك نجد «ابن مضاء الموحدى الظاهرى» ينصح النحاة ولاسيما «البصريين» لكى يغيروا منهجهم فى دراسة «النحو» .

ويعترف «ابن مضاء» لمؤسسى «النحو» الأولين انهم وضعوا صناعته لحفظ كلام العرب من اللحن وصيانته عن التغيير ، فبلغوا من ذلك إلى الغاية التى أموا وانتهوا إلى المطلب الذى ابتغوا ، إلا انهم التزموا ما لا يلزمهم ، و تجاوزوا فيها القدر الكافى فيما أرادوه منها ، فتوعرت مسالكها و وهنت مبادئها ، وانحطت عن رتبة الإقناع حججها ، حتى قال شاعر فيها :

تـرنو بطرف ساحر فاتر ... أضعف من حجة نحوى

على أنها إذا أخذت المأخذ المبرأ من الفضول المجرد عن المحاكاة والتخييل كانت من أوضح العلوم برهانا وأرجح المعارف عند الإمتحان ميزانا ، ولم تشتمل إلا على يقين

أو ما قاربه من الظّنون[١] .

وخلاصة النّقد الّذي وجّهه «ابن مَضاء» للنّحويّين هو أنّه اعتبر انّ فى النّحو ما يمكن الاستغناء عنه فيجب حذفه وذلك ينحصر فى مسائل :

١) العوامل ، أي ادّعاؤهم انّ النّصب والخفض والجزم لايكون إلّا بعامل لفظى ، وانّ الرّفع منها يكون بعامل لفظى و بعامل معنوىّ ، وعبّروا عن ذلك بعبارة توهم فى قولنا : «ضرب زيد عمرا » أنّ الرّفع الّذى فى زيد والنّصب الّذى فى عمرو إنّما أحدثه «ضرب » و معنى كلام « ابن مَضاء » هذا إنّ « البصريّين » يجعلون الفاعل مرفوعا بالفعل و الخبر مرفوعا بالمبتدأ بينما يجعلون المبتدأ مرفوعا بالإبتداء ، وقد قال « سيبويه » فى صدر كتابه وإنّما ذكرت ثمانية مجارى لافرق بين ما يدخله « ضرب » من هذه الأربعة لِما يحدثه فيه العامل ، وليس شىء منها إلّا وهو يزول عنه ، و بين ما يبنى عليه الحرف بناء لايزول عنه بغير شىء أحدث ذلك فيه فظاهر هذا أنّ العامل أحدث الإعراب وذلك يبيّن الفساد ، وقد صرّح بفساد ذلك « أبوالفتح بن جِنّى » وغيره ، وهكذا أخذ « ابن مَضاء» يناقش «سيبويه» و « البصريّين » فى ادّعاعهم « العوامل » ويقول بإبطالها .

٢) اعترض على « العوامل» و « التّقديرات المحذوفة » وقال : «إنّ المحذوف فى صناعتهم على ثلاثة أقسام : محذوف لايتمّ الكلام إلّا به ، حذف لعلم المخاطب به ، كقولك لمن رأيته يُعطى النّاس : « زيدا» ، أي «أعط زيدا » ، والثّانى محذوف لاحاجة بالقول إليه ، وهو تامّ دونه ، وإن ظهر كان عيبا كقولك : « أزيدا ضربته» . وأمّا القسم الثّالث فهو مضمر إذا أُظهر تغيّر الكلام عن ماكان عليه قبل إظهاره كقولنا : « ياعبدالله » أى « أدعو عبدالله» فإذا أُظهر فعل «ادعو» تغيّر المعنى وصار النّداء خبرا» .

وقد انتقد « ابن مَضاء » هذه التّقديرات و اعتبرها تمحّلا لاحاجة إليه ، و إنّ إجماع النّحويّين على القول بالعوامل لايعتبر حُجّة وينشد :

---

(١) « الردّ على النّحويّين » (كذا ، نقله صاحب المقال ، والمطبوع : « كتاب الرّدّ على النّحاة » ، أحمد افشار شيرازى) لـ« ابن مَضاء» . ص ٨٠ ط. «شوقى ضيف» .

يقول مَن تقرعُ اسماعَه　　　كم ترك الأوّلُ للآخر

٣) اعترض « ابن مَضاء » على متعلّقات المجرورات وعلى تقدير الضمائر المستقرّة في المشتقّات واعترض كذلك على ادّعاء تقرّر الضمائر المستترة في الأفعال.

٤) إنتقاد تنازع العامل عن المعمول الّذي عبّر عنه « سيبويه » بـ « باب الفاعلين والمفعولين الّذين كلّ واحد منهما يفعل بفاعله مثل مايفعل به الآخر وماكان نحوذلك » .

٥) باب اشتغال العامل عن المعمول، أيْ اشتغال الفعل عن المفعول لضميره مثل قولنا « زيدا ضربته » .

٦) الدّعوة إلى إلغاء العلل الثّواني والثّوالث .

٧) الدّعوة إلى إلغاء القياس .

٨) الدّعوة إلى إلغاء التّمارين غير العمليّة .

٩) يطالب « ابن مَضاء » بإسقاط الإختلاف في ما لايفيد نطقا من « النّحو » ، كاختلافهم في علّة رفع الفاعل ونصب المفعول .

إنّ محاولة « ابن مَضاء » تسهيل النّحو و إسقاط الحشويّات من تعليمه جزء من ثورة جريئة قام بها « الموحّدون » وأرادوا أنْ تكون شاملة في جميع الميادين، ولكنّه كما رجع «المغاربة » بعد انتهاء « العهد الموحّدى » إلى ما ألفوه من «المذهب المالكى» في الفقه عادوا إلى إختيار «المذهب الكوفىّ » في «النّحو » مع اقتباسات من «مذهب البصريّين » و«البغداديّين » . وقد ظلّ « ابن آجرّوم » و «ابن مالك » إمامين لـ«لمغاربة» لم يؤثّر عليهما إلّا هذه المؤلّفات العصريّة الجديدة الّتي لم تترك لـ«لنّحو العربى » قيمته لِما فيها من الإختصار وعدم الدّقّة في تفهّم الألفاظ والمعاني .

وهكذا نجد « المدرسة الأندلسيّة المغربيّة » معتنية بالنّقل ، أوّلا باختيارها « المذهب الكوفي » ، وثانيها بمحاولتها جعل « النّحو » على شكل «المذهب الظّاهرىّ » في «الفقه » ، وبالعناية مع هذا وذاك بدراسة « المذهب البصري » و « كتاب سيبويه » على الخصوص، وليس من الإنصاف أنْ لايعترف لـ«لمغرب» بما بذله من جهد في سبيل إبراز النّظريّات النّحويّة المختلفة ومحاولته الإفادة منها وابتكار الجديد من غيرها .

عناية « المغاربة » بدراسة « سيبويه »

وبعد، فإنّ ماذكرناه من اختيارات مغربيّة ومن «مدرسة أندلسيّة مغربيّة» للنّحو داخل في باب العناية بدراسة « سيبويه » ومناقشته والأخذ منه والرّدّ عليه ، و مع كلّ ذلك فقد عُني «المغاربة» دائما بدراسة « كتاب سيبويه » وحفظه وشرحه والتّعليق عليه ، و نذكر من الّذين اعتنوا بـ«الكتاب» هذه الجماعة الّتي تمثّل غيرها وتعبّر عن قيمتهم العلميّة :

١) فمنهم « عبدالله بن الجدّ الفهري أبوالقاسم » المتوفى سنة خمس عشرة وخمسمائة، شرَح « سيبويه » وكان من أئمة «الفقه» و«الحديث» والتّفنّن في المعارف .

٢) «أبوحيّان» الّذي سبق أن نوّهنا بعنايته بصاحب «الكتاب» ،وهو وإنْ رحل إلى المشرق واستقرّ فيه فهو « بربريّ » من شيعة « البربر » الّذين ثاروا لمذهبهم منطلقين من قبيلة «نَفْزَة» الّتي ينتمي إليها « أبوحيّان » ، وقد كان نحويّنا العظيم و مفسّرنا الكبير من أصدقاء «ابن تَيْمية» المصلح المشهور ، ولكن حدث أن سأل بعضهم «أباحيّان» عن « سيبويه » أمام «ابن تيمية» فقال هذا الأخير : وهل سيبويه شيء؟ لقد أخطأ «سيبويه» في ثلاثين موضعا ، فأعرض « أبوحيّان » عنه و رماه في كتابه « النّهر » بكلّ سوء . وقد شرَح «الكتاب» وألّف «الإسفار الملخّص» من «شرح سيبويه» لـ«لمّصفّار» ، كما ألّف «التّجريد لأحكام كتاب سيبويه » [1] .

٣) ومنهم «أحمد بن محمد بن محمد بن علي الأصبحي الشّيخ شهاب الدّين أبو العباس العناني» ، نقل السّيوطي عن « ابن حبيب » أنّه قال عنه أنّه حاز أفنان الفنون الأدبيّة وملك زمام العربيّة ، وانتقل إلى الشّام وتفقّه لـ«لشّافعي» ،شرَح « كتاب سيبويه » و« كتاب التّسهيل» لـ«ابن مالك» وكان قد أخذ عن « أبي حيّان » ، ومات في تاسع عشر المحرّم سنة ستّ وسبعين وسبعمائة .

---

(١) «السّيوطي» : «بغية الوُعاة» : ص١٢١ .

٤) « أبوبكر الجُذاميّ المالَقيّ » : قرأ النّحو على «الشّلَوْبين »، صنّف «شرح سيبويه » كما شرح « إيضاح الفارسي » و «لُمَع ابن جنّي» ، توفّي يوم السّبت ثاني رمضان سنة سبع وخمسين وستّمائة .

٥) « محمد بن أحمد بن هشام بن ابراهيم بن خلف اللّخمي اللّغوي النّحوي السّبتيّ » ، نسب له «التّجيبي » في رحلته «المدخل إلى تقويم اللّسان وتعليم البيان » ، قال «ابن الأبّار » له « كتاب الفصول » و «المُجْمَل في شرح أبيات الجُمَل » و «نُكَت على شرح أبيات سيبويه » لـ«الأعلم » و « لحن العامّة » و «شرح الفصيح » و « شرح مقصورة ابن دُرَيد» ، كان حيّا سنة ٥٥٧.

٦) « محمد بن حَجّاج الحَضْرَميّ أبوعبدالله وأبوبكر » الوزير المعروف بـ«ابن مُطَرّف » قرأ النّحو على « الشّلَوْبين » وكان يحفظ «كتاب سيبويه » وله تقييد على «جُمَل الزّجّاجي » ، قال « تقيّ الدّين الفاسيّ » انّه جاور بـ«مكّة »وكان من الصّالحين ، ومات ليلة الخميس ستّ رمضان سنة ستّ وسبعمائة .

٧) « محمد بن علي بن محمد بن إبراهيم الأنصاري المالَقي» المعروف بـ«الشّلَوْبين الصغير » ، أخذ العربيّة والقراءات عن « عبدالله بن أبي صالح» ولازم «ابن عُصْفور » ، قال «السّيوطيّ » في «البُغْية » أنّه شرح «أبيات سيبويه » شرحاً مفيدا و أكمل شرح شيخه « ابن عُصور » على « الجُزوليّة » ، مات في حدود سنة ستّين و ستمائة عن نحو أربعين سنة .

٨) « محمد بن علي بن يحيي قاضي الجماعة » المعروف بـ«الشّريف » شهرة لا نسبا كذا قال «السّيوطي» في «البُغية » ، قال « أبوحيّان » في « النُّضار » كان بـ« مَرّاكُش » في زمن « ابن أبي الرّبيع » يدرس «كتاب سيبويه » والفقه والحديث ويميل إلى الإجتهاد، قرأ عليه رجال أجلّهم «أبوعبدالله الصّنهاجي »و «أبو إسحاق العطّار» شارح «الجزُوليّة » . مات بـ«مَرّاكُش » عام اثنين وستّمائة.

٩) « محمد بن عليّ السّلاويّ النّحوي » ، قال في « البدر السّافر » : «كانت له

شهرة بـ«مَرّاكُش» وكان يقرأ «كتاب سيبويه» ومن أحفظ النّاس لـ«كتاب الكامل»، مات سنة خمس وستّمائة» [١].

١٠) «عبدالله بن محمد بن عيسى» كان يختم «كتاب سيبويه» في كلّ خمسة عشر يوما يعني كما يتلى «القرآن» أو كتب الحديث[٢].

١١) «الأعلم، يوسف بن سليمان الشّنْتَمْريّ» شرح «أبيات الكتاب» و شرحه مطبوع في ذيل «كتاب سيبويه» من طبعة «بولاق».

١٢) «ابن الطّراوة، سليمان بن محمد المالقي» (٥٢٨) تلميذ «الشّنْتَمْريّ»، قرأ عليه «كتاب سيبويه»، ألّف المقدّمات على «الكتاب»، كما انّ له اعتراضات على «الكتاب».

١٣) «علي بن محمد الكُتامي الإشبيليّ» (٦٨٠) كتب ردّا على «اعتراضات ابن الطّراوة» على «كتاب سيبويه».

١٤) «أبو حَفْص عمر بن عبدالله السّلميّ الأغماتي»، ولد بـ«أغمات» و انتقل للسّكنى بمدينة «فاس»، أخذ عن «أبي بكر بن طاهر» «كتاب سيبويه»، وكان من الشّعراء المجيدين، مات سنة ٦٠٤ وهو قاضي بـ«إشبيليّة» وكان قبل ذلك قاضيا بـ«فاس».

١٥) ومن كبار الشّخصيات الّذين عنوا بشرح «سيبويه» وقراءته «أبو عبدالله محمد بن عمر بن رُشَيد الفِهري السّبتي»، ولد سنة ٦٥٧ بـ«سَبْتَة» وتُوفّي بـ«فاس» سنة ٧٢١ وهو صاحب الرّحلة المشهورة المسمّاة «ملء العَيْبَة في الوجهتين الكريمتين إلى مكّة وطَيْبَة» وله شرح على «كتاب سيبويه».

كرسيّ «سيبويه والنّحو» في «جامعة القرويّين»

من المعروف في حوالات الأوقاف المغربيّة انّ هنالك وقفا على كرسيّ لقراءة

---

(١) «بُغْية الوُعاة» ص ٨٤.

(٢) «مراتب النّحويين» ص ٦٥.

«كتاب سيبويه» يعيّن له كبار العلماء و يحضره الّذين يريدون التّخصّص فى النّحو ومعرفة «الأسلوب البصري» و«منهج سيبويه» ، وقدذكروا فى ترجمة «المكّودي» شارح «الألفيّة» وهو «أبوزيد عبدالرّحمن بن علي بن صالح المكّودي الفاسي» انّه كان يدرّس «كتاب سيبويه» فى «مدرسة العطّارين» ، وانّه آخر من درّسه بـ«فاس» ، وعليه فقدكان قبله مواظبون على تدريسه ، وقد لايكون التّدريس لـ«لمكتاب» استمرّ بصفة غير منقطعة ولكنّ الّذى لاشكّ فيه انّ تدريسه وقع بـ«فاس» بعد «المكّودي» ومن الّذين درّسوا «سيبويه» «أبوحفص الفاسيّ» .

ويظهر انّ «ألفيّة ابن مالك» و «التّسهيل» و «توضيح ابن هشام» وغيرها من الكتب الشّهيرة فى النّحو كان لها الحظّ الأوفر بعد هذا العصر في دراسة النّحو في «جامع القرويّين» والمدارس المضافة اليها ، وإذا عرفنا انّ الأسلوب المتّبع سابقا فى دراسة العلوم في «القرويّين» يرجع اختيار الأستاذ والكتاب فيها إلى الطّلبة أنفسهم ، وإذا كنّا نعلم انّ المدارس الّتي يسكنها الطّلبة و تحيط بـ«القرويّين» كانت فيها قاعات فيها كراسي متخصّصة لدراسة العلوم الّتى من بينها «علم النّحو» فى «القرويّين» والمدارس المحيطة بها ، تيقّنا انّهم درسوا «سيبويه» إلى جانب مادرسوه من كتب النّحو المشهورة.

وقد عدّد الأخ الأستاذ «عبدالهادي التّازي» فى كتابه «جامع القرويّين» المجلد الثّانى منه عدد الكراسي الّتي كانت مخصّصة للنّحو والفقه معا والبعض منها الّذى كانت مخصّصا للنّحو فقط ، و أقدم هذه الكراسي العلميّة وهو الكرسيّ الّذي كان بـ«مدرسة الحلفاويّين» الّتي سمّيت بعد «مدرسة الصّفّارين» وكان يُقرأ فيه الفقه والنّحو ، ومن مشاهير الأساتذة الّذين درّسوا فيه الشّيخ سيدى «أحمد السرّاج» ، و مثل ذلك يقال عن «مدرسة الخصّة» الّتى كانت معدّة للفقه والنّحو ، وقدكان من جملة اساتذتها الّذين درّسوا النّحو بها قاضي الجماعة «عبدالواحد الحميدى» الّذى تولّى تدريس «المُغْني» كما درّس بها «كتاب سيبويه» و«السيرافي» و«ابن مالك» و«ابن آجرّوم» و«المكّودي» ، وكان كرسيّ «المدرسة المتوكليّة» خاصّا بالنّحو تعاقب عليه جملة من العلماء ، وفى

«مدرسة الصهريج» كان هنالك كرسي للفقه و النحو، وكذلك كرسي «مدرسة العطارين» للفقه والنحو، فقد سبق أن قلنا ان «مدرسة العطارين» كانت تحتوى على كرسي للنحو الذى درّس فيه «كتاب سيبويه» إلى بداية القرن التاسع وهنالك كرسي آخر بـ«مدرسة فاس الجديدة» للفقه و النحو أيضا. و مثله بـ«مدرسة الوادي» للفقه والنحو، وكان بـ«مسجد الرصيف» كرسي خاص بالنحو، و بـ«مسجد الشرابليين» كذلك كرسي خاص بالنحو (١).

وقد وُضع جزء من «كتاب سيبويه» ضمن برنامج الإجازة التي نظمها الفرنسيون لتخريج حملة الشهادة العربية الأصيلة من الفرنسيين الذين كانوا يعدونهم للترجمة في المستعمرات والبلاد المحمية، وقد رأيت واحدا من هؤلاء الذين كانوا يعدون لإمتحان هذه الشهادة يأخذ من ابن عمنا سيدى «عبدالسلام الفاسي» دروسا بالمشافهة والمراسلة في الجزء المقرر من «كتاب سيبويه»، واعتقد ان حملة هذه الشهادة من «المغاربة» درسوا ذلك الجزء من «الكتاب».

وقد اهتم الأخ «عبدالقادر زمامة» من خريجي «القرويين» بكتابة فصل في مجلة «دعوة الحق» العدد السابع السنة الخامسة ص ٤٣ يدعو فيه إلى إعادة الإهتمام بـ«كتاب سيبويه» و دراسته، وهكذا فان مقام «سيبويه» وكتابه عظيم في «المغرب» لم يمنع «المغاربة» من العناية به ميلهم لـ«نحو الكوفة» ولا محاولة إقامة «مدرسة مغربية»، الأمر الذي يدل على انهم أدركوا مقامه وقدروه قدره وهو بالعناية جدير.

رواية «المغاربة» لـ«كتاب سيبويه» وسندهم في ذلك

إعتاد «المغاربة» إقتداء بإخوانهم في الشرق أن يأخذوا كل العلوم بطريق الرواية

---

(١) انظر تفاصيل هذه الكراسي وأوقافها في الفصل الذى كتبه السيد «عبدالهادي التازي» في كتابه عن «القرويين» تحت عنوان «المدينة ذات المائة والأربعين كرسي» ص ٣٧٩، ج ٢.

والإسناد، ويعتبرون الرّواية ولو بطريق الإجازة هي الّتي تنقل العلم من الأستاذ إلى التّلميذ، فكما يسندون «القرآن» إلى أئمّة القراءات وعمّن أخذوها وحفظوها، ويسندون الحديث إلى رواته، كذلك يسندون الكتب إلى مؤلّفيها والعلوم إلى مؤسّسيها عن طريق أئمّتها. ومن ثَمّ نجد «المغاربة» معنيّين برواية النّحو وإسناده إلى مؤسّسه الأوّل «عليّ بن أبي طالب»، وبرواية أهمّ مدوّناته وفي مقدّمتها «كتاب سيبويه»، وقد سبق أن قلنا إنّ الرّواية عن «سيبويه» كلّها تمرّ عن طريق «الأخفش» يستوي في ذلك المسندون من «المشارقة» أو من «المغاربة».

وسنجتزىء هنا بسندنا في النّحو إلى الإمام «علي بن أبي طالب» عن طريق «الأخفش» و «سيبويه» فنكون بذلك قد ذكرنا السّند الموصل بالإجازة لـ«كتاب سيبويه» والمرفوع إلى المؤسّس الأوّل لـ«للنّحو» «أبي الحَسَنَيْن»، كرّم الله وجهه، فنقول رُوينا النّحو إجازة وقراءة من أستاذنا العلّامة المرحوم سيدي «أحمد العمراني» وشيخنا «أبي حفص عمر المحرسي المدنيّ التّونسيّ الأصل» المتوفى بـ«المدينة المنوّرة» وذلك حين قدومه إلى مدينة «فاس»، عن شيخهما «أبي الحسن علي بن طاهر الوتري»، عن «عبدالقادر بن أحمد بن أبي جيدة الكوهن الفاسي» عن الشّيخ المحقّق «الطيّب بن كيران» و«أبي العلاء العراقي الحسيني» و «أبي عبدالله الزّروالي» فالأوّلان عن والد الثّاني «زين العابدين العراقي» والأخير عن الأوّل وعن «أبي محمد بن عبدالقادر بن شقرون» وهما عن «أبي حفص الفاسي» و «أبي السّعد عبدالمجيد الحسيني المنالي» الشّهير بـ«الزّبادي» زاد «أبوالعلاء» بالأخذ عن «الشّيخ التّاوُدي ابن سَوْدة» والثّلاثة عن العلّامة الحافظ النّحو سيدي «محمد الجندوز المصمودي» و «أبي العباس سيدي أحمد الوجاري القُضاعي» وهما عن «الشيخ المُناوي» والعلّامة سيدي «محمد بن زكري» والعلّامة سيدي «عبدالسّلام بن الطيّب القادري الحسني» وهم عن الشّيخ سيدي «محمد بن عبدالقادر الفاسي» و «أبي الفضل العربي بن الحاجّ»، وهما عن والد الأوّل بسنده إلى «ابن حجَر» عن «أبي الفرج العربي» عن «يونس العسقلاني» عن «محمد بن الفضل المُرْسيّ»، عن «زين بن حسن الجندوز» عن «عبدالله الخيّاط»، عن «المبارك الدّبّاس»،

عن « عبدالواحد بن برهان » ، عن « أبي القاسم الدقيقي » ، عن « أبي الحسن الرُّمّاني » عن « أبي سعيد السيرافي » عن « أبي بكر محمد بن السراج » وعن طريق سيدي « أحمد بن العربي بن الحاج » عن الشيخ « أبي سالم العيّاشي » إجازة عن الشيخ « شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي » عن « العلقمي » عن « السيوطي » ، عن « ابن مُقْبِل » عن « الصلاح » ، عن « أبي عمر » ، عن « الفخر البخاري » ، عن « أبي حفص بن طبرزد » ، عن « أبي بكر الأنصاري » ، عن « ابن محمد الجوهري » ، عن « أبي علي الفارسي » ، عن « أبي بكر السراج » المتوفى سنة ٢٧٦ بـ « بغداد » عن « الجرمي » و « المازني » ، عن « أبي الحسن الأخفش » عن « سيبويه » وهو « أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر البصري » المتوفى سنة ١٨٠ عن « الخليل بن أحمد الفرهودي » المتوفى سنة ١٧٠ عن « أبي عبدالله بن أبي إسحاق » و « عيسى بن يَعمُر » و « أبي عمرو بن العلاء » ، وهم عن « عَنْبَسة الفيل » و « مَيْمون الأقرن » و « يحيى بن يَعْمُر » و « عَطاء » و « أبي حرب » ابني « أبي الأسود الدؤلي » ، رضي الله عنه ، عن سيدنا ومولانا « علي بن أبي طالب » كرّم الله وجهه . قال « الكوهَن » في فهرسته بعد ذكر السند السابق وهو أي سيدنا « علي » واضعه كما أخرجه « الزّجاجي » في « أماليه » و « البيهقي » في « شعب الإيمان » و « أبو الفرج » في « الأغاني » من طرق متعدّدة ، وهذا بعض مظهر قوله (صلعم) « أنا مدينة العلم وعلي بابها » « أخرجه الترمذي » و « الحاكم » عن سيدنا « علي » ، كرّم الله وجهه ، وأخرجه « الحاكم » أيضا و « الطبراني » عن « ابن عباس » رضي الله عنهما .

ومن هذا نعرف مقدار العناية التي كانت لـ « لمغاربة » بـ « نحو البصريين » و « الدؤلي » منهم ، وإن كانوا أميل إلى « نحو الكوفة » مقر « علي بن أبي طالب » كرّم الله وجهه المؤسس الأول للنحو وإن كانوا قد وضعوا في إحدى مراحل تاريخهم « مدرسة أندلسيّة مغربيّة » تختلف في الكثير عن « مدرسة البصرة » . ولاشك ان التذكير بدور « المغرب » في هذا الفن وعنايته برجاله الكبار في « المشرق » و « المغرب » و إعطائهم لـ « سيبويه » نفس الإعتبار الذي يعطونه لـ « لكسائي » يبيّن مقدار الوحدة الثقافيّة التي كانت تربط العالم الإسلامي ،

وتجعل من «الكسائى» و«الأخفش» و«سيبويه» وغيرهم من رجال العجم، و«الجزولي» و«أبا حيّان» و«ابن آجرّوم» وغيرهم من «أبناء البربر المغاربة»، أئمة «علم العربيّة» و أبطال الوضع لقواعدها و إرساء مبانيها إلى جانب الإجلاء لأسرارها ومعانيها، أليس فى هذا ما يجعل «حضارة الإسلام» وثقافته مشتركة بين شعوبه وتراثا قوميّا لكلّ المسلمين الّذين وحّد «القرآن» بينهم وجعل اللّسان العربيّ مظهرا من مظاهر توحيد الأمّة المحمديّة الخالدة .

علّال الفاسي



علي الشّابي
(تونس)

المُعْرَبُ فى «كتاب سيبويه»

إنشغل العلماءُ منذ القديم بالبحث فى الكلمات الأجنبيّة الّتي دخلت إلى العربيّة كنتيجة للإتّصال الحضاري الّذي حدث بين العرب و أجْوَارِهم وبخاصّة « الفُرْس » فقد وقع الإتّصال بين « العرب » و « الفُرْس » قبل الإسلام عن طريق « الحِيرة » و « بلاداليمن » فتمكّن كلّ من الطّرفين من معرفة الآخرومن الإحتكاك بلغته وأفكاره، وكانت « حضارة فارس » فى أوج تألّقها، ففتنت مباهجُها « عربَ الحِيرة» و«اليمن» ، وشاعت الكلماتُ الحضاريّة الفارسيّة فى اللّغة العربيّة ، وما لبثت أن تأصّلت فيها وأصبحت جزءا منها فتجلّت فى الشّعر الجاهلي، خاصّة على أيدي الشّعراء الّذين كانوا يفدون إلى «بَلاط الحِيرة» أو ينتسبون إلى « أرض اللَخْميّين » من أمثال « الأعشى» و « النّابغة الذّبياني» و « عديّ بن زيد العَبّاديّ » وكان هذا الأخير كما يقول « ابن خلدون » (التاريخ ٥٢٢) من تراجمةِ «الملك الفارسى كِسرى پرويز » وقد احتوى « القرآن» الكريم على الفاظ فارسيّة كثيرةٍ [1] عرَفها العرب فى الجاهليّة و استخدموها فى لغتهم،

---

(١) راجع مثلاً ، «السّيوطى» : « المهذّب فيما وقع فى القرآن من المُعَرّب » تحقيق «عبدالله الجُبُوري» ، نشر بمجلة «المورد» العددان الأوّل والثّانى، بغداد ١٩٧١ ، ص ١٠١-١٢٤ ، «السّيوطي» : «المتوكّلي» فيما ورد فى « القرآن» بـ«اللّغة الحبشيّة » و «الفارسيّة» و «الهنديّة» « دِمَشق » ١٣٤٨ .

وازداد الإتّصال عمقا بين الأمّتين فى ظلّ الفتح الإسلامى وتأكّد التأثير اللّغوي، فعدّ التبادل ظاهرة لغويّة سلكت اللّغتين جميعا، لذلك بدأت عناية المسلمين بالمعرّب منذ القرن الثّاني فى نطاق حركة التّدوين ووضع العلوم وقد شهد هذا القرن أسهاما فارسيّا كبيرا فى تنمية اللّغة العربيّة و تزكيتها إذ عكف «عبدالله بن المقفّع» فى النّصف الأوّل منه على تعريب الآثار الفارسيّة، فكتسبت اللّغة العربيّة على يديه أمرين هامّين.

١) مرونة لغويّة تمثّلت في اكتساب العربيّة القدرة على التّعبير على أدقّ الخواطر والعواطف والأفكار، وبذلك بدأ النّثر سبيلا للإفصاح الممعّن فاندمجت اللّغة في الحياة وأصبحت أداة ثقافيّة عالميّة في العصور الوسطى.

٢) التّعرّف على منهج كتابة التّاريخ كنتيجة طبيعيّة لتعريبه كتب «تاغ نامه» و«خداى نامه» و «آيين نامه»[1]، و منذئذ انشغل المسلمون بكتابة التّاريخ على أساس فارسيّ صرف يتبدّى في تبعيّته للسّلطة الحاكمة و انصرافه لتسجيل حياة الملوك وما يداخلها.

في هذا القرن ألّف «سيبويه» كتابه في علم النّحو و الصّرف فانضافت جهوده إلى جهود «ابن المقفّع» وانكبّ علماء «فارس» يضيفون و يبتكرون، وهذا ماعناه «ابن خلدون» بقوله: «من الغريب الواقع انّ حملة العلم الإسلامى أكثرهم العجم إلّا في القليل النّادر ومن كان منهم العربيّ في نسبته فهو عجميّ في مربّاه ومشيختهِ، مع أنّ الملّة عربيّة وصاحب شريعتها عربيّ»[2].

ألّف «سيبويه» «الكتاب» في النّحو والصّرف فتناول فيه (المُعرَّب) واستخلص له قواعد تنسجم مع مرونة اللّغة العربيّة وحيويّتها ظلّت مناط البحوث اللّغويّة حتّى

---

(١) راجع: «عليّ الشّابي»: «الأدب الفارسي في العصر الغزنوي»، ١٩٦٥، ص١١٥، ص١١٩، «عليّ الشّابي»: «نشأة الشّعر الفارسيّ الإسلامي»، ضمن كتاب «تونس وايران» - «تونس» ١٩٧١ ص ٢٩-٣٠.

(٢) «المقدّمة»: المطبعة الخيريّة، ١٣٢٢ ص ٣١٢.

اليوم . وقدهيّأه أصلُه الفارسيّ وتضلّعه في اللّغتين لدراسة هذا الموضوع دراسة دقيقة.

والملاحظ أنّ «سيبويه» ظلّ محتفظا بملامحه الفارسيّة في كلّ مراحل حياته.

لُقّب« عمرُو بنُ عثْمان بنِ قُنْبُر » بـ«سيبويه (سيب = التّفاح ، ويه = أداة تشبيه) ـ أي من له رائحة كرائحة التُّفاح ، وهولقب يدلّ على أرومته الفارسيّة ، كما انّ ولادته كانت بقرية «البيضاء» إحدى قُرى شيراز ، وبها تلقّى تعلما أوّليّا ، وقدعَرفَتْ «شيراز» نَشاطا علميّا طالما هيّأ النّابهين إلى الإستزادةِ من العلم في «الأمصار الإسلاميّة» وفي مقدّمتها «البَصرةُ» و«الكوفةُ» ، ثمّ انتقل «سيبويه» مع أبيه إلى «البَصرة» ، وقد قامت هذه المدينة في أرض فارسيّة وورثت مع «الكوفة» «المدائن» (عاصمة السّاسانيّين) ، فاتّسعتا للتّأثير الفارسيّ وبدت «البَصرةُ» لذلك مدينةً فارسيّة إسلاميّة تموج بالتّيّارات المذهبيّة وألوان التّراث وحِلَق الدّرس ، وتتّسع للسّكان «الفرس» وللوافدين من مختلف البِلاد الفارسيّة . في «البصرة» وَاصلَ «سيبويه» تعلّمه فتَلمذَ للفقهاء والمحدّثين بالمسجد الجامع وأصاب قدرا غيرَ يسيرٍ من «الفقه» و«الحديث» ، لكنْ ما وقع له مع استاذه المحدِّثِ المشهورِ «حَمّاد بنِ سَلَمَة» حوّل وِجهتَهُ فكفَّ عن تتّبع دروس الحديث والفقه وراح يطلب النّحو ليتجنّب «اللحن» .

أورد « الزّجّاجيّ» أنّ «حمادَ بن سَلَمةَ » كان يُملي ذاتَ مرّةٍ فقال «صعِد رسول الله صلى الله عليه وسلّم الصّفَا » فأعاد «سيبويه» « صَعِد رسول الله صلى الله عليه وسلّم الصفاءَ » فردّ حماد قائلا « يا فارسيُّ لاتَقُلِ الصّفاءَ لأنّ الصفا مقصور» فلمّا فَرَغَ مَجْلِسه كسَّرَ القلم وقال : «لا أُكتُبُ شيئا حتى أُحْكِمَ العربيّةَ »[1] .

فارق «سيبويه» أستاذه والتحق بحلقات النّحويّينَ وهم كُثُرٌ لكنّ أحدا لم يؤثّر

---

(١) «مجالس العلماء» تحقيق «عبدالسّلام هارون» ، «الكويت» ١٩٦٢ ص١٥٤ ، وراجع بقيّة ما وقع له مع استاذه في «القِفْطي» ، « إنباه الرُّواة» تحقيق «محمد أبي الفضل ابراهيم» ، دار الكتب ، ٣٥٠/٢ ، «الزُّبَيْدِي» ، «طبقات النّحويّين واللّغويّين» تحقيق «محمد أبي الفضل ابراهيم» «القاهرة» ١٩٥٤ ص ٦٦ .

فيه كما أثّر « الخليل بن أحمد » فثقفَ ما أخذه عنه وعكَفَ مِن بعدِ ذلكَ على تأليف « الكتاب » وهو الّذي قال عنه « أبوالطيّب اللّغوي » أنّه « قرآن النحو »[1] كما وصفه « المبرّد » بالبحر[2]. تناول « سيبويه » في الجزء الثّاني من «الكتاب» [3] «المُعرّب» من خلال الكلمات الأجنبيّة الّتي دخلت إلى العربيّة ، وذلكَ تحت عناوينَ أربعة : «الأسماء الأعجميّة» ، «ماكان من الأعجميّة على أربعة أحرف وقد أُعرِبَ فكسَّرْتَه على مثال مفاعلَ» ، «ما أُعْرِب من الأعجميّة» و« اطّرادُ الإبدال فى الفارسيّة» ، وقصده تحديدُ إعرابِ هذه الكلمات، وضبطُ أبنيتِها وحَصْرُهَا فى أمثلة تحدِّدُ طرائق التّعريب المتَّبعه .

والمُعْرَبُ (من أعرب) حَسَبَ « سيبويه» أو «المعرّب» (من عرّب) يطلق فى اللّغة على الأسماء الأجنبيّة الّتى دخلت إلى العربيّة وأخضعها العرب لمناهجهم، جاء فى «اللّسان» فى مادة «عرب» : « تعريب الإسم الأعجميّ أن تتفوّه به العرب على مناهجها تقول عرّبته العرب وأعربته أيضا» ، ويُراد منه اصطلاحا فى عصرٍ تالٍ لعصر « سيبويه» الكلماتُ الأعجميّة الّتي جرت على ألسنة عرب الأمصار حتّى نهايةِ القرن الثّاني وعلى ألسنة « بدوالجزيرة » حتّى أواسط القرن الرّابع ، حيث كانت اللّغة العربيّة مبرّأةً من «اللّحن» و بعيدةً عن الخطاء وخالصةً من كلّ الشّوائب ، فاكتسبت الكلمات الأجنبيّة بذلكَ فصاحةَ العربيّة نفسِها و انطبعت بطابَعِها ، لذا يَصحّ الإحتجاج بها ، أمّا الكلمات الأجنبيّة الّتى تنسب إلى ما بعد هذه الفترة فقد سَمَّوْهَا بالمُوَلَّدة ولايصحّ الإحتجاج بها فى أصل من أصول اللّغة لأنّ عربيّة أهْلِ البادية أنفسهم أصبحت فى المنتصَفِ الثّانى للقرن الرّابع غيرَ معتمدة لإضطراب الألسنة وتقلّصِ عادة الفصاحة يقول «ابن جنّى» : «وكذلكَ أيضا لو فشا فى أهل الوَبَرِ ماشاع فى لغة أهل المَدَر من اضطراب الألسنة و خبالِها وانتقاصِ عادة الفصاحة وانتشارِها لَوَجَبَ رفضُ لغتها

---

(١) « مراتب النّحويّين » ، تحقيق « محمد أبي الفضل ابراهيم» ، نهضة ، «مصر» ١٩٥٥ ، ص٦٥ .

(٢) «ابن النّديم» ، «الفهرست» ، «مصر» ١٣٤٣هـ. ، ص٧٧ .

(٣) ط . ثانية «بيروت» ١٩٦٧ ، ص٢٢ ، ٢٣٧ ، ٤١٢ ، ٤١٣ .

وترك تَلَقّي مايَرِدُ عنها، وعلى ذلك العملُ في وقتنا هذا [المنتصف الثاني للقرن الرابع]، لأنا لانكاد نرى بدويًا فصيحا، و إن نحن آنسنا منه فصاحةً في كلامه لم نكد نعدَمُ ما يُفسِدُ ذلك ويَقدَحُ فيه ويَنالُ و يَغُضّ منه»[1].

وهذا التحديد المتعسّف ظهر في القرن الرّابع الهجرى وعلينا أن نطرحَ هذه النّظرة التوقيفيّة الّتى أشاعها «ابن جنّى» و«ابن فارس» ونظراؤهما فى البحث اللّغوى إذ ينجرّ عنها توقّفُ الفكر وتجمّدُ الحضارة، وأن نعتمد فى مقابل ذلك «مَذهَبَ سيبويه» الذى سبَقَ تصنيفَ الدّخيل فإنّ اللّغة العربيّة ليست باللّغة الّتى كُتِبَ عليها الجمود، وليست باللّغة الّتى كُتب عليها أن تُقْصَرَ على «أهل البادية» ومن يُشبِهُهُم من «أهل المدن» أو القُرى العربيّة القديمة[2] ومن الحق أن أقول إنّ هذا التوقيف قد سيطر على اللّغة العربيّة فى مرحلة التّصنيف والتّقعيد، وشبيه بهذا ما وقع لـ«لفارسيّة الإسلاميّة» نفسها فقد أشار «ابن جنّى» فى مفاضلته بين اللّغتين العربيّة و الفارسيّة إلى أنّ اللّغة الفارسيّة فى عصر الإحياء أي فى القرن الرابع الهجرى قد التزمت هذا التّوقيف فلم تتّسع إلّا للرّصيد «الدّرى» الموروث، جاء فى «الخصائص»: «ألا ترى انّهم [العجم] إذا أورد الشّاعر منهم شعراً فيه ألفاظ من العربىّ عيب به وطعن لأجل ذلك عليه»[3]. استخلص «سيبويه» ملاحظاته وقواعده من الواقع اللّغويّ الّذي انغرست فيه الألفاظ الأجنبيّة وفى مقدّمتها «الفارسيّة» فاصبحت جزءاً منه، وهو كلغويّ أحاط بكلّ ما جرى على ألسنة العرب وماتساقط إليهم، وحاولَ ضبطه فى قواعد، ومعنى ذلك انّه لم يضع قواعده قبل الإستقراء بُغيةَ إخضاع الواقع لها، و كما أسلفنا فقد عرف العرب الإنفتاح على اللّغات مُنذ جاهليّتهم فأوقفهم اتّصالهم بـ«الفُرس» خاصّة على معان لم تجُلْ بخاطرهم فى الصّحراء وعلى ألفاظ تتّسم باللّيونة والرّقة فى مُقابل ألفاظهم، فاستخدموا الألفاظ الفارسيّة لتلك المعانى

---

(١) «الخصائص»، «مصر» ١٩١٣، ج١، ص٤٠٥.

(٢) «طه حسين» = «مشكلة الإعراب»، من مجلّة مجمع اللّغة العربيّة، الجزء الحادى عشر، القاهرة ١٩٥٩، ص ١٩.

(٣) ٢٥٢/١.

الجديدة التي تخصّ الحياةَ المتحضّرة المُترَفة مثل « فالُوذَج » من « پالُوده » (= نوع من الحلوى) و « فُستق » من « پستَه » (الفاكهة المعروفة) و « ديباج » من « ديبا » (نسيج حريريّ) و « بُندُق » من « پندُق » (الفاكهة المعروفة في تونس بأبوفريوه) و « بنفسج » من « بنَفْشه » (الزهر المعروف) ، و استبدلوا بألفاظهم المستثقلة ألفاظا « فارسيّة » خفيفة على النّطق والسّمع فاستعملوا « إبريق » بدل « تامُورَة » و « ورد » بدل « حَوْجَم » و « مِسك » بدل « مشموم » و « توت » بدل « فِرْصاد » و « ميزاب » بدل « مِثْعَب » و « ياسمن » بدل « سُمْسُق » و « سُكّرَ » بدل « مِبْرَت » واستمداد العرب من اللّغات الأجنبيّة مقصور على الأسماء فلم ياخذوا الحروف والأفعال عدا الفعل من المصدر « بوسيدن » (= أن يقبّل) « باسه يبوسه... »

و اندرجت هذه الألفاظ في حياتهم فاكتسبت فصاحةَ لغتهم وحسّها البيئيّ وازدادت هذه الظّاهرة اتّساعا بعد أن جمع الإسلام بين الأمّتين، إذشاعت « الفارسيّة » في « البَصرة » و « الكوفة » وفي « المدينة » نفسها ، جاء في « البيان والتّبيين » : « ألاتَرَى أنّ أهلَ المدينة لمّا نَزَلَ فيهم ناس من « الفرس » في قديم الدّهر علِقُوا بألفاظ من ألفاظهم ؟ ولذلك يُسَمُّونَ « البِطّيخَ » : « الخَرْبُز » و يسمُّونَ « السَّمِيطَ » : « الرَّوْذَق » ويُسَمُّون « المَصُوصَ » : « المَزُوز » ويسمّون « الشّطرنج » : « الأشترنج » إلى غير ذلك من الأسماء » (١) كما تحوّلَ كثير من العرب إلى « ايران » فداخلوا أهلها واحتكُّوا بلغتها فاستمدّوا منها ما احتاجت إليه حياتهم الجديدة .

وقد اندرج الإحساس الفارسي بحاجة العرب تلك في نطاق الصّراع الثّقافي بين الطّرفين تناظر « فارسيّ » و « عربيّ » في مجلس « يحيى بن خالد البرمكي » ، فقال « الفارسيّ » « للعربيّ » : « ما احتجنا إليكم قطّ في عمل ولا في تسمية ، ولقد ملَكتُم فما استَغْنَيتُم عنّا في أعمالكم ولا لغتكُم ، حتّى إنّ طبيخكم وأشربتكم ودواوينكم وما فيها ، على ما سمّيناه ، لم تُغَيّرُوا منه شيئاً ، كـ « الإسفيداج » [رماد الرّصاص] و « السّكْباج » [مرَق يُصْنَع

---

(١) تحقيق « حسن السّندوبي » ، ط. أولى ، « مصر » ١٩٢٦ ، ج١ ص٣٤ .

باللّحم والخل ّ] و «الدُّوغباج» (مرق يُصْنَع بـ«الدّوغ» = «المخيض») و «السّكَنْجبين» [«سَكَنْ» (أصلها «سِرْكه» = الخل ّ) و «أنگبين» (= «العسل» = كل ّ حُلو حامض؟)] و «الخُلَنْجين» (الخُلَنج = شجرة تُصْنَعُ منها السّهام) و «الجُلّاب» [ماء الورد] و «الروزنامج» [دفتر يومي للحساب، جريدة يوميّة] و «الأسكدار» [صاحب البريد، وحقيبته] و مثلُ هذا كثير، فسكت العربى فقال له «يحيى» : «قل له اصْبِرْ لنا، نَمْلِكْ كما ملَكْتُمُ ألفَ سنة بعد الفِ سنةٍ كانت قَبْلَها، لانحتاج اليكم ولا إلى شيء كان لكم» .

إن لم تثر الألفاظُ الأجنبيّة الواردة فى الشّعر الجاهليّ وفي شعر صدر الإسلام - وأغلبها فارسيّ - أيَّ جدل أو خلاف بين الدّارسين فإنّ الألفاظ الأجنبيّة التى جاءت فى «القرآن» قد استقطبت جهودَ كثير من المفسّرين و الفقهاء و اللّغويّين فانشغلوا بالبحث فيها وانشعبوا إلى ثلاثةِ أقسام : قسم «اعتبر الأصل فحكَمَ بأنّها أجنبية» ، وقسم «اعتبر الحال فحكَمَ بأنّها عربيّة» وقسم «ألّفَ بين الاعتبارين فعدّها دخيلةً مُعْرَبةً» . وكان الواعزُ في هذا البحث واعزاً دينيّاً فى الدّرجة الأولى.

إنّ بحث «سيبويه» لـ«لمُعْرَب» يعتبر أوّلَ بحثٍ تناولَ هذه الظّاهرةَ من الزّاوية اللّغويةِ الصّرف، وهو بذلك قدمهّد السّبيل لعلماء النّحو والصّرف و «أصحابِ المعاجم» الّذين كتبوا فى هذا الباب، صحيح إنّ «الخليل» تناول «المُعْرَب» ، إلّا انّ تناولَه لم يكن مركّزاً ووافيا، لهذا لفتَ بحثُ «سيبويه» أنظارَ اللّغويين فتقفّوْا على أثرِه ، فمثلاً كتب «أبو عبيد القاسم بنُ سلّام الهروي» فى القرن الثّالث كتابه «الغريبَ المُصنّفَ» فأفرد لـ«لمُعْرَب» فصلا بعنوان «ما دخل من غير لغات العرب فى العربيّة» وفي «جمهرة ابن دُرَيد» (القرن الرّابع) : «بابُ ما تكلّمت به العرب من كلام العجم حتّى صار كاللّغة» وفى «المخصّص» نقل «ابن سيده» (القرن الخامس) فى الجزءين الرابع عشر والسّادس عشر (ط. بولاق) ما كتبه «سيبويه» حرفيّا بالعنوانين الّذين نطالعهما فى «الكتاب» : «بابُ ما أُعْرِبَ من الأسماء الأعجميّة» و «بابُ اطّرادِ الإبدال فى الفارسيّة» كما كان تأثير «الكتابِ» واضحا فيما كتبه أغلب النّحويّين وعلماءِ الصّرف من أمثال

«المبرِّد» (ت. ٢٨٥) في كتابه «المقتضَب» و«أبي بكر محمد بن السّراج» (ت.٣١٦) في كتابه «الموجز في النّحو» و«ابن جِنّي» (ت. ٣٩٢) في «الخصائص» و«ابن يعَيش» (ت. ٦٤٣) في «شرح المُفَصَّل» و«ابنِ مالك» (ت. ٦٧٢) في «ألفيّتِه» و«ابن عَقيل» (ت. ٧٦٩ في شرحه على «الألفيّة»)، و«أبي حيّان النّحويّ» (القرن السّابع - الثّامن) في كتابه «إرتشافِ الضَّرَب» ففي تناولِهِم «المُعَرَّب» في أبوابِ الإعراب والتّكسيرِ والإبدالِ نقلوا كلام «سيبويه» دون تغيير أو إضافة. و يشير ظهورُ أوّلِ معجَمٍ أُفْرِدَ لموضوع المُعَرَّب في القرن السّادس وهو «المعرّب» لـ«لجواليقي» إلى مرحلة جديدة ترمز إلى عناية اللّغويّين بهذا الموضوع من خلال تَوافر المادّة المدروسة وتعدُّدِ الجهود المبذولة وما أصابها من تطوّر طيلة قرون أربعة تقريبا.

درس «سيبويه» «المُعَرَّب» دراسة نحويّة وصرفيّة أي من حيث بِنْيته وزناً وتكسيراً وإبدالَ حروف ومن حيث إعرابُه صرفاً ومنعاً، واستخلص قواعده من خلال كلمات أغلبُها فارسيّ اتّخذَها انموذجاً لِمَا يُشاكِلُها في اللّغة، وقد قال: «فهذا حالُ الأعجميّة فعلى هذا فوجِّهْهَا»[1] وهذا المبدأ هو الّذي اعتمده النُّحاة الّذين جاؤوا من بعده وعبَّر عنه «أبو عُثمان المازني» (ت. ٢٤٧) بالإعتماد على «الخليل» و«سيبويه» بقوله: «ما قِيسَ على «كلام العرب» فَهُوَ مِنْ كلامهم»[2].

وهذه هي الكلمات الواردة في الأبواب المَعْنيّةِ نُثْبِتُها مع تحديدنا لأصلها وشرحنا لها:

(١) «الكتاب» ٤١٤/٢.

(٢) يحدّد «ابن يَعيش» «الأعجميّةَ» بقوله: «واعلم انّ قولهم العُجْمةَ ليس المُراد منه «لغة فارس» لا غير بل ما كان خارجاً عن «كلام العرب» من «روم» و«يونان» وغيرهم»، («شرح المفصّل»، «مصر»، ج١، ص٦٦) وقارِن «السّيوطي»: «همع الهوامع»، «مصر»، ١٣٢٧، ج١، ص٣٢. راجع، «ابن جِنّي»: «المنصِف في شرح تصنيف المازني»، تحقيق «إبراهيم مصطفى» و«عبدالله أمين»، «مصر»، ١٩٥٤، ج١، ص١٨٠. وقارن، «ابن جِنّي»: «الخصائص» ٣٦٢/١.

- «لِجام» : أصلها في الفارسيّة : «لُگام» .
- «يَرَنْدَج» : أصلها في الفارسيّة: «رَنْده» : جلد أسود .
- «نَيْروز» : أصلها في الفارسيّة : «نوروز» (نَوْ = الجديد) (روز=اليوم) = «اليوم الجديد» ، و تطلق على عيد فارسي قديم هو عيد الإعتدال الرّبيعي ، و موعده ٢١ مارس الموافق لأوّل شهر «فَرْوَرْدِينْ» أوّلِ شهور السّنة الإيرانيّة ، و ما يزال «الإيرانيّون» يحتفلون به .
- «فِرِنْد» : أصلها في الفارسيّة: «پَرند» = السّيف وجوهره و وَشيه .
- «زنجبيل» : نبت معروف ، أصلها في الهنديّة: «شنگَبيل».
- «الياسمين» : أصلها في الفارسيّة: «ياسمين، ياسَمَنْ ، يَاسَم» .
- «سُهْرِيز» : فارسيّة ومعناها : «نوع من التّمر» .
- «آجرّ» : أصلها في الفارسيّة : «آگر» (الآجرّ) .
- «فيروز» : مأخوذة من الفارسيّة «پيروز» و أصل معناها: «مظفّر» و تطلق على نوع من الحجارة الكريمة .
- «هرمز» : علَم .
- «إسماعيل» : علَم .
- «إسحاق» : علَم .
- «يعقوب» علَم .
- «مَوْزَج» : أصلها في الفارسيّة : «مُوزه» = «الحذاء الصّغير ، الخُفّ» .
- «صَوْلج» : أصلها في الفارسيّة: «چوگان» (= العود المعقوف) .
- «كُرْبَج» : أصلها في الفارسيّة: «كُرْبه» (= الحانوت ، و تُطلق في لهجة أهل الجريد بالجنوب التّونسي على النّفايات الموضوعة في مكانٍ واحد ...)
- «طَيْلسان» : أصلها في الفارسيّة «تالسان» (= كساء يرتديه كبارُ العلماء والمشايخ) .
- جَوْرب = أصلها في الفارسية (گُورَبْ) = غطاء الرّجل المعروف .

- «كَيْلج» أصلها في الفارسيّة «كيله» (=كيل محدّدٌ معروف، و في الفارسيّة بدورها مأخوذة من «الآراميّة») .

- «درهم» : مأخوذة من اليونانيّة .

- «دينار» : مأخوذة من اللاتينيّة .

- «رُستاق» : أصلها في الفارسيّة «روستا» : «القرية الزّراعية» .

- «إبريسَم» : أصلها في الفارسيّة «أبريشَم» : الحرير .

- «سراويل» : مأخوذة من الفارسيّة «شَرْوَال» و أصلها «سَرْبَال» مركّبٌ من «سَرْ» (= فوق) و «بال» (= القامة) .

- «قهرمان» = فارسيّة و معناها : «الآمر» .

- «خراسان» : المنطقة الشّمالية الشّرقية لإيران .

- «خُرَّم» : فارسيّة و معناها : «سعيد» .

- «كُرْكُم» : فارسيّة و معناها : الزّعفران ، و تطلق في اللّهجة التّونسيّة الحاليّة على نبتة تقوم مقام الزّعفران وهي بالفارسيّة حاليًا : «زَرْدْچُوْبِه» .

- «بقَّم» : أصلها في الفارسيّة «بَكَم» = شجر كبير ورقه كورق اللّوز وساقه أحمر يُصْطَبَغُ بطبيخه .

- «جُرْبُز» : أصلها في الفارسيّة «گُرْبُز» = (مَكّارٌ ، مخادعٌ) .

- «كُوسِه» : فارسيّة معناها : «الأمرد» ، القليلُ شَعْرُ العارضَيْن .

- «فُنْدُق» : أصلها في الفارسيّة «پُنْدُق» = وهوالمعروف في تونس بالبندق .

- «زورْ» : فارسيّة معناها : «القوّة ، الغلبة» .

- «آشوب» : فارسيّة ، مادّة أصليّة من المصدر «آشفتن» : الإضطراب ، الإختلاط .

- «شُبَارِق» : أصلها في الفارسيّة «پيشپاره» : كَعْكٌ يُصنع من الدّقيق والعسل والزّيت ، و يطلق أيضا على ألوان اللحم في الطّبائخ .

- « زَبَانِي » : أصلها في الفارسيّة « زباني » : = «الجهنمي» من «زبان» : «شعلة النّار» .

- « ديباج» : أصلها في الفارسيّة «ديبا» : «نسج حريري» .

- «بَهْرَج» : أصلها في الفارسيّة «بَهْرَه» : «نصيب» و يراد منها: « المباح » .

نجد في هذه الكلمات الثّماني والثّلاثين، ثلاثين كلمةً فارسيّةً و أربع كلماتٍ غيرفارسيّةٍ و أربعة أعلام ، ممّا يدلّ على أنّ عناية «سيبويه» كانت منصرفةً إلى الجانب الفارسيّ من « المُعْرَب » ، و هو أمر تُبَرِّرُه نسبته و ثقافتُه الفارسيّتان . و شيوعُ الفارسيّة أكثرَ مِن غيرها في اللّغة العربيّة . و ما تناوله في بحثه يمكن حصره في قضيّتين :

١) قضيّة الإعراب و هي قضيّة نحويّة .

٢) قضيّة التّكسير و الإلحاقِ بالأبنية العربيّة و إبدالِ الحروف ، و تندرج في مباحث علم التّصرف .

تناول «سيبويه» القضيّة الأولى تحت عنوان « هذا باب الأسماء الأعجميّة »[1] . و يمكن حصر كلامه في هذا الباب في ثلاثِ مسائلَ .

المسألة الأولى :

إذا تمكّنت الأسماءُ المُعْرَبَةُ بدخول « ال » عليها و بصحّةِ تنكيرها ، و صُيِّرَتْ أعلاما وجب صرفُها إلّا أن يمنعَها من التّصرف ما يمنع الأسماء العربيّة و ذلك نحوُ «اللّجَامِ » و « الدّيباج» و« اليَرَنْدَج»و«النَيْروز» و«الفِرِند»و«الزّنجبيل» و «الياسمين» :

و قد اعتمد السّلاحقون ـ عدا « الشّلَوْبين » و « ابنَ عُصفور » ـ «سيبويه» فحاكَوْه في تقرير هذه القاعدة و في ايراد أمثلة استمدّوها ممّا أورده في الأبواب المتعلّقة بـ«المُعْرَب» ، من ذلك ماقاله«المُبَرِّد» (ت. ٢٨٥) : «والمُعرَب منها(الأعجميّة) ماكان نكرة في بابه لأنّك تُعَرِّفُهُ بـ«الألف و اللام » ، فإذا كان كذلك كان حكمُه

---

(١) «الكتاب» ط . «بيروت» ، ١٩٦٧ م . ، ج ٢ / ص ٢٢ .

حكمَ العربيّة ، لايمنعه من التّصرف إلّا ما يمنعها فمن ذلك: « راقود » و «جاموس » و «فرِند» ، لأنّك تُعَرِّفُه بـ«الألف و اللام»[1] «وماقاله «ابن جنّي» (ت. ٣٩٢) : «ألا تراهم يَتصرفون في العَلَم نحوَ «آجرّ» و «إبريسَم » و«فرِند»، و « فيروزج » و جميع ماتدخلهُ «لامُ التّعريف» وذلك أنّه لمّا دخلته «السّلام» في نحو «الدّيباج» و«الفرِنْد» و«السُّهريز» و«الآجرّ» أشبهَ أصولَ كلامِ العرب أعني النّكراتِ فجرَى في التّصرف و مَنْعِه مجراها»[2] . و تفَرّدَ الشّلوْبين و « ابنُ عُصفور » بقولها انّ الأسماء التي ليست أعلاماً في لُغاتِها الأصْليّةِ و استُخْدِمتْ أعلاماً في العربيّة من أوّل الأمْرِ كـ«بُنْدار » (و تعني في الفارسيّة : التّاجرَ الّذي يخزِنُ البضائع أو يبيع المعادِنِ) تُنزَّلُ منزلةَ الأعلامِ المُعْرَبةِ الباقية على علَمِيَّتِها في العربيّة فتُمْنَعُ من التّصرف. أمّا بقيّة النّحويّين فقد نَزّلُوها - تأسّياً منهم بـ«سيبويه » - منزلةَ الأسماء المُعْرَبَةِ المتمكّنَةِ الّتي صُيِّرَتْ أعلاماً فصرفُوها مُرَاعِينَ في ذلك استعمالَها الحقيقي في لغاتها الأصليّة[3] .

المسألة الثّانية :

إذاانتفى الشّبه بين بِنيةالإسم المُعْرَب المتمكّن والأبنيةالعربيّة فإنّ الإسم المُعْرَبَ لايُمْنَعُ من الصّرْفِ ، و مَثّلَ لذلك بـ«الآجُرّ » و قرّر بأنّه لا يُشْبِه شيئا من كلام العرب و رأى أن يُنزِّلَهُ منزلةَ الكلمةِ العربيّةِ الّتي لا نظير لها نحو « إبل » ،

---

(١) «المقتضَب» تحقيق «محمّد عبدالخالق عضيمه» ، « القاهرة » ، ١٣٨٦ ، ج ٣ ص ٣٢٨ .

(٢) «الخصائص» ، مصر ، ١٩١٣ ، ٣٦٢/١-٣٦٣ وقارن ما قاله «ابن يَعيش» (ت. ٦٤٣) في «شرح المفصّل» ، مصر ، (دون تاريخ) ٦٦/١ .

(٣) راجع مثلا ، « محمد الخضري » : « حاشية الخُضري » على « شرح ابن عقيل على ألفيّة ابن مالك» ، القاهرة ، ١٩٥٣ ، ج ٢ ص ١٤٢ . «خالد الأزهرى» : «شرح التّصريح على التّوضيح» ، مصر ١٣٧١ ، ج ٢ ص ٢١٩ .

فحكم بصرفه إن لم يمنعه من الصّرف مايَمْنَعُ العربيّ (١).

المسألة الثّالثة:

إذا لم تتمكّن الأسماء المُعَرّبَةُ و بقيت أعلاماً كما كانت في الأعجمية مُنِعَتْ من الصّرف كـ«ابراهيم» و «إسماعيل» و «إسحاق» و «يعقوب» و «هرمز» و «فيروز» و «قارون» و «فرعون» و أشباهِها بَيْدَ أنّ «سيبويه» لم يتناول الأعلامَ الثّلاثيّةَ، و ظاهرُ كلامِه إنّ حكمَ المنع من الصّرف مُطّرِدٌ في الأعلام المُعَرّبةِ سواءٌ أكانت ثلاثيّةً أم غيرَ ثلاثيّةٍ، و يتّفق اللّغويّون مع «سيبويه» في منع غيرِ الثّلاثيّةِ عنها من الصّرف أمّا الثّلاثيّةُ فينقسمون بشأنها إلى قسمين:

الف) يرى «السّيرافيُّ» و «أبوبكر محمد بنُ السّرّاج» و «ابنُ بُرْهانٍ» و «ابنُ خرُوفٍ» أنّ الأعلامَ المُعَرّبَةَ الثّلاثيّةَ مصروفةٌ لافرق في ذلك بين السّاكنةِ الوسطِ كـ«نُوح» و «لوط» و المتحرّكةِ كـ«شَتَر» و «لَمَك».

ب) يقول «عيسى بنُ عمرَ الثّقفي» و «ابنُ قُتَيْبَة» و «الجُرجانيّ» و «الزّمخشريّ» بجواز الوجهين: الصّرفِ وعدمِه في السّاكنةِ الوسطِ و بوجوب المنعِ في المتحرّكةِ الوسط (لما ذا المنع في المتحركة).

و من خلال القواعد المقرّرة تَبْدُو دِقّةُ «سيبويه» إذ تقصّى وضعَ الكلماتِ باعتبارِها نماذجَ و أَثارَ مايمكن أن يَرِدَ عليها من اعتراضاتٍ و فنّدها، فالأسماء المُعَرّبَةُ المتمكّنةُ تُصرفُ إلّا إذا منعها مايَمْنَعُ الأسماء العربيّة من الصّرف، وهو بهذا يُدْمِجها في صُلْبِ العربيّةِ و يُجري عليها مايَجْري على الأسماء العربيّة، كما أنّه لم يَعْدَمْ نظيرَ الكلمة «آجر» من حيث تفرّدها ببِنْيَتِها. وهذا يدلّ على ما اتّسمت به عقليّته من دقّة و نفاذ.

---

(١) لم يُضِف النّحويّون إلى هذه القاعدة جديدا، راجع مثلا ماقاله «المبرّد» في «المقتضب»، ج ٣ ص٣٢٦، فلم يزد شيئا على ماقرّره «سيبويه» عدا مثلين للبنية الّتي لانظير لها في العربيّة هما «إطِل» و «صَحْفُوق».

و نَرى أنّ القضيّة الّصرفيّة الّتي خَصّص بها « سيبويه » المُعْرب َ تندرج في ثلاث ِ مسائل َ :

١) الّتكسير .

٢) الإلحاق بالأبنية العربيّة .

٣) إبدال الحروف .

تناول في «باب ما كان من الأعجميّة على أربعة أحرف وقَدْ أُعْرِب َ فكَسَّرتَهُ على مثال مفاعل َ»(١) الأسماء َ الرباعيّة المُعْرَّبة ، و قرّر بأنّها تكسَّرُ على مثال «مفاعل َ» باعتبارها الّصيغة َ الغالبة لمنتهى المجموع العربيّة في نطاق ما هو مسموع ِ لأنّ جموع َ الّتكسير سماعيّة ٌ لاقياسيّة ٌ ، و قَصْدُه من ذلك إبرازُ الّطابع العربي الّذى اكتسبته هذه الأسماء ، و في بداية هذا الباب أشار بالإعتماد على «الخليل» إلى انّ أغلب َ الأسماء ِ المُعْرَبة ِ المكَسَّرَة ِ تُلحق بها الهاء غالباً ، و أورد : « مَوزَج » (موازجة) ، «صولج» (صوالجة) ، «كُرْبَج» (كرابجة) ، «طَيلسان» (طَيالسة) ، «جورب» (جواربة) ، كما قالوا «جوارب» دون هاء ك«صوامع» في العربيّة ، و تصّح في « كيلج» (كيالج) ، ك«كواكب» و « كيالجة» ونظيره في العربيّة : «صياقلة ٌ» و «صيارفة ٌ» و «قشاعمة ٌ» . وبيّن أنّ هذه الكلمات ِ المعربة َ ملحقة ٌ ب«مفاعِل َ» في الحكم لا في الوزن أي أنّها تُمنَعُ من الّصرف إلّا إذا ألحقت بها الّتاء .

و فيما يتعلّق بالمسألتين الأخْرَيَيْن ِ (الإلحاق والإبدال) ينبغي أن نشير إلى انّ القواعد المستلخصة َ في هذا الّصدد هي كغيرها من القواعد الّنحويّة و الّصرفيّة قواعد تقريبيّة ٌ ، وأنّها إلى ذلك مضطربة ٌ تتداخل فيها الأمثلة ولا تتّضح من خلالها المجموعات بالقدر الّذي تتيحه القواعدُ عادة ، و حسْبُ « سيبويه » أنّه حاول القيام بهذا الّتصنيف حتّي يُسَهِّل َ للدّارسين الوقوف َ على ما كان يجري على ألْسنة العرب حين كانت تسقط إلى لغتهم الألفاظ الأجنبية فيَنْطِقون بها كما شاءت سليقتهم ، و قد أشار « الجواليقي »

---

(١) «الكتاب» : ٢٣٧/٢ .

إلى ذلك بقوله: «و إذا كان حُكي لك في الأعجميّة خلافُ ما العلامةُ عليه فلا تَرَيَنَّهُ تخليطاً، فإنّ العرب تُخلِّطُ فيه وتتكلّم به مخلّطاً، لأنّه ليس من كلامهم فلمّا اعتنفوه [أتَوْهُ ولم يكن لهم به علم] و تكلّموا به خلّطوا» [١].

فصّلَ «سيبويه» القول في المُعْرَب من حيث الإلحاق والتّغيير ووضع له أحكاماً تتّفق مع الإلحاق أو عدمه، و يتّضح من كلامه أنّ الغالب هو الإلحاق و عندئذ تأخذ الأسماء المُعْرَبَة أحكام الأبنية العربيّة وهو الأمر الّذي يهتمّ به النّحويّونَ يقول: «اعلمْ انّهم ممّا يُغَيِّرُونَ من الحروف الأعجميّة ما ليس من حروفهم البتّةَ، فربّما الحقوه ببناء كلامهم و ربّما لم يُلْحِقوه، فأمّا ما ألحقوه ببناء كلامهم، فـ«دِرْهَم» الحقوه ببناء «هِجْرَع»، و«بَهْرَج» الحقوه بـ«سَلْهَب»، و«دينار» الحقوه بـ«ديماس» و«ديباج» ألحقوه كذلك. وقالوا «إسحاق» فألحقوه بـ«إعْصار»، و«يعقوب» فألحقوه بـ«يَرْبُوع»، و «جَوْرَب» فألحقوه بـ«فَوْعَل»، و قالوا: «آجُور» فألحقوه بـ«عاقُول»، و قالوا «شُبارِق» فألحقوه بـ«عُذافِر»، و «رُستاق» فألحقوه بـ«قُرْطاس» لَمّا أرادوا ان يُعْرِبُوه ألحقوه ببناء كلامهم... و ربّما تركوا الإسم على حاله إذا كانت حروفه من حروفهم، كان على بنائهم أو لم يكن نحو: «خراسان» و«خُرَّم» و «الكُرْكُم»» [٢].

و الأبنيةُ الواردةُ مع أمثلتها تجدُها مُثْبَتَةً في نصوص اللّغويّينَ و النّحاةِ الّذين جاؤوا من بعده، دون أن يُضيفوا إليها جديدا، بل إنّهم كانوا ينقلون أقوالَه بلفظها.

يقول «أبو حيّان»: «الأسماء الأعجميّة على ثلاثة أقسام: قسمٌ غَيَّرَته العربُ والحقتْهُ بكلامها فحكمُ أبنيته في اعتبار الأصلِ و الزّائدِ و الوزنِ حُكْمُ أبنية الأسماءِ العربيّةِ الوضع نحو «درهم» و «بَهْرَج»، و قسمٌ غيّرَتْه و لم تُلْحِقْهُ بأبنيةِ كلامها، فلا

(١) «المعرّب»، تحقيق و شرح «أحمد محمد شاكر»، الطّبعة الأولى، دار الكتب ١٩٤٢، ص ٩ و ط. ثانية، دار الكتب، ١٩٦٩، ص ٥٧.

(٢) الكتاب ٢/٤١٢ - ٤١٣.

يُعتبرُ فيه مايُعْتبرُ في القسم الّذي قبلَه نحو «آجرّ» و «سِفْسير» (وهو السّمسار) وقسمٌ تَركوه غيرَ مُغيَّرٍ ، فما لم يُلْحِقوه بأبنيةِ كلامهم لم يُعَدَّ مِنْها وما ألحقوه عُدَّ منها ، مثال الأوّل : «خراسان» لايَثْبُتُ به «فُعَالان» و مثال الثّاني : «خُرَّم» أُلْحِقَ بِ«سُلَّم» ، و «كُركُم» ألحق بِ«قُمقُم»[1] .

وجاء في «المُعرَّب» : «و ممّا ألحقوه بأبنيتهم ، «دِرْهَمٌ» ألحقوه بِ«هِجْرَعٍ» ، و «بَهْرَجٌ» ألحقوه بِ«سَلْهَبٍ» و «دينارٌ» ألحقوه بِ«ديماسٍ» ، و «إسحاقُ» بِ«إبهامٍ» و «يعقوبُ» بِ«يَرْبُوعٍ» و «جَوْرَبٌ» بِ«كوكبٍ» و «شُبَارِقٌ» بِ«عُذافِر» و «رُزْدَاقٌ» بِ«قُرْطاسٍ»[2]» .

يتّضح من هذا انّ المُعرّب الملحق بالأسماء العربيّة يأخذ حكم الأبنية العربيّة من حيث الأصل و الزّيادة و الوزن ، لافرق في ذلك بين أن يكون هذا المُعرّب قد أصابه التّغيير أوْلا ، فمن الأسماء الّتي اُلْحقت دون تغيير و أخذتْ حكم الإسم العربي «دِرْهم» أُلْحِقَ بِ«هِجْرَع» (أحمق) و «بَهْرَج» بِ«سَلْهَب» (طويل) . . . و من الأسماء الّتي أصابها التّغييرُ و لم تُلْحَقْ «آجرّ» و «سِفسير» . ومن الأسماء الّتي لم يصبها التّغيير «خراسان» و «كُركُم» ، «خراسان» لم تُلْحَقْ و «كُركُم» أُلْحقَتْ .

وهنا تكمُنُ أهمّيّةُ مبحثِ «سيبويه» ، فهو يقرّر حسب مايفهم من نَصّه ، انّ العرب يُجيزون التّعريب بإحدى طرق ثلاث :

١) طريقة الإلحاق بالأبنية العربيّة مع الإبدال أوْ بدونه .

٢) طريقة الإبدال من غير إلحاق .

٣) طريقةُ إبقاءِ الكلمة المُعرّبَة على حالها من غير تغيير أو إلحاق بالأبنية العربيّة و إقرارُ وزنها إلى جانب الأوزان العربيّة كَ«فُعالان» لِـ«خراسان» و «إفعيلَل» لِـ«إبريسم» و «فاعُلّ» لِـ«آجُرّ» لأنّ «الأبنية العربيّة» مَدارُها وضعُ الكلمة من حيث الإشتقاقُ

---

(١) «إرتشاف الضَّرب» ، مخطوط دارالكتب ١١٠٦ نحو ، ورقة ١٣ .

(٢) الطبعة الأولى ص ٨ و الطبعة الثّانية ص ٥٦ .

و الزّائدُ و الأصليُّ من حروفِها ، و هو ما تفتقده الكلمات الأجنبيّة . لكنَّ العربَ فضّلُوا غالباً الطّريقة الأولى و هى الإلحاق بالأبنيةِ العربيّة . في حديثه عن الإبدال يتجلّى ميلُه لإستخلاص القواعد مهما تشعّب الموضوعُ واختلطت مقاييسُه، فقد تناول مايَطّرِدُ فيه و ما لا يَطّرِدُ .

فما يطّرد فيه الإبدال ضبطه في القواعد التّالية :

١) إبدال « الجيم » باطّراد من « گ » ([g = الموجود مثلا في garçon] لأنّها كمايقول «سيبويه» ليست من حروفهم)[1]، مثل «جُرْبُز» من « گُربز» [= gorboz] و «جَوْرَب» من « گُورَب» [= gorab]. و ربّما أبدلوها بقاف [لأنّها قريبة] حسب تعبير «سيبويه»[2] فقالوا «قُرْبُز» .

٢) إبدال «الجيم» من هاء السّكت المتطرّفة مثل « كَوْسَجِ » من « كُوسه » و « مَوْزَجِ » من «مُوزه» ، و علّلَ هذا الإبدال تعليلاً يدلّ على دقّة معرفته بالنّحو الفارسي و نصّه: «لأنّ هذه الحروفَ تُبْدَل وتُحْذَفُ في « كلامالفُرْسِ » «همزةً» مرّةً ، و « ياءً » مرّة أخرى فلمّا كان هذا الآخِرُ لا يُشبه أواخرَ كلامِهم صار بمنزلة حرفٍ ليس من حروفهم ، و أبْدَلُوا «الجيمَ» لأنّ «الجيمَ» قريبةٌ من«الياء»، وهي من «حروف البَدَلِ» ، و «الهاء» قد تشبهُ «الياءَ» ،ولأنّ «الياء» أيضا قد تقع آخِرَةً فلمّا كان كذلك أبدلُوها منها كما أبدلوها من « الگاف » [گ = g الموجود مثلا في garçon] و جعلوا « الجيمَ » أولَى لِأنّها قد أُبْدِلَتْ من الحرف الأعجمي الّذي بين «الكاف» و «الجيم» [الحرفَ نفسه] فكانوا عليها أَمْضَى» [3] .

وقد استخلص «سيبويه» هذه القاعدة من خلال لغة التّخاطب الفارسيّة في القرن الثّاني لأنّ الفارسيّة لم تصبح بعدَ الفتحِ لغةً ثقافيّةً إلّا في القرن الرّابع وتبعا لذلك

(١) «الكتاب» : ٤١٣/٢ .

(٢) «الكتاب» : ٤١٣/٢ .

(٣) «الكتاب» : ٤١٣/٢ .

ضُبِطَتْ قواعدُها في فترة تالية ، لهذا يُعَدُّ صاحبُ «الكتاب» في رأينا أقدمَ مَنْ عُنِيَ بنحو اللّغة الفارسيّة الإسلامية فقد سَبَقَ إلى وضع أوّل قاعدة نحويّة عرفها تاريخُ النّحو الفارسي .

و بيّنّ أنّه لا يمكن فهمُ هذا النّصّ إذا لم تكن لنا معرفةٌ بالفارسيّة ونحوِها[1] فـ«سيبويه» يُشيرُ، حسَبَ ما نفهم، إلى أنّ « هاء السكت المتطرّفة » تُنْطَقُ في الفارسيّة على شكلين : تارةً على شكل «همزةٍ». وأخرى على شكل «ياءٍ»، و تقتضي القاعدةُ النّحويةُ الفارسيّةُ وجوبَ النّطق بـ«الهاء» على شكل « همزة » إذا كانت في كلمة نكرةٍ مثل

«مُوزَه اي» (Muzé-y =) : «خُفٌّ».

«دَانِشْكَدِه اي» (Danech-kadé-y =) : «كلّيّةٌ» .

«شُمَارِه اي» (Somâré-y =) : «عددٌ» .

أو في كلمةٍ مضافة ، إذا تقدّم المضافُ على المضاف إليه، فإنّ الإضافة تتحقّقُ بقلب « كسرةِ الإضافة» «همزةً» مكسورةً تُنْطَقُ بَدَلَ «الهاءِ»[2] نحو :

« مُوزَهٔ مَرْدْ» (Muzé-yé Mard =) : «خُفُّ الرَّجُلِ» .

---

(١) من الملاحظ انّ « شهاب الدّين أحمد الخفاجي » رَدّدَ في كتابه « شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدّخيل » ، المطبعة الوهبيّة ١٢٨٢، ص ٥ ـ ٦، «كلام سيبويه » دون إدراك لمقاصده ، وكذلك فعَلَ «علي النّجدي ناصف » في كتابه « سيبويه إمام النّحاة» ، «مصر» ١٩٥٣ ص ٨٥ ، واكتفى بأن استروح من ظاهر النّص «معرفة سيبويه المحدودة للغة الفارسيّة» ؟

(٢) بقيت حالة أخرى تُنطَقُ فيها «الهاء» « همزةً » لم يذكرْها « سيبويه » ، هي أن تكون في آخرِ موصوفٍ متقدّمٍ على صفته فإنّ العلاقة الوصفيّة تتحقّقُ بكسرِ الموصوفِ ، و لمّا كان الموصوفُ منتهياً بـ«هاء» فإنّ الكسرة تُقْلَبُ همزةً مكسورةً نحو : «خانهٔ بزرگ» (Khane-yé Bozorg) : «البيت الكبير» .

«ترجمهٔ حالِ فخرِرازي» (Tarjamé-yé-hali Fakhri Razi =) : «ترجمة الفخرِ الرّازي» .

كما تقتضي القاعدةُ النّحويّةُ النّطقَ بـ«الهاء» على شكل«الياء» في غير حالات التّنكير والوصف و الإضافةِ مثل : «موزه» (Muzé=) : «الخفّ» . « شماره » (= Somâré) : «العدد» .

و يعلّل «سيبويه» هذا الإبدال تعليلا صوتيّا أساسُه التّشاكلُ بين «الجيم» و «الياء» و بين «الياء» و «الهمزة» و اعتمادُ «الجيم» كحرف بدل للحرف الفارسي الّذي لايوجد في العربيّة ، و بناءً على أنّ «الجيم» أبْدِلَتْ من« g »(الموجود في garçon) فإنّها تُبْدَلُ أيضا من «هاءالسّكت» (وجعلوا«الجيم» أَوْلى لأنّها قدأُبْدِلَتْ من الحرف الأعجمي الّذى بين «الگاف» و «الجيم» [الحرفُ نفسُه] فكانوا عليها أمضى) (١) . وتبعا لذلك تقوم «القاف»أحيانا مقام «الجيم» فتُبدَلُ من «هاء السكت» فقدنَطق بعضُهم بـ«كَوْسَقٍ» بدل« كَوْسَجٍ » و«قُرْبَقٍ» بدل «قُرْبَجٍ» و « كُرْبَقٍ » ،قال الرّاجز :

يا ابن رقيع هل لها مِنْ مَغْبَقِ

ما شَرِبَتْ بَعْدَ طَوِيٍّ «القُرْبَقِ »

مِن قطرةٍ غيرَ النّجاءِ الأدْفَقِ

٣) إبدال«الباء» أو«الفاء»من«پ» (P) فقالوافي«پَرَنْد» : «فِرِند» و«بِرند» لأنّ «الباء» و «الفاء» متشاكلان و قريبان من «P» وهي جميعا حروف شفويّة « فالبدل مطّرِدٌ في كلّ حرف ليس من حروفهم ، يُبْدَلُ منه ما قَرُبَ منه من حروف الأعجميّة» (٢) .

٤) تغييرُ الحركة في الكلمة المعرَّبَةِ قَصْدَ إخراجها عن نطقها الفارسي كما في

---

(١) الكتاب : ٤١٣/٢ .

(٢) الكتاب : ٤١٤/٢ .

«زَوْر» فقد أصبحت بعد تعريبها «زُور» ، بضمّ الزّاي ، و كما في «آشُوب» من المصدر «آشوفتن = آشفتن» = فحين عُرِّبَتْ حُذِفَ مدُّها (أشُوبْ) .

و أمّا ما لا يطّرد فيه البدل : فيتمثّل في ثلاثة حروف :

١) «الشّين» و تُبْدَلُ في «الإسم المُعْرَب» «سيناً» لتشابهها في « الهمس » والإنسلال من بين الثّنايا وَ مَثّلَ لذلك بـ«سَرَاويلَ» وأصلُها في الفارسيّة «شَرْوَال» و يمكن إضافةُ بعض الأمثلة الأخرى الواردةِ في «المُعَرَّب» ، فقالوا في «دَشْت» : و معناها الصّحراء : « دَسْت » و في « بَنَفشه » : « بنفْسَج » و في « لَشْكَر » : «عسكر» و في «نيشابور» : «نيسابور» و في «أبريشَم» : «إبريسَم» .

٢) «الهمزة» و تُبْدَل في «الإسم المُعْرَب» «عَيْناً» لتشابه الحرفين في النّطق فالهمزةُ المنطوقةُ في «أشماوِيل» أصبحت «عينا» على ألسنة العرب : «إسماعيل» .

٣) «الزّاي» و تبدل «لاما» ، فقد قالوا : «قَفْشَليل» و معناها « المِغْرَفة » بَدَلَ « كَفْجَلاز» .

والملاحظ انّ «سيبويه» استخلص هذه القواعد من الواقع اللّغوي دون ان يستكمل كلَّ الضّوابطِ الممكنة في هذا الموضوع ، فلم يقف عند الإبدال فيما يلي :

I ـ «الدّالُ» المصاحبة لـ «الهاء» الصّامتة المتطرّفة الّتي تُبْدَلُ في « الكلمةِ المُعْرَبَة» «ذالاً» نحو : «سَادِه» معناها «بسيط» : «ساذَجٌ» . «نُمُودِهْ» معناها «مثال» : «نُموذَجٌ» . «پَالُودِه» معناها : «نوع من الحلوى» : «فَالُوذَجٌ» .

II ـ «الگاف» (g : الحرف نفسه) الّتي تُقْلَبُ أحيانا «كَافاً» مثل «گوش» و معناها «الأُذُن» : «كُوش» . «گَنْجْ» (كنز) و هنا قلبت « الجيمُ » «زَاياً» .

III ـ «الزّاي» الّتي تقلب «قافا» مثل «إبْريز» = «إبريق» .

IV ـ «السين» الّتي تُقلبُ «صادا» مثل «سرد» معناها «البرد» : «صَرْد» .

و الإضافة إلى ذلك لم يتناول « سيبويه » الكلمات المُرَكَّبَةَ « المُعْرَبَة » مثلَ «سراب» من «سيرْ» (=مملوء) و «آب» (= الماء) أي ما يظنّه الرّائي كذلك و «ميزاب»

من «ميز» (= مَسِيل) و«آب» (الماء) . ولا الإشتقاقَ الّذي أُجْري على بعض الكلمات فقد كان العرب يُوَلِّدُون من بعض الأسماء أفعالاً ، و يشتقُّونَ من هذه الأفعال مثلَ «ألْجَمَ» من «لِجَام» و «مَهَرَ» (= خَتَمَ) من «مُهْر» (= الخاتِم) و «دَوَّنَ» من «دِيوَان» و ذلك كُلُّهُ شائعٌ في الّلغة العربيّة منذ العصر الجاهلي .

كما أنّ «سيبويه» علَّلَ إبدال «گ» (g : الحرف نفسه) بـ«الجيم» أو «الكاف» أو «القَاف» لعدم وجود هذا الحرف في العربيّة . و هو أمرٌ ينقُضُه واقِع الّلغة العربيّة فَإنّ وُجودَ «گ» (g : الحرفُ نفسه من الكلمة نفسها) في كثير من اللهجات العربيّة المعاصرة يُشير إلى حقيقة عرَّفتها اللّغةُ العربيّة منذ القديم هو وجود «گ» (g : الحرف نفسه من الكلمة نفسها) في الّلغة الفصحى، وحَسَبَ «ابنِ خلدون»: «وعندهم (الجيلُ العربيُّ لِعَهْدِ ابنِ خلدون) أنّه إنّما يَتَمَيَّزُ العربيُّ الصريحُ من الدّخيل في العُرُوبيَّةِ و الحَضَرِيِّ بالنّطق بهذه «القاف» (المتوسطة بين القاف والكاف)، ويظهر بذلك انّها لغةُ «مُضَرٍ» بعينِها، فإنّ هذا الجيلَ الباقينَ مُعظمُهم و رؤساؤُهم شرقاً وغرباً في وَلَدِ «منصورِ بنِ عِكْرِمَةَ بنِ حَفْصَةَ بنِ قيسِ بنِ عِيلان بنِ سُلَيْم ابنِ منصور»، و مِنْ «بَنِي عامرِ بنِ صَعْصَعَةَ بنِ معاوية بن بكرِ بنِ هَوَازِن بنِ منصور»، و هُم لهذا العهدِ أكثرُ الأمم في المعمور، و أغلبُهم من أعقابِ «مُضَرٍ»، و سائرُ الجيل منهم في النّطقِ بهذه القاف [المتوسطة بين القاف و الكاف] أسوةٌ، و هذه اللّغةُ لم يبتدعُها هذا الجيلُ بل هي متوازنةٌ فيهم متعاقِبةٌ و يَظهرُ من ذلك أنّها لغةُ «مُضَرٍ» الأوَّلِينَ ولعلّها «لغةُ النّبيِّ»، صلى الله عليه و سلم، بعينِها، و قد ادّعى ذلك فقهاءُ أهل البيت، و زَعَمُوا أنّ من قرأ في «أمِّ الكِتابِ»: «اِهْدِنا الصِّراطَ المُسْتَقيمَ» بغير «القافِ» الّتي لهذا الجيل فقد لَحَنَ و أفْسَدَ صَلاتَهُ»[1] .

و نلاحظ من الإبدال الّذي أصابَ «الكلماتِ المُعَرَّبَةَ» أنّ العربَ قد ألحَتْ

(١) «مقدّمة ابن خلدون»، تحقيق الدّكتور «علي عبدالواحد وافي»، ط. ثانية، لجنة البيان العربي، «القاهرة» ١٩٦٨، ١٣٩٤/١٣٩٣/٤ .

عليهم فكرةُ التغيير فأبدَلُوا من الحُروفِ الّتي تفتقدُها العربيّةُ و من الحروف الّتي تُوجَدُ في اللّغتين، وفي هذه الحال تتّضحُ الحسّاسيّةُ المفرطةُ الّتي واجه بها العربُ الكلماتِ الدّخيلةَ، و هو أمرٌ يفسّر لَنَا إبدالَهم «الشينَ» «سيناً»، و «السّينَ» «صَاداً».

لقد ظلّ ماكتبَه «سيبويه» عن «المُعْرّب» بالرّغم من اختصاره أساساً لكلّ الدّراساتِ الّتي تناولت هذا المبحثَ منذُ القرنِ الثّالثِ الهجريّ حتّى اليوم، فقَفَى علَى أثرِه القدماءُ فنقلوا، في الأغلبِ، كلامهُ عَن «المُعْرّب» بلفظه، كما آثرَ طريقتَه المرنَةَ في التّعريب، و حَضّ عليها، المجدِّدُونَ مِن المُحدَثين، و هذا أحدُهُمْ «محمد شوقي أمين» يدعو «مجمَع اللّغةِ العربيّة» إلى أن يَطّرِحَ عنه التّعصّبَ المتمثّل في إقرارِه الطّريقةَ العربيّةَ كطريقةٍ وحيدةٍ للتّعريب حَسَبَ القرارِ المُتّخَذِ سنَةَ ١٩٣٩، وأن يَعتَمِدَ مُقابِلَ ذلك «مَذْهَبَ سيبويه» الّذي يُجيزُ مخالفةَ «الأبنيةِ العربيّة»[1]. لقد حرّر «سيبويه» «المُعْرّبَ» من التعصّبِ و الجمود و من الأقيسةِ الضّيّقة، فأدمج في العربيّة ماتساقط إليها سواء اتّفق مع أبنيتها أم لم يتّفقْ، ومَذْهَبُهُ هذا ينسجم مع حقيقةٍ أساسيّةٍ هي أنّ المحافظةَ على اللّغةِ تَكْمُنُ في سلامة هَيْكَلِها و بناءِ الجملة فيها و في مراعاةِ العلائق القائمة بين أجزائها، وأنّهُ لاخَطَرَ علَى أيّةِ لغةٍ من الإقتباس من لغة أخرى، فأن الإقتباس على إحدى الطّرقِ الثّلاثِ عند الحاجة هوالّذي يمكّنُها من الثّراء و الحيويّة الموصولة و من إقامة الحوار المستمرّ مع الحضارات، ومنذ القديم تفطّن العرب إلى هذه الحقيقة، ففي «الخصائص» لِـ «ابن جنّي» ما يشير إلى ذلك: «إلّا أنّهُمْ أشَدُّ استنكاراً لِزَيْغِ الإعرابِ منهُ لخلاف اللّغةِ

---

(١) راجع بحثه، جواز التّعريب على غير أوزان العرب، في «مجلّة مجمع اللّغة العربيّة»، الجزء الحادي عشر، «القاهرة» ١٩٥٩، ص٣٠٧. ينبغي أن أشير إلى أنّ «المجمع» تراجع عن موقفه فأجاز بتحفّظ مخالفة «الأبنية العربيّة». راجع: «ابراهيم مدكور»: «مجمع اللغة العربيّة في ثلاثين عاما»، «القاهرة» ١٩٦٤، ص ١٣٩.

لأنّ بعضهم قد يُنْطَقُ بحضرتِه بكثيرٍ من اللّغات فلا يُنْكِرُها »[١] فقد كان العرب يستنكرون الخطأ في الإعراب أكثرَ من استنكارهم إدخالَ الكلماتِ الأجنبيّةِ في العربيّة، والمقصودُ بالكلماتِ الأجنبيّةِ الكلماتُ الّتي لاتَفْتَقِدُها هذه اللّغةُ، و يُسْتَرْوَحُ من بقيّة ما أورده «ابن جنّي» في مَوْضِعِهِ أنّ هذا الإستنكارَ الأدْنى يَنتفي إذا كانت العربيّةُ في حاجة إلى الكلمات الأجنبيّةِ [٢] .

إنّ العربيّة تواجِهُ حاليّاً تحدّيات العصر وتتعرّضُ لهزّاتٍ أساسُها التّشكيكُ في قيمتِها كأداة حضاريّة في عصر تطغى فيه التّقْنِيَّةُ على كلّ شيء و يتطوّر فيه العلم بسرعة مذهلةٍ ، إذا أردنا لها الحياة كما أرادَ لها «سيبويه» منذ مايزيد على اثني عشر قرناً أن تُحْكِمَ اللّقاء بينها و بين اللّغات خدمة لثقافَتِنَا وتطويراً لمجتمعنا وإسْهَاماً في بناءِ الحضارةِ الإنسانيّةِ .

---

(١) ج ١ ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦ .

(١) راجع أمرَ «أبي مهديّة» و«الفارسيّ» في «الخصائص»، ج ١ ص٣٢٦ .



عیسی میخائیل سابا
(لبنان)

«سیبویه» فی أهمّ آثاره

من لبنان المُقرّ بفضل العلم و العلماء ، من جباله و أوديته وساحله من أرزه وورده أحمل تحيّة مضمّخة بأرّق النّفحات وأعطرها إلى البلد الطّيّب الأمين «ايران» منبت العلماء و الأدباء و الشّعراء

سيّداتي سادتي :

أقف بهذا الحفل الكريم محيّيا بتحيّة سلام و محبّة هي بدء كلمتي ، لجنةً إحياء ذكرى نابغة جيله «سيبويه» و أحيّيكم أيّها السّادة الأفاضل و أسألكم العذر إن شطّ اللّسان أو أخطأ .

حدّثنا التّاريخ قال : انّ « الفرس » و « العرب » امّتان متجاورتان قد اتّصل بعضهما بالبعض الآخر قبل الإسلام و بعده ، و قد أثّرت كلّ منهما بالأخرى ، إلّا أنّ أثر العرب بـ«الفُرس» قبل الإسلام كان ضئيلاً جدّاً ، لأنّ «أمّة الفرس» كانت أعظم

من «العرب» في الملك و الحضارة والعلم ، وقد قال المستشرق الآلماني « نولدكه » أنّ الآداب اليونانيّة لم تمسّ من حياة «الفرس» ، إلّا ظاهرها ولكن «دين العرب» و سننهم نفذت في قلوبهم و حسن الجوار و أثر كلّ منهما بالآخر سبيل رحب يصل شعبابشعب متحابّ متآلف . و على هذا التّحابّ و التّآلف ، أتناول البحث في ما اتّصل بي من خبر «سيبويه» النّابغة الكبير وما أسداه من خدمة جليلة لقواعد اللّغة العربيّة وهو و إن كان ايرانى الأصل والنّسب ، فنسبته إلى العربيّة تكون بالمنشأ و التربيّة ، انّه « أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر » الملقّب بـ«سيبويه» إمام البصريّين و حجّة النّحاة ، ومعنى هذا اللّقب بالفارسيّة ، على ماجاء في كتب التّاريخ و الأدب : «رائحة التّفاح» وهل أشهى من التّفاح و أعطر رائحة نتشمّمها من كتابه الكبير الجامع المانع . ولد في « البيضاء » قرب هذه المدينة العامرة الزّاهرة «شيراز» من سلالة فارسيّة ونشأ في «البصرة» ، وطلب الفقه والحديث إلّاانّه عدل عنهما للحنة عيبت عليه في مجلس شيخه «حمّاد بن سلمة» فخجل و طلب النّحو فأخذه عن «الخليل بن أحمد الفراهيدى » و «يونس» و « عيسى بن عمر » و أخذ اللّغة عن « الأخفش الأكبر» فبرع بهذا العلم و تفوّق على أبناء جيله ، يشهد على ذلك كتابه الّذي وضعه في جزئين و صار كلامه حجّة و مرجعا موثّقا في النّحو و قوله القول الفصْل ليس بعده قول ولاجدال ، فهو بحقّ طود اللّغة العربيّة و لسانها النّاطق و قلبها الخافق .

و بالإشارة إلى ما تقدّم كان السّبب الّذي دعاه إلى علم النّحو ماروته كتب التّراجم يلخّص بمايأتي : قيل أنّه جاء إلى «حمّاد» المذكور لكتابة الحديث فاستملى منه : «ليس من أصحابي أحد إلّا لو شئت لأخذت عليه ليس أباالدّرداء » ، فقال «سيبويه» : «ليس أبوالدّرداء» فصاح به «حمّاد» : «لحنت يا «سيبويه» إنّما هذااستثناء» فانقبض «سيبويه» عند سماعه هذا و قال في نفسه : « و الله لأطلبنّ علماً لايلحنني معه أحد » و مضى من فوره إلى « الخليل » وشرع يأخذ عنه وعن «يونس» و «عيسى» النّحو فقرأه و استطاع

أسراره حتّى أصبح فيه منفردا لا نظير له و إمام النّحاة غير معارض ، فوضع كتابه المشهور ، و تنقل لنا الكتب الموثّقة لشدّة إعجاب القوم به و اتّفاقهم على مزيّته ، أطلقوا عليه اسم «الكتاب» إظهارا و تعظيما له و إجلالاً لقدر صاحبه .

و من المرْويّ إنّه كان إذا قيل بـ«البصرة» قرأ فلان « الكتاب » علم أنّه « كتاب سيبويه » ، و جاء في « كتاب الكامل » ، لـ«أبي العباس المبرّد » : إذا أراد مريد أن يقرأ عليه «الكتاب» يقول له : «هل ركبت البحر» إقرارا بفضل « الكتاب » و صاحبه و استصعابا لما فيه ، و من كلام « أبي عثمان المازني» : «من أراد أن يعمل كتابا كبيرا في النّحو بعد «سيبويه» فليستحِ» فمن هذا كلّه نعلم ماوصل إليه هذه النّابغة الكبير من اتقان علم النّحو و قد أقرّ له بذلك علماء عصره ، فقدّموه على من جاء بعده من النّحاة بدليل ماتضمّنه كتابه الّذي لم يسبقه إلى مثله أحد ، و نسب فيه أقوال كلّ من شيوخه ماقال ، بالإعتماد على « أبي زيد الأنصاري النّحوي اللّغويّ» وكان يسمّيه الثّقة ، فوقع كتابه هذا موقعا حسنا عند أهل «البصرة» حتّى أصبح تحفة يتسابق الفضلاء إلى مهاداته واقتنائه في مكاتبهم ، و عن هذا النّابغة الحامل علم «الخليل» و أوثق النّاس في الحكاية عنه ، أخذ جماعة من كبار العلماء أشهرهم «ابو الحسن الأخفش» و «قُطْرُب» وعن «أهل البصرة» أخذ «الكوفيّون» علم النّحو و اشتغلوا فيه فنبغ فيهم « مُعاذ الهَرّاء » أوّل من استنبط التّصريف ، و «أبوجعفر الرؤاسي» . و « كتاب سيبويه» مازال باقيا تتداوله أيدي العلماء، وله طبعات متعدّدة في « باريس» و « برلين» و «مصر» و « كلكتّة» ، و في «الكتاب» ثمانمئة وعشرون فصلاً يحتوى الجزء الأوّل منه على الكلم و أقسامه و الجزء الثّاني على ما ينصرف وما لاينصرف والنّسبة و الإضافة و ما إلى ذلك من الأبواب ، وهو جامع لكلّ مايحتاج إليه طالب النّحو ، فلم يبق واضحه شاردة ولا واردة إلّا ذكرها . و هنا لابدّ لي من أن أنقل مقطّعا منه نتعرّف به على لغته و نسق الكتابة فيه قال : « . . . و إنّما ذكرت لك ثمانية مجار لأفرّق بين ما يدخله ضرب من هذه الأربعة ، لما يحدث فيهما العامل ،

وليس شيء منها إلّا وهو يزول عنه، و بين ما يبنى عليه الحرف بناء لا يزول عنه لغير شيء أحدث فيه العوامل الّتي لكلّ عامل منها ضرب في اللّفظ في الحرف و ذلك الحرف حرف الإعراب : فـ«النّصب» و «الجرّ» و «الجزم» لحروف الإعراب ، و « حروف الإعراب» لـ«الأسماء المتمكّنة» ولـ«الأفعال المضارعة » الخ. » هذا هو صوغ الكتاب و لغته السّلسلة الصّافية .

و ذكرت المراجع ، انّه لمّا قدم من «البصرة» إلى بغداد و «الكسائي» يومئذ يعلّم «محمّد الأمين بن هارون الرشيد» وقد جمع بينهما فتناظرا و «الكسائي» «كوفيّ» و نعلم ما كان من مشاحنات بين مدرستي «البصرة» و «الكوفة» بشأن اللّغة و نحوها و تصريفها و قام الجدال على مسألة شهيرة تعرف بمسألة «الزّنبور» و هي أنّ « الكسائي » زعم انّ العرب تقول : «كنت أظنّ الزّنبور أشدّ لسعا من النّحلة فإذا هو أيّاها» فقال «سيبويه» : « فإذا هو هي » فتجادلا و تشاحنا كثيرا و أخيرا اتّفقا على تحكيم أعرابي من البادية لا يشوب كلامه شائبة، فاستدعي أعرابي ، وعرضت المسألة عليه فقال كما قال «سيبويه» ، فقيل له إنّما نريد أن تقول كما قال «الكسائي» ، قال : انّ لساني لا يسبق إلّا إلى الصّواب و أخيرا أجبر أن يقول كما قال « الكسائي » . فعلم « سيبويه » انّ المجلس تحامل عليه و تعصّب لـ«لكسائي» فخرج من «بغداد» منقبض الصدر و وجهته «ايران» البلد الطّيب و في بلدة «البيضاء» الّتي أبصر فيها النّور كانت وفاته وله من العمر ما يقارب الأربعين ، سنة ٧٦٧ م / ١٨٠ هـ . و في هذا التّاريخ خلاف .

من عرض ما تقدّم نعلم مبلغ ما وصل إليه هذا النّابغة بعلم العربيّة ، وكلّ من جاء بعده كان عالة عليه و على كتابه الّذى لم يعرف له غيره ، و منه استقى المؤلّفون و تأدّبوا بأدبه، و قد شرح «الكتاب» و أجاد فيه «أبوسعيد الحسن بن عبدالله السّيرافي» وكان أعلم النّاس بنحو «البصريّين» كما أنّ «أباالقاسم محمود الزّمخشري» وضع كتابه «المفصّل» في النّحو وكان يقول : « ليس في كتاب سيبويه مسألة إلّا تضمّنها كتابي إمّا نصّا و إمّا ضمنا» .

هذا هو الأثر الّذى خلّفه نابغة النّحو «سيبويه» لينتفع به مَن جاء بعده، و قد سطعت أنوار عرفانه على االشّرق قاطبة و بعض بلاد الغرب ، وكفى أن تكون له هذه الشهرة الواسعة الّتي طبّقت الآفاق، فبحقّ وانصاف، يقام له هذا المهرجان تخليدا لذكراه و إقرارا بفضله أجزل الله ثوابه و أسكنه فسيح جنّاته و أبقاكم نخبة الفضل بأمن و رغد و سلام تخدمون العلم و تنفعون به دمتم و دام حفلكم الكريم .

١٢٤ تشرين الثّانى ١٩٧٢

عيسى ميخائيل سابا

١٤

فكتورالككك (الدكتور...)
(لبنان)

دروس أخلاقيّة و تربويّة من علم «سيبويه»

أجيء من «لبنان» لتحيّة «سيبويه»، و بلاد أنجبت «سيبويه»، و لتحيّة حياة تتفتّح من الماضي في الحاضر و المستقبل.

«سيبويه» لقب لـ«أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر»، و اللّقب هذا يعني، في الفارسيّة، رائحة التّفاح [1] أو التّفاحي على الأرجح و «لبنان» يضوع بهذه الرّائحة، كما يقول «أبونواس» [2] وكما هو الواقع. من هنا تنعقد الصّلة الأولى بين «سيبويه» و «لبنان»! ولا عجب فالمشهور عن «سيبويه» جمال الصّورة مع طيب الرائحة [3]، والمشهور عن «لبنان» صلته بالحرف و نشر الأبجديّة، و بالتّالي اهتمامه بلغة العرب [4] الّتي وضع كتاب نحوها

---

(١) «طبقات النّحويّين للزّبيدي»، ص ٧٣.

– سلسلة تراجم أعلام الثّقافة العربيّة و نوابغ الفكر الإسلامي: المجموعة الأولى.

(٢) «ديوان أبي نوّاس»: قافية النّون.

(٣) سلسلة، ص ٥.

(٤) «أعلام اللّغة من لبنان مشهورون: اليازجيّان، الشّدياق، البستاني، الشّرتوني، العلايلي، الخ...»

«سيبويه» في العصور الوسطى، و وضع «لبنان» كتب نحوها المحدثة في العصور الحديثة .

و «سيبويه» ولد بقرية من قرى «شيراز» تسمّى «البيضاء» ، ثمّ قدم «البصرة» و تتلمذ على أكابر علمائها ، و بوجه خاصّ على «الخليل بن أحمد الفراهيدى» [١].

ومن قدوم «سيبويه» إلى «البصرة» تتفتّح للعربيّة و لأبناء العربيّة حيوات نحن نحياها و نحيّيها . غير إنّني، اليوم ، في «مؤتمر سيبويه» أحبّ التّأمّل في الأعماق الّتي تفتّح منها «سيبويه» . فما تلك الأعماق وما أصولها !؟

قبل الإجابة على هذا السّؤال ، أودّ الإشارة إلى أربعة أمور هي :

١ـ إنّ الباحثين في النّحو العربي يشبعون بحوثهم بأخبار «سيبويه» وقيمة كتابه، و يذهبون في مباحثهم مذاهب ثلاثة :

إمّا مذهب المؤرّخ الّذى يتتبّع نشأة « سيبويه » خطوة خطوة حتّى صار شيخ الطّبقة الرّابعة من «مدرسة البصرة» ، بل يتتبّعون أخباره حتّى وفاته سنة ثلاث وثمانين و مائة للهجرة [٢] .

و أمّا مذهب النّاقد الموازن بين نحو «سيبويه» و نحو «الكسائي» الّذى كان شيخ الطّبقة الثّانية من «مدرسة الكوفة» و قد يتوقّفون طويلا عند مناظرتهما المشهورة . . . و أحيانا يوسّعون موازناتهم بين نحو المدرستين ، و يقارنون بين «النّحو العربي» و بين غيره من الأنحاء لمعرفة التّأثير الأجنبيّ فيه[٣] و تأثيره فى الأنحاء الأجنبيّة . . .

و أمّا مذهب الدّارس لجانب من جوانب « سيبويه » ، فيدرس أحدهم مثلا : أبنية الصّرف في «الكتاب» [٤] .

---

(١) «الإنباء» ، «الطّبقات» ، الخ . . .

(٢) سلسلة ، ص ٥ ـ ٦ .

(٣) «منطق أرسطو والنّحو العربي» ، الدّكتور «ابراهيم مدكور» .

(٤) «أبنية الصّرف في كتاب سيبويه» ، للدّكتورة «خديجة الحديثيّ» ، مكتبة النهضة ، «بغداد» ١٩٦٥ م .

٢- إنّ الإهتمام بـ«كتاب سيبويه» ، قديما و حديثا، أضاء مسائله إضاءة تحديديّة بما وضع عليه من شروح و دراسات [١] .

٣- أعترف بقيمة ما كتب عن «سيبويه» وكتابه ، لكنّني لا أريد تكرار ماقيل فيهما كأن أعرض «الكتاب» ومسائله السّتين، ثمّ أقارن بين منهجه و منهج من تلاه من الباحثين في النّحو العربي ، أو غيره من أنحاء الأمم الأخرى .

٤- لم أجد شفاء كاملا في ما قرأته حول «سيبويه» ونحوه ، لأنّ النّاحية الإجتماعيّة والإنسانيّة لم تستنبط من حركة «سيبويه» اللّغويّة [٢] ولا أدّعي انّني سأصل الى ما يشفي في هذا الشّأن ، بل أكتفي بالتّذكير به، و تقديم مثال يوضّحه من أصول الأعماق الّتي صنعت «سيبويه» و كتابه .

أمّا المثال الّذي اخترته للإيضاح فهو جواب السّؤال الّذي طرحته على نفسي قبل عرض هذه الخاطرات : ما تلك الأعماق وما أصولها ؟

أعيد أعماق «سيبويه» و أصولها إلى المكان و إلى الإنسان . و أقف عند مشهدين من مشاهد كلّ منهما . فمن المكان ألمح مشهد « البيضاء الشّيرازيّة » و مشهد « البصرة العربيّة» . و من الإنسان أتبيّن مشهد الكبرياء و مشهد الوفاء .

ولد «سيبويه» في قرية من قرى «شيراز» ثم قدم «البصرة» ، و «شيراز» مدينة العلماء والشّعراء و الأولياء كما يقدّمها تاريخها [٣] ، و « البصرة » حاضرة « العراق » على شطّ العرب ، و فيها اجتمع «إخوان الصّفاء» ، و عدد كبير من العلماء و النّحاة و الفقهاء و الأدباء والشّعراء . . . [٤]

---

(١) مثلا ، «الرّماني» النّحوي في ضوء شرحه لـ«كتاب سيبويه» . الدكتور «مازن المبارك» دمشق ، ١٩٦٣ .

(٢) نفسه ، ص ٦٦ .

(٣) مثلا : «شيراز مدينة الأولياء والشّعراء» لـ«آرثر آربري» .

(٤) سلسلة ، ص ٥ .

ترى ، ألا يصحّ للخاطر أنْ يتأمّل في مولد « سيبويه » و منشئه ، فكأنّه شطّ يجمع بين خصائص الأمّتين: «العرب» و«الفرس» ليكون شطّ النّحو الّذى يصبّ في «الكتاب» همّة القادم العبقري من «شيراز» ، و علم «الفراهيدى» المقيم في « البصرة » .

أمّا قصّة الصّلة بين « سيبويه » و « الفراهيدى » **فهى قصّة ذات فصول ، من فصولها : كبرياء الإنسان ووفاؤه . و بهاتين المزيّتين من أخلاق «سيبويه» تكوّن علمه بالنّحو** [1] **و ألّف كتابه فيه** [2] .

يحمل إلينا « تاريخ سيبويه» و « تاريخ النّحو » فصول القصّة ، لكنّه لا يستنبط جوانبها الإجتماعيّة والتّربويّة .

ففي «تاريخ سيبويه» ، انّه قدم من «البيضاء» إلى « البصرة » و طلب الحديث و الفقه في أوّل الأمر ، لأنّه كان مولعا بهما ، ميّالاً إلى التّفسير ، ولزم في «البصرة» حلقة « حمّاد بن سلَمة » . حتّى قاده الخطأ الّذى لامس كبرياء الإنسان فيه إلى النّحو .

يزعم الرّواة أنّه قال يوما لأستاذه «حمّاد» :

هل حدثّك «هِشام بن عُروة» عن أبيه في رجلٍ «رعُف» (بضمّ العين) . ؟

فقال «حمّاد» : «إنّما هو رعَف» (بالفتح) .

فانصرف «سيبويه» إلى «الخليل بن أحمد» و شكا إليه ذلك. فقال له «الخليل» : «الحقّ مع «حمّاد» . والضمّ لغة ضعيفة» .

وقيل : انّه كان يستملي على «حمّاد» قول النّبيّ : «ليس من أصحابي إلّا من لو شئت لأخذت عليه، ليس أباالدّرداء» .

فقال «سيبويه» : «ليس أبوالدّرداء» ظانّا أنّه اسم ليس ، فصاح به «حمّاد» : «لحنت يا «سيبويه» ، إنّما هو استثناء» .

---

(١) نفسه ، ص ٦ .

(٢) « الكتاب » ، لـ«سيبويه» . «القاهرة » : دارالقلم . تحقيق و شرح « محمّد عبدالسّلام هارون» ، ج ١ ص ٢٤ .

فقال : «لاجرم ، لأطلبنّ علما لايلحنني معه أحد . . »

فطلب النّحو، و عكف على الإشتغال به ، والأخذ عن «الخليل بن أحمد» . وكان لايدركه ملل ولا فتور في التّردّد على « الخليل » و الإشتغال بعلمه . قال أحد الرّواة : « كنت يوماً عندالخليل بن أحمد فأقبل سيبويه » ، فقال الخليل : «مرحبا بزائر لايُمَل » : و قال آخر : «ماسمعت الخليل يقولها لأحد إلّا لـ«سيبويه»[1]» .

تلقي هذه الرّواة ضوءاً كاشفا على كبرياء الإنسان في أخلاق «سيبويه» . وتفسيرها أنّ «سيبويه» يحارب الخطأ في لسانه المعبّر عن تفكيره ، و يكتشف سلاحه الأقوى في النّحو . انّ النّحو يعصم اللّسان من اللّحن ، فيقي الشّعور من الجراح . لاريب أنّ «سيبويه» شعر بالألم الموجع عندما خطّأه «حمّاد» ، لكنّه لم ينقم على « حمّاد » ، و لم يكابر الحقيقة ، بل سعى إلى إصلاح نفسه ، و وجد الوسيلة ، فالنّحو هنا وسيلة تؤدّي إلى غاية مقصوده و هي كرامة الإنسان تتجلّى بكبريائه الّتي يجرحها الخطأ و يأسوها الصّواب . انّ النّحو علم الصّواب أو علم الأصول المؤدّية إلى الصّواب .

وحركة « سيبويه» المتحدّية للخطأ في سبيل كبريائه الإنساني ، لها أبعادها الإنسانيّة على مستوى الزّمان و الأجيال . ففي الزّمان تحدّثنا الكتب السّماويّة عن خطأ آدم ، وعن جهاده للهدى والعودة إلى الفردوس . و تحدّثنا كتب الفلسفة في محاورات سقراط وتلاميذه عن مجابهة الخطأ في سبيل الصّواب المكرّم للإنسان . . . و في الأجيال يعطينا «سيبويه» درسا عمليّا من حياته ، فهو يتحدّيه للخطأ وجلده في مايحفظ له كبرياءه ، فلايخطّئه أحد ، إنّما يفتح الباب للأجيال الصّاعدة ، لتكون بمستوى الّذى حمى كبرياءه من الإذلال ، فلنتجنّب الخطأ بمعرفة أصول الصّواب .

و إن كانت الحادثة تصلح في مشكلات الإنسان المختلفة ، فهي أصحّ بالنّسبة لمشكلة اللّغة . فاللّغة أساس انسانيّ تبنى عليه عمائر الحياة الأخرى .

---

(١) «السّيرافى» ٤٣ . «الإنباه» ٣٥٠/٢٥
— «الزّبيدى» : ٦٦ و ٦٨ ، الخ . . .

للذلك تعلّم «سيبويه» علم النّحو دفاعا عن كبرياء الصّواب فيه .

لكنّ السّؤال الّذى يطلّ علينا عند هذه النّقطة، هو : إذاكانت قصّة «سيبويه» فرديّة شخصيّة وقد تجاوزها بتعلّم مسائل النّحو ، فلما ذاكتب كتابه ؟ أعني هل «كتاب سيبويه» الّذى وصلنا هو مجرّد مسائل النّحو و الصّرف الّتي جمعها «سيبويه» ليتعلّم هو العلم الواقي من الخطأ ، أم انّه كتاب قصد صاحبه تأليفه و وضعه بين أيدى النّاس على مرّ العصور ، وما الدّافع إلى عمله التأليفيّ ؟

إنّ «الكتاب» منسّق تنسيقا حسنا ، و إن لم يكن تامّا ، و منهج صاحبه في تبويب موضوعاته لايزال حتّى اليوم شبه متّبع في كتب اللّغة ، ممّا يدلّ على أنّ «سيبويه» عمد إلى تأليف كتابه ، و وضعه بين أيدى النّاس ، بعد أن حلّ عقدة الخطأ عنده . فهل كان عمله التأليفيّ بدافع إنسانيّ عامّ ؟ و إذاكان كذلك فمن أولى بالتّوجّه إليه من النّاس ؟

إنّ «سيبويه» يجيب على هذاالسّؤال بصورة من الصّور، فيقول لـ«نصر بن عليّ» حين أراد وضع كتابه : «تعال حتّى نتعاون على إحياء علم الخليل» [1] .

و شرح هذه الحادثة يكشف لنا وفاء الإنسان في أخلاق «سيبويه» من جهة . ويكشف من جهة ثانية قيمة الوفاء في حياة النّاس و تربية مجتمعاتهم .

فـ«كتاب سيبويه» الّذى جمع فيه موضوعات النّحو والصّرف السّتّين ، لم يكن لحماية كبريائه من الخطأ فحسب، بل كان تحيّة لأستاذه أيضا . وهو بتحيّة أستاذه الوفيّة أحيا لنا علم النّحو الّذى هو أصول الوصول إلى الصّواب في الكتابة .

و لمّا كانت صناعة الكتابة عندنا ، تعنى صناعة الحياة للإنسان الحقّ [2] ، فإنّنا نقدّر أخلاق «سيبويه» الّتي أسهمت اسهاما كبيرا في هذه الصّناعة الكريمة .

إنّ «سيبويه» يستنهض همّة رفيقه «نصر بن عليّ» لإحياء علم أستاذهما «الخليل» ثمّ ينفّذ فيكتب «الكتاب» . وهو بذلك يضرب للأفراد و المجتمعات مثلا تربويّا طيّبا

---

(١) «الكتاب» ، تحقيق «هارون» ج١ ، ص٢٤. ولاحظ : «التّعليق والتّحديث» في «قصّة القواعد» ، ص ٧٨ .

(٢) «صناعة الكتابة» ، ط ٢ ، ص ٨ .

يصحّ أن يقتدى به ، في جامعاتنا و مدارسنا و حياتنا ؛ عربيّا و فارسيّا .

و إن كانت بلاد «سيبويه» الأولى تكرّمه وتدعو إلى تكريمه ، فهي بذلك تعمل بمسلكيّته الوفيّة ، و هو الحامل عقليّتها العبقريّة إلى الأمم الأخرى ، و ها هي تحيي ذكراه ، إرضاء للوفاء و الكبرياء الإنسانيّين . . .

أمّا بلاد «سيبويه» الثّانية ، أعني بلاد العرب الّتي أنتقل إليها ، فإنّها لذلك تعمل بمسلكيّته وفاء وكبرياء . و يجد الباحث عددا غير قليل من الكتب العربيّة الّتي تحاول بدورها إحياء علم «سيبويه» .

إنّ إحياء ذِكرى «سيبويه» و إحياء علمه في الأمّتين ظاهرة كريمة تليق بأخلاق «سيبويه» و علمه .

لكنّ السّؤال المفاجىء هو : «ماقيمة علم سيبويه حتّى نحيّيه» ؟

أظنّ صيغة السّؤال مثيرة و خطيرة . لذلك أوضّح العبارة بصورة أخرى : «هل يرضى روح «سيبويه» تكرار أقواله بدون تفسير و تحديث» ؟

إنّ كلّ ماجرى و يجرى حول «سيبويه» وعلمه من إحياء لايتجاوز الخطوة الأولى أمّا الخطوات التّالية ، فهي في تحديث علمه ، و جعله عصريّا ، و تفسيره تفسيرا إجتماعيّا ، و تحويله قواعد تربويّة تلهم الأفراد و المجتمعات ، في المدارس والجامعات ، ليكون الإنسان فيها و فيّاذاكبرياء .

هذان أصلان من أصرل الأعماق الّتي تفتّح منها «سيبويه» . و إنّني أذكر للوفاء محاولات كريمة لتفتيح الماضي في الحاضر و المستقبل[1] . لجدّيّتها ، فبعضها لم يطبع بعد .

---

(١) حرّكها «الشيخ عبدالله العلايلي» في «مصر» و «لبنان» ، بكتابه : «مقدّمة لدرس لغة العرب» ، و جدّدها في «لبنان» ، «أسعد علي» في كتابه : «تهذيب المقدّمة اللّغويّة للعلايلي» ، كما لا أنسى من «سوريا» ، دعوة «زكي الأرسوزي» في كتابه : «العبقريّة العربيّة في لسانها» . و دراسة «خليل أحمد» عن «الأرسوزي» و «دوراللّسان في بناء الإنسان . . .» و إذا سمح لي فإنّني أذكر بموضوعيّة وتواضع محاولتي مع صديقي «أسعد علي» في كتابين هما : «جذور العربيّة فروع الحياة» ، و «صناعة الكتابة» .

و بعضها أخذ طريقه إلى الجامعات و أذهان الشّباب من عهد قريب . . . ولأنّها تحاول إحياء علم الأستاذ و تحديثه ليكون في خدمة المجتمع الإنسانيّ المستقبلي .

أنّ «سيبويه» طلب العلم الّذي لايخطّئه معه أحد في عصره؛ و عندما وجده عند «الفراهيدى» و تعلّمه أحيا علم أستاذه فوضع «الكتاب» ، إبقاء لعلم أستاذه وطردا للفناء عنه ، كما طرد به الخطأ الجارح لكبرياء الإنسان فيه .

فماذا نحن طالبون ؟ و ماذا نحن واضعون في عصرنا ، لصيانة كبرياء الإنسان فينا ، و لإستثمار موهبة الوفاء العبقريّة في تربية إنساننا و بناء مجتمعاتنا ؟

١٥

كمال بشر (الدّكتور . . .)
(مصر)

الأصوات عند «سيبويه»

لئن كانت شهرة «سيبويه» في علمي التّصرف والنّحو قد طبّقت الآفاق وملأت أرجاء الأرض، فإنّ جهوده التّصوتيّة لم تنل حظّها من العناية اللائقة بها، و لم تزل غير واضحة المعالم و الحدود لدى بعض الدّارسين .

وقد يرجع السّر في ذلك إلى واحد من أمرين أو كليهما . أمّا أوّلها فيتمثّل في صنيع الشّيخ نفسه من تعرّضه للأصوات تحت باب معروف بالغموض والتّعقيد هو باب الإدغام ، و ثانيهما أنّ دراسة الأصوات بطبيعتها تحتاج إلى أذواق و قدرات خاصّة قد لاتتوافر في كثير من النّاس .

و لسوف نحاول في بحثنا هذا إلقاءّ شيء من الضّوء على التّفكير التّصوتي عن هذا العالم الجليل و على منهجه في دراسة أصوات اللّغة العربيّة و طريق تحليلها ، قانعين في ذلك بتناول أهمّ النّقاط التّي ترسُم إطار هذا التّفكير ، و تبيّن حدوده و أبعاده من وجهة النّظر الحديثة .

إنّنا - في بداية الأمر - لانستطيع أن ننكر أنّ «سيبويه» قد أفاد من خبرات سابقيه و بخاصّة أستاذُه «الخليلُ بن أحمد» - في حقل الدّراسات التّصوتيّة ،كما لايسوغ لنا في

الوقت نفسه أن نتناسى أو أن نهمل تلك الإضافاتِ الذكيّةَ العميقة الّتي قدّمها لنا في هذا الشأن والّتي أضاءت الّطريق للمخالفين من بعده .

لقد أخذ «سيبويه» عن أستاذه « الخليل » نظام تصنيف أصوات العربيّة بحسب مخارجها أو مواضع الّنطق ، غير ناظرّين إلى الّترتيب الأبجدي العادي ، شأنُها في ذلك شأنُ رجال الأصوات اللّغويّة المحترفين في العصر الحديث . ولكن «سيبويه» أبى إلّا أن يتفوّق على أستاذه و أن يُبْرِز من شخصيّته ، فيعدلَ من هذا الّتصنيف و يُدخلَ عليه تغييراتٍ ذاتَ أهمّية خاصّة في نظر الدّرس الّصوتي المعاصر. يظهر هذا الّتعديل و الّتغيير (أوقل ـ الّتصحيحُ ـ إن شئت) في مسائل عدّة من أهمّها :

١ـ وَضْعه الهمزةَ في أوّل الأبجديّة على أساس أنّها أعمق الأصوات نطقا ، مخالفا بذلك أستاذه الّذى لم يضعها هذا الوضع و ضمّها إلى أصوات العلّة (الألف و الياء و الواو) على أساس أنّها ـ في رأيه ـ لا تثبت على حال واحدة ، اذ يلحقها «الّنقص و التغيير و الحذف » ، و لأنّها « هوائيّة ، تخرج من الجوف ، فلا تقع في مدرجة من مدارج الّلسان » .

و يسجّل «سيبويه» بهذا الّصنيع تفوّقا ملحوظا على « الخليل » ، إذ من المقرّر الآن انّ الهمزة (ومعها الهاء) تخرج من الحنجرة و هى أعمق مناطق الّنطق في العربيّة ، كما أنّها حرف صحيح أو صامت (Consonant) و ليست من حروف العلّة أو الحركات (Vowels) في شيء .

٢ـ وَضْع «سيبويه» لـ«الواو» و «الياء»ـ بوصفهما صامتين أو بعبارة أدقّ ـ بوصفهما أنصاف حركات (semi-vowels) ـ في مواضعهما الّصحيحة ، بحسب أماكن الّنطق . أمّا «الخليل» فقد نظر إليهما نظرة واحدة وعدّهما حرفين هوائيّين لا مخرج لهما معيّنا ، وضمّ إليهما الألف (الهمزة كذلك) و كوّن من هذه الأصوات الأربعة قسما ثانويّا لأبجديّته الّصوتيّة ، و فصل هذا القسم (وهو قسم الأصوات المعتلّة) عن الأبجديّة الأساسيّة الّتي سمّاها أبجديّة الحروف الّصحاح .

و هذه اللمحة الذكيّة من «سيبويه» توحي بأنّه كان يدرك أنّ لـ«لواو» و «الياء» وظيفتين في اللّغة العربيّة . تتمثّل الوظيفة الأولى في كونهما صوتين صامتين أو نصفي حركتين و مخرجهما حينئذ هو ما سجّله في أبجديّته حيث وضع «الياء» في وسط الحنك و حيث عدّ « الواو » شفويّة . و هذا التّحديد الموضعي لهذين الصّوتين ـ بهذه الصّفة المذكورة ـ تحديد صحيح .

و يتّضح إدراك «سيبويه» لهذه الوظيفة لـ«لواو» و «الياء» من جملة تصريحات له متناثرة في كتابه ، من ذلك مثلا قوله (في باب ثبات «الياء» و «الواو» في «الهاء» الّتي هي علامة الإضمار و حذفها) : « و إذا قلت أريد أن اُعطيه حقّه فنصبت « الياء » فليس إلّا البيان و الإثبات ، **لأنّها لمّا تحرّكت خرجت من أنْ تكون حرف لين و صارت مثل غير المعتلّ نحو «باء» ضَرَبَه** و بُعد شَبَهُها من «الألف» **لأنّ «الألف»** لاتكون أبدا إلّا ساكنة»[1]. انّ «سيبويه» هاهنا يحكم على «الياء» بأنّها صوت صامت من النّاحية الوظيفيّة ، و يتأكّد هذا الحكم من التّنظير بينها و بين «الباء» الّتي هي صوت صامت إتّفاقا . و إنّما كانت «الياء» مثل « الباء » في ذلك لأنّها تحركت أي صاحبتها حركةٌ تالية لها ، و من المستحيل إجتماع حركتين أثنتين في اللّغة العربيّة . و هذا أمر مقرّر في القديم والحديث على سواء . و «الواو» كـ«الياء» في هذاالحكم في مثل هذاالسّياق ونحوه . يقول «سيبويه» : «و إذا قُلتَ وأنت تأمر : «أخشى يّاسرا» و «اخشوا واقدا» **أدغمتَ ، لأنّهما ليسابحرف مدّ كـ«الألف» ، و إنّماهما بمنزلة قولك «أحمَد داوُدَ»** و « **اذهب بنّا** » ، فهذا لاتصل فيه إلّا إلى الإدغام» [2] . فـ«الياء» و «الواو» هنا إنّما أدغمتا فيما بعدهما لوقوعهما موقع الأصوات الصّامتة ، و أدائهما وظيفةَ هذه الأصوات . ولايمكن أن يكونا هنا حركتين (هما الكسرة والضّمة الطّويلتان) أو حرفيْ مدّ ، لأنّ الحركاتِ أو حروفَ المدّ لايلحقها إدغام ألبتّة .

---

(١) «الكتاب» : ٢٩٣/٢ .

(٢) السّابق : ص ٤٠٩ .

أمّا الوظيفة الثّانية لهذين الصّوتين (والّتي نظنّ أنّ «سيبويه» كان يدركها أيضا) فهي كونهما حركتين خالصتين أو حرفي مدّ، على حدّ تعبيرهم. ولم يشأ «سيبويه» أن يحدّد مواضع نطقها بهذه الصّفة، شأنهما في ذلك شأن الحركات القصار ولكنّه أشار إلى شيء من خواصّها النّطقيّة (١).

أمّا فيما يتعلّق بموقع التّفكير الصّوتي عند «سيبويه» بالنّسبة للخالفين من بعده فإنّا نلاحظ أنّ أعماله الصّوتيّة كانت البذرة المخصبة لكلّ من جاء بعده وحلول الدّخول في هذا الحقل. وانّ نظرة متأنيّة في جهود واحد من أبرزهم وأذكاهم في هذا المضمار - وهو «ابن جنّي» - لتشهد على صدق ما نقول.

لقد سار «ابن جنّي» على نهج «سيبويه» - مع تعديل خفيف لا يكاد يذكر - في تصنيف الأصوات، كما تبعه في جملة ما قاله عن طبائع أصوات العربيّة وصفاتها. بل إنّنا لا نعدم أن نجد نصوصا كاملة منقولة أو مستوحاة من أقوال «سيبويه»، سجّلها «ابن جنّي» في أعماله مع تغليفها بصور تعبيريّة تتّفق ومنهجه في التّأليف وطرائق نظم الكلام. نجد هذا الصّنيع واضحا عند «ابن جنّي» عند تعيين مواضع النّطق لأصناف الأصوات وأنماطها؛ كما نلحظه في سهولة ويسر عند الكلام على طريقة مرور الهواء عند النّطق بما سمّوه «أصوات اللين» أو «أصوات المدّ واللّين».

ولم يقتصر «ابن جنّي» على ذلك، وإنّما أخذ عن «سيبويه» ملاحظات أخرى، كتلك الّتي تتعلّق بما يعرف بـ«الحروف المستحسنة» و«الحروف المستقبحة». والحقّ أنّ «ابن جنّي» في كثير من الحالات لا يعدو أن يكون شارحا أو مفصّلا لما سجّله «سيبويه» من قبل، وإن كنّا لا ننسى - بالطّبع - تلك الإضافات الرائعة الّتي انفرد بها «ابن جنّي» بين رجال الأصوات في الحقل اللّغوي العربيّ.

وإن ننسى لا ننسى في هذا المجال ما لـ«سيبويه» من فضل في ابتكار مجموعة ذات قيمة خاصّة من المصطلحات الصّوتيّة الّتي تناقلتها الأجيال من بعده، والّتي ما زالت

---

(١) انظر ص ٩.

دقيقة في معناها و دلالتها حتّى هذه اللّحظة .

بقي علينا الآن أن نحاول تقويم أعمال «سيبويه» الصّوتيّة من وجهة النّظر المعاصرة في كلمات موجزة تتّجه في الأساس نحو الخطوط العريضة الّتي تحدّد منهجه و أساليب تحليله لأفكاره و عرضه لها .

لقد إعتمد « سيبويه » في دراسته لأصوات العربيّة على الجانب الفسيولوجى أو النّطقيّ (Physiological or articulatory aspect)في الأساس. وهوجانب لم يزل ذاأهميّة بالغة في نظر الدّارسين المحدثين، و إن كان هؤلاء المحدثون قدأخذوا في الحسبان جوانب أخرى في تحليل الأصوات اللّغويّة . من ذلك مثلا الجانب الفيزيائي (Physical) أو الآكوستيكي (Accustic) الّذى ظهرت أهمّيته البالغة في التّعرّف على طبائع الأصوات و مكوّناتها الحقيقيّة .

وانّه لمن الطّريف حقّا أن يسير «سيبويه» في تصنيف أصواته و تحليلها على وفق ماتراه معظم المدارس الصّوتيّة المعاصرة . لقد عمّد - كما يعيد المعاصرون - إلى دراسة أصوات العربيّة على مرحلتين . اهتمّت أولاهما بدراسة الأصوات على ذلك النّهج المعروف لنا الآن باسم الفنولوجيا (Phonology) . وهو نهج يعني في الأساس بالنّظرإلى الأصوات بوصفها أنماطا(Typs or Classes) أووحدات (Units) أوفونيمات(Phonemes) أي أنّه حين يتناول « الباء » مثلا إنّما يتناولها بوصفها « باء » لا «تاء» أو «ثاء» الخ ، بقطع النّظر عمّا يصيبها من تغيّرات في بعض صفاتها في النّطق الفعلي لها في سياقات معيّنة .

و بانتهاء هذه المرحلة العامّة الّتي تعني بتصنيف الأصوات وفقا لوظائفها و قيمها (لا بحسب الصّور النّطقيّة الفعليّة لها الّتي قد تبدو عليها في المواقع المختلفة) - انتقل «سيبويه» إلى المرحلة الثّانية فاختبر هذه الوحدات في السّياق النّطقي الفعلي ليقف على أمثلتها أو تنوّعاتها الصّوتيّة بحسب ما يجاورها من أصوات . و بذلك يصل إلى حقيقة أنّ الوحدة الصّوتيّة المسمّاة «باء» مثلا قدتتعدّد صورها أو تحقيقها النّطقي (Varconts)

أو «Phonetic resligation» أو «Allophones» ، فقد تكون هناك « الباء » الإنفجاريّة المجهورة ، أو «الباء» المهمّسة ، أو «الباء الانحباسيّة» الّتي تقلّ درجةُ الإنفجار فيها إذا جاءت ساكنة الخ . و مثل هذا الإختيار المستند إلى النّطق الفعلي الّذى قام به «سيبويه» في كلّ أو جلّ أصوات العربيّة ينتمي إلى ذلك النّهج الصّوتي المعروف «بالفوناتيك» (Phonetics) .

و لم يغب عن بال « سيبويه » أنّ المرحلتين كلتيهما متّصلتان غير منفصلتين ، بمعني أنّ الفصل بينهما فصلا تامّا أو الإكتفاءَ بإحداهما دون الأخرى يحرم الدّارسين من الوصول إلى حقائقهم الصّوتيّة على وجه مرضي أو مقبول . و قد تبيّن إدراكه لهذا المبدأ بوضوح من خطوات معالجته لمادّته وطرائقه في وصفها و تحليلها . ويتّفق «سيبويه» بهذا الأسلوب ، مع مبدأ صوتي مقرّر ، يصرّ أصحابه على ضرورة اتّصال المرحلتين بعضهما ببعض و اعتماد كلّ واحدة منهما على الأخرى .

ولئن كانت جهود «سيبويه» في المرحلتين معاجديرة بالنّظر المتأنّي العميق فلسوف نمتع هنا بابراز أهمّ خطوات منهجه الّذى سار عليه في معالجة أصوات العربيّة على المستوى الفنولوجي ، أي بوصف هذه الأصوات أنماطا وأنواعا ، لا بوصفها أحداثا نطقيّة فعليّة في السّياق .

لقد قام « سيبويه » في هذا الشّأن بما يقوم به رجال الأصوات المعاصرون عند النّظر في الأصوات على هذا المستوى المذكور . لقد تناول أصواته الصّحيحة أو الصّوامت (Consonants) من وجهات نظر ثلاث هي :

أوّلا : تصنيف الأصوات من حيث الجهر و الهمس

من المعروف أنّ «سيبويه» لم يشر في بحوثه إلى أوضاع الأوتار الصّوتيّة الّتى تعدّ الأساس الأوّل و الأخير في الحكم على الأصوات بـ«الجهر» أو « الهمس » . و لكنّه مع ذلك استطاع بطريقته الخاصّة أن يقسّم أصوات العربيّة الصّامتة إلى « مجهورة » و «مهموسة» . ووصل من ذلك إلى نتائج تتّفق في مجموعها مع مانراه اليوم . ووقع الخلاف

بيننا و بينه في عدّه «الطّاء» و «القاف» و «الهمزة» من « الأصوات المجهورة » ، على حين أنّ هذه الأصوات الثّلاثة ليست « مجهورة » بحال من الأحوال في نطقنا الحاضر للغة العربيّة في «مصر» .

على أنّ هذا الخلاف يمكن تفسيره أو تسويغه . أمّا بالنّسبة ل«الطّاء» فيمكن تفسير نسبة «الجهر» اليها بواحد أو أكثر من الإحتمالات الآتية :

١- ربّما كانت «الطّاء» تنطلق في القديم بما يشبه «الضّاد » الحاليّة أو هي هي . و لعلّ ممّا يؤيّد هذا الإحتمال أنّ «سيبويه» جعل «الطّاء» لا (الضّاد) النّظير المفخّم أو المطبّق ل«الدّال» لا ل«التّاء» . يقول «سيبويه» : «لولا الإطباق لصارت «الطّاء» «دالا» الخ » . و معني هذا أنّ تطوّرا لحق «الطّاء» في نطقنا المعاصر .

٢- لعلّ شدّة الأنحباس و قوّته في نطق « الطّاء » أوحت إلى « سيبوبه » بأنّه « صوت مجهور » .

٣- يحتمل أن يكون «سيبويه» راعى نمطا نطقيّا آخر كان سائدا في عصره في بعض البيئات ، و نعني بذلك ما يمكن أن يسمّى ب«الطّاء المهموسة» (Glottalised) ، كتلك الّتي نسمعها في بعض جهات السّودان و «صعيد مصر» و تنطق هذه «الطّاء» بإضافة عنصر جديد هو إقفال الأوتار الصّوتيّة حال النّطق بها ومن ثمّ لايمرّ الهواء خلال الحلق و الفم . ثمّ تنفصل الأعضاء المشتركة في نطقها بعضها عن بعض فجأة فيخرج الهواء المضغوط خلف الأوتار بقوّة ، ملتقيا مع الهواء المندفع من الخارج في الفم . ولعلّهم لذلك ظنّوها «مجهورة» ، على حين أنّه من الصّعب وصفها ب«الجهر» أو «الهمس» حينئذ .

و القول بأنّ «القاف» «مجهورة» يمكن تفسيره بأنّ «سيبويه» كان يصف نطقا بيئيّا معيّنا يتّفق مع نطق هذا الصّوت في اللهجات الحديثة في أكثر البلاد العربيّة . فهم ينطقونه حنكيّا قصيّا مجهورا (G) . و ربّما يؤيّد هذا الإحتمال أنّ « سيبويه » لم ينسب «القاف» إلى اللّهاة و إنّما نسبها إلى أقصى الحنك أو «أقصى اللّسان» (كما عبّر هو) ،

وهو موضع نطق «الكاف» أو في إطاره . وهذا الموقع إنّما يناسب «الجاف» لا «القاف» . أو لعلّ «سيبويه» عاملها معاملة الجاف (گ) الفارسيّة .

و القول بأنّ «الهمزة» صوت «مجهور» قول غير موفّق اللّهمّ إلّا إذا قلنا انّه كان ينظر إلى «الهمزة» المسمّاة «همزة بين بين» ؛ أو إلى «الهمزة متلوّة بحركة» ، وهي في هاتين الحالتين صوت «مجهور» ولاشكّ .

ثانياً : تصنيف الأصوات بحسب مواضع النّطق

صنّف «سيبويه» أصوات العربيّة بحسب مواضع النّطق تصنيفا يقارن بما نفعله في الوقت الحاضر . وليس من خلاف بينه و بين الدّارسين اليوم إلّا في حالات قليلة ، يمكن التّجاوز عن أكثرها . من ذلك مثلا أنّه لم يشر إلى الحنجرة في تصنيفه هذا ، واكتفي بالإشارة إلى ماسمّاه الحلقي و قسّمه إلى ثلاثة أقسام : «أقصاه» و منه «الهمزة» و «الألف» و «الهاء» ، و أوسطه و منه «العين» و «الحاء» و أدناه و منه «الغين» و «الخاء» . فكأنّ أقصى الحلق عنده يقابل الحنجرة أو منطقتها في العرف الحديث ، و أوسطه يناظر الحلقي الحقيقي وهو يمثّل المنطقة الواقعة بين الحنجرة و الفم ، و أدناه يعني «أقصي الحنك» بالتّعبير المعاصر .

على أن قبولنا لهذا التّفسير من «سيبويه» كان يوجب عليه أن تعدّ «القاف» حلقيّة لأنّها (بصورتها الفصيحة اليوم) من منطقة اللّهاة وهي منطقة سابقة على «أقصي الحنك» الّذى يقابل أدني الحلق عنده وهي بهذا الوصف أعمقُ في المخرج من «الغين» و «الخاء» ولنا هنا أن نفترض أنّ «سيبويه» لم يعدّ «القاف» حلقيّة أو من أدناه لأنّه - كما سبق أن ألمعنا إلى ذلك - كان ينظر إلى «الجاف» (G) لا إلى «القاف» (g) ، و «الجاف» من موقع «الغين» و «الخاء» ، أو من موقع تال لها .

و نلحظ كذلك أنّ «سيبويه» وضع «الضّاد» في موضع مستقلّ و متقدّم على موضع «الطّاء» و «التّاء» و «الدّال» ، على حين أنّ هذه «الضّادّ» اليوم تخرج من ذات المخرج الّذى تصدر منه أخواتها الثّلاث المذكورة . على أنّ هذا السّلوك الّذى سلكه

«سيبويه» هنا قد يكون له مايفسّره وهو إحتمال أن النّطق القديم لهذاالّصوت (الّضاد) يختلف عمّا نمارسه في «مصر» اليوم .

أمّا أظهر مواضع الخلاف بيننا و بينه في التّرتيب المخرجي للأصوات فيتمثّل في قرنه «الألف» لـ«لهمزة» و وضعه لها في أبجديّته . أن أبجديّة «سيبويه» على مانفهم هي أبجديّة الأصوات الّصامتة (Consonants) أو الحروف الّصحاح ، بعبارتهم . و «الألف» في هذا السّياق لايمكن أن تكون إلّا حركة ، هي الفتحة الّطويلة . وذكرها هنا كان يوجب عليه ذكرَ «الواو» و «الياء» الممدودتين أو الحركتين . و لكنّه لم يفعل ، ومن ثمّ جاز لنا أن نعترض عليه من جهتين :

١- ليس لـ«لألف» مكان في هذه الأبجديّة لأنّها حركة خالصة .

٢- و على فرض قبول وصفها في هذه الأبجديّة على ضرب من التسمّح فليس هذا موضعَها . انّها ليست من منطقة « الهمزة » أو أيّة منطقة أخرى يخرج منها حرف صامت (Consonant) انّ «الألف» بوصفها حركة إنّما يُنسب نطقها الى وضع اللّسان و جزء معيّن منه ، هو وسطه تقريبا .

والقول بأنّ ذكر «الألف» مصاحباً لـ«لهمزة» إنّماهوضرب من التّفسيرأوالتّرادف قول غير مقبول ، لأنّ « سيبويه » ، و من تبعه ، قد ذكر حرف العطف فاصلا بينهما فقال : « الهمزة » و « الألف » و « العطف » يقتضي المغايرة ، على ما هو مقرّر في عرف النّحاة .

ثالثاً : تصنيف الأصوات بحسب كيفيّة مرور الهواء

تكلّم «سيبويه» عمّاسمّاه «الأصوات الّشديدة» و «الأصوات الرّخوة» و «الأصوات بين الرّخوة و الّشديدة » . و الّشدة - كما يفهم من كلامه - تعني الإنحباس أي أنحباس الهواء في نقطة معيّنة عند النّطق بالّصوت المعيّن . و « الرّخاوة » تقتضي مدّ النفّس أو جريان الّصوت ، و «الحروف الرّخوة إذا وقفت عليها خرج معها نفخة» .

والقسم الأوّل من تصنيف «سيبويه» يقابل مايعرف حديثا بـ«الوقفات» (Stops)

أو « الأصوات الإنفجاريّة » (Plosives) ، فهي « وقفات » لأنّ في بداية نطقها وقفَ الهواء ، وهي انفجاريّة لانفجار مفاجيء لهذا الهواء المضغوط .

و الملاحظ انّ الأصوات الّتي عدّها « سيبويه » شديدة هي تلك الّتي نسمّيها «وقفات» أو انفجاريّة باستثناء حالتين هما :

١ـ لم يذكر «الضّاد» ضمن «الأصوات الشّديدة» على حين عدّدناها نحن انفجاريّة لانطباق صفات الإنفجاريّة عليها دون أدنى خلاف .

فلعلّ « سيبويه » هنا كان صادقا في ملاحظته ، حيث كان يتكلّم عن « ضاد » مختلفة عن تلك الّتي نمارسها اليوم في «مصر» . و ربّما يؤيّد هذا الزّعم جملة من النّصوص أوردها في كتابه : من أهمّها قوله : «لولا الإطباق لصارت «الطّاء» «دالا» و «الصّاد» «سينا» و«الظّاء» «ذالا» **ولخرجت «الضّاد» من الكلام»** . ومعناه أنّه ليس في العربيّة ـ على رأيه ـ نظير غير مطبق . أو مرقّق لـ«لضّاد» ، على حين أن «الدّال» نظيرها المرقّق في نطقنا . و لعلّ مانسمعه في بعض البلاد العربيّة اليوم ؛ كـ«العراق» و «الكويت» ، من نطقهم لـ«لضّاد» يمثّل أثرا باقيا «من النّطق القديم لهذا الصّوت» . إنّهم في هذه البلاد ينطقون «الضّاد» بصورة تمثّل حلقة وسطى بين «الضّاد المصريّة» و «الظّاء» الفصيحة وهي في نطقهم كذلك صوت «رخو» أي احتكاكي ، وهذا ماقرّره «سيبويه» و تابعوه بالنّسبة لهذا الصّوت من حيث كيفيّة مرور الهواء .

٢ـ أمّا «الجيم» فقد وصفها «سيبويه» بأنّها صوت شديد (أي وقفة أو انفجاريّة) على حين أنّها اليوم في الفصحى ، بحسب نطق المجيدين لقراءة « القرآن » الكريم في «مصر» ، صوت مركّب أو وقفة إحتكاكيّة (dj) . و يبدو أنّ «سيبويه» هنا كان يصف نمطا آخر من النّطق لهذا الصّوت عرف في بعض البيئات العربيّة ، و هو الّذى أشار اليه بقوله : «الجيم الّتي كالكاف» . وهذا الصّوت هو مانطقه نحن الآن في «القاهرة» في حديثنا اليومي .

أمّا القسم الثّاني من تصنيف «سيبويه» وهو قسم الأصوات «الرّخوة» فهو يقابل

مجموعة الأصوات الإحتكاكيّة في العرف الحديث . و سمّيت إحتكاكيّة لاحتكاك الهواء بأعضاء النّطق بسبب ضيق المجرى .

و الأصوات الّتي عدّها « سيبويه » « رخوة » هي الّتي أطلقنا عليها الأصوات الإحتكاكيّة ، باستثناء حالتين :

١ـ أنّه أخرج « العين » من « الأصوات الرّخوة » ، على حين حكم عليها النّظر الحديث بأنّها احتكاكيّة . والواقع أنّ في صوت « العين » شبهة ، إذ هي أقلّ أصوات الإحتكاكيّة إحتكاكا ، ومن ثمّ نرى أنّ هناك مسوّغا لحيرة « سيبويه » في الحكم عليها وعدّها صوتا بين « الشّديد » و « الرّخو » .

٢ـ أدخل « الضّاد » ، كما سبق أن ألمعنا إلى ذلك ، ضمن « الأصوات الرّخوة » (أي الإحتكاكيّة) ، وقد بيّنّا تفسيرا محتملا لهذا الصنيع .

* * *

تلك خطوط عريضة تحاول أن تحدّد أبعاد الإطار العلمي الّذي دار فيه « سيبويه » عند تناوله الأصوات العربيّة الصّامتة و هناك في آثاره الصّوتيّة نقاط رئيسيّة أخرى ذات خطر وبال من الوجهة العلميّة الحديثة . و ليس في مقدورنا هنا أن نعالجها أو أن نأتي عليها كلّها أو جلّها . و لكنّه قد يكون من المناسب أن نشير إشارات خفيفة إلى أمثلة محدودة من هذه النّقاط ، إذ هي في جملتها تضيء الطّريق أمام الرّاغبين في معرفة جهود هذا العبقريّ العظيم في مجال الدّرس الصّوتيّ .

١ـ لقد استطاع « سيبويه » بطريقة أو بأخرى أن يدرك أساس الفرق بين الصّوامت (Consonants) و الحركات (Vowels) . نعم انّه لم يتكلّم عن الحركات القصار (المعروفة بالفتحة و الكسرة والضّمّة) ولكنّه تحدّث عن الحركات الطّوال أو حروف المدّ وهي « الواو » و « الياء » و « الألف » . فأشار إلى خاصّيّتيها الأساسيّتين : **أولاهما** : « الجهر » و **ثانيتهما** : « حريّة مرور الهواء من الفم بدون عائق أو مانع » . استمع إليه يقول تحت باب

«الوقف في الواو والياء و الألف» : «وهذه الحروف غير مهموسات و هي حروف لين ومدّ . و مخارجها متّسعة لهواء الصّوت وليس شيء من الحروف أوسعَ مخارجَ منها ولا أمدّ للصّوت، فإذا وقفْتَ عندها لم تضمّها بشفة ولالسان ولاحلق كضمّ غيرها، فيهوِيَ الصّوت إذا وجد متّسعا حتّي ينقطعَ آخِرُه في موضع الهمزة» [1] .

ومن المقرّر أنّ ماينطبق على الحركات الطّوال ينطبق في جملته على القصار إذ هي أبعاضها . و «سيبويه» نفسه يدرك هذه العلاقة الجزئيّة ، « فالفتحة من الألف» (ج ٢ ص ٢٧٠) . «والضّمة من الواو» (ج٢ ص ٢٨٣) ، وكذلك «الكسرة بعض الياء» .

٢ـ تحدّث « سيبويه » عن أصوات ذات صفات مميّزة . و هي ما سمّاها أصوات الإطباق (أو التّفخيم بلغة المحدثين) . و بين علّة هذه النّسبة، وقيمة هذه الصّفة، وهي قيمة دلاليّة في الأساس ، إذ بها يتمّ التّفريق بين الكلمات المتناظرة الّتي تحتوي على هذه الأصوات وعلى أخواتها المرقّقة، كما في مثل «طاب» × «تاب» و«ضلّ» × «دلّ» الخ .

وهذه الأصوات المطبقة (وهي الضّاد والطّاء والصّاد والظّاء) ضمّ اليها «سيبويه» ثلاثة أصوات أخرى وهي: «القاف» و « الغين » و « الخاء » ، و سمّاها جميعا « أصوات الإستعلاء » . و أشار إلى شيء من خواصّ هذه الأصوات السّبعة في التّركيب و بيّن أثرها على مايجاورها ، و بخاصّة «ألف الإمالة » . يقول : « هذا باب مايمتنع من الإمالة من الألفات الّتي أملْتَها فيما مضى . فالحروف الّتي تمنعها الإمالةَ هذه السّبعة : «الصّاد والضّاد والطّاء والظّاء والغين والقاف والخاء ، إذا كان حرف منها قبل الألف والألف تليه . و ذلك قولك : قاعد و غائب و خامد وصاعد وطائف وضامن و ظالم . و إنّما منعت هذه الحروفُ الإمالةَ لأنّها حروف مستعلية الى الحنك الأعلى . و الألف إذا خرجتْ من موضعها استعلت الى الحنك الأعلى ، فلمّا كانت مع هذه الحروف المستعلية غلبت عليها» [2] .

---

(١) «الكتاب» ، طبعة «بولاق» : ٢٨٥/٢ .

(٢) «الكتاب» : ٢٦٤/٢ .

٣ـ أدرك «سيبويه» أنّ هناك مجموعة من «الأصوات الشّديدة» ينبغي أن تنطبق بطريقة خاصّة في سياقات معيّنة . هذه الأصوات هي : «الباء ـ الجيم ـ الدّال ـ الطّاء ـ القاف» . وهي تلك الأصوات الّتي سمّاها هو «أصوات القَلْقَلَة»، و جمعها الدّارسون من بعده في قولهم «قطب جد» . هذه الأصوات في نظر «سيبويه» : «أصوات مجهورة شديدة» ، وينبغي إذا وقفت عليها أن تتبعها بصويت . و تعليلنا لهذا الّذى رآه «سيبويه» أنّ «القَلْقَلَة» تساعد على تحقيق انفجار هذه الأصوات والمحافظة على خواصّها الأساسيّة. و الملاحظ أنّ نطق هذه الأصوات ساكنةً دون هذا التّصويت الّذى أشار إليه «سيبويه» يقلّل من انفجارها إذا كانت انفجاريّة ، كما يقلّل من «جهر»ها إن كانت «مجهورة» .

ولا يغيب عن بالنا هنا أن عدّ «القاف» و «الطّاء» صوتين مجهورين إنّما يتمشّى مع ذوقه هو لهذين الّصوتين، و إنّما هما في رأينا ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، صوتان مهموسان. كما أنّ «الجيم» ليست صوتا شديدا أي انفجاريّا و إنّما هي صوت مركّب .

والحقّ أنّ «القَلْقَلَة» ينبغي أنْ تُتّبع في كلّ الأصوات الّشديدة (الإنفجاريّة) مجهورها و مهموسها على سواء حين تأتي ساكنة ، محافظةً على تحقيق انفجارها . و هذا ما رآه كثير من المتأخّرين ، و استثنوا من ذلك الهمزة « لما يدخلها من التخفيف حالة السّكون ففارقت أخواتها ، و لما يعتريها من الإعلال » [1] .

وأمّا «قَلْقَلَة الجيم» (بوصفها صوتا مركّبا) فللمحافظة على العنصر الأوّل في نطقها الممثّل في الوقفة القصيرة المصاحَبة بالإحتكاك. ولولا «القَلْقَلَة» في «الجيم السّاكنة» لتحوّلتْ الى صوت إحتكاكي صرف (أي رخو) ،كما في مثل «اجتمعوا» بدون التّصويت المذكور .

هذه النّقاط المحدودة الموجزة تظهر لنا براعة « سيبويه » في دراسة الأصوات ، و توضح لنا عمقه في تحليلها . والحقّ انّ هذا الرّجلَ يعدّ الرائد الحقيقيّ في الدّراسات الّصوتيّة العربيّة ، و أنّ أعماله في هذا المجال هي الأساس لكلّ الأعمال الّصوتيّة من بعده . جزاه الله عن العربيّة خير الجزاء .

---

(١) «ابن الجزرى» : «النّشر» : ٢٠٣/١ .

١٦

لطفى عبدالبديع (الدّكتور . . .)
(مصر)

الفعل فى العربيّة عند «سيبويه»

كان يُقال قديما العلوم ثلاثة : علم نضج وآحترق و هو علم النّحو و الأصول ، وعلم نضج ولا آحترق وهو علم البيان و التّفسير ، و علم نضج وآحترق وهو علم الحديث والفقه . و هذا القول لو أخذ على علاته لكان من مقتضاه بلوغ النّحو بعد هذه القرون الّطويلة درجة الإحتراق إذ ظلّ الّطهاة يتعاورونه بالتّقليب و المعالجة منذ أطلقت هذه المقالة إلى وقتنا هذا حتّي لم يبق فيه زيادة لمستزيد ، على ما يشهد به تاريخه في العصور المتأخّرة الّتي اكتظّت فيها كتب النّحو بالحواشي تتعقّبها التّعليقات وتردفها الإعتراضات و أكثر مافيها مما حكات لفظيّة يجار فيها النّحو بالشّكوى لاختناق الّظاهرة الّلغوية و تمزيقها إلى أشلاء .

و الجهة الّتي قيل منها ذلك جهة جائرة تستسلم لطائفة من التّصوّرات العقليّة الّتي تنزّلها منزلة الحقائق المطلقة و تجعل للعلم أمداً ينتهى عنده بالموت الّذى لا تجدى معه دعاوي التّجديد القائمة على التّيسير و الإيضاح ، لأنّها تحمل في طيّاتها آثار الدّاء الكامن فيه من إغفال الوضع الّذي ينبغي أن يكون عليه النّحو ، من حيث إنّه منطق للعربيّة يتوخّى معرفة قوانينها الّتي توجّهها إلى غاياتها من استكناه المعاني دون الإقتصار على الّصويّة وآثار الحركات على أواخر الكلم .

والنّحو العربي إنّما دخله الضّيم من هذه التّصوريّة والإستغراق في نسقها الدّاخلي جيئة و ذهابا بين الفكرة العقليّة و تعيّفها ، بحيث نأت المسائل عن مهدها الأوّل الّذي كان ينبغي أن تدرج فيه ، و تمرّدت على ماكان لها من نسب عريق لحسّه و سدّاه من الظّاهرة اللّغويّة في فطريّتها و الإستعمال اللّغوي في نضارته ، بدعوى أنّ الغاية من النّحو تعليميّة زكّاها ماقيل في أوّليّته من عزّ و نشأته إلى فشو اللّحن في كلام الموالي والمتعرّبين ممّا هو في باب القصص أدخل .

و تاريخ النّحو العربي ينقض ذلك و يبطله فقد كان همّ الرّواد من علماء العربيّة الوقوف على سماتها واقتناص أسرارها وتجلية عبقريّتها في تصوير الوجود ، كلّ ماهنالك أنّه ظلّ على شموخه كالمغلق على نفسه فلمّا رام أحد من الباحثين النّفاذ إلى أقطاره لما اكتنفه من تجريد في تاريخه .

و التّجريد آفة الآفات في علوم العربيّة و سواها من العلوم الإسلاميّة ، لأنّه ينتزع منها الجانب الإنساني الّذى صاغ قواعدها وحرّر أصولها بحيث يخيّل إلى من يتعلّق به و يعوّل عليه أنّ هذه العلوم قد نشأت من فراغ و هو ماينكره العقل و تنفيه طبائع الأشياء .

و الّذي انتهى إلينا من أخبار اللّغويين و النُّحاة على كثرتها في كتب التّراجم و الطّبقات لايعين على تتبّع التّيّارات الفكريّة الّتي أخذت تهديهم إلى مصيرهم إذ تدور في الأغلب و الأعمّ على ملامحهم الخارجيّة و تاريخهم الزّمني المحدود بالسّنين والأيّام ، إلى مايتخلّل ذلك من الظّرف و دعاوى الإستحسان و النّباهة بين أبناء الزّمان و إلّا فهل دلّتنا ترجمة «سيبويه» على مولد كتابه وهل يعقل أن تكون عبقريّته قد سقطت عليه من السّماء لِلَحن وقع منه في حديث كان يستمليه على «حمّاد بن سلَمة»[1] .

و إمامة «سيبويه» ليست بذلك ولا بأنّه ناظر «الكِسائى» في «المسألة الزّنبوريّة» ولا بأنّه كان يعتاد شمّ رائحة التّفاح على ماقيل في سبب لقبه ، و إنّما كانت إمامته من

(١) «السّيرافي» : «أخبار النّحويّين البصريّين» ص ٤٤ .

أجل كان أحد الرُّواد الأوائل الّذين تناهى إليهم تراث العربيّة و أدركوا ما لها من حظّ في صياغة الفكر ، و أنّها لاتنزل من الحقيقة منزلة الصّور الّتي تشير إليها أو تحاكيها ، بل تنزل منزلة القوى الّتي تخلق عالمها و تقرّره .

وكان لهم ، و هم يقدّمون للأمم المستعربة أنماطا جديدة من المُثُل العليا في اللّغة و الأدب ، من صدق الحدس و سلامة الفطرة ما أتاح لهم الوقوف على منازعه والتّرجيح بين منازله .

وهذا «أبو عمرو بن العلاء» ، وكان يحمل إلى القول بشيء من الإرجاء ، يروي «أبوالطّيب اللّغوى» في شأنه : «أنّه لَقِيَ عمرو بن عُبيد» فقال له : «شَعَرْتَ أنّكم من اللُّكنة أتيتم، إنّ العرب إذا وَعَدت وَفَتْ و إذا أوعَدَتْ عَفَتْ وَعَدَّتْ ذلك كرماً أما سمعتَ قولَ قائلهم .

لايَرْهَبُ ابنُ العمِّ والجارُ صَوْلتي
و لا يَخْتَتِي من سَطْوَةِ المتهدِّدِ
و إنّي إذا أو عَدْتُه ، أو وَعَدْتُهُ
لأُخْلِفُ إيعادي ، و أُنجز مَوْعِدي

فقال له «عمرو» : «أباعمرو» ، شَغَلَتْكَ الإعرابُ عن الصّواب ، أفَيكون مُخْلِفاً ، أم ما سمعتَ قول الآخَر :

إنّ أبا ثابتٍ لمشترك الخَيْـ ـر شريفُ الآباءِ و البيْتِ
لايُخلِفُ الوعدَ والوعيدَ ولا يَبيتُ من ثَـأْرِه على فَوْتِ

قوله: «ولايختتي» ، «الإختتاءُ» : الإنكسارُ مِنَ الذُّلِّ ، وهو مهموز ، يقال: اختَتَأَ يَخْتَتِيءُ إختتاءً» (١) . وقد يُقال إنّ كليهما عوّل في مذهبه على أسلوب من أساليب العرب في كلامها و قيمها ، فكما إحتجّ «أبوعمرو» للإرجاء من قول الأوّل و يؤخذ منه

(١) « مراتب النّحويين » طبعة ١٩٥٥ م . ص ١٨ وطبعة ١٩٧٤ م . ص ٣٨ و ٣٩ .

أنّ المثل الأعلى هو في الفضل بإنجاز الوعد، من حيث كانت ثمرته الخير، و إخلاف الوعيد من حيث كان مآله الشّر كذلك احتجّ «عمرو بن عُبَيْد» للإعتزال من قول الآخَر، و المثل الأعلى فيه يقوم على العدل، و مقتضاه أن لا إخلاف بالوعد و لا بالوعيد.

و الجواب عن ذلك أنّ ماتمثّل به «عمرو بن عُبَيْد» لاغرابة فيه لأنّه يجري مجرى السّلوك المعتاد الّذى يسلكه كلّ إنسان، أمّا ماتمثّل به «أبو عمرو بن العَلاء» فمختصّ بالعرب دون سواهم، أو على الأقلّ ممّا يتباهون به على لسان هذا القائل.

والّذي يعنينا من الخبر بعد ذلك أنّ مأخذ المذهبين في اللّغة و مأتاهما منها و من أنماط العرب في حياتها، تبقى عليها و تخلّدها لتبعث أثرها في دورات الحياة التّالية و تشكّل الثّقافة المتجدّدة، وهذه إحدى وظائفها الكبرى في التّاريخ الإنساني.

وكان القوم يحيون ذلك ويبثّونه في النّاس على أنّه ممّا ينبغي أن يُقال، كالّذي وقع لـ«سيبويه» وهو في حلقته بـ«مسجد البصرة» و قد «هبّت ريح فأطارت الورقَ، فقال لبعض أهل الحلقة»: «أنظر أيّ ريح هي، وكان على منارة المسجد تمثال فرس، فنظر ثمّ عاد فقال ما ثبتَتْ على حال، فقال «سيبويه»: العرب تقول في مثل هذا: «تذاءبت الرّيح». و «تذاءبت»: أي فعلت فعلَ الذّئب وذلك أنّه يجيء من هاهنا وهاهنا، ليخيّل فيتوهّم النّاظر أنّه عدّة ذئاب» [1].

و «سيبويه» لم يكن يتلهّى بذلك ليوفّق الأسماع بل كان يدفع بالذّئبيّة الرّيح الّتي تغدو بأوراقه جرياً على سنن العرب في كلامها و تنبيهاً للسّامعين على ذلك، وهذا شأنه في مواضع كثيرة من «الكتاب» الّذى عمله - كما قال «على بن سليمان الأخفش» - على لغة العرب و خطبها و بلاغتها، فجعل فيه بيّنا مشروحا، و جعل فيه مشتبها ليكون لمن استنبط و نظر فضل، و على هذا خاطبهم الله عزوجل بـ«القرآن» [2].

---

(۱) «نزهة الألبّا للأنبارى» (طبعة محمد أبوالفضل ابراهيم سنة ۱۹٦۷ م.، ص ٦۲، في ترجمة «سيبويه»).

(۲) «بغية الوعاة» ۳۳۸.

وهذه كلمة جامعة لايقولها إلّا من كان في منزلة «الأخفش» و سداد نظره، بحيث استحقّت ماعلّق به عليها «أبوجعفر النّحّاس» حيث قال: «و هذا الّذى قاله «على بن سليمان» حسن، لأنّ بهذا يشرّف قدر العلم و تفضّل منزلته، إذكان ينال العلم بالفكرة و استنباط المعرفة، ولو كان بيّنا لاستوى في علمه جميع من سمعه فيبطل التّفاضل»[1].

كأنّ «سيبويه» أراد لكتابه أن يكون مجالا لتجربة فكريّة يخوضها القاريء كما خاضها القاريء على حدّ سواء، فيستنبط و يعلّل و يقايس و يناظر و لا يكون القاريء السّلبي الّذي تلقى إليه المصطلحات و التّعريفات.

نعم فنحو «سيبويه» مغاير لنحو المتأخّرين الّذى اضمحلّت فيه حركة الفكر و تلاشي الحوار و نأى عمّا يقتضيه اقتناص ما في العربيّة من أسرار.

و الإلحاح على حركات اللّفظ وسكناته بناء على أنّها أدخل في النّحو من سواها و أجدر أن تراعى توخّيا للحاجة العمليّة الّتي تقتضيها الغاية التّعليميّة آفة الآفات في النّحو، لأنّ هذه الغاية محدودة ضيّقة الآفاق تتضاءل في جنب ماهنالك من نظر في هيأت التّراكيب و الأساليب.

و يشتمّ من كلام المتأخّرين مايشبه الإشفاق و الأسى على ماتناثر في «الكتاب» من أبواب لم ينزلها «سيبويه» في قالبها من البناء والإعراب، بناء على ماوقر في أذهانهم من تخصيصهم النّحو بهما، بل ذهب بعضهم إلى أنّ «الكتاب» ليس له نسق يجرى عليه في ذكر أبوابه.

ولسنا بسبيل استقصاء كلّ ما في الكتاب من مباحث ممّاقيل فيه ذلك أومايشبهه و بحسبنا أن نقف عند بعض المسائل في مباحث الفعل و ما يتعلّق به، لنتبيّن أنّ عمل «سيبويه» إنّمااهتدى فيه بما تقتضيه الظّاهرة اللّغوية في وحدتها قبل أن تتخطّفها أبواب المرفوعات و المنصوبات و المجرورات، و تتوزّعها التّفريعات و المقولات العقليّة في آخر طور من أطوار النّحو.

---

(١) «خزانة الأدب» ١٧٩/١ - ١٨٠.

و أطوار النّحو ثلاثة: الأوّل طور التّقعيد و تلمس أسباب السّلامة اللّغويّة في العبارة و البيان على مجاري كلام العرب الفصحاء و استنباط القوانين منه ، و قد ذكر «الجاحظ» : «أنّ النّحويّين كانوا متى وجدوا أعرابيّاً يفهم قول القائل» : «مكره أخاك لابطل» ، و «إذا عزّ أخاك فَهُنْ» ، على لغة من يعرب « الأب » و « الأخ » إعراب «المقصور» مطلقا بَهْرَجوه و ردّوا كلامه ، لأنّ ذلك يدلّ على طول إقامته في الدّار الّتي تفسد اللّغة و تنقص البيان ، لأنّ تلك اللّغة إنّما انقادت و استوت و اطّردت و تكاملت بالخصال الّتي اجتمعت لها في تلك الجزيرة و تلك الجيرة » [1] .

والثّاني طور القياس و التّعليل ، و يقوم على تأصيل القواعد و التماس الأنساب الصّحيحة لوجوه الإستعمال و إسقاط ما لا يتّسق مع الشّائع منها ، وكلاهما ماثل في «الكتاب» .

و التّطور الثّالث هو طور الغزو المنطقيّ اللّغويّة و ينشأ عن اختلاط الصّواب اللّغوى بالصّواب العقليّ وغلبة هذا على ذاك عند النّظر والحكم على العبارات ، والنّحويّون و إن كانوا قد راموا صدّ هذا الوحش الكاسر و دفعه إلّا أنّهم استسلموا له في النّهاية وكانوا من صرعاه على مايظهر من مباحث المتأخّرين .

و الفعل وهو يستغرق قدراً كبيراً من «الكتاب» تلقاه أوّل ماتلقاه في أنواع الكلم حيث يقول «سيبويه» : « وأمّا الفعل فأمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء و بُنيتْ لِما مضى ، و لِما يكون ولم يقع ، و ما هو كائن لم ينقطع ، فأمّا بناء ما مضى فـ«ذَهَبَ» و «سَمِعَ» و «مَكُثَ» و «حُمِدَ» و «يَقْتُلُ» و «يُضْرَبُ» ، كذلك بناء مالم يَنْقطع وهو كائن إذا أخبرتَ ، فهذه الأمثلة الّتي أُخذتْ من لفظ أحداث الأسماء» [2] .

ولا يدخل في كلام «سيبويه» شيء ممّا يوحي باقتران معناه بأحد الأزمنة الثّلاثة

---

(۱) «البيان و التبيين» ، بتحقيق «عبدالسّلام محمد هارون » ، الطبعة الثّانية ، ج ۱ ص ۱٦۲ و ۱٦۳ ، (مع حذف و تغيير في النّصّ) .

(۲) «الكتاب» طبعة «بولاق» ، ج ۱ ص ۲ .

على نحو مااستقرّ عند النّحاة من بعده ، بحيث يكون الزّمان المعيّن مدلول اللّفظ ، بل المعوّل عليه عنده يقرب ممّا يسمّى في علم اللّغة الحديث بصفة الحدث (Aspect) من حيث استمراره و انقطاعه ، و هو مالم يفطن إليه النّحاة من بعده حين حدّوا الفعل على نحو مافعل «الرّضيّ» : «بأنّه الكلمة الدّالّة على معنى في نفسها غير مقترن بأحد الأزمنة الثّلاثة ، بناء على القسمة الحاصرة الّتي تدور بين النّفي والإثبات» [1] .

و هذه القسمة المبنيّة على لحظات الزّمان في الماضي و الحالي و المستقبل ساذجة لأنّها تتجاهل الأحوال المتباينة الّتي يتراءى إليها الحدث و هي كثيرة ، كما يتجاهل الزّمان الوجودي الّذي تستقرّ فيه أوضاع الكلام ، و تطابق بينه و بين الزّمان الكمّيّ الّذي تتلاشى فيه خصائص الأساليب و تموت اللّحظات الذّاتيّة في صور البيان .

و قد كان لهذا المبدأ أثره في استيعاب ماهنالك من فروق بين المعاني الكامنة في صيغ الأفعال في شتّى اللّغات ، و فتح للباحثين آفاقا جديدة في الوقوف على مراميها ممّا ليس هذا موضعه ، وهو جدير بأن يصحّح كثيراً من المقولات الّتي تورّط فيها علماء العربيّة حين أغفلوا مانبّه عليه إمام النّحاة .

وقد يقال إنّ في قول «سيبويه» «مامضى» مقتضاه الزّمان و لكن ذلك مردود بأنّ «مامضى» عنده قسيم «لما يكون» و «لما هو كائن لم ينقطع» ، و هو و إنْ كان لايخلو من ظلال الزّمان فإنّه زمان باهت تستغرقه صفة الحدث بعنوانه « فيما يكون» ، و موته «فيما مضى» ، و بين هذا و ذاك لحظات شتّى تتعدّد فيها العبارة عن المراد .

والإضطراب الّذي وقع فيه النّحاة في بيان معاني الفعل في العربيّة إنْ كان يرجع إلى شيء فإنّما يرجع إلى التّقيّد بفكرة الزّمان الكمّي فقلبوا المضارع ماضيا كلّما سبقته «لم النّافية» وجعلوا من الماضي مستقبلا كلّما سبقته «إن الشّرطيّة» ، وكان من ذلك مايشبه المعاني الأوّل والمعاني الثّواني ، يبنون هذه على تلك ، كالّذي فعله البلاغيّون فى المجاز و قد اقتنص « سيبويه » في هذه المقولة روح العربيّة الّتي يتجمّل من الصيرورة

---

(١) «الرّضيّ على الكافية» ، ٦/١ و٧ .

مناط الحدث ولبه ، كأن « مايكون » هو قلب الحدث يترامى إلى جناحين أحدهما بداية تنقضي والآخر نهاية إلا أنها محدودة بـ«ما هو كائن» ، و«الكائن» هو الوجود الإنساني.

وقد دلت العربية على الإطراد من البداية إلى النهاية بالحروف الزوائد التي تلحق ما سماه النحاة بـ«المضارع» ، وهي في حقيقتها توحي بالنمو وتشير إلى أن الزيادة في المبنى زيادة في المعنى ، ويتداخل الحال والإستقبال ، لأنهما من باب واحد هو باب الصيرورة التي لاتنقطع إلا بانقطاع الكائن .

ولفظة « المضارعة » على ما اصطلح عليها النحاة فكرة قاصرة المعنى لاتتطاول إلى استيعاب ما في الفعل من خفقات ، بل هي كفيلة بأن تحجبها و تعفي عليها ، لأن مبناها ، كما توخاها « سيبويه » ، على مشابهتها لأسماء الفاعلين .

ولقد عرض لها أول ما عرض في الباب الذي ترجمه بـ«باب مجاري أواخر الكلم من العربية » حيث قال : « و حروف الإعراب للأسماء المتمكنة ، وللأفعال المضارعة لأسماء الفاعلين التي في أوائلها الزوائد الأربع : الهمزة و التاء و الياء و النون ، وذلك قولك « أفْعَلُ أنا » و« تَفْعَلُ أنتَ أو هي » ، و «يفعل هو» ، و «نَفْعَلُ نحن» .... وإنما ضارعت أسماءَ الفاعلينَ أنك تقول : « عبدالله لَيَفْعَلُ » فيوافقُ قولَك «لَفاعلٌ» ، حتى كأنك قلت « إنّ زيداً لَفاعلٌ » فيما تُريد من المعنى وتَلحقه هذه اللامُ كما لحقت الإسمَ ولاتَلحق « فَعَلَ » اللامُ ، وتقول « سيفعل ذلك » و « سوفَ يفعل ذاك » ، فتُلحِقُها هذين الحرفين لمعنى كما تَلحق الألفُ واللام الأسماءَ للمعرفة ويُبيِّن لك أنها ليست بأسماء أنك لو وضعتَها مواضعَ الأسماء لم يجز ذلك ، ألاترى أنك لو قلت : «إنّ يَضرِبَ يأتينا» وأشباه هذا لم يكن كلاماً ، إلا أنها ضارعت الفاعل لاجتماعهما في المعنى ، وسترى ذلك أيضاً في موضعه ، ولدخول « اللام » قال الله تعالى : «وَإنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ » أي « لَحاكمٌ » ، ولما لحقها من «السين» و«سوف» كما لحقت الألفُ واللام الاسمَ للمعرفة » [1] .

---

(١) «الكتاب» ، طبعة «بولاق» ، ج١ ص٣ .

كأنّ مضارعة هذه الأفعال لأسماء الفاعلينَ عنده من جهتين : من جهة المعنى وجهة المبنى، إلّا أنّ النُّحاة من بعده جعلوا «المضارع» قسيما لـ«الماضي» ، وفي هذا من الخلل ما فيه لأنّ «الماضي» إنّما كان ماضيا عندهم باعتبار الزّمان ، و المضارع مضارع باعتبار المشابهة لأسماء الفاعلين من حيث الأعراب ، والإعتباران متغايران لايسوغ اجتماعهما في قسمة حاصرة .

ثمّ أين هذا من الخصوبة الّتي لحظها «سيبويه» في المضارعة بحيث إنّ ما بين هذه الأفعال وتلك الأسماء ينزل منزلة التّجاذب والتّوافق دون أن يقتصر على المشابهة فكلاهما ينحو نحو الآخر وينعطف عليه كما ينعطف النّظير إلى نظيره والمثيل إلى مثيله، قال في سياق كلامه على أنّ بعض الكلام أثقل من بعض : « واعلم أنّ ماضارع الفعلَ المضارعَ من الأسماء في الكلام ووافقه في البناء أُجري لفظُه مُجرى مايَستثقلون ومنعوه مايكون لما يَستخفّون فيكون في موضع الجرّ مفتوحا استثقلوه حيث قارَب الفعل في الكلام ووافقه في البناء و ذلك نحو « أبيَضَ » و « أسوَدَ » و « أحمَرَ » و « أصفَرَ » فهذا بناء «أذهَبُ » و « أعلَمُ » و أمّا مضارعته في الصّفة فإنّك لو قلت : « أتاني اليومَ قويٌّ » ، و « ألا بارداً » ، و « مررت بجميل كان ضعيفا » ولم يكن في حسنِ أتاني «رجل قويّ» و«ألاماءً بارداً» و«مررت برجل جميل» ، أفلا ترى أنّ هذا يقبح ههنا كما أنّ الفعل المضارع لايُتكلّم به إلا ومعه الإسم ، لأنّ الإسم قبل الصّفة كما أنّه قبل الفعل ، ومع هذا أنّك ترى الصّفة تجرى في معنى « يَفعَلُ » وتَنْصِبُ كما ينصِب الفعلُ ، وسترى ذلك إن شاءَ الله» الخ[1] .

لكن كان من شأن الإيغال في الصّوريّة بعد ذلك تفتيت فكرة المضارعة وتنزيلها في منازلها من أبواب البناءِ والإعراب حتّى توارى ما فيها من نبض دينامي بغيره تكون تكون اللّغة كالأرض اليباب .

فالمضارعة عند «سيبويه» لِفق المغايرة، لاتتأتّى كلتاهما إلّا بالأخرى ، وكلّ ماساقه

---

(١) «الكتاب» طبعة « بولاق » ، ج ١ ص ٦ .

في باب «الفعل» مبناه على ذلك ومآله إليه، و« الإسم» و «الفعل» وحدات من وحدات اللّغة يأتلفان في افتراق ويختلفان في اتّفاق، وعلى قدرما بينها من التّجاذب يكون مابينهما من التّدافع، لأنّهما يقومان على التّضاد و التّماثل في آن واحد ، وكلّ حكم في أحدهما لايستبين إلّا بالتّعوّض لنظيره في الآخر، و من أجل ذلك كان كلام « سيبويه» بعدئذ على المسند و المسند إليه كالمساوق لما بين الفعل والإسم من تضامن في النّظام اللّغوي، ألاترى أنّه قال في ترجمة الباب : « وهما (أى المسند والمسند إليه) مالا يستغنى واحد منهما عن الآخَر ولايجدالمتكلّم منه بدّاً » ثم مثّل بالأمرين، قال: «فمن ذلك الإسم المبتدأ والمبنيُّ عليه وهو قولك «عبدالله أخوك» و «هذا أخوك» ،ومثل ذلك قولك «يذهب زيدٌ» ،فلابدّ للفعل من الإسم كما لم يكن للإسم الأوّل بدٌّ من الآخَر في الإبتداء»[١] .

وأمّا ماساقه بعد ذلك ممّا يوهم بأنّه استطراد لاموضع له فيما هوبسبيله كقضيّة «اللّفظ للمعاني» و «مايكون في اللّفظ من الأعراض» و «باب الإستقامة من الكلام والإحالة» و «باب مايحتمل الشّعر»[٢] فهوليس باستطراد على الحقيقة ، لأنّه كالمبادىء العامّة الّتي لابدّ من تقريرها قبل الخوض في التّفاصيل، ويجمعها الباب الّذي ترجمه بـ«باب الفاعل الّذي لم يتعدّه فعلُه إلى مفعول»[٣] والتفاصيل الّتي أطال « سيبويه » القول فيها تتعلّق كلّها بأحكام « الفعل» واعماله، فهي ليست كالمقحمة على ما بدأ به ولا النّائية عمّا شرع فيه ، وإذا كان هناك من جامع ترتدّ إليه فهذا الجامع هو قوّة الجذب المغناطيسيّة الّتي يعجّ بها الفعل بحيث تتداعى إليه العناصر اللّغويّة الأخرى الّتي تقع في حيّزه حتّى ليتأتّى من ذلك ما يشبه المجال الرّمزى الّذي تتعانق فيه سائر القوى وهي تمضي إلى ما يقتضيه لها مصير الكلام .

و لـ«لفعل» في عصر سيبويه والعصر الّذي تلاه معنى أنطولوجي لم يزل يخفق في أروقة المتكلّمين بـ«البصرة» و « بغداد » و يستطير بشرر العقل المتمرّد في آفاق التأويل عند أصحاب العدل والتّوحيد، ولم يكن «سيبويه» بمعزل عن هذه العاصفة الّتي اجتاحت

---

(١) «الكتاب» ، طبعة «بولاق» ، ج ١ ص٧ . (٢) نفس المصدر والجزء ، ص٧ و ٨. (٣) نفس المصدر و الجزء ، ص١٣ .

«مسجد البصرة» وأرقتها وظلت تدوي في أسماع اللغويين والمتكلمين منذ نادى «واصل ابن عطاء» بمقالته وجهر «عمرو بن عُبَيْد» بنحلته، بل كانت على مرأى منه كما كانت على مرأى من شيخه «أبي عمرو بن العلاء» الذي قدمنا بعض ما كان بينه و بين «عمرو ابن عُبَيْد» من محاورة تدل على ما كان يكنه لـ«لغة الضاد» من وفاء.

و عبقرية «سيبويه» في تشبثه بالظاهرة اللغوية هي عبقرية الأفذاذ الذين يترقبهم التاريخ ويصطفيهم للإضطلاع برسالة الثقافة في عصور الشك التي يحتدم فيها الصراع بين النفي والإثبات، والسلب والإيجاب.

وقد كانت العربية وأوضاعها سبيله إلى ذلك، تعلق بها وتعلقت به، واستمدها فأمدته، وجال فيها ببصيرته فأسعفته، حتى كان من ذلك، البناء الشامخ الذي تراءى في «الكتاب»، وأورثه من بعده الأعقاب.

وأوضاع العربية التي نعنيها ليست شيئا سوى منطق اللغة الذي دل عليه «سيبويه» بالفعل والفاعل اللغويين لا الفعل الفاعل الحقيقيين، وكأنه أراد أن يؤكد ذلك وينبه عليه فأطال في ترجمة الباب الذي أشرنا إليه آنفا حيث قال: «هذا باب الفاعل الذي لم يتعده فعلُه إلى مفعول والمفعول الذي لم يتعد إليه فعل فاعلٍ ولا تعدى فعله إلى مفعول آخر، وما يَعْمَلُ من أسماء الفاعلين والمفعولين عَمَلَ الفعل الذي يتعدى إلى مفعول، وما يعمل من المصادر ذلك العمل، وما يجري من الصفات التي لم تبلغ أن تكون في القوة كأسماء الفاعلين والمفعولين التي تجري مجرى الفعل المتعدي إلى مفعولٍ مَجراها، وما أُجري مُجرى الفعل وليس بفعل ولم يَقْوَ قوتَه، وما جرى من الأسماء التي ليست بأسماء الفاعلين التي ذكرتُ لك، ولا الصفات التي هي من لفظ أحداث الأسماء ويكون لأحداثها أمثلة لما مضى وما لم يمضِ و هي التي لم تبلغ أن تكون في القوة كأسماءِ الفاعلين والمفعولين التي تريد بها ما تريد بالفعل المتعدي إلى مفعول مَجراها وليست لها قوة أسماء الفاعلين التي ذكرتُ لك ولا هذه الصفاتِ كما أنه لا يقوى قوة الفعل ما جرى مجراه وليس بفعل»[1].

(١) «الكتاب» طبعة «بولاق»، ج ١ ص ١٣ و ١٤.

وهي مباحث متشاكلة متجانسة وليست متناثرة متفرّقة والكلام عنها يتضمّن الكلام عن الأفعال في لزومها و تعدّيها ، وفي بنائها للفاعل و بنائها للمفعول ، و في تنازعها واشتغالها ، وفي تعليقها وإلغائها ، وفي تمامها ونقصها ، وفي حذفها وذكرها ، ثمّ إعمال المصدر والمشتقّات وأسماء الأفعال وكلّها يأخذ بعضها برقاب بعض .

وقضيّة الإعمال الّتي تعدّ لبّ هذا الباب من القضايا الّتي طال فيها الجدل وشكا منها الشّاكون في هذا الزّمان ، ولكنّ كلّ ما قيل فيها مبناه على أخذ العلّة النّحويّة مأخذ العلّة العقليّة بحيث تكون موجبة كالتّحرّك لا يعلّل إلّا بالحركة أو العالميّة لاتعلّل إلّا بالعلم ، وهذا غير مسلّم فالعلّة النّحويّة ليست موجبة و إنّما هي أمارة ودلالة على الحكم .

و إذا كان لنا أن نترجم ذلك إلى مواضعات علم اللّغة الحديث قلنا إنّ الإعمال مناطه تأثير الوحدات اللّغويّة بعضها في بعض في نطاق النّظام اللّغوي بحيث لا يتأتّى اطّراده إلّا بما هنالك من تأثير داخلي متبادل فيما بينها على ما تقتضيه ديناميكيّة اللّغة الّتي نبّه عليها « سوسير » ، وهو نظام يجري على مستوى الحقيقة و يباينها لأنّه تابع من الحركة اللّغويّة الّتي تتدافع فيها الوحدات وتتجاذب .

و أصالة «سيبويه» في إدراكه لذلك تظهر في تسلسل الأبواب على ماساقها في «الكتاب» ثمّ في توخّيه التّنظير والمقايسة بين الأمثلة دون التّعويل على التّعريفات والحدود كما فعل المتأخّرون .

والفعل عنده هو قوام ذلك و بؤرته ومغناطيسه فهو مهيّأ بوضعه اللّغوي لأن يشغل بغيره ويفرّغ له ، ومعنى اشتغاله بغير قدرته على جذبه ناحيته في التّعدّي واللّزوم ، و «سيبويه» إنّما سوّى بين الفاعل والمفعول في باب الّذي ترجمه بـ«باب الفاعل» الّذي لم يتعدّه فعلُه إلى مفعول والمفعول الّذي لم يتعدَّ إليه فعلُ فاعلٍ ولا تعدّى فعلُه إلى مفعول آخَر »[1] لأنّ مظهر التّأثير فيهما واحد وهو الإرتفاع ، ثمّ الدّليل على تساويهما أنّ كليهما مُحدَّث

---

(١) «الكتاب» طبعة « بولاق » ، ج ١ ص ١٤ .

عنه كما قال في آخر الباب: «فالأسماء المحدَّثُ عنها والأمثلةُ دليلةٌ على «ما مضى» و«ما لم يمض» من المحدَّث به عن الأسماءِ وهو الذّهاب والجلوس والضّرب، وليست الأمثلةُ بالأحداثِ ولا مايكون منه الأحداثُ وهي الأسماء» فبان بهذا أنّ مايعنيه بالفاعل هو المسند إليه أي الفاعل بمعناه الإصطلاحي دون معناه اللّغوي أو الحقيقي، ولهذا أثره كما سنبيّن فيما بعد وما يُقال في الفاعل الّذي لم يتعدَّ فعله إلى مفعول يقال ما يقابله في الباب الّذي ترجمه بـ«باب الفاعل الّذي يتعدّاه فعله إلى مفعول» حيث تتجاوز طاقة الجذب في الفعل الفاعل إلى المفعول مؤخّرا كان كـَ«ضَرَبَ عبدُالله زيداً» أو مقدّما كـَ«ضَرَبَ زيداً عبدُالله»[1].

وبين الأسماء المحدَّث عنها والأمثلة علاقة تقوم على المشاكلة و المغايرة، المشاكلة من جهة الدّلالة والمغايرة من جهة الحقيقة اللّغوية لكلٍّ منهما، ويظهر ذلك عند مقارنة الأفعال الّتي هذا شأنها بالأفعال الّتي تعمل في المصدر وظرف الزّمان وظرف المكان، وذلك قول «سيبويه»: «وأعلم أنّ الفعل الّذي لايتعدّى الفاعلَ يتعدّى إلى اسم الحدَثان الّذي أُخذ منه، لأنّه إنّما يُذْكَر ليدلّ على الحدث، ألاترى أنّ قولك «قد ذهب» بمنزلة قولك «قد كان منه ذَهابٌ»، وإذا قلتَ «ضربَ عبدُالله» لم يَستَبِنْ أنّ المفعول زيدٌ أو عمروٌ ولا يدلّ على صنف، كما أنّ «ذَهَبَ» قد دلّ على صِنفٍ وهو الذّهاب، وذلك قولك «ذَهَبَ عبدُالله الذهابَ الشّديدَ»، و«قَعَدَ قِعدةَ سوءٍ»، و«قَعَدَ قَعْدَتَين»، لمّا عمِلَ في الحدث عمل في المرّة منه والمرّتين، وما يكون ضربا منه فمن ذلك: «قَعَدَ القُرفُصاءَ» و«اشتمل الصّمّاءَ» و«رَجَعَ القَهْقَرَى» لأنّه ضَرْبٌ من فعله الّذي أُخذ منه»[2].

والفرق بين هذه الأفعال والأفعال السّابقة هو كالفرق بين التّحليل والتّركيب إذ الفعل في الحالة الأولى مغاير لمعموله وفي الحالة الثّانية يتضمّنه ويستوعبه على نحو مايظهر

---

(١) «الكتاب» طبعة «بولاق»، ج١ ص١٤.

(٢) نفس المصدر ونفس الجزء، ص١٥.

أيضا في تعدّي الفعل إلى الزّمان حيث يقول «سيبويه» : «ويتعدّى إلى الزّمان نحو قولك « ذَهَبَ » لأنّه بُني لما مضى منه ومالم يمضِ ، فإذا قال : « ذَهَبَ » فهو دليل على أنّ الحدث فيما مضى من الزّمان ، وإذا قال : «سَيَذْهَبُ» فهودليل على أنّه يكون فيما يستقبل من الزّمان ، ففيه بيانُ مامَضى وما لم يمضِ منه ، كما أنّ فيه استدلالاً على وقوع الحدث ، وذلك قولك « قَعَدَ شهرين» و « سيقعُدُ شهرين » وتقول « ذهبتُ أمسِ » و « سأذهَبُ غداً » ، فإنْ شئت لم تجعلهما ظرفا ، فهو يجوز في كلّ شيءٍ من أسماءِ الزّمان كما جاز في كلّ شيءٍ من أسماءِ الحدث »[1] .

وإنّما جاز في الزّمان كما جاز في الحدث لأنّ الفعل أيضا يقتضيه بالقوّة من حيث كان مصيرا للكائن يتعاطى فيه الحَدَثان .

وقريب من تعدّيه إلى الزّمان وتعدّيه إلى المكان المبهم ، لأنّه أيضا من بعض معانيه قال : « ويتعدّى هذا الفعل إلى كلّ ما اشتُقّ من لفظه اسماً للمكان وإلى المكان ، لأنّه إذا قال : « ذَهَبَ » أو « قَعَدَ » فقد عُلِم أنّ للحدث مكانا وإن لم يذكره ، كما عُلِمَ أنّه قد كان ذهابٌ وذلك قولك «ذهبتُ المذهبَ البعيدَ» و « جلستُ مجلساً حسناً » و « قعدتُ مقعداً كريماً » و « قعدتُ المكانَ الّذي رأيتَ » و « ذهبتُ وجها من الوجوه . »[2]

والمكان هو المآل الأخير للكائن ومنتهى مصيره أو هو كما يقول «اشبنجلر» زمان يتجسّد ، وكأنّ إبهامه يرشّحه للدّخول في معنى الفعل كالزّمان والحَدَثان سواء بسواء ، فإذا تعيّن استعصى عليه ، ومن ثَمّ كان قول بعضهم : « ذهبتُ الشام » على ما حكاه « سيبويه » : على التّشبيه بالمبهم « إذ كان مكانا يقع عليه المكانُ والمذهبُ » قال : «وهذا شاذٌ لأنّه ليس في « ذَهَبَ » دليلٌ على « الشّام » وفيه دليلٌ على المذهبِ ، ومثل « ذهبتُ الشّام » «دخلتُ البيتَ » .

---

(١) «الكتاب» طبعة « بولاق » ، ج ١ ص ١٥ .

(٢) نفس المصدر والجزء ، ص١٥.

وأما قول « ساعدة بن جُؤَيّة » يصف رُمحاً ليّن الهزّ .

لدْنٌ بهزِّ الكفِّ يَعْسِلُ مَتْنُهُ

فيه كما عَسَلَ الطريقَ الثّعلبُ (١)

فالوجه فيه أنّ الثّعلب لمّا قهر المكان ساغ أن يتعدّى إليه العَسَلان بعد أن احتواه وصار من بعض معانيه الّتي منها السَّيَلان .

ويظهر ذلك أكثر ما يظهر فيما سمّاه « سيبويه » : « وقتا في الأماكن » ويتعدّى الفعل اليها : « كما يتعدّى إلى ما كان وقتا في الأزمنة لأنّه وقتٌ يقع في الأماكن ولا يُختصُّ به مكانٌ واحدٌ كما أنّ ذاك وقتٌ في الأزمان لا يُختصُّ به زمنٌ بعينه ، فلمّا صار بمنزلة الوقت في الزّمن كان مثلَه لأنّكَ قد تَفعَل بالأماكن ما تفعل بالأزمنة وإن كان أقوى في ذلك ، وكذلك كان ينبغي أن يكون إذ صار فيما هو أبعد ، نحو « ذَهَبَ الشّامَ » وهو قولك « ذهبتُ فرسخين » و « سرتُ ميلين » كما تقول « ذهبتُ شهرين » و « سرتُ يومين » كأنّ المكان لإبهامه يتزمّن وينقلب صيرورة يحتويها الحَدَثان .

على ان ذلك يعفّي على ما بينهما من فرق ، قال : « وإنّما جُعِل في الزّمان أقوى لأنّ الفعل بُني « لِما مَضى » منه وما « لم يمضِ » ، ففيه بيانُ الفعل متى وقع كما أنّ فيه بيان أنّه قد وقع المصدرُ وهو الحَدَثُ ، والأماكن لم يُبْنَ لها فعل وليست الأماكن بمصادر أُخِذَ منها الأمثلةُ فالأماكن إلى الأَناسيِّ ونحوِهم أقربُ ، ألا ترى أنّهم يختصّونها بأسماء كـ« زيد » و « عمرو » في قولهم « مكّةُ » و « عُمانُ » ونحوهما ، ويكون فيها خَلْقٌ لا تكون لكلّ مكان ولا فيه كـ« الجبل » و « الوادى » و « البحر » ، و « الدّهرُ » ليس كذلك والأماكنُ لها جُثّةٌ وإنّما « الدّهرُ » مُضيُّ الليلِ والنّهارِ فهو إلى الفعل أقربُ » (١) والوجه في هذا ما ذكوناه آنفا من تعيّن المكان واستعصائه وجموده .

فالفعل والإسناد هما قلب هذه المباحث ومدارها ، إلّا أنّ الإلف والعادة وما

---

(١) « الكتاب » . طبعة « بولاق » ، ج١ ، ص ١٥ و ١٦ .

(٢) نفس المصدر والجزء ، ص١٦ .

استقرّت عليه أبواب النّحو في كتب النّحاة المتداولة كلّ اولئك حال دون إدراك ما في «الكتاب» من تسلسل وبيان اقتضاه النّظر الصّحيح الّذي يستوجبه منطق العربيّة .

وإذا كان ينبغى لنا أن نقف بعد الّذي قدّمناه عند شيء فإنّما ينبغي أن نقف في آخر هذا المطاف مع «سيبويه» عند الباب الّذى وسمه بـ«باب استعمال الفعل في اللّفظ لا في المعنى» : «لاتّساعهم في الكلام وللإيجاز لِما له من أثر في المجاز، قال: «وممّا جاء على اتّساع الكلام و الإختصار قوله تعالى : « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا » ، إنّما يريد أهلَ القرية فاختصَر وعَمِلَ الفعلُ في القرية كما كان عاملا في الأهلِ لو كان هاهنا الخ »[1] .

وكأنّه يشير بقوله استعمال الفعل في اللّفظ لا في المعنى إلى ما هنالك من مغايرة جانب اللّفظ لجانب المعنى في العبارة وهذا باب من القول متّسع يدلّ من بعض الوجوه على سنن العرب في كلامها لكنّه أقصى كسواه ممّا يجري مجراه من كتب النّحو ولم يعد له فيها مكان بعد إن اكتظّت بمسائل الإعراب والبناء وهذا المثال من الأمثلة الّتي تُساق لبيان المجاز القائم على الحذف، ومقتضى الإعمال الّذي يذهب إليه « سيبويه» الإبقاء على الظّاهرة اللّغويّة بناء على ما تقرّر في أوضاع العربيّة دون التّضحية بها من أجل مايقتضيه الصّواب العقلي على نحو ما فعل « عبدالقاهر » فيما أسماه «المجاز العقلي» في مثل قولهم : « فَعَلَ الرّبيع » وفيما جاء في الخبر : « إنّ ممّا يُنْبِتُ الرّبيعُ ما يقتلُ حَبَطاً أو يُلِمُّ »[2]. فكان من ذلك ماكان من إحالة ممّاسنعرض له بالبيان ، قال «عبدالقاهر» : «قد أثبت الإنبات للرّبيع وذلك خارج عن موضعه من العقل ، لأنّ إثبات الفعل لغير

---

(١) «الكتاب» طبعة «بولاق» ، ج ١ ص١٠٨ .

(٢) وذلك انّ الرّبيع يُنبت أحرار العشب الّتي تحلوليها الماشية فتكثر منها حتّى تنتفخ بطونها وتهلك، وهذا الوجع هو «الحَبَط » ، و «يلمّ» يقرب من ذلك و هومثل يضرب للحريص والمفرط في الجمع :

القادر لا يصحّ في قضايا العقول إلّا أن يكون ذلك على سبيل التّأوّل وعلى العرف الجاري بين النّاس أن يجعلوا الشّيء إذا كان سبباً أو كالسّبب في وجود الفعل من فاعله كأنّه فاعل ، فلمّا أجرى اللهُ سبحانه العادة وأنفذ القضيّة أنْ تورق الأشجار و تظهر الأنوار وتلبس الأرض ثوب شبابها في زمان الرّبيع صار يُتوهّم في ظاهر الأمر و مجرى العادة كأنّ لوجود هذه الأشياء حاجة إلى الرّبيع فأُسند الفعل إليه على سبيل هذا التّأوّل والتّنزيل » [١] .

كأنّ المجاز العقلي عنده مأخذه من الحكم والنّسبة الّتي تكون بين الموضوع المحمول و ما ذهب إليه من جَعْل الإسناد على سبيل التأوّل تجميد لوظيفة اللّغة و قضاء عليها ، وعلاقة الإسناد علاقة طبيعيّة يقتضيها كلّ كلام يثبت فيه شيء لشيء، غير أنّ بناءه في التّراكيب الّتي أدخلها علماء البلاغة في باب المجاز العقلي وأجروها على حكم العقل صرف له عمّا تقتضيه أوضاع اللّغة والتّفكير اللّغوي ، و التّراكيب الّتي لا تطابق القضايا الحقيقيّة والجمل الّتي لا يتأتّى فيها للفاعل فعل حقيقي حافلة بها اللّغة و أكثر من أن تُحصى .

و ليت شعري ما قولهم في مثل « طلعت الشّمس » وفي مثل قوله تعالى « ظَهَرَ الفسادُ في البرِّ و البحرِ » هل يُقال أيضاً إنّ إسناد الفعل في المثال و الآية على سبيل التّأويل .

ومن التّشقيق الّذي لا طائل تحته القول بأنّ الإسناد في « أنبت الرّبيعُ البقلَ » وإن كان إلى غير ما هو له لكن لا تأوّل فيه لأنّه مراد الجاهل الّذي يقوله و معتقده و من ثمّ يخرج من باب المجاز ، فهذا الكلام ممّا يقوله الجاهل والعالم على حدّ سواء ، والعبرة فيه وفي غيره بالإسناد اللّغوي لا الإسناد العقلي ، ثمّ من التّحمّل والتّعسّف أنّهم لم يحملوا قول « الصّلتان العبدي » :

أشاب الصّغيرَ وأفنى الكبيرَ كرُّ الغَداة و مرّ العشيّ

---

(١) « أسرار البلاغة » طبعة « هـ . ريتر » ص ٣٥٦ .

على المجاز لأنّه لم يعلم أو لم يظنّ أنّ قائله لم يعتقد ظاهره لعدم التأوّل حينئذ ، وحملوه على الحقيقة لكونه إسناداً إلى ما هو له عند المتكلّم في الظّاهر كما من نحو قول الجاهل، وحملوا قول «ابن النّجم» :

قد اصبحتْ أمُّ الخيار تدّعى عَليّ ذَنباً كُلُّه لم أصنعِ
مِن أنْ رأتْ رأسي كرأس الأصلع ميّز عنه قُنْزُعاً عن قُنْزُعِ [1]

حيث استدلّوا من قوله بعد ذلك :

أفناه قيل الله للشّمس آطلعي حتّى إذا واراك أفقٌ فا رجعي

على أنّه يعتقد أنّ الفعل لله وأنّه المبدىء والمعيد والمنشيء فيكون الإسناد إلى جذب اللّيالي بتأوّل بناء على أنّه زمان أو سبب .

وقد فات القائلين بذلك أنّه يتّجه عليهم أنّ الدّليل الّذي استدلّوا به على اعتقاد «أبي النّجم» متهافت ينقض آخره أوّله، فقول «أبي النّجم» : « أفناه قيل الله للشّمس اطلعي » يقتضي أنّ الله تعالى يكلّم ما لايعقل و يخاطبه ، و إن قيل إنّ « قيل الله » معناه أمره وأرادته قلنا إنّ اللّفظ في قوله « اطلعي» يقطع بأنّ ههنا خطابا بفعل الأمر، و إذا كان كذلك ألا يدلّ أيضا على اعتقاد « أبي النّجم » أنّ الله يكلّم الشّمس كما دلّ قوله قبل ذلك «أفناه قيل الله» على أنّه يعتقد أنّ الفعل لله .

ثمّ إنّ التّمسّك بالمجاز العقلي أدّى بهم إلى الإضطراب والإحالة ، فمنهم من أوجب تقدير فاعل لكلّ فعل ، ومعرفة الفاعل إمّا ظاهرة كما في قوله تعالى «فما ربِحَتْ تجارتُهم» أي فما ربحوا في تجارتهم ، و إمّا خفيّة كما في قولك «سرّتني رؤيتُك»أي «سرّني اللهُ عند رؤيتك»، وقول «ابن المعذّل» :

يَزيدُك وجهُه حُسناً إذا مازدتَه نظرا
يُرينا صَفْحتَي قمر يَفوقُ سَناهما القَمرا

وكقولك «أقدمَني بلدك حقّ لي على فلان » أي « أقدمَتني نفسي لأجل حقّ

(١) «القُنْزُع» جمع «قُنْزُعة » وهي الشّعر حوالى الرّأس .

عليه » ، و « محبتُكَ جاءتْ بي إليكَ » أي « جاءت في نفسي إليكَ لمحبتكَ » ، وقول الشاعر :

وصَيّرني هواكَ وَبي   لحيني يُضْرَبُ المثَلُ

أى صيّرني اللهُ بسبب هواكَ بهذه الحالة وهو أنّني يضرب المثل بي لهلاكي في محبتكَ ، وعلى أنّ « عبدالقاهر » لايوجب أن يكون للفعل فاعل في التّقدير إذا أنت نقلت الفعل إليه صارت حقيقة كما في قوله تعالى « فما ربِحَتْ تجارتُهم » فأنّكَ لاتجد في نحو « أقدمني بلدُكَ حقّ لي على إنسان » فاعلا سوى الحقّ ، وكذا لاتستطيع في « وصَيّرني » و « يزيدك » أن تزعم أنّ له فاعلا قدنقل عنه الفعل فجعل لـ « الهوى » و لـ « وجهه » ، فالإعتبار إذاً أنْ يكون المعنى الّذي يرجع إليه الفعل موجوداً في الكلام على حقيقته ، فإنّ القدوم موجود حقيقة وكذا الّصيرورة والزيادة ، و إذا كان معنى اللّفظ موجودا على الحقيقة لم يكن مجازاً في نفسه فيكون في الحكم .

وليت شعري ما الفرق بين الوجود في هذه الأمثلة والوجود في غيرها ممّا يُساق شاهداً على المجاز العقلي؟ أليس ثبوته معقوداً باللّغة في الحالين؟

وفي تقدير فاعلين على ما ذكر الّذين يوجبون تقدير الفاعل في كلّ مثال تكلّف أزيل معه الكلام عن موضعه وخرج منه كلام آخر يغاير الأوّل وهو نظير ما اصطنعوه في الآيات الّتي حملوها على المجاز العقلي كقوله تعالى « وإذا تُلِيَتْ عليهم آياتُه زادَتْهُمْ إيمانا » وقوله تعالى « يُذَبّح أبناءَهم » « يَنْزَعُ عَنْهُما لباسَهما » « يوما يجعلُ الوِلدانَ شيبا » « وأخرَجَتِ الأرضُ أثقالَها » ممّا يجرى على سنن العربيّة دون حاجة إلى التّمحل والبحث عن الأسباب والمسبّبات .

والفاعل في كلّ مثال من الأمثلة الّتي قدّروا لها فاعلين ليس شيئاً سوى ما ثبت في اللّفظ ، فالفاعل في كلّ آية هو ما ثبت في اللّفظ على ما توجبه أحكام اللّغة ، وهذا هو مقتضى صنيع « سيبويه » بماذهب إليه في الفعل على ما قدّمنا بحيث يستوعب العناصر اللّغويّة الأخرى الّتي تدخل في حيّزه على مستوى من المجال الرّمزي الّذي يقرب ممّا ذكره « كارل بهلر » بعد ذلك بقرون طويلة وهذه إحدى آيات إمام النّحاة الّذي نحتفل اليوم بذكراه .



محمد حجي
(المغرب الأقصى)

« كتاب سيبويه » في « المغرب » و « الأَنْدُلُسْ »

تمهيد تاريخي

يتّصل « كتاب سيبويه » بالدّراسات اللّغويّة و النّحويّة في « المغرب » و «الأَنْدُلُس» اتّصالا وثيقا عَبْرَ العصور، و يرجع احتكاك هذه البلاد باللّغة العربيّة إلى عهد الفاتحين المسلمين في القرن الهجري الأوّل . وكانت عُجْمة لسان سُكّان هذه المناطق مدعاة إلى إقبالهم على تعلّم لغة «القرآن» منذ أن أخذ الإسلام ينتشر بينهم، والعرب يقيمون بين ظَهرانيهم . وقد بدأ تعلّم اللّغة العربيّة في « الغرب الاسلامي » بطريق المحاكاة والتعبير الشفوي البسيط، وحفظ آيات وسُوَر من «القرآن» الكريم لأداء الشّعائر الدينيّة، قبل أن يميل إلى استكناه أسرار اللّغة والتّعرّف على قواعدها، حينما رسخت قدم الإسلام في هذه البلاد، وأصبحت جزءاً لا يتجزّأ من الدّولة الإسلامية الكبرى، لاسيّما عندما أخذت تنتشر الحركة الفكريّة، الدينيّة واللّغويّة، القائمة في « المشرق » آنذاك، وتتردّد أصداؤها في أرجاء « المغرب » و « الاندلس » .

كان من الطبيعي أن يحدث مثل هذا في الجناح الشّرقي من الأمبراطوريّة الإسلاميّة غير أنّ قيام مدينتَي «البصرة» و«الكوفة» في «العراق» . وإقبال علمائهما من عرب وفرس على جمع اللّغة العربيّة و فلسفتها بتقعيد القواعد و استنباط الأحكام والضّوابط أسرع

الخطى بتلك الأقطار في ميدان العلوم اللّسانيّة، وخوّلها قصب السبق في هذا المضمار، حتّى انجبت من الأعلام أمثال «الخليل بن أحمد»، و «يونس بن حبيب» و «سيبويه» الّذين أصبحوا أئمة العربيّة في كلّ زمان ومكان.

لقد دخل النّحو إلى «المغرب» و «الأندلس» مع تلاميذ هؤلاء الأئمّة الّذين هاجروا من «المشرق» فحطّوا رحالهم بـ «القَيْرَوان» و «فاس» و «قُرطُبة» وأملوا على المتعلّمين في هذه البلاد ما حوته صدورهم وقراطيسهم من علم غزير. ولئن عرفت الأوضاع السّياسيّة بهذا الجناح الغربي من العالم الإسلامي تقلّبات كثيرة خلال القرون الهجريّة الأولى، فان الحركة الثّقافيّة، و من ضمنها العلوم اللّسانيّة، لم تنثن عن طريقها أو تقف عند الحدود المصطنعة الّتي كانت تنتصب حاجزا هنا وهناك، تتقدّم تارة وتتراجع أخرى. فتابع العلماء نشاطهم الفكري في هذه البلاد، سواء في العهد الّذي كانت فيه سلطة «خلفاء دِمشق» أو «بغداد» تصل إلى المحيط الأطْلنطيقي و «جبال البرانس»، وعند ما انفصلت المنطقة عن أنظارهم بزعامة الأمويّين في «الأندلس» و «الأدراسة» في «المغرب»، و «الأغالبة» بـ «افريقية».

وابتداء من القرن الهجري الرّابع دخل الغرب الإسلامي مرحلة النّضج والتّفتّح الفكري، حيث أخذت مساجد «قُرْطُبة» بصفة خاصّة، تعجّ بأعلام العلماء، ومكتباتها تزخر بمختلف المؤلّفات اللّغويّة والأدبيّة، أيّام «عبدالرّحمن النّاصر»، وابنه «الحَكَم المُسْتَنْصِر». و تأكّدت شخصيّة هذه المنطقة في القرون التّالية مع «المرابطين» و «الموحّدين» الّذين تمكّنوا طوال قرنين ونيّف من إقامة إمبراطوريّته انتظمت في سلكها أقطار شمال «افريقيا» و «الأندلس»، فكان العلماء ينتقلون في أرجائها الفسيحة، يملون و يؤلّفون، و ينالون من ضروب الإكرام و التّشجيع ألوانا. ونالت الدّراسات اللّغويّة والنّحويّة والأدبيّة في هذه الفترة أوفى نصيب، و راج «كتاب سيبويه» أعظم رواج.

ورغم القطيعة والمحن الّتي تعرّض لها الغرب الإسلامي في القرن الهجري السّابع، فإنّ جهود «المرينيّين» الضّخمة، المتمثّلة في تشيّد المساجد والمدارس الفخمة، في كلّ

جهات «المغرب»، وفي تقديم العون المادّي والمعنوي لمملكة «غرناطة»، كان له الأثر المحمود في إحياء ذماء العلم بالعدوتين، وأعطى الدّراسات اللّغويّة والنّحويّة فيهما، بخاصّة «كتاب سيبويه»، نفسا جديدا.

ولما حمّ القضاء، وحلّت النّكبة الكبرى بالمسلمين في «الأندلس» في نهاية القرن التّاسع آوت العدوة الجنوبيّة مختلف المقوّمات الحضاريّة مع آخر المهاجرين الأندلسيّين وأصبحت مدينة «فاس» دار مقام لعدد عديد من الأُسر النّبيلة، وفي مقدّمتها أسرة «أبي عبدالله النّصري» آخر ملوك «بني الأحمر»، وعمّر أندلسيون آخرون مدن «تطوان» و«الرّباط» و«القصبة»، واستوطن غيرهم حتّى قمم الجبال وحدود الأودية، وبلغوا «سبائط السّوس الأقصى». وبذلك امتزجت الحضارة الأندلسيّة بالحضارة المغربيّة امتزاجا نهائيّا، ولم تنطفىء ذبالة تلك الثّقافة الأصليّة، ومعها الدّراسات النّحويّة و«كتاب سيبويه» في «المغرب» إلى أيّام النّاس هذه.

الدّراسات النّحويّة في العدوتين

بدأت الدّراسات النّحويّة بـ«المشرق»، كما هو معلوم، في زمن مبكّر أيّام «الخلفاء الرّاشدين»، وتوالت بعد ذلك إلى أن ظهر في «البصرة» «الخليل بن احمد الفراهيدي» في منتصف القرن الهجري الثّاني فوضع الأسس ونهج الطريق، تاركا أمر تدوين القوانين النّحويّة إلى تلميذه «عمرو بن عثمان سيبويه» واضع «الكتاب» المشهور. وقد يكون هذا «الكتاب» من بين الأسباب الّتي أدّت إلى احتدام الخصام بين المدينتين المتنافستين: «البصرة» و«الكوفة». ذلك الخصام الّذي انجلى عن قيام مدرستين نحويّتين إحداهما وهي «مدرسة البصرة»، تساندها الأصالة والمنطق، إذ وضعت قوانين عامّة، وأهملت الشّواذ وما خالف الإستعمال المشهور عند جمهور العرب، فحصرت اللّغة العربيّة في قوالب محكمة وصيغ مضبوطة يسهل - نسبيّا - إدراكها والإحاطة بها. والثّانية وهي «مدرسة الكوفة» ساندها البلاط العبّاسي وشدّ أزرها لا عن رضا لا علاقة لها بموضوع اللّغة وقواعدها، هذه المدرسة الثّانية ولو أنّها اصطبغت في البداية بصبغة علميّة محضة، فإنّها تحوّلت إلى ما يشبه «مسجد الضّرار»، خارمة القواعد المنضبطة اعتماداً على سماعات

شاذّة أو منحولة ، فشعبت سبل تحصيل النّحو أو أفسدته على حدّ تعبير « السّيوطي » .

ثمّ تدارس علماء « بغداد » بعد ذلك آراء المدرستين المتنافستين ، فوازنوا واستظهروا ، واستبعدوا و رجّحوا ، ونتج عن ذلك ظهور « مدرسة بغدايّة » جديدة هي مزيج من مذهبي « البصريّين » و « الكوفيّين » .

تلقّى الغرب الإسلامي قواعد اللّغة العربيّة ومذاهبها الشّرقيّة الثّلاثة عن طريق النّحاة المهاجرين ، ومعظمهم جاؤوا من « بغداد » ، فاتّخذوا من « كتاب سيبويه » أساساً للتّعليم ، لأنّهم بدورهم أخذوه عن « شيوخ بصريّين » أو « مشايعين لمذهب البصرة » . ولانتشار المدرسة البصريّة في « المغرب » و « الأندلس » . وسيادتها في العهود الأولى على ماعداها من المدارس النّحويّة أسباب يمكن اجمالها فيما يلي :

أوّلاً - كون المذهب البصري أكثر أصالة ومنطقيّة ، وأقلّ تشعّباً وتمحّلاً .

ثانياً - وجود « كتاب سيبويه » بين أيدي النّاس لايُزاحمه كتاب آخر لـ « الرّواسي » أو « الكسائي » أوغيرهما من الكوفيّين . والكلّ يعلم أنّ هؤلاء لم يؤلّفوا مايمكن أن يضاهى « كتاب سيبويه » ، وإنّما هي رسائل وكراريس لاتذكر أمام « الكتاب » .

ثالثاً - مناصرة العباسيّين « علماء الكوفة » ، وايثارهم أيّاهم بتعليم ولاة العهد وأبناء كبار رجال البلاط ، جعل النّاس في الغرب ينفرون من هذا المذهب ، وهم الّذين خاصموا خلافة « بغداد » وخلعوا طاعتها .

على انّ ذلك كلّه لم يصرف « علماء المغرب » و « الأندلس » عن النّظر في مسائل الخلاف ، فحلّلوا آراء مختلف الفرق ، ونظروا بخاصة في القضايا الّتي أخذت على « البصريّين » ، فأثبتوا منها وأبطلوا ، وانتقدوا بدورهم مسائل من « كتاب سيبويه » ، نفسه ، و بعض القواعد و المبادىء النّحويّة الّتي قبلتها « المدارس الشّرقيّة » كلّها ، وخرجوا هم أيضاً بمدرسة نحويّة جديدة ، هي « المدرسة المغربيّة الأندلسيّة » الّتي تحدّث عنها « ابن خلدون » في « المقدمة » .

وفيما يتعلّق بالإقبال على دراسة اللّغة العربيّة وقواعدها في الغرب الإسلامي ، نلاحظ وجود نفس الظّاهرة الشّرقيّة المتجلّية في وفرة العناصر الأعجميّة الأصل من

facebook: @jsatl.shiraz

بين الدّارسين و المؤلّفين . فكما كان «سيبويه» و«دُرُستَوَيه» الفارسيّان مثلاً من أعلام النّحو العربي في الشّرق، كان «الجُزولي» و «إبن آجرّوم» من برابرة «السّوس الأقصى» من أئمّة هذا الفنّ في الغرب ، وظلّت كتبهم جميعاً تقرأ و تشرح على تعاقب الحقب والأجيال ، غير أنّ من المفارقات الّتي لاينبغي إغفالها في هذا الباب ، أنّه إذا كانت العناصر الغير العربيّة في الشّرق ، وبخاصّة الفارسيّة ، وأخذت تعود إلى لغتها الأصليّة منذ زمن غير بعيد عن عصر «سيبويه» ، فإنّ «السّوسيّين» في «المغرب» ظلّوا يتعلّمون «لغة القرآن» ويعلّمونها ويؤلّفون فيها مآت الكتب إلى اليوم . وقد نشر المرحوم «المختار السّوسى» ، منذ بضع سنوات ، تراجم علماء هذا الإقليم المغربي وآثارهم الضّخمة في اللّغة العربيّة وغيرها في كتابين هامّين ، هما «سوس العالمة» ، و «المعسول» ، ويقع هذا الأخير في عشرين مجلّداً .

مركز «كتاب سيبويه»

لعلّ أصدق تعبير عن المكانة المكينة لـ«كتاب سيبويه» في نفوس «المغاربة» «الأندلسيّين» أنّه ظلّ معتمدهم الأساسي في الدّراسات العليا لم يستبدلوه طوال القرون ولا يفهم من وجود كتب دراسيّة نحويّة أخرى في هذه المنطقة أنّها حلّت محلّ «الكتاب» ، وإنّها هي مقدّمات وأراجيز وضعت للمبتدئين أو القاصرين عن إدراك مسائل «الكتاب» ، وذلك كمقدّمتى «الجُزولي» و «ابن آجرّوم» ، وألفيّتى «ابن مُعطي» و «ابن مالك» ، وما إليها من شروح وحواش . ومع ذلك بقي «كتاب سيبويه» مجال المبرّزين من شيوخ النّحاة ، وملتقى النّجباء (الشّادين) من الطّلبة .

هذا إلى وفرة عدد الحفّاظ لـ«الكتاب» ، والمشتغلين بالكتابة عليه شرحاً وتعليقاً واستدراكاً . ومن نماذج حفّاظ «الكتاب» «المغاربة» : «أبو عمران الهسكوري» ، «موسى بن يميمن» صاحب كرسي «كتاب سيبويه» في «القرويّين» . فقد ذكروا في ترجمته أنّه فُتح بين يديه يوماً «كتاب سيبويه» بـ«القرويّين» في ثلاثة مواضع فقرأ في كلّ موضع مقدار ثلاثة أحزاب عرضاً عن ظهر قلب . وكان ذلك بتدبير من منافسيه

الّذين راموا إعجازه على رؤوس الملأ ، لما كان في طبعه من حدّة وفي لسانه من سلاطة ، لكنّه حجّهم جميعاً . و يعتبر « الأعلم الشّنتمري ، يوسف بن سليمان الإشبيلي » ، من أبرز نماذج « الأندلسيّين » الّذين عنوا بالتّعليق على « الكتاب » . فقد ألّف كتاب « تحصيل عين الذّهب من معدن جوهر الأدب في علم مجازات العرب » المطبوع مع « كتاب سيبويه » في طبعة « بولاق » ، شرح فيه شواهد « الكتاب » الشّعريّة الّتي تنيف عن الف بيت . وألّف كتاباً آخر جمع فيه « النّكت فى كتاب سيبويه » ، ورسالة مطوّلة في « المسألة الزّنبوريّة » الشّهيرة ، أوردها « المقّري » بتمامها في « نفح الطّيب » ، الجزء الرّابع من طبعة « بيروت » الأخيرة .

أشهر الدّارسين لـ « كتاب سيبويه » .

تكاثر عدد الدّارسين لـ « كتاب سيبويه » في « المغرب » و « الأندلس » عبر العصور تكاثراً يجعل من العسير تتبّعهم وبالأحرى محاولة الإحاطة بهم ولو اتّسع مجال القول. غير أنّه لن يكون دون فائدة على ما أعتقد ، استعراض بعض النّابهين منهم تمثيلاً لما سبق و توثيقاً . و نذكر في البداية ثلاثة من أعلام النّحاة المشارقة الّذين دخلوا « المغرب » و « الأندلس » في القرون الإسلاميّة الأولى ، وكان لهم فضل نشر النّحو واللّغة والأدب ، و « كتاب سيبويه » بصفة خاصّة ، فى ربوع الغرب الاسلامي وهم : « أبو اليسر الشّيباني » ، « ابراهيم بن أحمد البغدادى » ، تلميذ « المبرّد » و « الجاحظ » ، ورفيق « أبي تمّام » و « البحترى » أدخل معه إلى « المغرب » علماً غزيراً ، وانصرف جلّ اهتمامه إلى « كتاب سيبويه » يعلّمه وينشره بين النّاس ، حتّى إنّه كتب منه نسخة في حياته بقلم واحد مازال يبريه حتّى قصر ، فأدخله في قلم آخر وكتب به حتّى فني بتمام « الكتاب » . وكانت خاتمة مطاف « أبي اليسر » مدينة « القيروان » حيث توفي عام ٢٩٨ .

و « أبو علي القالي ، اسماعيل بن القاسم البغدادي » ، صاحب « النوادر والأمالي » ، و « المقصور والممدود » ، و « البارع » ، وغيرها من كتب اللّغة والنّحو والأدب . وفد على « عبدالرحمن النّاصر » في « قُرْطُبة » عام ٣٣٠ ، وأخذ يلقّن « كتاب سيبويه » ، وكان قد أخذه في « بغداد » عن « ابن دُرُسْتَويه ، عبدالله بن جعفر الفارسي » . وعُرِف « القالي »

بتدقيق النّظرفى «الكتاب» والإنتصار للبصريّين»، إلى أن توفّي بـ«قُرْطُبة» عام ٣٥٦.

و«صاعدالبغدادي، أبوالعلاء بن الحسن». دخل «الأندلس» أيّام «المنصوربن أبى عامر»، فاهتبل بمقدمه وأراد أن يعفّي به على آثار «أبى علي القالى» الوافد من قبل على «الأمويّين» غير أنّ قلّة خبرة «صاعد» بـ«كتاب سيبويه» عرّضه إلى السّخريّة والإهمال، ولم يشفع له لدى «الأندلسيّين» ما أملاه من «كتاب الفصوص» وغيره من مختارات اللّغة والأدب. فقد ذكروا أنّ «المنصور» أراد يوماً أن يختبر صاعداً حين كثرالكلام حوله وحول تزيّده و انتحاله الأخبار والأشعار، فاحضره مجلساً ضمّ نحاة «الأندلس» وأدباءها، مسأله عن «أبي سعيدالسّيرافى»، فزعم «صاعد» أنّه لقيه وقرأ عليه «كتاب سيبويه»، وحينئذ بادره «العاصمّى» بالسّؤال عن مسألة من «الكتاب»، فلم يحضره جوابها: و اعتذر بأن النّحو ليس جلّ بضاعة، فكان ذلك بداية الشّؤم الّذى ظلّ يلاحق «صاعداً» في جهات «الأندلس» إلى أن أجلاه عنها أيّام الفتن إلى جزيرة صِقِلِّيّة، حيث مات مغترباً عام ٤١٠.

أمّا النّحاة «الأندلسيّون» و«المغاربة» الّذين علقوا بـ«كتاب سيبويه» وحلقوا في تدريسه و تحليله والتّعليق عليه، فنجتز منهم بذكر ابنَى العمّ الزُّبَيْديّينَ الإشبيليّينَ: «أبي محمد» و «أبي بكر» وطائفة من نظرائهم عبرالعصور.

قرأ «أبومحمد الزُّبَيْدى، عبدالله بن حمّود»، النّحو بمسقط رأسه في «الأندلس» ودرّس «كتاب سيبويه»، ووضع عليه شرحاً من أحسن ما شرح به «الكتاب»، ثم تاقت نفسه إلى لقاء كبار النّحاة بـ«المشرق»، فرحل إلى «بغداد» ولازم «أبا سعيد السّيرافي» ثم «أبا عليّ الفارسي». ولمّا انتقل هذا الأخير إلى «فارس» سارمعه «أبومحمد الزُّبَيْدي» إليها، وعرفه الفارسيّون ودعوه هناك «أباعبدالله الأندلسي». وقدتضايق «أبوعلى الفارسي» من إلحاح «الزُّبَيْدى» فى صحبته وكان يقول له:

«والله إن على وجه الأرض أنحى منك!» وتوفي «أبومحمدالزُّبَيْدى» بـ«بغداد» عام ٣٧٢.

ولم يغادر « أبوبكر الزُبَيْدي » بلاد « الأندلس » ، وظلّ - بعد أن تخرّج على مشيخة هذه البلاد - يدرّس « كتاب سيبويه » في « إشبيلية » ، إلى أن دعاه « الحَكَم المستنصر » إلى «قُرْطُبَة» ليتولّى تأديب ولي عهده «هِشام» ، فكانت له في عاصمة الخلافة الأمويّة مجالس عالية في «الكتاب» على غرار مجالس « أبي علي القالي » السّابقة وألّف « أبو بكر » بدوره استدراكاً على « كتاب سيبويه » ، و مات و هو قاض بـ«إشبيليّة » عام ٣٧٩.

ونجد في العدوة الأخرى :

«أبا محمد الزّقّاق ، قاسم بن محمد ابن الحاج» ،شيخ النّحاة بـ«المغرب» ، يدرّس « كتاب سيبويه » في كلّ من «فاس» و «سَبْتَة» و «سَلا» ، مكوّناً حلقة أولى في سلسلة نحويّة ستطول أجيالاً عديدة . وكانت وفاته بمدينة «سَلا» عام ٥٥٩ .

و « محمد بن أحمد ابن طاهر الأنصاري » المعروف بـ«الخِدَبّ» ، إشبيليّ الأصل قرأ بـ«الأندلس» و « المغرب» ، واستوطن مدينة « فاس » مواظباً على تدريس « كتاب سيبويه » . وله تعليق على «الكتاب» . وقد أقسم أن يقرئ «الكتاب» في «المشرق» كما أقرأه في «المغرب» ، فحجّ ودرّسه بـ«مصر» ، ثمّ بـ«البصرة» حيث ألّفه «سيبويه» . ومرض « ابن طاهر » في طريق رجوعه من «المشرق» فأدركته الوفاة بمدينة «بِجايَة» بـ«المغرب الأوسط » عام ٥٨٠ .

ومن أبرز تلامذة الإمامَين « الزّقّاق » و«ابن طاهر» :

« أبوالحسن بن خَروف ، عليّ بن محمد الحَضْرَمي» . وهو أندلسيّ الأصل ، أقرأ « كتاب سيبويه» بـ«فاس» و « إشبيليَة » و « مَرّاكُش » وغيرها ، و وضع عليه شرحاً هاماً سمّاه: « تنقيح الألباب في شرح غوامض الكتاب » . وله غير ذلك رسائل عديدة في مناظرة كبار نحاة عصره .

و«عمر بن عبدالله السُّلمي» (من مواليد مدينة « أغمات » بالقرب من «مَرّاكُش» عاصمة «المرابطين» و «الموحّدين») نحوي يجيد تدريس «كتاب سيبويه» رغم مشاركته الواسعة في الفقه ، ولم يصرفه منصب القضاء الّذي أسند إليه في « تِلِمْسان » و «فاس»

و «إشبيليـّة» من متابعة تدريس «الكتاب»، إلى أن أدركته الوفاة فجأة بـ«إشبيليـّة» وهو بها قاض عام ٦٠٣.

و «أبوالقاسم بن المـَلـْجوم، عبدالرّحمن بن عيسى الأزدي». وأسرة «ابن المـَلـْجوم» من أبذل أسر «فاس»، تسلسل فيها العلم والجاه والثّورة نحو عشرة قرون، وكانت لهم مكتبة علميّة شهيرة من أغنى المكتبات الخاصّة بـ«الغرب الإسلامي». درس «أبوالقاسم» النّحو على كبار شيوخ «المغرب» و «الأندلس»، وناظر شيخه «ابن طاهر» في نحو الثّلث من «كتاب سيبويه»، و أقرأ «الكتاب» مدّة غير قصيرة في «جامع القرويّين» إلى وفاته عام ٦٠٤.

والإمام «الشّلـَوْبين، عمر بن محمد»، شيخ نحاة «إشبيليـّة». كان يدرّس بها «كتاب سيبويه» قبل أن ينتزعها المسيحيّون من المسلمين، وألـّف في جملة ما ألـّف على «الكتاب» كان له صدى كبير في «المغرب» و«المشرق».

و «أبومحمد الأنصاري، عبدالله بن علي»، أكبر تلاميذ «الشّلـَوْبين» والقائم مقامه في تدريس «الكتاب». وبعد سقوط «إشبيليـّة» في يد النّصارى، خرج «الأنصاري» إلى مدينة «سـَبـْتـَة» بالعدوة المغربيّة، فاستوطنها ودرّس بها «كتاب سيبويه» إلى أن توفي بها عام ٦٤٧.

وعاصر «أبا محمد الأنصاري» في «سـَبـْتـَة» نحوي آخر شهير، هو «أبوالحسن الشّاري، علي بن محمد الغافقي». كان «الكتاب» معتمده في مرحلتـَيْ التّعلّم والتّعليم. وتوفي بعد «الأنصاري» بعامين.

والإمام «الصّدفي، محمد بن يحيي العـَبـْدَري»، من أشهر المتخرّجين على يد «ابن خـَروف» والقائم مقامه في تدريس «كتاب سيبويه» في «القرويّين» بـ«فاس». توفي رحمه‌الله شهيداً في معركة حامية ضدّ المسيحيّين بـ«جبل الفتح» المعروف اليوم بـ«جبل طارق»، عام ٦٥١.

و «أبوحيّان الجيّاني»، أمير المؤمنين في النّحو، كان ملتزماً ألّا يقرئ النّحو إلّا

في «كتاب سيبويه» أو «تسهيل ابن مالك» لمن لم يتأهّلوا بعدُ لخوض غمار «الكتاب» .
وكان «أبوحيّان» سلفيّاً معجباً بآراء الإمام «ابن تَيْمية» فشدّ الرّحلة للقائه بـ«المشرق» وأقام معه مدّة في صفاء وغبطة ، إلى أن خطّأ «ابن تَيْمية» «سيبويه» ، فهجره «أبوحيّان» ومات بـ«القاهرة» عام ٧٤٥.

و «أبو زيد المكّودي ، عبدالرّحمن بن صالح» ، إمام النّحاة بـ«فاس» في عصره ، و مؤلّف الشّرح الشهير على «ألفيّة ابن مالك» . كان له كرسيّ «كتاب سيبويه» بـ«القرويّين» إلى أن مات عام ٨٠٧ .

و «أبوعبدالله البعقيلي ، محمد بن ابراهيم السّوسيّ» ، درّس «كتاب سيبويه» في قريته البسيطة بأقصى «السّوس» في عقود عديدة من القرن العاشر . كما درّس «الكتاب» في قرية جبليّة أخرى تسمّى «الدّلاء» بـ«الأطلس المتوسّط» . العالم اللّغوي الأديب «احمد الحارثي بن محمد الدّلائي» و درّسه كذلك في قرية صحراويّة بأقصى «المغرب» تسمّى «تمكّروت» . عالم نحوي آخر هو الشّيخ «محمد بن ناصر الدّرعي» ، وهما معاً من القرن الحادي عشر . . .

وبعد . فإنّ «كتاب سيبويه» ظلّ محطّ عناية «النّحاة المغاربة» و «الأندلسيّين» منذ حمله إليهم تلاميذ «سيبويه» . تدارسوه و شرحوه واستدركوا عليه و انتقدوا بعض مسائله ، ودافعو عنه من انتقصه بغير حقّ . ومازالت كليّة اللّغة العربيّة بـ«مراكش» التّابعة لـ«جامعة القرويّين» حتّى اليوم ، تضع «كتاب سيبويه» في طليعة الموادّ الّتي يدرسها طلبة الدّراسات العليا .



محمد بن علي الأكوع (العلامة . . .)
(صنعاء)

بسم الله الرحمن الرحيم

«سيبويه» وخدمة للأدب العربي

لاجدال أن العالم العربي والعالم الإسلامي مدين لهذا البلد الكريم بأكثر من فضل وفى أكثر من مجال من مجالات العلم والفقه والحديث والفكر و الأدب والفن والبطولات كيف لاهو الذى أنجب «أبا نصر الفارابي» الذى يعده العالم المعلم الثانى و «الشيخ الرئيس أبا علي ابن سينا» و«أبابكر الرازي» و«الفخر الرازي» وأئمة الحديث ك«مسلم» و«ابن ماجة» و «الترمذي» و«البيهقي» والحكام الثلاثة «النيسابوري» و«الجشمي» و«الحسكاني» والإمام «الغزالي» و«إمام الحرمين الجويني» و «الأزهري» و«الجوهري» و«عمر الخيام» و« أبابكر الخوارزمي» و «بديع الزمان الهمداني» و«الصاحب ابن عباد» و «الرئيس ابن العميد» و «الصردر» ومن متأخريهم « مجدالدين الشيرازى» صاحب «القاموس» الذى ألقى عصا التسيار في حاضرة «القطر التهامي» مدينة «زبيد» الشهيرة وغيرهم ممن لايحصون كثرة ومنهم المحتفل به حاليا :

ففي رحاب «مدينة البيضاء» إحدى مدن «شيراز» الايرانية الشهيرة التى أنبتت أعلاما في الفكر الإسلامى كان لهم أعظم الأثر في ابتكار العلوم والفنون و تدوينها إبان النهضة الإسلامية :

وفي حوالي سنة (١٤٠) أربعين ومائة هجرية سنة (٧٥٠) خمسين وسبعمائة ميلادية

طلعت منها شمس أشرقت بها ربوع العرفان، ثمّ غربت تلك الشّمس السّاطعة في أحضان الأمّ الحنون الّتي منها بزغت، وضمّت رفاته سنة (١٨٠) ثمانين و مائة هجريّة سنة (٧٩٦) ستّ و تسعين و سبعمائة ميلاديّة، شابّا لم يكتهل، بعد أن ترك شعاعا يمدّنا بمعارف جمّة تترجم الفخر والخلود.

ألا وهو «أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر»، الملقّب «سيبويه»، الّذي من معانيه «رائحة التفاح»، فتأرّجت هذه الرّائحة الذّكيّة على مسمع الدّهر، و أفواه الزّمن حتّى يوم النّاس هذا.

وصار «كأنّه علم في رأسه نار».

واذا اعتبر قادة الفكر «أبا نصر الفارابي» المعلم الثّاني في الفلسفة، والرّياضيّات، والطبعيّات، وغيرها فإنّ «سيبويه» يعتبر المعلّم الأوّل للعلوم العربيّة، ومالك زمام الأدب، وملك علوم العربيّة، إذ هو بحقّ أوّل من أرسى قواعد الإعراب بين دفّتي كتابه الفذّ، وأبتدع فلسفة حول الكلام العربي، وتراكيبه، واشتقاقاته، وتصرّفاته، ومقاييسه، وقوانينه، وصيغ أمثاله، فهو أيضا حامل رايات، وصاحب آيات، كما أنّه شارك في عدّة علوم خصوصا في علم اللّغة والحديث.

فقد قال فيه العلّامة «الزّجّاج»: «إذا ما تأمّلت الأمثال من «كتاب سيبويه» تبيّنت أنّه أعلم النّاس في اللّغة»، وكذا قيل عنه في علم الحديث.

وقال بعض العلماء في «سيبويه» لقد تعلّق من كلّ علم بسبب، وضرب في الأدب بسهم مع حداثة سنّه وبراعته في النّحو.

ونعته المؤرّخون بأنّه كان شابّا لطيفا نظيفا في غاية من الجمال، وكان إذا جاء إلى مجلس «الخليل» وناهيك بـ «الخليل» علما و فضلا وعلوّا أقبل عليه قائلا: «أهلا بزائر لا يُملّ»، لأنّه كان كثيرا ما يغشاه ولأنه شيخه واستاذه.

آثاره:

«إنّ النّفيس نفيس حيثما كانا». «و ما المرء إلّا ذكره ومآثره»

والأموات هم الّذين لم يتركوا أثرا ونحن إذ نحتفل بذكرى هذا الطّود الشّامخ والجبل الرّاسى الرّابض في جنبات «مدينة البيضاء» فإنّما نعيد إلى الأذهان ذكرى عظيم من عظماء اللّغة والإسلام .

(فالذّكر للإنسان عمر ثاني)

كما يتجسّد هذا التّراث والأثر فيما انتجه ذلك الفكر الجبّار ، وأثره الخالد في كتابه الّذى اتّسم بـ«الكتاب» الّذى صار «علماً بالغلبة» فمتى أطلق انصرف إليه .

أجل إنّ الدّراسة لشخصيّة استاذنا إمام النّحاة ، ودراسة كتابه المنقطع النّظير ، أمر مفروغ منه ، ومستفيض وكثير ، كما انّ هذا الظّرف الّذى نقيم فيه الإحتفال لا يمكننا من الإفاضة في القول ، وإن كان مجال القول ذاسعة ، ويكفي في الإشارة بهذا العبقري أن نقتطف من أقوال فطاحل العلماء وما سجّله أرباب الأقلام المعاصرون فإنّها الشّهادة الحقّ العادلة «وما من رأى كمن سمعا» .

قال «الجاحظ ، عمرو بن بحر» في كتاب «سيبويه» و«الجاحظ» هو من هو :
« لم يكتب النّاس كتاباً مثله وجميع كتب النّاس عليه عالة » .

وقال «ثعلب» : « أجتمع على صنعة كتاب سيبويه أربعون انسانا » .

وقال « ابن القِفطي» ناقلا عن مشائخه «كتاب سيبويه لم يسبق اليه أحد» .

وقال «المبرِّد» لمن يريد يقرأ عليه «كتاب سيبويه » : « هل ركبت البحر تعظيما له واستصعابا لِما فيه » .

و قال « المدني » : « من أراد أن يعمل كتاباً كبيراً في النّحو بعد « سيبويه » فليستحي » .

وقال بعض العلماء لقد تخرّق في كمّ «المازني» بضع عشر مرّة لكثرة ما يحمله معه وحرصا عليه وضنّا به وحبّا له .

كما تنافس في اقتنائه الكبراء والرؤساء فمن دونهم ، فقد روى « الجاحظ » : «أنّه أراد الشّخوص إلى «محمد بن عبدالملك الزيّات» ، وزير «المعتصم» ، ففكّر في شيء يهديه له فلم يجد شيئا أشرف من « كتاب سيبويه» فقال له: لم أجد شيئا أهديك مثل هذا الكتاب

وقد اشتريته من ميراث «الفرّاء» فقال «ابن الزّيات»: والله ما أهديت شيئاً أحبّ أليّ منه». وقرأ «الأخفش» «كتاب سيبويه» على «الكسائي» فوهب له سبعين دينارا.

ولقد بذل «أحد اليهود» للإمام «المازني» ألف دينار ليقرأه «كتاب سيبويه» فأبى عليه وامتنع فأبدله الله أضعاف ما بذله اليهودي والقصّة مشهورة.

محنته

التّنافس وحبّ الذات أمر طبع عليه البشر وكثيرا ما يمنى بالحسّاد والمنافسون ذو العبقريّة والمتفرّدون بالسّؤدد، و«سيبويه» قدمني بالكيد، والحسد، من أقرانه ومنافسيه، فحين وفد إلى «بغداد» وبلغ «يحيى بن خالد البرمكي» قدومه لويراه أويسمع كلامه فلم ير في الإجتماع به غير أن يعقد مجلسا يجمع بينه و بين «الكسائي» و أعرابه، وكان «الكسائي» في مكانة عالية من الدّولة فهو شيخ «مدينة السّلام» وقارئها ومؤدّب «أمير المؤمنين هارون الرّشيد» و بنيه «المأمون» و «الأمين» فعقد المجلس و نوقش فيه المسئلة النّحويّة المشهورة: «قد كنت أظنّ انّ الزّنبور أشدّ لسعة من العقرب، فإذا هو هي، أو فإذا هو إيّاها» فأصرّ «سيبويه» على رأيه وهو: «فإذا هو هي» وأصرّ «الكسائي» على رأيه: «فإذا هو إيّاها» فطُلبَ بينهما حكَمٌ من الأعراب فأغروا بالأصفر الرّنّان، وأوعز إليهم المكانة «الكسائي» و منزلته لدى الدّولة، فأمالوا دفّة الحكم على «سيبويه» فحاول «سيبويه» جاهدا بطريقة منطقيّة إقناع خصومه فلم يفلح، فعاد ادراجه مهيض الجناح، فكان سبب اعتلاله كما قيل، فإن ظلموه فلم يظلمه التّاريخ وهو اليوم في القمّة نحتفل بذكراه.

هذه بعض جوانب من عظمة «سيبويه» وعبقريّته.

هذا غيض من فيض وقلّ من كثر و قطرة من مطرة في إحياء ذكرى علم من أعلام الإسلام وعظيم من عظماء « ايران » فرحم الله إمام النّحاة وبرّد مضجعه وجزاه عن اللّغة العربيّة وعن الإسلام والمسلمين أعظم الجزاء .

آمين آمين لا أرضى بواحدة

حتّى أضيف إليها ألف آمينا

ورحم الله الإمام « محمود الزّمَخْشري » حيث قال :

ألا صَلّى الإلهُ صلاةَ صِدْقٍ

على عَمْرو بنِ عثمان بن قَنْبَرْ

فإنّ كتابَه لم يغن عنه

بنو قَلَمٍ ولا أبناءُ مِنْبَرْ

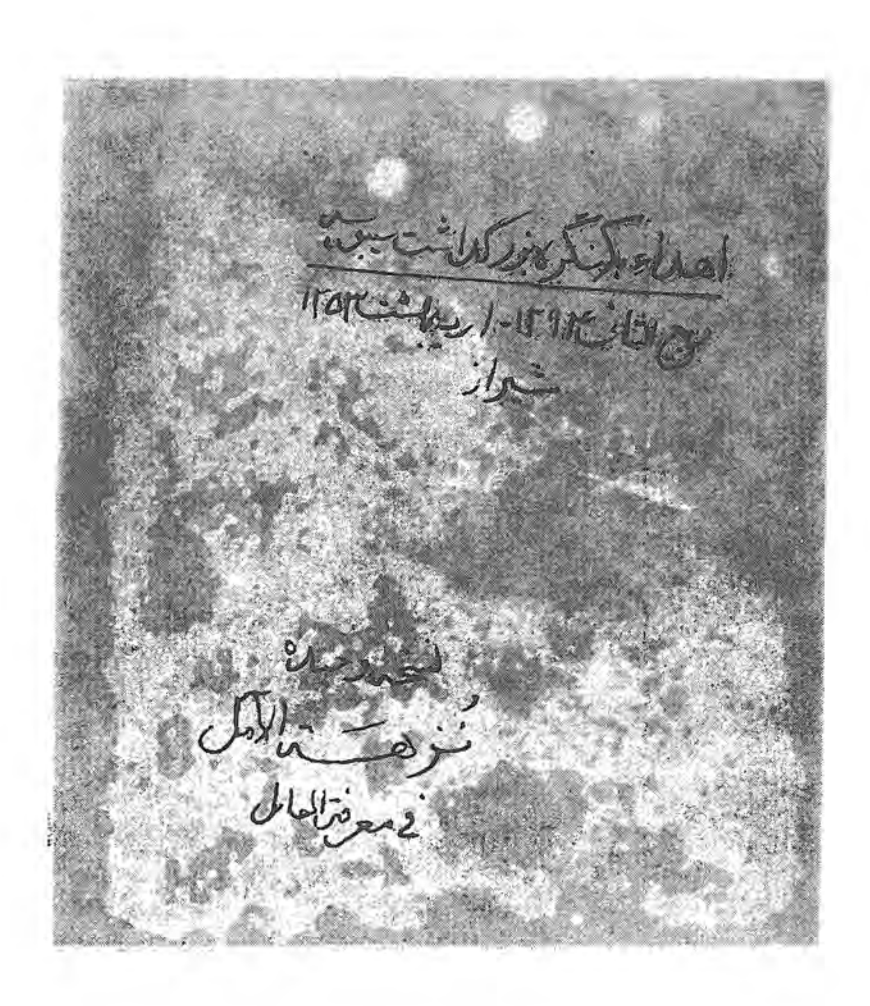
١٩

محمد علي بن محمد هاشم الرّوضاتي
(اصفهان)

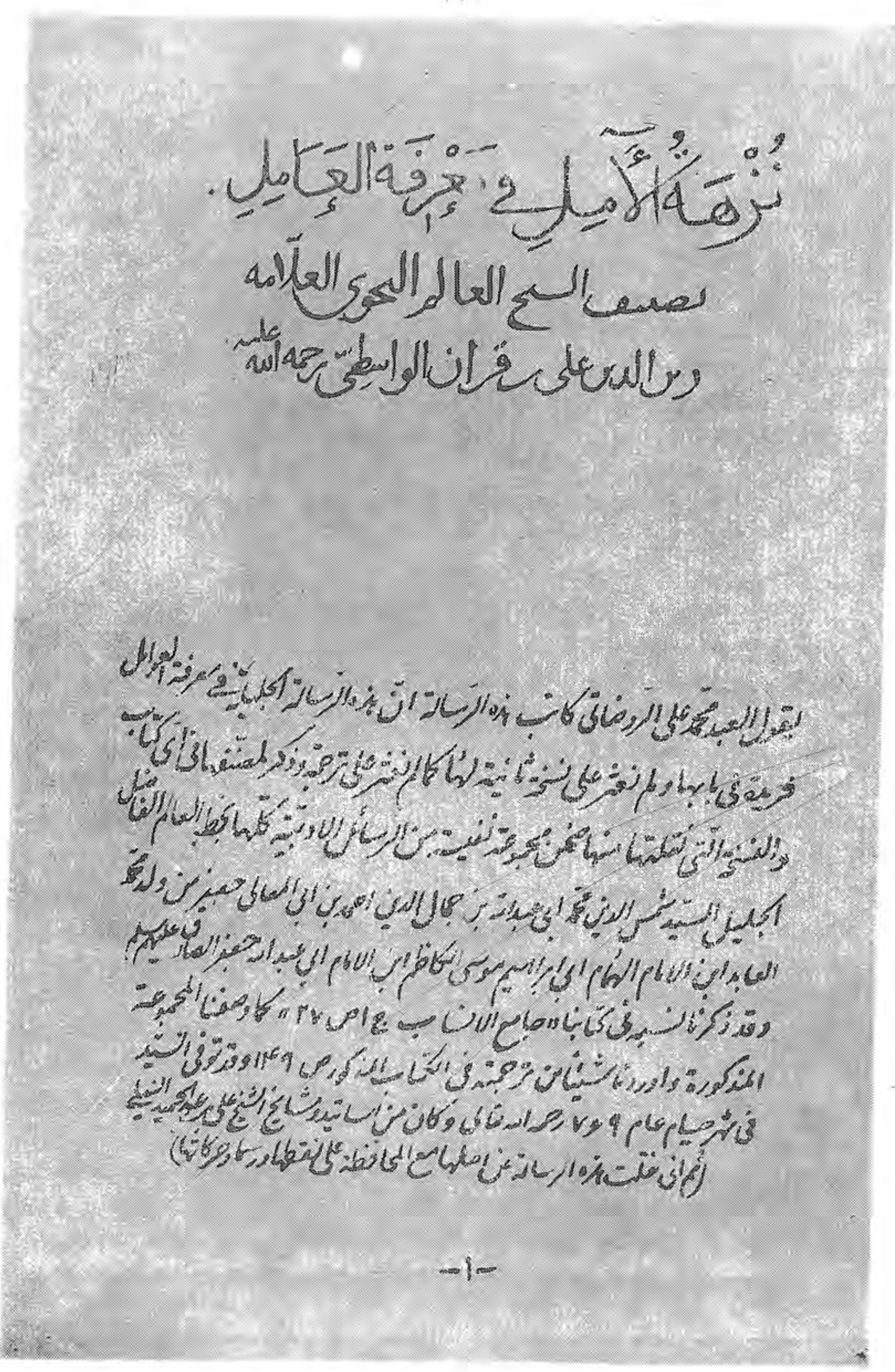
أهدى السّيّد الرّوضاتي إلى المؤتمر :

رسالة « نُزهة الآمل في معرفة العامل » لـ« الشّيخ زين الدّين الواسطي النّحوي » و يقول الأستاذ الرّوضاتي في شأن هذه الرّسالة و مؤلّفها : فريدة في بابها ولم نعثر على نسخة ثانية لها كما لم نعثر على ترجمة وذكر لمصنّفها في أيّ كتاب » . وهذه الرّسالة بخطّ الأستاذ الرّوضاتي ، استنسخها من أصل كُتب في سنة « إحدى و ثلاثين و سبع مائة » و نحن نطبعها هنا بالتّصوير لاستفاده القرّاء الكرام .

احمد افشارشيرازى



facebook: @jsatl.shiraz

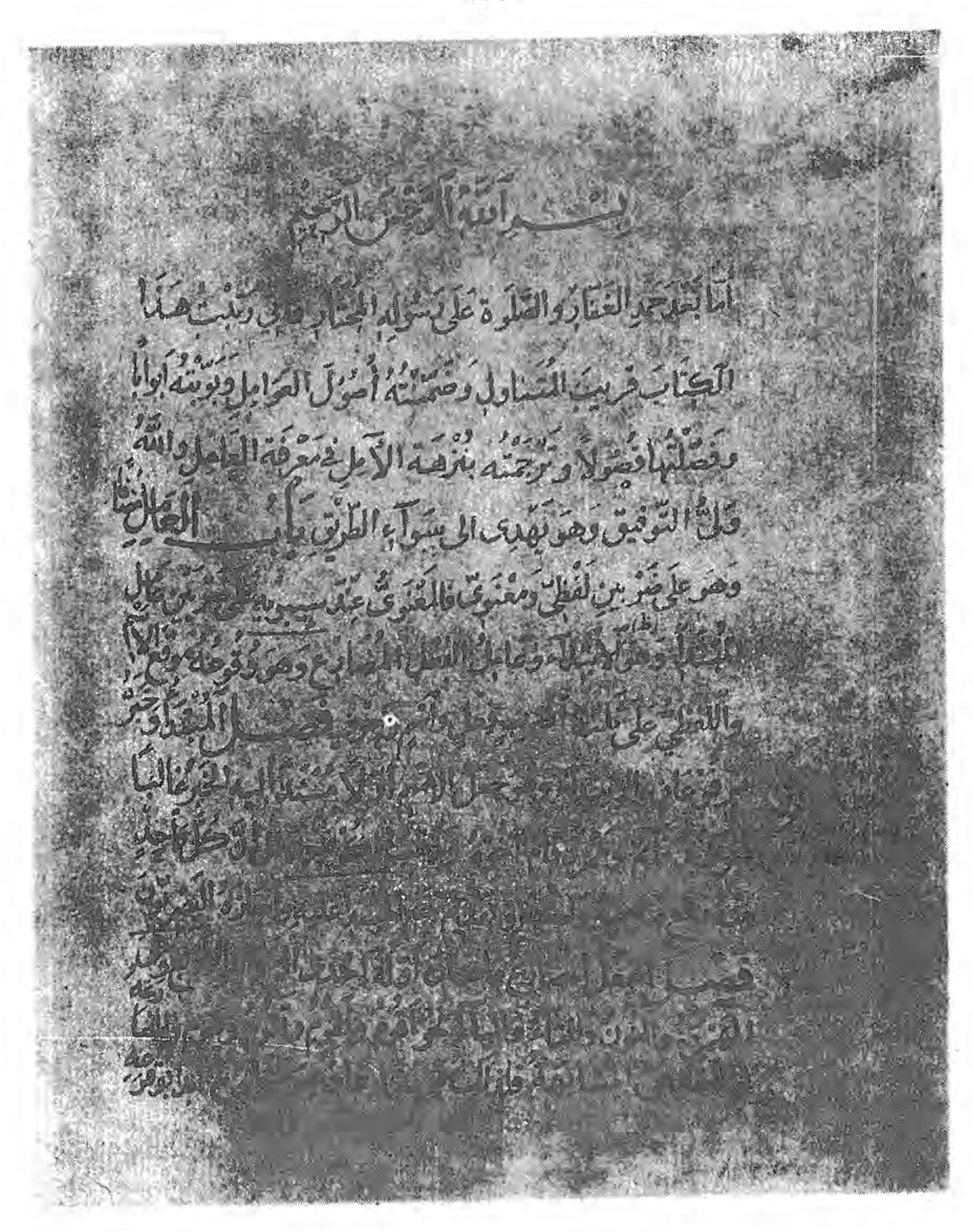


نزهة الآمل في معرفة العامل

تصنيف الشيخ العالم النحوي العلامة
زين الدين علي سفران الواسطي رحمة الله عليه

يقول العبد محمد علي الروضاتي كاتب هذه الرسالة ان هذه الرسالة الجليلة في معرفة العوامل فريدة في بابها ولم نعثر على نسخة ثانية لها كما لم نعثر على ترجمة ولا ذكر لمصنفها في اي كتاب في الفن والنسخة التي نقلتها منها ضمن مجموعة نفيسة من الرسائل الادبية كلها بخط العالم الفاضل الجليل السيد شمس الدين محمد ابي عبد الله بن جمال الدين احمد بن ابي المعالي جعفر من ولد محمد العابد ابن الامام الهمام ابي ابراهيم موسى الكاظم ابن الامام ابي عبد الله جعفر الصادق عليهم السلام وقد ذكرنا السيد في كتابنا جامع الانساب ج ١ ص ٢٧ ، كما وصفنا المجموعة المذكورة واوردنا شيئاً من ترجمته في الكتاب المذكور ص ١٤٩ وقد توفي السيد في شهر صيام عام ٧٠٩ رحمه الله تعالى وكان من اساتيد مشايخ الشيخ علي بن عبد الحميد النيلي (ثم اني نقلت هذه الرسالة عن اصلها مع المحافظة على لفظها ورسم كتابتها)

-١-



بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد حمد الغفار والصلوة على رسوله المختار فاني رتبت هذا
الكتاب قريب المتناول وضمنته أصول العوامل وبوبته أبوابا
وفصلتها فصولا وترجمته بنزهة الأمل في معرفة العامل والله
ولي التوفيق وهو يهدي الى سواء الطريق باب العامل
وهو على ضربين لفظي ومعنوي فالمعنوي عند سيبويه على ضربين عامل
المبتدأ وهو الابتداء وعامل الفعل المضارع وهو وقوعه موقع الاسم
واللفظي على [illegible] فصل المبتدأ وخبره
[illegible]

موقع الاسم حتى يدخل عليه ما ينصبه او يجزمه وذهب الكسائي
الى انه مرفوع بحرف المضارعة وفيه نظر باب
العامل فعلاً وهو على ضربين تام وناقص فالتام ما دل على حدث
وزمان غالباً والناقص ما دل على زمان عار من الحدث غالباً فصل
الفعل التام على ضربين لازم ومتعد فاللازم يتعدى باحد ستة
اشياء بالهمزة نحو خرج زيد واخرجته والتضعيف نحو فرح زيد
وفرحته وحرف الجر نحو مررت بزيد وواو مع نحو استوى
الماء والخشبة والا في الاستثناء نحو قام القوم الا زيداً والحركة
نحو قبح زيد وقبحه الله والمتعدي على ثلثة اضرب متعد الى
مفعول واحد نحو ضربت زيداً ومتعد الى مفعولين وهو على ضربين
احدهما يجوز الاقتصار على احدهما نحو اعطيت زيداً درهماً والثاني
لا يجوز الاقتصار على احدهما نحو اعطيت زيداً درهما والثاني لا يجوز
الاقتصار على احدهما ويجوز عنهما عند سيبويه نحو ظننت زيداً قائماً
وكذلك اخواتها وهي حسبت وخلت وزعمت ورأيت ووجدت وعلمت
ومتعد الى ثلثة مفعولين نحو اعلم الله زيداً عمراً خير الناس
وكذلك اريت وانبأت ونبأت واخبرت وخبرت وحدثت ومن
الافعال التامة فعل ما لم يسم فاعله وهو ان تضم اوله غالباً ويكسر
ما قبل آخره لفظاً وتقديراً ان كان ماضياً او يضم اوله ويفتح

ما قبل آخره غالباً ان كان مضارعاً نحو ضُرِب يُضرَب ولا يبنى الفعل
للمفعول الا اذا كان متعدياً **فصل** الفعل الناقص على ضربين
متصرف وجامد فالمتصرف اثنا عشر فعلاً تدخل على المبتدأ والخبر
فترفع المبتدأ ويسمى اسمها وتنصب الخبر ويسمى خبرها وهي كان
وصار وأصبح وأمسى وظل وبات وأضحى وما دام وما انفك وما
فتئ وما برح وما زال تقول كان زيد قائماً وكذلك اخواتها ويجوز
تقديم اخبارها على اسمائها وعليها انفسها الا ما في أوله ما وأجازه
ابن كيسان خلا ما دام والجامد ستة افعال ليس وهي من أخوات
كان وعسى ونعم وبئس وحبذا وفعل التعجب فليس قد تقدم ذكرها
وعسى من افعال المقاربة ترفع الاسم وتنصب الخبر ولا يكون خبرها
الا أن وفعلاً مستقبلاً في الاختيار نحو عسى زيد أن يقوم والتقدير
قارب زيد القيام وقد تكون تامة فلا تفتقر الى خبر نحو قوله تعالى
وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وخبر اخواتها فعل مستقبل
بغير أن وقد تأتي بأن حملاً عليها وهي سبعة كاد وكرب وأوشك
وأنشأ وطفق وأخذ وجعل ونعم وبئس فعلا المدح والذم ولا يكون
فاعلاهما الا اسمين معرفين باللام غالباً تعريف الجنس المضاف الى
ذي اللام حكمه نحو نعم الرجل زيد وبئس واهل العشيرة بكر
والمقصود بالمدح او الذم مرفوع بالابتداء وما قبله من الفعل والفاعل

خبره وقد يضمر الفاعل فيهما ويفسر بنكرة منصوبة على التمييز
نحو نعم رجلاً زيد وبئس غلاماً بكر وحبذا معناه المدح وتقريب
المذكور من القلب وهو فعل تركب مع فاعله وصار بمنزلة اسم
مرفوع بالابتداء وما بعده الخبر نحو حبذا زيد رجلاً وحبذا عمرو
راكباً فالنكرة المنصوبة بعده ان كانت جامدة تمييز والا
فهي حال ولا يكون المقصود بالمحبة الا معرفة او نكرة مختصة
وفعلا التعجب ما افعله وافعل به تقول ما احسن زيداً واحسن
به فما مرفوعة بالابتداء واحسن خبرها وزيداً منصوب على التعجب
وحقيقة نصبه بفعله الواقع عليه والتقدير شيء حسن زيداً
وهي موصولة عند الاخفش والخبر محذوف تقديره الذي احسن
زيداً شيء ولا يتعجب الا من فعل ثلاثي لازم يجوز فيه افعل
التفضيل فان كان غيره توصل اليه باشد وشبهه والباء في
قولنا احسن به زائدة وموضع به رفع بانه فاعل احسن ومنه و
قوله تعالى اسمع بهم وابصر

باب العامل اسماً

وهو لا يخلو من ان يعمل الرفع فقط او النصب فقط او الرفع والنصب
معاً او الجر فقط او الجر والنصب معاً او الجر والجزم معاً او الجزم
فقط

فصل العامل الذي يعمل الرفع فقط على ثمانية اضرب
احدها اسم الفاعل من الفعل اللازم غير مضاف ولا يعمل الا اذا

facebook: @jsatl.shiraz

كان بمعنى الحال او الاستقبال بشرط الاعتماد عند البصريين الا
الأخفش ومع الألف واللام على كل حال نحو مررت برجل قائم
أبوه الآن او غدا والثاني اسم المفعول من الفعل المتعدي الى مفعول
واحد غير مضاف وحكمه كحكم اسم الفاعل نحو قوله تعالى ذلك يوم مجموع
له الناس والثالث مصدر الفعل اللازم غير مضاف بشرط تقديره بأن
والفعل نحو عجبت من قيام زيد والرابع الصفة المشبهة باسم الفاعل
في أفراده وتثنيته وجمعه وتذكيره وتأنيثه غير مضافه وتعمل
في السبب دون الأجنبي بشرط الاعتماد وان يكون الحال متقدمة
على معمولها نحو مررت برجل حسن وجهه ولا ينتقض ذلك بقولهم
مررت برجل حسن وجها لانه تمييز والخامس أفعل التفضيل
ويعمل في المضمر دون المظهر الا ما شذ نحو قوله عليه السلام ما من
أيام أحب الى الله فيها الصوم منه في عشر ذي الحجة ونحو قولهم ما رأيت
رجلا أحسن في عينه الكحل منه في عين زيد ولا اعتداد بنصبه النكرة
على التمييز والسادس اسما الافعال اللازمة نحو صه ونزال
وشتان وهيهات والسابع الاسم المنسوب نحو مررت برجل هاشمي
أبوه وما أشبه ذلك والثامن الظرف اذا كان خبرا أو صفة أو صلة
أو حالا او معتمدا على حرف النفي او حرف الاستفهام نحو زيد في الدار
أخوه وكذلك ولا ينتقض ذلك بقولهم كل يوم لك ثوب لتساوي اللازم

أخواته !

والمتعدي في ذلك فصل العامل الذي يعمل النصب فقط على اربعة
اضرب احدها كل اسم عمل في نائبه بعد نقل مرفوعه اليه نحو زيد لك
عندك والقتال اليوم السبت والثاني كل اسم غير صفة مشبهة باسم
الفاعل في افراده وتثنيته وجمعه نحو عندي رطل عسلا ومنوان سمنا
وعشرون جارية في احجون القولين والثالث كل اسم تشبيه الثاني في ابهامه
نحو لله دره شجاعا وويحه رجلا وويل امه فارسا والرابع اسم الاشارة
ولا يعمل الا في الايجاب نحو هذا زيد قائما او ما اشبه ذلك فصل
العامل الذي يعمل الرفع والنصب معا على اربعة اضرب احدها اسم
الفاعل من الفعل المتعدي وشرطه اللازم نحو مررت برجل ضارب زيدا
والثاني اسم المفعول من الفعل المتعدي الى مفعولين او ثلثة وحكمه
كاسم الفاعل نحو هذا معطى درهما ومعلم عمرا عاقلا والثالث مصدر
الفعل المتعدي منونا نحو يعجبني ضرب زيد عمرا والرابع اسماء الافعال
المتعدية نحو نزال ومناع وعليك ودونك فصل العامل الذي
يعمل الجر فقط كل اسم مضاف نحو غلام زيد وثوب خز والاضافة
الحقيقية على ضربين بمعنى اللام وبمعنى من والفرق بينهما انها اذا كانت
بمعنى اللام يكون الاول غير الثاني واذا كان بمعنى من يصدق على
الاول اسم الثاني وقد تقدم تفسيرهما وشرط المضاف فيهما ان يكون
نكرة قبل الاضافة لا يجمع بين الاضافة والالف واللام غالبا



ولا بين احدهما والتنوين **فصل** العامل الذي يعمل الجر والنصب
معاً هو قولهم مررت برجل ضارب زيداً قائماً غير ان مجيء الحال من المضاف
اليه عزيز فان كان المضاف مشبهاً بالفعل كان حسناً **فصل** العامل
الذي يعمل الجر والجزم معاً او الجزم فقط فسنذكره في الضرب الثاني مما
يعمل الجزم **باب** العامل حرفاً وهو لا يخلو من ان يعمل
الرفع فقط او النصب فقط او الرفع والنصب معاً او الجر فقط او الجر والنصب
معاً او الجزم فقط **فصل** العامل الذي يعمل الرفع فقط لولا
الامتناع عند الفراء وحجته انها تختص بالاسم فقياسها ان تعمل
وكان عملها الرفع حملاً على معناها فانا قلت لولا زيد لهلك عمرو
وكان المعنى امتنع عمرو من الهلاك بوجود زيد وذهب البصريون
الى ان الاسم الواقع بعد لولا هذه مرفوع بالابتداء ولا خبر له ظاهر
استغناء بما في لولا من دلالة معناها ومفهوم لفظها عليه وقال
بعضهم لان طول الكلام بالجواب سد مسد الخبر وفيه تسامح
فصل العامل الذي يعمل النصب فقط على ضربين احدهما العمل
في الاسماء وهي حروف النداء عند ابي علي وابن جني ومن تبعهما وهي
خمسة عند البصريين يا وايا وهيا واي والالف والهمزة وهذه الحروف
تنصب النكرة والمضاف والمضارع للمضاف ويبنى بعدها الاسم العلم
والنكرة المقصودة على ما يرفعان به نحو يا رجلاً ويا عبد الله ويا راكباً فرساً

ويا زيد ويا زيدان ويا زيدون ويا رجل وحكم حرف الندبة حكم
هذه الحروف إلا في النكرة والمبهم والحذف ونسب سيبويه العامل
إلى الفعل المتروك فإذا قلت يا رجلا كان تقديره أدعو رجلا وأنادي
رجلا فحذف الفعل وصار حرف النداء عوضا عن لفظه لفظا وتقديرا
ومما يعمل النصب فقط أحرف التنبيه نحو ها ولا يعمل إلا في الحال نحو
هذا زيد قائما وها قائما زيد والثاني ما يعمل في الأفعال وهو أربعة أحرف
أن بفتح الهمزة وسكون النون ولن وكي وإذن نحو أريد أن تقوم
ولن تذهب وجئت كي تكرمني وآتيك إذن أحسن إليك والعامل
لأن مضمرة بعد كي وأما لو دخل عليها لام الجر ولا تعمل إذن إلا
بشرط ألا يعتمد ما بعدها على ما قبلها ولا يقع بعدها فعل حال ولا
يفصل بينها وبين معمولها بغير القسم او الظرف وأن تكون جوابا
وقد تضمر أن بعد ستة أحرف فتنصب الفعل بعد الفاء جوابا
للأمر والنهي والنفي والاستفهام والدعاء والعرض والتمني والتحضيض
وبعد حتى وبعد واو الصرف وبعد أو بمعنى إلا وبعد لام كي وبعد
لام الجحود فالفاء نحو زرني فأكرمك ولا تطغوا فيه فيحل عليكم
غضبي وأين بيتك فأزورك وكذلك أخواتها وحتى نحو قوله تعالى
حتى يلج الجمل والواو نحو لا تأكل السمك وتشرب اللبن وأو نحو لألزمنه
أو يقضيني حقي ولام كي نحو جئت لتكرمني ولام الجحود نحو قوله تعالى ما كان

الله أيده المؤمنين **فصل** العامل الذي يعمل الرفع والنصب معاً على
ضربين أحدهما ما قدم مرفوعه على منصوبه وهو ما النافية عند أهل الحجاز
تشبيهاً بليس بشرط أن لا يتقدم خبرها على اسمها ولا يفصل بينها
وبين اسمها بغير ظرف ولا ينتقض النفي بإلا ولا لكن ولا بل نحو قوله
تعالى ما هذا بشراً وما هن أمهاتهم وبنو تميم لا يعملونها أشبهها بهل
وتشبه لا بليس ولا تعمل إلا في النكرة عند البصريين نحو لا رجل أفضل
منك والثاني ما قدم منصوبه على مرفوعه وهو ستة أحرف إن
وأن وكأن ولكن وليت ولعل وسمي المنصوب اسمها والمرفوع
خبرها نحو إن زيداً قائم وكذلك أخواتها ولا يجوز تقديم أخبارها
على أسمائها إلا أن يكون ظرفاً أو ما أشبهه ومعانيها مختلفة
فمعنى إن وأن التحقيق وكأن التشبيه ولكن الاستدراك وليت
التمني ولعل الترجي وتشبه لا بأن فتعمل عملها ما لم تفصل بينها وبين
اسمها ولا تعمل إلا في النكرة عامة ويبنى معها على ما ينصب به
نحو لا رجل في الدار وبنو تميم لا يثبتون لها خبراً فإن وقع بعدها
مضاف أو مضارع له نصبتها نحو لا غلام رجل في الدار ولا خيراً من
زيد عندك فإن كان اسمها مثنى نحو لا غلامين لك كان مبنياً
عند سيبويه معرباً عند المبرد **فصل** العامل الذي يعمل
الجر فقط حروف الجر وهي الباء ومن وإلى وعن وعلى وفي ورب وواو

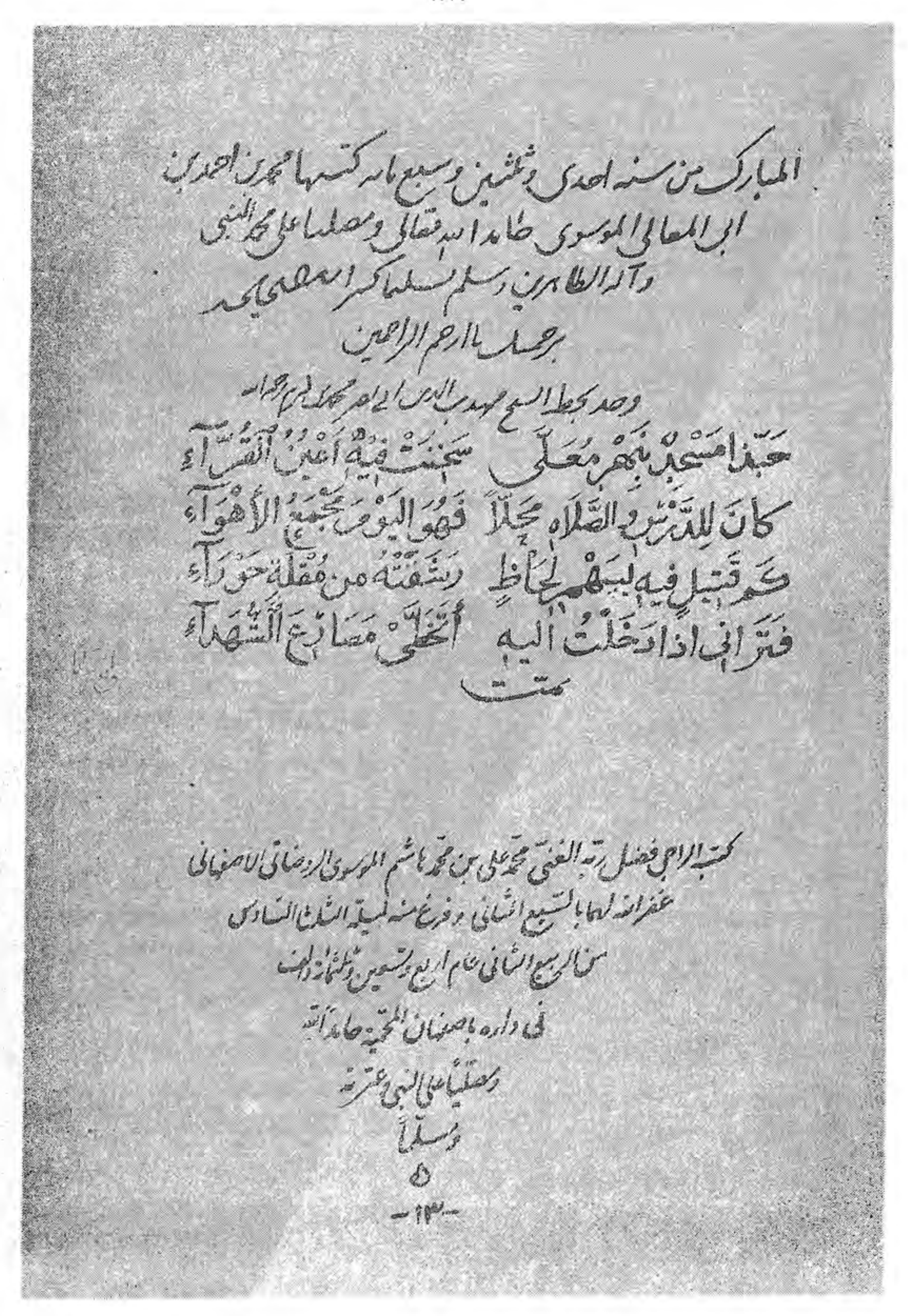
وفاؤها مجانا والباء واللام والكاف الزوائد وبا القسم وواوه وتاؤه
ومذ ومنذ فى احد القولين وحتى فى بعض اقسامها وحاشى وخلا
فى الاستثناء عند سيبويه وكذلك عدا عند الاخفش ولولا عند سيبويه
اذا اتصلت بالضماير الياء والكاف والهاء وكيمه عند البصريين
تقول عجبت من زيد ونظرت الى عمرو وانصرفت عن بكر ولا بد لهذه
الحروف من تعلق غالبا اما بموجود او ما هو فى حكم الموجود فالمحذوف
فى ستة مواضع كونه خبرا او صفة او صلة او حالا او مفعولا ثانيا
لافعال التراءى او واو القسم وتاؤه ومعانيها مختلفة فمعنى من
الابتداء وتكون تبعيضا وتبيينا للجنس وبدلية وزائدة فى غير الواجب
عند سيبويه ومعنى الى الانتهاء وتكون بمعنى الاضافة والاسناد
ومعنى فى الوعاء وتكون بمعنى على وبمعنى مع ومعنى رب التقليل
ولا تدخل الا على نكرة موصوفة غالبا ولها صدر الكلام وقد
تكون تكثيرا ومعنى الباء الالصاق وتكون استعانة وسببية
وظرفية وحالية وتعليلية ومعية وزائدة ومعنى اللام الملك
والتخصيص وتكون غرضا واستعانة ومتعجبة ومعنى الكاف التشبيه
وتكون زائدة ومعنى مذ ومنذ ابتداء الغاية فى الزمان ومعنى
حتى انتهاء الغاية وتكون بمعنى كى وبمعنى الى ان ومعنى حاشى
التنزيه ومعنى خلا المفارقة ومعنى عدا المجاوزة ومعنى لولا

[illegible]

facebook: @jsatl.shiraz

امتناع الشيء لوجود غيره وكيمه بمعنى لمه فصل العامل
الذي يعمل الجر والنصب معاً هو كاف التشبيه نحو جاءني الذي
كزيد قائماً وما أشبهه على أن تجعل قائماً حالاً من زيد فصل
العامل الذي يعمل الجزم فقط على ضربين أحدهما ما يعمل الجزم في
شيء واحد وهو ستة أحرف لم ولما ولام الأمر ولاء النهي
ولا في السؤال ولا في الدعاء نحو لم يقم زيد لما يقم ولا يقم ونحو
قوله تعالى ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ونحو قولك
لا يبعد زيد عن الخير والمعنى اللهم لا تبعده والثاني ما يعمل
الجزم في شيئين الشرط والجزاء وهو إن بكسر الهمزة وسكون
النون نحو إن تقم أقم معك وتشبه به أسماء وظروف فالأسماء
من وما وأي ومهما والظروف أين ومتى وأنى وحين وإذ ما عند
الأكثر وحيثما وأيان وأنى وكيفما عند الكوفيين وإذا في الشعر
تقول من تقم أقم معه ومهما تجلس أجلس وكذلك أخواتها ويجاب
الشرط بأحد ثلاثة أشياء بالفعل والفاء وإذا أما الفعل فنحو قوله تعالى
ومن يتق الله يجعل له مخرجاً وأما الفاء فنحو قوله تعالى ومن يتوكل
على الله فهو حسبه وأما إذا فنحو قوله تعالى وإن تصبهم سيئة بما
قدمت أيديهم إذا هم يقنطون والله تعالى أعلم تمت
النزهة بحمد الله تعالى [illegible] في يوم الخامس العشرين [illegible] من شهر رمضان

بلغ مقابلة



المبارک من سنة احدى وثمانين وسبع مائة كتبها محمد بن احمد بن
ابی المعالی الموسوی حامداً لله تعالی ومصلیاً علی محمد النبی
وآله الطاهرین وسلم تسلیماً کثیراً اللهم صل علی محمد
برحمتک یا ارحم الراحمین

وجد بخط الشيخ مهذب الدين ابي [illegible] رحمه الله

حَبَّذا مَسْجِدٌ بِنَهْرِ مُعَلّى ... سُجِنَتْ فِيهِ أعْيُنُ القُرّاءِ
كانَ لِلدَّرْسِ والصَّلاةِ مَحَلّاً ... فَهُوَ اليَوْمَ مَجْمَعُ الأهْواءِ
كَمْ قَتيلٍ فيهِ بِسَهْمِ لِحاظٍ ... رَشَقَتْهُ مِنْ مُقْلَةٍ حَوْراءِ
فَتَراني اذا دَخَلْتُ اليهِ ... أتَخَطّى مَصارِعَ الشُّهَداءِ

تمت

كتب الراجي فضل ربه الغني محمد علي بن محمد هاشم الموسوي الرضائي الاصفهاني
غفر الله لهما بالتسبيع الثاني وفرغ منه ليلة الثلاث السادس
من الربيع الثاني عام اربع وتسعين وثلثمائة والف
في داره باصفهان المحمية حماها الله
ومصليا على النبي وعترته
ومسلما
ه
- ١٣ -



ناصر الرّشيد (الدّكتور . . .)
(المملكة السّعوديّة)

بسم‌الله الرّحمن الرّحيم

نقد لِشواهد «سيبويه» عامّة و القرآنيّة خاصّة

نظرة في الشّواهد عند النّحاة :

حينما يريد النّحاة واللّغويون أن يوثّقوا رأيهم أو يدعموا حجّتهم في إرساء قاعدة نحويّة أو في منحى لغوي فإنّهم يعمدون إلى الإستشهاد بمصادر تقوي من مرئيّاتهم ، والمصادر المشهورة الّتي اعتمد عليها النّحاة واللّغويّون تستند على «القرآن» الكريم وأشعار العرب و أمثالهم و حكمهم و على أحاديث «رسول‌الله» صلّى‌الله عليه و سلّم على خلاف سنوضّحه في مكانه إن‌شاءالله فأسموها شواهد .

و أكثر هذه المصادر إثراء هوالشّعر العربي وما أكثره ، ولكنّ الآراء النّحويّة قد تكون أكثرمنه حينا عند ذلك يجدالنّحوي نفسه أمام أمر لاخيرة له‌به فيتعسّر عليه الشّاهد الشّعري فتلجئه الحيلة إلى ثلاثة أمور :

أوّلها : أن يصنع الشّاهد و خاصّة إذاكان النّحوي شاعرا أو ذاقدرة و موهبة تمكّنه من تزويق بيت من الشّعر يدعم به رأيه ، و «المبرّد» خير مثال لشوقه على ذلك فهو نحوي أديب و ذو موهبة شعريّة لاتتعثّر و له ظروف ألجأته إلى قول الشّعر و نسبته إلى غيره ممّن تصحّ الإستشهاد بشعرهم مدفوعا بإظهار تفوّقه اللّغوي من ناحية و ردع

facebook: @jsatl.shiraz

خصومه من ناحية أخرى ، حدّثوا أنّه ورد «الدّينور» زائرا لـ«عيسى بن ماهان» ، فأوّل مادخل عليه و قضى سلامه قال له «عيسى» : «أيّها الشيخ ! ماالشّاة المجثّمة الّتي نهى النّبي صلّى الله عليه و سلّم عن لحمها؟» فقال : «هي الشّاة القليلة اللّبن مثل اللّجبة» ، فقال : «هل من شاهد» ؟ فقال : «نعم قول الرّاجز» :

لم يبق من آل الحميد نسمة إلّا عنيز لجبة مُجثّمة

فإذا بالحاجب يستأذن لـ«أبي حنيفة الدّينوري» ، فلمّا دخل قال له : «أيّها الشيخ ! ماالشّاة المجثّمة الّتي نهينا عن أكل لحمها؟» فقال : «هي الّتي جثمت على ركبها وذبحت من خلف قفاها» . فقال : «كيف تقول وهذا شيخ العراق» - يعني «المبرّد» - يقول : «هي مثل اللجبة و هي القليلة اللّبن» ، فأنشده البيت ، فقال «الدّينوري» : أيمان البيعة تلزم «أباحنيفة» إن كان هذا التّفسير سمعه هذا الشّيخ أو قرأه ، و إن كان البيت إلّا لساعته هذه ! فقال «المبرّد» : صدق الشّيخ «أبوحنيفة» فإنّني أنفت أن أردّ عليك من «العراق» و ذكري ماقد شاع فأوّل ماتسألني عنه لاأعرفه» (1) .

ونظير هذا ماحدّث به «المفجع البصري» قال : «كان «المُبرّد» لعظم حفظه اللّغة و اتّساعه يتّهم ، فتوافقنا على مسألة لا أصل لها نسأله عنها ، لننظر كيف يجيب ، وكنّا قبل ذلك تمارينا في عروض بيت الشّاعر :

أبا منذرٍ أفنيت فاستبق بعضنا
حنانيك بعض الشّر أهون من بعض»

فقال قوم : هو من البحر الفلاني ، وقال آخرون : هو من البحر الفلاني ، فقطعناه ، و تردّد على أفواهنا تقطيعه ومنه «قبل بعضنا» فقلت له : «أيّدك الله تعالى ! ماالقبعض عند العرب ؟» فقال : «القطن» يصدّق ذلك قول الشّاعر :

كأنّ سنامها حشي القبعضا »

قال : « فقلت لأصحابه : ترون الجواب و الشّاهد ، إن كان صحيحا فهو عجيب ،

---

(1) «معجم الادّباء» ١٢٦/١ .

و إن كان اختلق الجواب في الحال فهو أعجب»[١].

ثانيها : تزويق الشّاهد و ذلك بأن يطلب من شاعر مشهور فصيح يحتجّ بشعره أنْ يقول شعرا يؤيّد قاعدته النّحويّة أو رأيه اللّغوي، ولقد عرف «رُؤْبَة بن العجّاج» الرّاجز الشّاعر البدوى الفصيح بتزويق شواهد لغويّة ونحويّة للنّحوي البصري «يونس بن حبيب» وكان «رُؤْبَة» من أصفياء «يونس» وكان يطلب منه أن يقول شعرا يثبت به رأيه فيجيبه إلى ما يريد إلّا أنّ «رُؤْبَة» مع تقدّم السّن استيقظ ضميره و عرف جسامة ما يرتكب إرضاء لصديقه النّحوي فقال مزجرا في وجهه ذات يوم : «حتّى متى تسألني عن هذه الأباطيل و أزوّقها لك ! أما ترى الشّيب قد بلغ في رأسك و لحيتك»[٢] و في رواية أخرى : «حتّام تسألني عن هذه الخزعبلات و أزخرفها ! أما ترى الشّيب قد بلغ في لحيتك»[٣].

ثالثها : تصحيف الشّاهد الشّعرى حتّى تستقيم حجّيّته له على ما يرى، و أمثال ذلك كثيرة، و لقد صحّف الكوفيّون - على ما يرى «الأخفش» - بيتا من الشّعر ليستشهد على حذف حرف الجرّ بينما الفعل لا يتعدّى إلّا به (ويسمّى نزع الخافض) و هو :

تمرّون الدّيار و لم تعوجوا　　　　كلامكم على أذن حرام

و رواية بعضهم له «أ تمضون الدّيار» و يقول «الأخفش» عن هاتين الرّوايتين : «ليسا بشيء» والسّماع الصحيح، والقياس المطّرد لا تعترض عليه الرّواية الشّاذة . أخبرنا «أبو العباس محمّد بن يزيد» قال : قرأت على «عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير» :

مررتم بالدّيار و لم تعوجوا

فهذا يدلّك على أن الرّواية مغيّرة[٤].

---

(١) «نزهة الألبّاء» : ٢٢٠/ .

(٢) «الشّعر و الشّعراء» : ٥٩٥/٢ .

(٣) «نزهة الألبّاء» : ٥٠/ .

(٤) «الكامل للمبرّد» : ٢٣/١ ، ٢٤ .

ورغم أنّ «الأخفش» يتّهم «الكوفيّون» بتصحيف الشّاهد ليكون حجّة لهم فهو نفسه يفعل نفس الشّيء فيحمل بيت «رُؤْبَة» مالايحتمله ليثبت مايسمّيه بالتنوين الغالى وهوالّذى يلحق القوافى المقيّدة فيرويه هكذا :

و قاتم الأعماق خاوي المخترَقِنْ

بإلحاق التّنوين «القاف» ؛ و أحسب انّ هذا قسر للبيت مختلق إذ أنّ القصيدة تلزم رويّاً واحدا وهي القاف السّاكنة من دون تنوين كما في شعر «رُؤْبَة»[٢] ومثل هذا يقال عن شاهدي تنوين التّرنّم وهوالّذى يلحق القوافى المطلقة وهما بيت «جرير»[٣] :

أقِلّي اللّومَ عاذِلَ والعِتابَن	وقولي إن أصَبْتُ لقد أصابن

و بيت «النّابغة الذّبياني» :[٤]

أزفَ التّرحُّلُ غيرأنّ ركابنا	لمّا تزُل برحالنا وكأنْ قدن

و حينما نرجع الى بقيّة أبيات قصيدة «جرير» في ديوانه و في غيره من أمّهات الكتب نجد أن بقيّة أبياتها تسير على قافية «الباء» المحدودة فتروى :[٥]

أقِلّي اللّومَ عاذِلَ و العتابا	وقولي إن أصبتُ لَقَدْ أصابا

و منها مثلا البيتان المشهوران :

فغُضّ الطرفَ انّكَ من نُمَيْرٍ	فلا كعبا بلغتَ و لا كِلابا
إذا غَضِبتْ عليكَ بنو تميمٍ	حَسِبتَ النّاسَ كُلّهمُ غِضابا

أمّا بيت «النّابغة» فيقال فيه ما يُقال في بيت «جرير» إذ أنّ القصيدة في ديوانه تسير على قافية الدّال المكسورة فتروى :[٦]

---

(١) «شرح ابن عقيل» : ٢٠/١ .

(٢) «الأغاني» : ٣١٧/٢٠ .

(٣) «شرح ابن عقيل» : ١٨/١ ، ١٩ .

(٤) «شرح ابن عقيل» : ١٨/١ ، ١٩ .

(٥) «ديوان جرير» : /٥٨ .

(٦) «ديوان النّابغة» : /٣٠ ، «الأغاني» : ٨/١١ .

أزفَ التّرحُّلُ غير أنّ ركابَنا   لمّا تَزُلْ برحالنا و كأنْ قَدِ

و مطلعها :

أمِنْ «آلِ ميّةَ» رائحٌ أومُغْتدي   عَجلانَ ذا زادٍ و غيرَ مزوّدِ

وقد يورد الشّاهد لدعم قاعدة نحويّة أو رأي لغوي بينما هو في الحقيقة لضرورة شعريّة اقتضاها الوزن أو تطلّبتها القافية وقد تنبّه لذلك «ابن قُتَيْبَة» فأثبت أبياتا استشهد بها النّحاة بينما هي في الواقع ضرورات شعريّة يقول : (١) « . . . وكقول «الفَرَزْدَق» :

و عضّ زمان يا«ابن مروان» لم يَدَع

من المال إلّا مسحتا أو مجلّف

فرفع آخر البيت ضرورة و أتعب أهل الإعراب في طلب العلّة فقالوا و أكثروا ، و لم يأتوا بشيء يرضي ، ومن ذاالّذى يخفي عليه من أهل النّظر أنّ كلّ ما أتوا به من العلل احتيال و تمويه ؟ وقد سأل «الفرزدق» عن رفعه إيّاه فشتمه و قال :

«عليّ أنْ أقول و عليكم أنْ تحتجّوا »

وقد يضطرّ الشّاعر فيسكّن ماكان ينبغي (له) أن يحرّكه كقول «لَبيد» :

تَراك أمكنة إذا لم أرضها   أو يعتلق بعض النّفوس حمامها

يريد أترك المكان الّذى لاأرضاه إلى أن أموت ، لازال أفعل ذلك و « أو » هنا بمنزلة « حتّى » ، . . . وكذلك قوله :

من كان لا يزعم أنّي شاعر   فيدن منّي تنهه المزاجر

إنّما هو «فليدن منّي و به يصحّ أيضا وزن الشّعر . . . » . والقافية أحيانا تضطرّ الشّاعر إلى أن يخرج عن القاعدة النّحويّة المعروفة كـ«طَرَفَة» حين يقول : (٢)

يالَكِ مِن قُبّرةٍ بمَعْمَرِ   خَلالكِ الجوُّ فبيضي واصفِري

قَد رُفع الفخُّ ، فما ذا تَحذَري

---

(١) «الشّعر و الشّعراء» : ٩٨/١ ، ٩٩ .

(٢) «ديوان طَرَفَة» : ٤٦ «بيروت» ١٣٨٠ .

استشهد به بعض النّحاة على حذف « النّون » من المضارع الّذى لحقته « ياء » المخاطبة دون جزم أو نصب وعندى أنّ هذه الضّرورات الّتى تحتمها القافية أو يفرضها الوزن فيشذّ الشّاعر عن القاعدة النّحويّة المعروفة لاتعدّ شاهدا نحويّا بقدر ما هي شاهد عروضي يدخل تحت الضّرورات الشّعريّة أو عيوب القافية كما يعرف ذلك أهل الإختصاص .

و لـ«ابن ولاّد» رأي في مثل هذا الشّاهد يتجلّى في ردّه على «المبرّد»: (و إذا) كانت العرب غير مدفوعة عمّا تقوله مضطرّة بالوزن أو غير مضطرّة فعلى النّحوي أن ينظر في علّته و قياسه فإنْ وافق قياسه و إلّا رواه على أنّه شاذّ عن القياس ولم يكن للإحتجاج بالضّرورة و غيره معنى إذا كان النّاقل ثقة [1] .

شواهد «سيبويه» الشّعريّة: اعتني العلماء منذ أن تنفّس «كتاب سيبويه» بدراسة شواهده و نسبتها إلى قائليها و إحصائها ومن هؤلاء «أبو جعفر النّحاس» في كتابه «شرح ابيات الكتاب» و «الاعلم الشّنتمري» و «ابن خلف» و «أبو محمد الأعرابي» في كتابه «فرحة الأديب» و غيرهم [2] و عكف «الجرمي» على إحصاء «شواهد سيبويه» و نسبتها إلى قائليه فانتهي به بحثه إلى أنْ قال قولته المشهورة: «نظرت في «كتاب سيبويه» فإذا فيه ألف وخمسون بيتا ، فأمّا الألف فقد عرفت أسماء قائليها فأثبتّها ، و أمّا الخمسون فلم أعرف أسماء قائليها » [3] .

وممّا يلفت النّظر أنّ الأوائل من النّحاة والدّارسين تلقّوا كلّ شيء استشهد به «سيبويه» بالإطمئنان والتّوثيق ماعدا بعض تساؤلات وردود أثارها «المبرّد» ولم ينكروا عليه أنّه أتي بشعر منكر ، و وصلت بهم درجة اطمئنانهم إلى «سيبويه» أنّه «روى في كتابه قطعة من اللّغة غريبة لم يدرك أهل اللّغة معرفة جميع مافيها ولاردّوا حرفا منها» [4] .

---

(١) من كتاب «الإنتصار» لـ«ابن ولاّد» (تعليقات « عظيمة على المقتضب » : ٩١/٤) .

(٢) «الخزانة» : ٣١/١ .

(٣) نفس المصدر والجزء ٢٩ .

(٤) نفس المصدر والجزء والصّفحة .

و العلماء قد وضعوا مقاييس و معايير للشّاهد الّذی یحتجّ به و من هذه المعایير ذلك الّذی صرّح به «ابن الأنباري» : « أنّه لایجوز الإحتجاج بشعر أو نثر لایعرف قائله »[1] .

ولهم في الإحتجاج بالشّاعر ذي البیت الواحد وبالشّطر من الشّعر الّذی لایعرف تتمّة عجزه أوصدره أوقائله كلام طويل نوجزه بإشارة خاطفة من قول «ابن النّحاس» في «التّعلیقة »[2] : «أجاز الكوفیّون إظهار «أن» بعد « كي »واستشهدوا بقول الشّاعر :

أردت لكيما أنْ تطير بقربتي　　　فتتركها شنّاً ببيداء بلقعِ

قال : والجواب أنّ هذا البيت لایعرف قائله و لو عرف لجاز أن يكون (من) ضرورة (الشّعر) » وقال أيضا: « ذهب الكوفیّون إلى جواز دخول اللّام في خبر لكنّ واحتجّوا بقوله :

ولكنّني من حبّها لَعَميدُ

والجواب أنّ هذا البيت لایعرف قائله ولا أوّله، ولم يذكر منه إلّا هذا ، ولم ينشده أحد ممّن وثق في اللّغة ولاعزى إلى مشهور بالضّبط والإتقان» .

ولكنّ العلماء حينما يأتون إلى «شواهد سیبویه» لایحاولون أنْ يمسّوها بسوء و إنّما يبحثون له عن مبرّرات هي ثقتهم المطلقة لـ«سیبویه» ، يقول «البغدادي» في « خزانته» مستنبطا ـ بعد استعراض أقوال لغيره ـ رأيا في الشّاهد إذا كان لایعرف قائله أوشطره[3] : « ويؤخذ من هذا أنّ الشّاهد المجهول قائله و تتمّته إنْ صدر من ثقة يعتمد عليه قبل و إلّا فلا. ولهذا كانت «أبيات سیبویه» أصحّ الشّواهد إعتمد عليها خلف بعد سلف ، مع أنّ فيها أبياتا عديدة جهل قائلوها وماعيب بها ناقلوها» .

و مهما يكن من أمر ، فإنّ لـ«سیبویه » هنات یجب أن ننوّه عنها توصّلتُ إلى

---

(١) «الخزانة» : ٢٨/١.

(٢) «نفس المصدر و الجزء» : ٢٨/ ، ٢٩ .

(٣) «نفس المصدر و الجزء» : ٢٩/.

معرفة ذلك من استقرائي لمن كتب عن «سيبويه» دون أنْ يبرّر أخطاءه، من ذلك أنّ بعضا من « شواهد سيبويه » مصنوعة ، يقول المبرِّد [1] : «وقد روى « سيبويه » بيتَين محمولَين على الضّرورة » . كلاهما مصنوع و ليس أحد من النّحويين يجيز مثل هذا في الضّرورة كما ذكرت من انفصال الكناية ، والبيتان اللّذان رواهما سيبويه :

هُمُ القائلونَ الخيرَ و الآمِرونَهُ إذاماخَشُوا يوماً من الأمر مُعظما

و انشد :

و لم يَرْتَفِقْ والنّاسُ مُحتَضِرونَهُ

جميعاً و أيدي المعتفين رواهِقُهْ »

و لـ«ابن هِشام» صاحب «المُغني» موقف مع شاهد لـ«سيبويه» على جواز النّصب في الخبر المعطوف على خبر «ليس» و إنْ كان الآخر أجنبيّا لإنّ ليس تعمل في الخبر مقدّما و مؤخّرا لقوّتها ، و الشّاهد بيتان لـ«الأعور الشّني» :

هَوِّنْ عليكَ فإنّ الأُمور بكفّ الإلَـه مَقاديرُها

فليس بآتيكَ منهيُّها ولاقاصِرٌ عنكَ مأمورُها[2]

عقّب «ابن هشام» على هذا الشّاهد بقوله : «وممّا يشكل على مذهب «سيبويه» قوله : « هون عليك . . . » لأنّ « قاصر » عطف على مجرور « الباء » فإنْ كان «مأمورها» عطفا على مرفوع «ليس» لزم العطف على معمول عامِلَين . و إنْ كان فاعلا بـ«قاصر» لزم عدم الإرتباط بالخبر عنه ، إذ التّقدير حينئذ :

«فليس منهيّها بقاصر عنك مأمورها» ، وقد أجيب عن الثّاني «بأنّه لمّا كان الضّمير في «مأمورها» عائدا على «الأمور» كان كالعائد على المنهيّات لدخولها في الأمور» .

و يلاحظ على «سيبويه» إنّه يحتجّ على المعنى لا على اللّفظ و هذا الإتّجاه أثار رُدودا كثيرة من العلماء ذلك لأنّ الحمل على المعني قد يحدث شططا أو خطئاً . يقول :

(١) «الكامل» : ٣١٧/١ .

(٢) «سيبويه» : ٣١/١ .

(٣) «المغني» : ١٠١/٢ - ١٠٢ .

«ابن قتيبة»[١] وقال «أبومحمد» : «وقد رأيت «سيبويه» يذكر بيتا يحتجّ به في نسق الإسم المنصوب على المخفوض على المعنى لاعلى اللّفظ ، وهو قول الشاعر :

معاويَ إنّنا بَشَرٌ فأسجِحْ   فلسنابالجبالِ ولاالحديدا»[٢]

قال : كأن أراد : «لسنا الجبال و لا الحديدا» فردّ الحديد على المعنى قبل دخول الباء ، وقد غلّط على الشّاعر لأنّ هذا الشّعر كلّه مخفوض ، قال الشّاعر :

فَهَبْها أمّة ذَهَبَتْ ضياعا   يزيد أميرُها و أبو يزيد

أكلتم أرضَنا و جردتموها   فهل من قائم أو من حصيد

و وقف «البغدادي» عند هذاالشّاهد مُوردا آراء بعض النّحاة في مأخذهم على «سيبويه» فقال[٣] «وقد ردّ «المبرِّد» على «سيبويه» روايته لهذا البيت بالنّصب، و تبعه جماعة منهم «العسكري» صاحب «التّصحيف» ، قال : و ممّا غلط فيه النّحويّون من الشّعر و رووه موافقا لِما أرادوا مارُوى عن «سيبويه» عندما احتجّ به في نسق الإسم «المنصوب» على «المخفوض» . وقد غلّط على الشّاعر لأنّ هذه القصيده مشهورة ، وهي مخفوضة كلّها ، و هذا البيت أوّلها ، و بعده :

فَهَبْها أمّة ذهبت ضِياعا   يزيد أميرُها و أبو يزيد

بيد أن «سيبويه» لم يعدم معتذرين له عن ذلك بل و مناصرين فرووا الأبيات بالنّصب ورووا معها بيتا آخر و نسبوه إلى شاعر آخر (عبدالله بن الزُّبير) و منهم «الزَّمَخْشري» الّذى أجاب بأنّ هذا البيت رُوي مع أبيات منصوبة و مع أبيات مجرورة ، فن رواه بالجر روى معه الأبيات المتقدّمة ومن رواه بالنصب روى معه :

أديروها بني حرب عليكم   ولاترموا بها الغصن البعيدا[٤]

(١) «الشّعر و الشّعراء» : ٩٨/١ .

(٢) «سيبويه» : ٣٤/١ ، ٣٥٢ .

(٣) «الخزانة» : ٢٢٥/٢ .

(٤) «الإنصاف» : ٢٠٧/ .

كما يلاحظ على « سيبويه » كذلك أنّه يستشهد بالبيت الواحد لأكثر من وجه و إنّما ذلك على جهة ماغيّرته العرب بلغتها ، فمن ذلك قول «زهير» : [١]

بدالِيَ أنّي لستُ مُدْرِكَ مامَضَى ولا سابقاً شيئاً إذا كان جائيا

و رواه أيضا : ولا سابقا شيئا في موضع آخر .

وكذلك أنشد قول «الأعوَر» : [٢]

فليس بآتيكَ منهيُّها ولا قاصرٌ عنكَ مأمُورها

بالرّفع و الجرّ :

وأحسب أنّ هذا مِمّا يؤخذ على «سيبويه» لأنّه يأخذ بالرّواية الّتى تدعم رأيه مرّة و يرفضها أخرى حينما تخالفه أو يطوّعها كما يريد لتشهد لأكثر من رأى ، و لكن «ابن وَلّاد» الّذي انتصر لـ«سيبويه» يعلّل ذلك بقوله [٣]: « ألا ترى أنّ « سيبويه » قد استشهد ببيت واحد لوجوه شتّى و إنّما ذلك على جهة ماغيّرته العرب بلغتها ، لأنّ لغة الرّواة من العرب شاهد ، كما أنّ قول الشّاعر شاهد إذاكانا فصيحين » .

ومن الهنات الّتى ارتكبها «سيبويه» إنّه استشهد ببيت لم ينسبه ليس لأنّه لايعرف قائله و إنّما لأنّ قائله محدث لايحتجّ بشعره وهذا الشّاهد هو :

ولُبْسُ العَجاجةِ والخافقات تُريكَ المَنا برؤس الأسَل[٤]

و هو من أبيات منسوبة إلى شاعرَين على اختلاف وكلاهما محدث ، فـ«المبرِّد» ينسبه قائلا [٥] « و ممّا يستحسن من أشعار المحدثين قول «اسحاق بن خلف البهرانى» . » و «المسعودي ينسبه» إلى «أبي دلف العجْلي» [٦] ،كما أنّ «سيبويه» يحتجّ بشعر

---

(١) «سيبويه» : ٨٣/١ .

(٢) «سيبويه» : ٣١/١ .

(٣) «المقتضب» : ١٩١/٤ .

(٤) «الكامل» : ٣٦٤/١ .

(٥) «نفس المصدر و الجزء و الصفحة» .

(٦) «المسعودي» : «مروج الذّهب» : ٤١٨/٣ .

«بَشّار بن بُرْد» و هو رئيس المحدثين و هو إنّما يفعل ذلك ليس اقتناعا منه بحجيّة شعر «بَشّار» أو للإستئناس به و إنّما هو خوفه من هجائه، يقول «السيوطي» في «الإقتراح»[١]:

«وقد احتجّ «سيبويه» ببعض شعره (بَشّار) تقرّبا إليه لأنّه كان هجاه لتركه الإحتجاج بشعره، ذكره «المرزباني» و غيره».

و الإحتجاج بشعر المولّدين كان موضع جدل طويل بين أئمّة النّحو إلّا أنّ أغلبهم كان لا يجيز الإستشهاد بشعرهم، وقد أوجز ذلك «السيوطي» في «الإقتراح»[٢]: «أجمعوا على أنّه لا يحتجّ بكلام المولّدين و المحدثين في اللّغة و العربيّة». على أنّ «سيبويه» كثيرا ما يحتجّ بأبيات على أنّها ضرورات شعريّة بينما رواياتها الصّحيحة لا تحتوي على هذه الضّرورات، و من ذلك قول «الهذلى»:

أبيتُ على معارِيَ واضحاتٍ بهنّ مُلَوّبٌ كَدَم العِباطِ[٣]

ويقول «ابن قتيبة» ردّا على «سيبويه»[٤]: «وليست هاهنا ضرورة فيحتاج الشّاعر إلى أن يترك صرف «معار» ولو قال.

أبيتُ على معار فاخرات

كان الشّعر موزونا و الإعراب صحيحا» قال «أبو محمد» وهكذا قرأته على «الأصمعي».

ومن ذلك أيضا قول «ألحارث بن نهيك»:

لِيُبْكَ يزيدُ ضارعٌ لخصومةٍ

ومُخْتَبِطٌ ممّا تُطيحُ الطّوائِحُ[٥]

وكان «الأصمعي» ينكر هذا و يقول: «ما اضطرّه إليه؟ و إنّما الرّواية:

---

(١) «الخِزانة»: ٢٢/١.

(٢) «نفس المصدر و الصّفحة و الجزء».

(٣) «سيبويه»: ٥٨/٢.

(٤) «الشّعر و الشّعراء»: ٩٨/١.

(٥) «سيبويه»: ١٤٥/١، ١٨٣.

لِيَبْكِكَ يزيدَ ضارعٌ في خصومة»[١].

و منها أيضا قول «الفَرَزْدَق» :

رُحتِ و في رِجْلَيكِ ما فيهما و قد بداهَنْكِ من المِئْزرِ[٢]

استشهد به على أنّ تسكين «هن» في الإضافة للضرورة وليست بلغة.

وممّا أُخذ على «سيبويه» وعلى غيره من النّحاة استشهادهم ببيت «امرءي القيس» على رواية من سكّن لفظة «أشرَبْ».

فاليومَ أشْرَبْ غيرَ مُسْتَحْقِبٍ إثمًا مِن اللهِ و لا واغلِ[٣]

و يتعجّب «ابن قتيبة» من استشهاد «سيبويه» و غيره بهذه الرّواية فيقول : [٤]

« و لولا أنّ النّحويّين يذكرون هذا البيت و يحتجّون به في تسكين المتحرّك لإجتماع الحركات و إنّ كثيرا من الرّواة يروونه هكذا ، لظننته :

فاليَومَ أسقى غيرَ مُسْتَحْقِبٍ »

و على هذه الرّواية نتخلّص من مثل هذه التّشبثّات النّحويّة ، و ممّا تجدر الإشارة إليه أنّ «المبرّد» هو أكثر العلماء جرأة على «سيبويه» لردّ عليه كثيراً منها ، وفي هذه العجالة أحبّ أنْ استعرض طرفا منها :

مَنْ يَفعلِ الحَسَنَاتِ اللهُ يشكُرُها

و الشّرُّ بالشّرِّ عندالله سِيّانِ[٥]

استشهد به «سيبويه» على حذف «الفاء» لضرورة الشّعر ، قال «المبرّد» : «لا اختلاف بين النّحويّين في أنّه على إرادة «الفاء» ، لأنّ التقديم فيه لايطح » و الرّواية عند «المبرّد» :

---

(١) «الشّعر و الشّعراء» : ٩٩/١ .

(٢) «سيبويه» : ٢٩٧/٢ .

(٣) «نفس المصدر و الجزء و الصّفحة» .

(٤) «الشّعر و الشّعراء» : ٩٨/١ .

(٥) «سيبويه» : ٤٣٥/١ .

مَن يفعلِ الخيرَ فالرّحمنُ يشكُرُه (١)

فأصبحوا قد أعادَ اللهُ نِعْمَتَهُم

إذْ هُمُ قُرَيشٌ وإذما مِثْلَهُمْ بشرُ (٢)

قال «المبرّد» معرضا بـ«سيبويه» : «فالرّفع الوجه ، وقد نصبه بعض النّحويّين ، وذهب إلى أنّه خبر مقدّم ، وهذا خطأ فاحش و غلط بيّن» ثمّ قال مرّة أخرى : «قال «محمد ابن يزيد» : و ليس هنا موضع ضرورة ، و « الفرزدق » لغته الرّفع في التأخير و من نصب الخبر مؤخّرا رفعه مقدّما ، و لكنّه نصبه على قوله : فيها قائما رجل و هو قول «أبي عثمان المازني» والخبر مضمر» (٣) .

قال «العجّاج» :

جاريَ لاتَسْتَنْكري عَذيري (٤) .

استشهد به « سيبويه » على حذف حرف النّداء من النّكرة لضرورة الشّعر ، و عرض «المبرّد» في نقده للاستشهاد بهذا البيت فقال : « قال محمد : قد أخطأ في هذا كلّه خطأ فاحشا وذلك أن قوله :

جاريَ لاتَسْتَنْكري عَذيري

جارية هنا معروفة والدّليل على ذلك التّرخيم ، ولو كانت نكرة لزمها في النّداء التّنوين والنّصب ، فلم يجز ترخيمها لأنّ المضاف لايرخّم في النّداء ، لأنّه جار على الأصل وكذا النّكرة ولو جاز ترخيمها في النّكرة لجاز في غير النّداء» (٥) و « للمبرّد» مسائل و تصحيحات و انتقادات كثيرة يكفينا منها ما ألمحنا اليه لضيق الوقت .

---

(١) «المقتضب» : ٧٢/٢ ، ٧٣ .

(٢) «سيبويه» : ٢٩/١ .

(٣) «المقتضب» : ١٩١/٤ .

(٤) «سيبويه» : ٣٢٥/١ ، ٣٣٠ .

(٥) «المقتضب» : ٢٦٠/٤ .

ورغم ما في شواهد «سيبويه» من ثغرات قد ينفذ منها النّاقد والمغرض فإنّ «كتاب سيبويه» بما فيه من شواهد سينطبق عليها دائما ما قاله : «أبو اسحاق الزّجّاج» [١] : «اذا تأمّلت الأمثلة من «كتاب سيبويه» تبيّنتُ انّه أعلم النّاس باللّغة» .

استشهاد «سيبويه» بالحديث :

أمّا عن استشهاد «سيبويه» في الحديث فقد استشهد بخمسة أحاديث فقط ، و يلاحظ أن لفظ «سيبويه» يخالف ما ورد في كتب الحديث و مخالفته لاشكّ إنّما وقعت لتوافق رأيه النّحوي ولست أدري من أيّ الطّرق روى هذه الأحاديث غير أنّه يبدو أنّ للنّحاة طرقا خاصّة يروون بها ألفاظ الحديث لتتّسق مع مرئيّاتهم اللّغوية و آرائهم النّحويّة ، فمن الأحاديث الّتي استشهد بها «سيبويه» حديث : «إنّني عبدالله . . . . آكلاً كما يأكُل العبدُ و شارباً كما يشرب العبدُ» [٢] ولفظ الحديث ليس في كتب السّنن والآثار كما أورده «سيبويه» ، وقد رواه «ابن سعد» بلفظ يختلف [٣] .

و منها حديث : «كلّ مولود يولَدُ على الفطرة حتّى يكون أبواه هما اللّذان يهوّدانه و ينصّرانه [٤]» ، أخرجه «البخاري» [٥] و «مُسلِم» [٦] ، من حديث «أبي هُرَيْرَة» بألفاظ متقاربة تختلف عن لفظ «سيبويه» و منها حديث : «ما من أيّام أحبّ إلى الله فيها الصّوم منه في عشر ذي الحجّة» [٧] قال : «النّفاخ» [٨] : «لم أجده بهذا اللّفظ في شيء من كتب السُّنَن» .

---

(١) «طبقات النّحويّين للزُّبَيْدي» : ٧٣/ .

(٢) «سيبويه» : ٢٥٧/١ .

(٣) «طبقات ابن سعد» : ٣٨١/١ .

(٤) «سيبويه» : ٣٩٦/١ .

(٥) «صحيح البخاري» : ٩٥/٢ .

(٦) «صحيح مسلم» : ٨ - ٥٢ - ٥٤ .

(٧) «فهرست شواهد سيبويه» : ٥٨ .

(٨) «فهرس شواهد سيبويه» : ٥٨ .

ويبدولی أنّ «سيبويه» إنّما استشهد بالحديث للتّبرّك والتّيمّن فقط لأنّ المعروف عن «سيبويه» وغيره من جُلّة علماء النّحو الأوّلين أنهم لايستدلّون بالحديث فقد قال «ابوالحسن بن الضائع» في «شرح الجمل»[1]: «تجويز الرِّواية بالمعنى هو السّبب عندي في ترك الأئمّة ـ كـ«سيبويه» وغيره ـ الإستشهاد على إثبات اللّغة بالحديث واعتمدوا في ذلك على «القرآن» و صريح النّقل عن العرب» . و يؤيّد هذا القول الّذی يبرهن على أنّ «سيبويه» لايعتمد لفظ الحديث للإستدلال به قول «أبي حيّان» في «شرح التّسهيل»[2] و ما رأيت أحدا من المتقدّمين و المتأخّرين سلك هذه الطّريقة غيره على أنّ الواضعين الأوّلين لعلم النّحو المستقرئين للأحكام من «لسان العرب» كـ«أبي عمرو بن العَلاء» و «عيسى بن عمر» و «الخليل بن أحمد» و «سيبويه» من أئمّة البصريّين و «الكِسائي» و «الفرّاء» و «علي بن المبارك الأحمر» و «هِشام الضّرير» من أئمّة «الكوفيّين» لم يفعلوا ذلك ، و تبعهم على ذلك المسلك المتأخّرون من الفريقين و غيرهم من نحاة الأقاليم كنحاة «بغداد» و أهل «الأندلس» .

إلّا أنّ «ابن مالك» التّقي الورع خرج عن هذه القاعدة واستشهد بحديث رسول الله صلّى الله عليه و سلّم لفظا و معنى ، فقال عنه «السيوطی» :[3] «فكان أكثر ما يستشهد بـ«القرآن» الكريم فإنْ لم يكن فيه شاهد عدل إلى الحديث فإنْ لم يكن فيه شاهد عدل إلى أشعار العرب . و من ثَمّ نعرف أنّ «ابن مالك» يقدّم الإستدلال بالحديث على الإستدلال بأشعار العرب» ، ولقد استدل بحديث «الصحيحَين» : «يتعاقبون فيكم ملائكة باللّيل و ملائكة بالنّهار» على لغة : «أكلوني البراغيث»[4] .

واشتهر «ابن خَروف» كذلك بالإستدلال بالحديث .

---

(۱) «الخِزانة» : ۲۳/۱ ، ۲٤ .

(۲) «نفس المصدر و الجزء» ۲٤ .

(۳) «بُغْيَة الوُعاة» : ٥٥ .

(٤) «الخِزانة» : ۲۷/۱ .

و توسّط «الشّاطبي» فجوّز الإحتجاج بالأحاديث الّتي اعتني بنقل ألفاظها . قال في شرح الألفية:[1] «لم نجد أحدا من النّحويّين استشهد بحديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهم يستشهدون بكلام أجلاف العرب وسفهائهم الّذين يبولون على أعقابهم و أشعارهم الّتي فيها الفحش و الخنا ، و يتركون الأحاديث الصحيحة ، لأنّها تنقل بالمعنى و تختلف رواياتها و ألفاظها ، بخلاف كلام العرب و شعرهم فإنّ رواته اعتنوا بألفاظها لما ينبني عليه من النّحو . ولو وقفت على اجتهادهم قضيت منه العجب و كذا «القرآن» و وجوه القراءات».

و أمّا الحديث فعلى قسمين :

قسم يعتني ناقله بمعناه دون لفظه فهذا لم يقع به استشهاد أهل اللّسان وقسم عُرف اعتناء ناقله بلفظه المقصود خاصة ، كالأحاديث الّتي قصد بها بيان فصاحته صلّى الله عليه و سلّم ككتابه لـ«هَمْداني » ، وكتابه لـ«وائل بن حَجَر » ، و الأمثال النّبويّة ، فهذا يصحّ الإستشهاد به في العربيّة .

و عندي أنّ هذا قول فَصْل و منطق صائب .

استشهاد «سيبويه» بـ«القرآن» الكريم :

اشتهر الخلاف بين النّحاة في آية : «واتّقوا الله الّذي تسائلون به والأرحام»[2] فبعضهم يرى أنّ كلمة « الأرحام » لابدّ أن تكون بالنّصب و بعضهم يرى أن تكون بالكسر ، و تجلّت العصبيّة النّحوية و استحكم الخلاف المذهبي حتّى تدفع العصبيّة المذهبيّة « المبرّد » فيطعن في قراءة الكسر وهي قراءة سبعيّة قرأ بها «حمزة»[3] و غيره

---

(١) «الخزانة» : ٢٦/١.

(٢) «النّساء» : آية ١ .

(٣) «البحر المحيط» : ١٥٧/٣ ، وكذلك قرأ بها « النّخعي » و « قَتادة » و «الأعمش» كما في «البحر» .

و إن كان جمهور السّبعة يقرأونها بالفتح[1] فيصدر فتواه المشهورة بإبطال صلاة من قرأها بالكسر يقول : [2] «لو أنّي صلّيت خلف إمام يقرؤها لقطعت صلاتي و حملت نعلي و مضيت» .

و بجانب هذه العصبيّة فإنّك تجد الغيرة على «كتاب الله» من بعض النّحاة و خاصّة إذا كانت مظاهر هذه الغيرة تدعم رأيا نحويّا يرونه أو مسألة لغويّة اختلفوا بها مع غيرهم ، فـ«المبرّد» مثلا حينما أتي إلى قوله تعالى : «فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقيّة ينهون عن الفساد في الأرض إلّا قليلا ممّن أنجينا [3]» قال : [4] «والنّحويّون يجيزون الرّفع في مثل هذا الكلام ولا يجيزونه في «القرآن» لئلّا يتغيّر خطّ المصحف» .

و لـ«القرآن» الكريم أحكامه كما أن للشّعر أحكامه فلئن جازت الضّرورة في الشّعر فإنّها لا تجوز في «القرآن» الكريم ، ولذلك يقول «المبرّد» مبرّئا «القرآن» من الضّرورات الّتي تجوز في الشّعر[5] ، وقد قرأ بعض القرّاء ، وليس بجائز عندنا : «... واختلاف الّليل والنّهار ... وما أنزل الله من السّماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها و بثّ فيها من كلّ دابّة وتصريف الرّياح الآيات ...» فجعل «آيات» في موضع نصب وخفضها لـ«تاء الجميع» فحملها على «إنّ» ، و عطفها بـ«الواو» ؛ و عطف اختلافا على «في» و لا أرى ذا في «القرآن» جائزا لأنّه ليس بموضع ضرورة» .

و «سيبويه» قد استشهد بـ«القرآن» و أكثر حتّى بلغ عدد الآيات الّتي استشهد بها ثلاثمائة و نيّفا ، ولكنّ ما يحير الباحث هو تخطئة العالم السّلفي الجليل «ابن تيميّة» له في ثمانين موضعا فقد ذكر أنّ «أبا حيّان» النّحوي كان يجلّ «ابن تيميّة» و يألفه

---

(١) «البحر المحيط» : ١٥٧/٣ .

(٢) «درّة الغوّاص» : ٩٥ .

(٣) «هود» : ١٦ .

(٤) «المقتضب» : ٤١٦/٤ .

(٥) «الكامل» ٢٤٧/١ .

حتى علم بأنه خطأ «سيبويه» في ثمانين موضعا[1]، وهذه الثمانون موضعا لانعرف عنها شيئا فقد ضاعت كما ضاع غيرها من مؤلفات «ابن تيمية» وغيره، إلا أن من يعرف «ابن تيمية» و منحاه الديني قد يجرؤ فيخمن بأن «ابن تيمية» إنما خطأ «سيبويه» في مسائل لها - لاشك - مساس بعقيدة أو قراءات، وهذه لاشك تنشأ من استشهاده بالآيات، والمعروف عن «سيبويه» صفاء عقيدته، و في هذا المجال دعنا نرى بعضا من الآيات التي استشهد بها «سيبويه» و خولف فيها :

(١) آية : «أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون»[2]. يقول «المبرد»[3]: «فأن يكون «أنكم مخرجون» مرتفعا بالظرف كأنه في التقدير : «أيعدكم أنكم اذا متم إخراجكم»، فهذا قول حسن جميل. و أما «سيبويه» فكان يقول : «المعنى أن «بعد» وقعت على «أن» الثانية - و ذكر «أن» الأولى ليعلم بعد أي شيء يكون الإخراج». وخلاف «المبرد» مع «سيبويه» في إعراب هذه الآية كان مما تناوله نقد «المبرد» لـ «كتاب سيبويه» فقال :[4] «قال محمد: وأما الآية - والله أعلم - فإن تكرار «أن» فيها على وجهين»: أحدهما: «أيعدكم أنكم إذا متم إخراجكم فإنكم مخرجون» هو الإخراج وعمل الظرف وهو «إذا» فمن ثم لم يجز الكسر كما لا يجوز يوم الجمعة إنك ذاهب لأن معناه : «ذهابك» و هذا خلاف قوله في الظروف و هو يقول أيضا لايجوز أيضا يوم الجمعة إنك ذاهب و حجته قوله : لأن «أن» لاتبدأ في كل موضع، هذا كلام لا وجه له متى لم تحدد تلك المواضع بالعلل و المعنى فيها ماقلنا من الظروف عامة.

---

(١) «جلاء العينين» : ١٢/.
(٢) «المؤمنون» آية : ٣٥.
(٣)، (٤) «المقتضب» : ٣٥٧/٢ - ٣٥٨.

والوجه الآخر: أن يكون إنّما هو أيعدكم أنّكم اذا متّم وكنتم ترابا وعظاما مخرجون فلمّا تباعد «مخرجون» عن «أنّ» ردّها توكيدا ومثل هذا في «القرآن» كثير، من ذلك: «قل إنّ الموت الّذى تفرّون منه فإنّه ملاقيكم . . .» [1] ردّ «انّ» ثانية والمعني - والله أعلم - «قل إنّ الموت الّذى تفرّون منه ملاقيكم» ومثله «أفإن متّ فهُم الخالدون» [2] ردّ «الفاء» و المعني - و الله أعلم - «أفهم الخالدون» إن متّ و هذا أكثر من أن يحصى . . .

(٢) آية: «هؤلاء بناتي هنّ أطهرُ لكم» [3] قرأها أهل «المدينة» بنصب «أطهرَ» فحاول «سيبويه» أن يعتذر لهم في توجيه قراءة النّصب، والتّوجيه في الآية جائز ما لم يخلّ بالمعني فقال: [4] «وأمّا أهل «المدينة» فينزّلون «هو» هاهنا بمنزلته بين المعرفتين ويجعلونها فصلا في هذا الموضوع و زعم «يونس» أنّ «أباعمرو» رآه لحنا وقال: «احتبي «ابن مروان» في هذه في اللّحن».
أمّا «المبرّد» فيراه لحنافاحشا إذ يقول [5]: «أمّا قراءة «أهل المدينة» «هؤلاء بناتي أطهر لكم» فهو لحن فاحش، و إنّما هي قراءة «ابن مروان»، و لم يكن له علم بالعربيّة». ولكن «أباحيّان» يذكر «أنّ «الحسن» و «زيد بن علي» و «عيسى بن عمر» و «سعيد بن جُبَيْر» و «محمد بن مروان» قرأوها بالنّصب و وجهها على أنّها حال» [6].

و مسألة التّقدير مسألة رائجة لدى النّحاة ولكنّ الخطر هو التّقدير في «القرآن» و خاصّة إذا كان هذا التّقدير من شأنه أنْ يخلّ بالمعني أو كان ذا مسحة تعسّفيّة، ويلحظ القارىء لـ«كتاب سيبويه» تحفّظه الشّديد في بعض الأحيان في مسألة التّقدير في الآيات

---

(١) «الجمعة»: ٨.
(٢) «الأنبياء»: ٣٤.
(٣) «هود»: آية ٧٨.
(٤) «سيبويه»: ٣٩٧/١.
(٥) «المقتضب»: ١٠٥/٤.
(٦) «البحر المحيط»: ٢٤٧/٥

فحينما أتى إلى آية: «حتّى إذا جاؤها وفُتحت أبوابُها»[1] باحثا عن الجواب لـ«إذا» توقّف وسأل «الخليل» عن قوله عزّ و جلّ: «حتّى إذاجاؤها و فُتحت أبوابُها» أين جوابها؟ وعن قوله عزّ وجلّ «ولو يرى الّذين ظلموا إذ يرون العذاب»[2] «ولو ترى إذ وُقفوا على النّار»[3] فقال: «إنّ العرب قد تترك في مثل هذا الخبر الجواب في كلامهم لعلم المخبَر لأي شيء وُضع هذا الكلام»[4] وهذا شيء يحمد عليه «سيبويه» بيد أنّ هناك مأخذا لا يمكن أن نعفيه منه و هو وصفه لبعض القراءات السّبعيّة الّتي تخالف منحاه النّحوي بألفاظ نابية كالقبح و الرّداءة و ما إلى ذلك، فقد وصف قراءة نافع: «يا أيها النّبيّ لم تحرّم ما أحلّ الله لك»[5] و «أولئك هم خير البريّة»[6] بتحقيق الهمزتين في كلمتي: «النّبيء» و «البريئة» وهو أحد القرّاء السّبعة بالقلّة والرّداءة»[7] رغم أنّ الإمام «عليّا» رضي الله عنه يقرّر نزول الوحي بقراءة الهمزة حين قال: [8] «نزل الـ«قرآن» بـ«لسان قريش» وليسوا بأصحاب «نبر»، ولولا أنّ «جبرائيل» عليه السّلام نزل بالهمزة على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ماهمزنا».

و حينما يخالف وجهُ القراءة في آية: «ثُمّ آتينا موسى الكتابَ تماما على الّذي أحسن»[9] بضمّ كلمة «أحسن» على أنّها خبر المبتدأ محذوف تقديره «هو» رأيَ «سيبويه» فلا يتردّد أنْ يصفها بالضّعف و القبح معا[10]، كما يصف - سامحه الله - قراءة من قرأ هذه الآية: «أم حَسِب الّذين اجترحوا السّيئات أنْ نجعلهم كالّذين آمنوا سواءٌ مَحْياهم

---

(١) «الزّمر»: آية ٧٣.

(٢) «البقرة»: ١٦٥.

(٣) «الأنعام»: ٢٧.

(٤) «سيبويه»: ٤٥٣/١.

(٥) «التّحريم»: آية ١.

(٦) «البيّنة»: ٧.

(٧) «سيبويه»: ١٧٠/٢، ١٦٣/٢.

(٨) «شرح الشّافية»: ٣٢/٣.

(٩) «الأنعام»: آية ١٥٤.

(١٠) «الكتاب»: ٢٧٠/١.

و مماتهم ساء مايحكمون» [1] بنصب «سواء» - مع أنّها قراءة قرأ بها «حفص» و «حمزة» و «الكسائي» - بالقبح والرّداءة أيضا» [2].

و مهما يكن من شيء فإنّ النّحاة - و من بينهم «سيبويه» - يغلطون في فهم بعض مجازات الآيات الكريمة ، ولقد شاهد ذلك «المبرّد» وكتب في «كامله» عن هذا الموضوع وقال [3] : «ونذكر آيات من القرآن مما غلط في مجازها النّحويون» :

قال الله عزّ وجلّ : « إنّما ذلكم الشّيطان يخوّف أولياءه » مجاز الآية أنّ المفعول الأوّل محذوف أومعناه يخوّفكم من أوليائه . و في « القرآن» : «فمَنْ شهد منكم الشّهر فليصمه» والشّهر لايغيب عنه أحد ، و مجاز الآية : فمن كان منكم شاهدا بلده في الشّهر فليصمه ، والتّقدير «فمَنْ شَهِد منْكُم» أي «فمن كان شاهدا في شهر رمضان فليصمه» نصب الظّروف لانصب المفعول به . و في «القرآن في» مخاطبة « فرعون » : « فاليوم نُنْجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية» . فليس معني ننجيك نخلّصك و لكن : «نلقيك على نجدة من الأرض» بـ«بدنك» : بـ«بدرعك» يدلّ على ذلك «لتكون لمن خلفك آية» وفي «القرآن» : «يخرجون الرّسول و إيّاكم أنْ تؤمنوا بالله ربّكم فالوقف «يخرجون الرّسول و إيّاكم أي «يخرجونكم لأنْ تؤمنوا بالله ربّكم» ...» .

أوردنا هذا للإستئناس بأنّ النّحاة كثيرا مايغلطون في تقديراتهم نتيجة لفهمهم للآية ومافيها من مجاز . وقبل أن أنهي بحثي هذا أرى لزاما علي أن أنبّه على وهم لـ«سيبويه» وهو : منع وقوع «كلّ المضافة» للنّكرة مفعولا به ، قال [4]: «أكلت شاة كلّ شاة حسن و أكلت كلّ شاة ضعيف لأنّهم لايُعمّمون هكذا فيما زعم «الخليل» ...»

هذا الحكم النّحوي أثار انتباه الأستاذ « عبدالخالق عظيمة » فتتبّع مجيء « كلّ

---

(١) «الجاثية» : آية ٢١ .

(٢) «سيبويه» : ٢٣٣/١ .

(٣) «الكامل» ١٢٨٩/٣ - ١٢٩٠ .

(٤) «سيبويه» : ٢٧٤/١ .

المضافة للنكرة» في «القرآن» فوجدها في ستّة وثلاثين موضعا وفي «سورة الأنعام» وحدها هذه المواضع [١] :

(١) «وإنْ يروا كلّ آية لايؤمنوا بها» .

(٢) «وسع ربّي كلّ شيء علما» .

(٣) «وخلق كلّ شيء» .

(٤) «وحشرنا عليهم كلّ شيء قبلا» .

(٥) وعلى الّذين هادوا حرّمنا كلّ ذي ظفر» [٢] .

وأخيرا فإنّ كتاب «سيبويه» رغم ماعليه من مآخذ سيظل معينا لا ينضب للنّحاة يقتبسون منه ويستشهدون بشواهده : وسيظلّ البحر كماوصفه «المبرّد» : «الّذي يجب على كلّ نحوي أن يركبه» .

---

(١) أرقام الآيات حسب ترتيبها : ٢٥، ٨٠، ١٠١، ١١١، ١٤٦ .

(٢) «تجربتي مع سيبويه» بحث في «مجلة كلّيّة اللّغة العربيّة بالرّياض» العدد الرّابع صفحة ٤٦ .

« المصادر والمراجع »

(١) «الأغاني» : لـ«الإصفهاني» ، دار الثقافة ، «بيروت» .

(٢) «الإنصاف» : لـ«ابن الأنباري» ، تحقيق «محيي الدين عبد الحميد» .

(٣) «البحر المحيط» : لـ«أبي حيّان» ، طبعة السعادة .

(٤) «بُغية الوُعاة» : لـ«السيوطي» ، دار المعارف ، «بيروت» .

(٥) «خزانة الأدب» : لـ«لبغدادي» ، المطبعة السلفيّة ، ١٣٤٧ .

(٦) «دُرّة الغوّاص» : لـ«لحريري» ، طبعة مكتبة المثنّى ، بـ«بغداد» .

(٧) «ديوان جَرير» : «بيروت» ١٣٧٩ .

(٨) «ديوان النّابغة الذّبياني» : تحقيق الدّكتور «شكري فيصل» ، «دِمشق» ، ١٣٨٨ .

(٩) «سيبويه والقراءات» : للدّكتور «أحمد مكّي الأنصاري» ، دار المعارف ، ١٣٩٢ .

(١٠) «شرح ابن عَقيل» : تحقيق «محيي الدّين عبد الحميد» .

(١١) «الشّعر والشّعراء» : لـ«ابن قُتَيْبة» ، تحقيق «أحمد شاكر» .

(١٢) «شواهد سيبويه» : لـ«لأعلم» ضمن «كتاب سيبويه» .

(١٣) «صحيح البُخاري» : طبعة «بولاق» .

(١٤) «صحيح مُسْلِم» : طبعة «دار الخلافة» .

(١٥) «طبقات ابن سعد» : طبعة «بيروت» .

(١٦) «طبقات النّحويّين» : لـ«لزُّبَيْدي» ، تحقيق : «أبو الفضل ابراهيم» ، ١٣٧٣ .

(١٧) «فهرس شواهد سيبويه» : صنعة «أحمد راتب النّفّاخ» ، «بيروت» ، ١٣٨٩ .

(١٨) «الكامل» : لـ«لمبرّد» ، تحقيق «زكي مبارك» ، «القاهرة» ، ١٣٥٦ .

(١٩) «الكتاب لسيبويه» : مطبعة «بولاق» .

(٢٠) «مجلّة كليّة اللّغة العربيّة» : العدد الرّابع، «الرّياض» . ١٣٩٣.

(٢١) «مروج الذّهب» : لـ«المسعودي» ، «بيروت» .

(٢٢) «مُعجم الأدباء» : لـ«ياقوت» ، تحقيق «مارجليوث» .

(٢٣) «مغني اللّبيب» : لـ«ابن هشام» : مطبعة «محمد مصطفى» .

(٢٤) «المُقْتَضَب» : لـ«المُبرّد» ، تحقيق «عبدالخالق عضيمة» ، ١٣٨٥-١٣٨٦.

(٢٥) «نُزْهة الألبّاء» : لـ«ابن الأنباري» ، تحقيق «أبوالفضل ابراهيم» ، ١٣٨٦.

(٢٦) «جلاءُ العَيْنَيْن» : لـ«سيّد نعمان خير الدّين» : «القاهرة» . ١٤٨١.



نهاد الموسى (الدكتر ...)
(عمّان - الأرْدُن)

الوُجْهة الإجتماعيّة في منهج « سيبويه » في كتابه

(فهرس)

من علم اللّغة . . . إلى علم اللّغة الإجتماعي

يسمّى علم اللّغة الإجتماعي ، هذه الأيّام ، أن يمدّ في دراسة اللّغة بُعدا جديدا يتجاوز المدى الّذى بلغه علم اللّغه الحديث .

ذلك أنّ منهج البحث في علم اللّغة الحديث منهج داخلي يعتمد في تفسير

المتغيّرات اللّغوية على ظواهر لغويّة محضة، ويقوم على قواعد لغويّة ذاتيّة موضعيّة[1].

ويستدرك اللّغويّون الإجتماعيّون عليه، أكبر مايستدركون، اغفاله للسّياق الّذي تستعمل فيه اللّغة[2]. وهم، مع ذلك، يحترسون من لوم علماء اللّغة المحدثين على هذا الإغفال، إذ انّهم لايتوقّعون منهم أن يبلغوا هذه الغاية المزدوجة من دراسة اللّغة في آن معا!! وخاصّة في مرحلة النّشوء والتّكوين!! بل هم يعتبرون منهجهم في الإقتصار خطّة مرحليّة ممتازة مكّنت لهم أن يتبيّنوا اللّغة نظاما له منطقه الدّاخلي و قواعده الدّاخليّة وأتاحت لعلم اللّغة الحديث نموّا سريعا مطّردا.

ثم يتطلّع علماء اللّغة الإجتماعيّون، من وراء ذلك، إلى منهج في درس اللّغة يستشرفها من خلال بُعد أوسع ويحاول أن يبيّن كيف تتفاعل اللّغة مع محيطها[3].

البُعْد الجديد

ويتمثّل هذا البُعْد الأوسع، عندهم، في النّظر إلى العوامل الخارجيّة الّتي تؤثّر في استعمالنا للّغة. وهي، عندهم، عوامل ثلاثة: أوّلها: المعنى؛ فإنّنا على التّحقيق، نختار الكلمات والجمل لننقل معنى من نوع ما، والثّاني: التّشكيل الإجتماعي؛ فإنّ المتغيّرات الإجتماعيّة كطبقة المتكلّم ومركزه، وطبيعة الموقف الّذي يتكلّم فيه: أرسميّ هو أم غير ذلك... تؤثّر في استعمالنا للّغة تأثيرا بالغا، والثّالث: التّفاوت الفردي بين المتكلّمين[4]. وهذا العامل الثّالث محدود التّأثير.

وهو يبتدئ، مثلا، في أنّ لكلّ فرد ألفاظا خاصّة مفضّلة تدور في كلامه على سعة، كما أنّ له في صوته خاصيّة ذاتيّة مميّزة. ومن أمثلته أيضا مايكون من التزام بعض

---

(١) انظر، مثلا:

Robbins Burling: Man's many voices, Holt... New York. 1970, P. V.

(٢) المصدر السّابق: ص٣.

(٣) المصدر نفسه: ص٣.

(٤) انظر المصدر نفسه: ص٣.

الأشخاص سمتا أكثر رسمية في كلامهم [١]...

بلوغ البُعْدَيْن

وفي هذه المقالة للبيان عن المدى الّذي بلغه «سيبويه» في كتابه، من هذه الجهة، في ذلك الزّمن المتقادم منذ اثني عشر قرنا، ذلك أنّه يبدو لي أنّ «سيبويه» قد استشرف هذين البُعْدَين : اللّغوي والإجتماعي في وَصْفِه لِنَحْوِ العربيّة، مزج بينهما مزجا متناسبا متكاملا .

ففي كتابه صور متوافرة من التّحليل اللّغوي الدّاخلي، وفي كتابه، كذلك، صور معجبة من تجاوز الدّائرة اللّغويّة الذّاتيّة، تتمثّل في التفاته إلى المعنى، وتَنَبُّهه إلى السّياق وما يلابسه من الظّروف، والمتغيّرات و المعطيات الخارجيّة الّتي تكتنف الموقف الكلامي، من حال المخاطب، وحال المتكلّم، وموقف الخطاب ....

و في كتابه، أيضا، لمحات رائدة إلى العلاقة بين اللّغة وحاجات الإجتماع، وإلى أثر الدّين في اللّغة . وفيه، قبل ذلك وبعده، وَعْي عَمَلِيّ عميق على دور اللّغة في صياغة المجتمع يتمثّل في توجيهه لشوارد اللّهجات و شواذّها توجيها استلهم فيه حركة المجتمع يومذاك في نزوعه إلى التّوحُّد .

التّحليل اللّغوي الدّاخلي

وهو في «كتاب سيبويه» أصل غالب . ولكنّنا نجتزىء منه هنا بهذه الأمثلة بيانا عنه ومَيّزا له من التّحليل الّذي يقوم على ملاحظة العوامل الخارجيّة .

ومن الأمثلة القريبة، للتّحليل الدّاخليّ، مالاحظ «سيبويه» في «باب اعراب الأفعال المضارعة للأسماء» من «أنّ هذه الأفعالَ لها حروفٌ تَعمل فيها فتنصبُها لاتَعمل في الأسماء، كما أنّ حروف الأسماء الّتي تَنصبها لاتَعمل في الأفعال، وهي : «أنْ»، وذلك قولك : «أُريدُ أنْ تفعلَ» . و«كَيْ»، و ذلك : «جئتك لكَي تفعلَ» .

---

(١) «بيرلنج» : ص ٧ .

و «لَنْ»...»[1].

فقد تنبّه في هذا الباب إلى التّلازم بين عنصر لغويّ وآخر[2]، ثم فسّر[3] التّغيّر في حركة آخر المضارع[4] بظاهرة لغويّة أخرى هي دخول أحرف مخصوصة عليه.

ومن أمثلته، أيضا، ما نجد من تصنيفه للأنماط اللّغويّة وحَمْلِ بعضها على بعض والإستدلال على ذلك بمواقف لغويّة. فقد حَمَلَ «أم» المتّصلة المسبوقة بهمزة الإستفهام على «أيّ الإستفهاميّة» وجعل قولك: «أزيد عندك أم عمرو» بمنزلة قولك: «أيّهما عندك» واستدلّ على ذلك بـ «أنّك لو قلت: أ«زيد» عندك أم «بِشْر» فقال المسؤول: «لا»، كان مُحالا، كما أنّه إذا قال أيّهما عندك، فقال: «لا»، فقد أحال»[5].

ومن أمثلة الوصف التّصرفي، عنده، ما نجد من حَصْره لأبنية مضارع الثّلاثي، و مَيْز أبنية اللّازم من المتعدّى. قال: في «باب عِلْم كلّ فعل تعدّاك إلى غيرك»: «اعلم أنّه يكون كلّ ما تعدّاك إلى غيرك على ثلاثه أبنية: على «فَعَلَ يَفْعِلُ» و «فَعَلَ يَفْعُل» و «فَعِلَ يَفْعَلُ» وذلك نحو: «ضَرَبَ يَضْرِبُ» و «قَتَل يَقْتُلُ»، و «لَقِمَ يَلْقَمُ». وهذه الأضرب تكون فيما لا يتعدّاك، وذلك نحو: «جَلَسَ يَجْلِسُ» و «قَعَدَ يَقْعُدُ»، و «رَكِنَ يَرْكَنُ». ولما لا يتعدّاك ضربٌ رابع لا يَشْرَكه فيه ما يَتَعدّاك، وذلك «فَعُلَ يَفْعُل»، نحو: «كَرُمَ يكرُم» وليس في

---

(١) «الكتاب»، تحقيق «عبدالسلام هارون»، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب ١٩٧٣، الجزء الثّالث، ص٥.

(٢) كالأفعال المضارعة.

(٣) كأحرف النّصب. إذ تدخل على الأفعال المضارعة دون الأسماء، ويقترن دخولها عليها بحالة النّصب دون الرّفع والجزم.

(٤) في اختلافها بين رفع: «هو يقاتلُ» ونصب: «قرّر أنْ يقاتلَ» وجزم: «لم يقاتلْ رغبة في القتال».

(٥) «الكتاب» (هارون): ١٦٩/٣.

الكلام « فَعَلْتُهُ » متعديّا . فضروب الأفعال أربعة يجتمع في ثلاثة ما يتعدّاك وما لا يتعدّاك ويَتَبيّنُ بالرّابع ما لا يتعدّى وهو « فَعُلَ يَفْعُلُ » ... »[١]

ومن وصفه التّصرفي الخالص ما لاحظ من أنّ الأكثر في وزن « فَعْل » يجمع جمع تكسير ، وأنّ الأكثر في « فَيْعِل » أنْ يجمع جمع مذكّر سالما[٢].

ومن أمثلة تفسيره للظّواهر التّصرفية تفسيرا داخليّا هذه المسألة في أبنية مصادر الثّلاثي . فقد لاحظ « سيبويه » أنّ الفعل الثّلاثي الّذى وزنه « فَعَلَ » - بفتح العين - يكون بناء مصدره على وزن « فُعُول » إذا كان لازما ، وعلى هذا جاء « قَعَدَ قُعُودا » و « جَلَسَ جُلُوسا » و « خرج خُروجا » . فلمّا لاحظ أنّهم يقولون : « وَلَجَه وُلوجا » و « دَخَلَه دُخُولا » فيجعلون بناء المصدر من فعل المتعدّى على « فُعُول » ، وظاهرُ ذلك مناقَضَةُ الأصل الّذى قرّره ، عند ذلك فزع إلى تأويله بأنّه « على ولجتُ فيه و دخلتُ فيه ولكنّه ألقى « في » استخفافا »[٣] أي أنّ ذلك جاء على الأصل في استعمال هذين الفعلَين لازمَين يتعدّيان بـ« في » . و واضح أنّ « سيبويه » قد استأنس على ذلك بقاعدة الحذف والإيصال المشهورة ، وهى سنّة جارية على الفعل العربيّ في انتقاله من اللّزوم والتّعدّى بالحروف إلى التّعدّى المباشر .

ومن أمثلة تفسيره للظّواهر الصّوتيّة تفسيرا لغويّا داخليّا تفسيره إمالة الألف إذا وَلِيَتْها صوت مكسور في ضوء قانون « التّشاكل »[٤] قال في « باب ما تُمالُ فيه

---

(١) « كتاب سيبويه » الطّبعة الأولى ، بالمطبعة الأميريّة بـ« بولاق » ، ١٣١٧ ، الجزء الثّاني : ص٢٢٦-٢٢٧ .

(٢) « الكتاب » (هارون) ٣/٦٤٢ .

(٣) « الكتاب » (بولاق) : ٢/٢١٦ .

(٤) « التّشاكل » هي ترجمة «Assimilation» وقد وجدت « ابن الأنبارى » (أسرار العربيّة : ٤٠٦) يستعملها فاخترتها . أما اللّغويّون العرب المحدثون فقد ترجموا هذا المصطلح بـ« المماثلة » وانظر : « ابراهيم أنيس » : « الأصوات اللّغويّة » : ١٢٦ و مابعدها و« محمود السّعران » : « علم اللّغة » : ٣٨٤ و « رمضان عبدالتّواب » : « لحن العامّة » : ٣٧ و« داود عبده » : « أبحاث في اللّغة العربيّة » : ١٥ .

الألفاتُ » : « فالألفُ تُمالُ إذا كان بعدها حرف مكسور و ذلك قولك « عابد » و « عالم » و « مَساجدُ » . . . و إنّما أمالوها للكسرة ألّتي بعدها أرادوا أن يقرّبوها منها. . . »[1] .

المَلْحَظ الدّلاليّ

وعلى الأعراف بين دراسة اللّغة في مجالها الذّاتيّ ودراستها في المَجال الخارجيّ نجد « سيبويه » يتجاوز التّحليل الشّكليّ للتّراكيب النّحويّة والأبنية الصّرفيّة، ويتّخذ المعنى مَلْحَظا ثابتا في وضع المعايير، وتقرير القواعد، ورسم الحدود بين الصّواب والخطأ.

وهذا واضح فيما عقد من « باب اللّفظ للمعاني »، في أوائل الكتاب، حيث قرّر ما لاحظ في كلام العرب من « اختلاف اللّفظين لاختلاف المعنيين كما في « جلس » و « ذهب »، و اختلاف اللفظين والمعنى واحد كما في « ذهبَ » و « انطلقَ »، واتّفاق اللّفظين والمعنى مختلف كما في قولك: « وَجَدتُ عليه » (من الموجدة)، و « وجدت » (من وجدان الضّالّة) »[2] .

والمعيار الكلّيّ الّذى أقامه للكلام، بعد ذلك، مبني على هذا المَلْحَظ الشّمولي، مبني على ملاحظة المعاني اللّغويّة وَفْق معطيات العالم الخارجي، ذلك أنّه قسّم الكلام إلى: « مستقيم حسن، ومُحال، ومستقيم كذِب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب »[3]، فقد جعل من المحال قولك : « أتيتك غدا »، و « سآتيك أمس »[4] .

وحقّا أنّه يمكن الحكم بخطأ هذين القولين على أساس نحويّ، كأنْ نفترض أنّ في العربيّة طائفة من الظّروف منها « غدا » لا تجرى مع أفعال من صيغ معيّنة مثل « أتى »،

---

(١) « الكتاب » (بولاق) ٢٥٩/٢ .

(٢) « الكتاب »، تحقيق « عبد السّلام هارون »، دار القلم ١٣٨٥ هـ. ق. (=١٩٦٦م). الجزء الأوّل : ص ٢٤ .

(٣) « نفس المصدر » : ٢٥/١ .

(٤) نفس المصدر ونفس الصفحة.

وأنّ فيها طائفة أخرى من الظروف بينها « أمس » لاتجرى مع أفعال من صيغ مخصوصة مثل « آتي » .

ولكنّ الأقرب إلى القبول أنّ « سيبويه » نظر إلى المسألة من وجهة دلاليّة ، ذلك أنّه جعل الإحالة في تَيْنِكَ الجملتين من قِبَل أنّ أوّلها ينتقض بآخرهما ، و ذلك إلتفات صريح إلى المعنى الدّلاليّ لكلّ من « غدا » و « أتى » [1] ، في الجملة الأولى ، « أمس » و « آتي » ، في الجملة الثّانية ، فكأنّه لاحظ أنّ « غدا » تشير إلى أحداث تقع في الزّمن المستقبل ، كما لاحظ أنّ صيغ الماضي من الفعل (مثل أتى) تشير إلى أحداث تقع في الزّمن الماضي . واحتكم إلى خُبرته الحسّيّة في أنّ الماضي لايجرى مع المستقبل . وهكذا جعل معطيات الواقع الخارجي مَلْحظا في حكمه اللّغوي[2].

وأوضح من هذا في إثبات أنّ « سيبويه » كان يتعمّد بالمَلْحَظ الدّلالي أنّه جعل قولك : « حملتُ الجبلَ » ، و « شَرِبْتُ ماءَ البحر » [3] ونحو ذلك من الكلام مستقيما كذبا . و هو يريد بالاستقامة أنّ هذا القول جار على مقاييس النّحو فكأنّه قولك : « حملتُ الحجرَ » ، و « شربتُ ماء الكأس . . . » أما الكذب فقد استند فيه ـ لاريب ـ

---

(١) من المصادفات الطّريفة أنّ هذه الجملة نفسها قد مَثّل بها « بيرلنج » في سياق استدلاله على التّمازج بين مستوى التّركيب ومستوى الدّلالة في اللّغة . ومعلوم أنّ المستوى الدّلالي ينبني على ملاحظة المعاني و الأشياء في العالم الخارجي . وانظر في هذا المثال وتناوله إيّاه كتابه : Man's many voices P. 55

(٢) قد ذهب « سيبويه » إلى هذا حين جعل الماضي يدلّ على الزّمن الماضي (الكتاب ، هارون ، : ١٢/١) وهو الأمر الّذى تابعه عليه النّحويّون . ولكنه يُسْتَدْرَك الآن عليهم بعدما تبيّن من « أنّ الفعل العربيّ لايفصح عن الزّمان بصيغة ، و إنّما يتحصّل الزّمان من بناء الجملة فقد تشتمل على زيادات تعين الفعل على تقرير الزّمان في حدود واضحة ... » (« ابراهيم السّامرائي » : « الفعل زمانه وأبنيته » : ص ٢٤ .)

(٣) « الكتاب » (طبعة هارون) ٢٦/١ .

إلى الملحظ الدلالي القائم على امتحان المعطيات الخارجيّة ومواضعات الإجتماع حول الحدود الممكنة لعلاقة الإنسان بهذه المعطيات .

وعلى مستوى البنية التّصرفيّة نجد « سيبويه » يجرّد لكثير من الصّيغ التّصرفيّة معاني دلاليّة كليّة . فلم يقتصر في تعداد صيغ مصادر الثّلاثي ، مثلا ، على سردها في نطاق علاقتها الشّكليّة بصيغة الفعل[1] . بل راح يقرن الصيغة بالمعنى المشترك الّذي رأى أمثلتها المختلفة تلتقي عليه ، فرأى أن المصدر الّذى على « فُعال » [2] يدلّ على « الدّاء » [3] ، والمصدر الّذى على « فِعال » [4] يدلّ على « المباعدة » [5] ، والمصدر الّذى على « فُعالة » [6] يدلّ على « الزيادة » [7] ، والمصدر الّذى على « فَعَلان » [8] يدلّ على « الزّعزعة » و « الإهتزاز » [9] . وعلى هذا النّحو مضى يجرّد لبعض المعاني صيغا رآها تكاد تختصّ بها ، حيث لاحظ أنّ « ما كان من الجوع والعطش فإنّ أكثر ما يبنى في الأسماء على « فَعْلان » . . . » [10] ،

---

(١) فيقف عند حدّ القول انّ « فَعَل » هي صيغة المصدر من « فَعِل » الّلازم (فَرِح : فَرَح ، بَطِر : بَطَر) و « فُعُول » هي صيغة المصدر من « فَعَلَ » الّلازم (جلس : جلوس ، صعد : صعود) و « فَعْل » هي صيغة المصدر من « فَعَلَ » المتعدّي (أكل : أكْل ، قمع : قمْع) وهكذا .

(٢) كـ « السُّعال » و « الصُّداع » .

(٣) « الكتاب » (بولاق) : ٢١٧/٢ .

(٤) كـ « الفِرار » و « الشِّراد » و « الشِّماس » و « النِّفار » .

(٥) « الكتاب » (بولاق) : ٢١٧/٢ .

(٦) كـ « القُلامة » و « القُراضة » و « النُّفاية » و « الحُثالة » .

(٧) « الكتاب » (بولاق) : ٢١٧/٢ .

(٨) كـ « النَّزَوان » و « النَّقزان » و « الغَليان » .

(٩) « الكتاب » (بولاق) : ٢١٨/٢ .

(١٠) « الكتاب » (بولاق) : ٢٢٠/٢ . ومن أمثلة ذلك : « عَطشان » ، و « ظَمآن » و « صَدْيان » .

« وأنّ الألوان تبنى على « أفْعَل » ... »[1].

وهو، بهذه الملاحظه ، كأنّما كان يمهّد الطّريق أمام المجامع اللّغوية، فيما بعد، وهي تسعى في وضع المصطلحات الدّالّة على هذه المعاني و أشباهها ، قياسا [2] على هذه الصيغ الّتي جرّدها، وخرّج لها دلالاتها .

ويتعمّق الملْحَظ الدّلالي منهجه حتّى ترتبط عنده صيغ معلومة بمعان معيّنة ، مستمدّة من تصنيف الأشياء في العالم الخارجي إلى إنسان و غير إنسان ... الخ، فقد ذكر في « باب تكسير الصّفة للجمع » أنّ « ما كان « فَعْلاً » فإنّه يكسّر على « فِعال »...وذلك: «صَعْبٌ» و«صِعابٌ» و «عَبْلٌ» و «عِبالٌ» و «فَسْلٌ» و «فِسالٌ»، و«خَدْلٌ» و«خِدالٌ» . وقد كسّروا بعضه على « فُعُول » ، وذلك نحو « كَهْل » و« كُهُول » ثمّ قرّر عقب ذلك : « أنّه ليس شيء من هذا إذا كان للآدميّين يمتنع من أنْ تجمعه بـ«الواو والنون» . وذلك قولك : « صَعْبونَ » و «خَدْلونَ» . وقال الرّاجز :

« قالت سُلَيْمَى لا أُحِبُّ الجَعْدِينْ

.... »[3]

وذكر، أيضا، أنّ « ماجاء على « فَعَل » الّذى جمعه « فِعال » إذا لحقته الهاء للتأنيث كُسّر على « فِعال » كما فُعِل ذلك بـ«فَعْل » ثم قرّر : أنّ « ليس شيء من هذا للآدميّينَ يمتنع من «الواووالنون» وذلك قولك: «حَسَنون»، و«عَزَبون»...»[4] كأنّما أصبح الجمع السّالم بـ«واو ونون» في مقاييس التّصرف ، هو جمع الآدميّين دون غيرهم من الخلق والأشياء .

---

(١) «الكتاب» (بولاق): ٢٢٢/٢. ومن أمثلته: «احمرّ» و«اصفرّ» و«ابيضّ».

(٢) أنظر في أمثلة هذا : مجموعة القرارات العلميّة الّتي أصدرها « مجمع اللّغة العربيّة» في «القاهرة» خلال ثلاثين عاما .

(٣) «الكتاب» (هارون) : ٦٢٦/٣، ٦٢٧ .

(٤) المصدر السّابق ٦٢٨/٣ ، وانظر في مثل هذا أيضا ٦٢٩/٣ .

في ضوء السّياق

وتلقانا في «الكتاب» أمثلة كثيرة من الجمع بين التّفسير اللّغوي وملاحظة السّياق. وذلك حيث نراه يقف إلى تراكيب مخصوصة فيردّها إلى أنماط لغويّة مقرّرة، وبقدر ما يكون عرض لها من الوجهة اللّغويّة الخالصة من حذف أو غيره، وفق نظريّة العامل. ولكنّه لا يقف عند ذلك، بل يتّسع في تحليل التّراكيب إلى وصف المواقف الإجتماعيّة الّتي تستعمل فيها و ما يلابس هذا الإستعمال من حال المخاطب وحال المتكلّم وموضوع الكلام. . . وقد هداه هذا الإتّساع إلى أستكّناه البنية الجوّانيّة للتّركيب النّحويّ[١]، و رَسْم خطوط هادية في تَعَلُّم العربيّة تَعَلُّماً يضع كلّ تركيب موضعه، ويعرف لكل مقال مقامه.

قال في تفسير قولهم: «أتميميّا مرّة وقيسيّا أخرى»: «و إنّما هذا أنّك رأيت رجلا في حال تَلَوُّن وتنقُّلٍ، فقلت: أتميميّاً مرّةً وقَيْسيّاً أخرى، كأنّك قلت: «أتَحَوَّلُ تميميّاً مَرّة وقيسيّا أُخرى. فأنت في هذه الحال تعمل في تثبيت هذا له، وهو عندك في تلك الحال في تلوّن وتنقّلٍ، وليس يسأله مسترشِدا عن أمرٍ هو جاهل به ليُفْهِمَه إيّاه ويخبره عنه، ولكنّه وبّخه بذلك.

وحدّثنا بعض العرب، أنّ رجلاً من بني أسدٍ قال: «يومَ جَبَلَةَ»، واستقبله بعير أعور فتطيّر منه، فقال: «يا بني أسد أعورَ وذاناب». فلم يرد أن يَسْتَرشِدهم ليُخبِروه عن عَوَرِه وصحّته، ولكنّه نبّهَهم، كأنّه قال: أتستقبلون أعْوَرَ و ذاناب! فالإستقبال في حال تنبيهه إيّاهم كان واقعاً، كما كان التّلوّن والتّنقّل عندك ثابتَيْنِ في الحال الأوّل، وأراد أن يثبّت لهم الأعور ليحذروه»[٢].

التّلالة الإجتماعيّة للحركة الإعرابيّة

وقد يوغل «سيبويه» في تطبيق نظريّة العامل، وتكون الفتحة، عنده، اشعارا

---

(١) مثَلُ التّركيب النّحوي: الإستفهام، أمّا مثَلُ البنية الجوّانية فدلالته على التّقرير في إطار سياق معيّن.

(٢) «الكتاب» (هارون): ٣٤٣/١.

بعامل من الفعل (صبرا ، شكرا)[١] ، وتكون الضمّة إشعارا بعامل من الإسم (صبر ، شكر) [٢] غير أنّه لايقف عند ذلك ، ونراه يلتمس للفتحة و ما يستكين وراءها من دلالت الحدوث في الفعل ويلتمس للضمّة وما تشي به من دلالة الثبوت في الإسم تفسيرا في مذهب الإستعمال . و إذا هو لا يرى في كلّ منها وجها في الإعراب متميّزا وحسب ، بل يرى في كلّ منها وجها في الإستعمال متميّزا ، وموقفا إجتماعيا متميّزا ، في آن معا .

قال في تفسير قولهم : « له عِلْمٌ الفقهاء » ، و« له رأيٌ رأيُ الأُصَلاء » : « وإنّما كان الرّفع في هذا الوجه ، لأنّ هذه خِصالٌ تَذكرها في الرّجل ، كالحِلم والعلم والفضل ، ولم ترد أن تخبر بأنّك مررت برجل في حال تَعَلُّمٍ ولا تَفَهُّمٍ ، ولكنّك أردت أن تَذكر الرّجل بفضل فيه ، وأنْ تجعل ذلك خصْلةً قد استكملها ، كقولك : « له حَسَبٌ حَسَبُ الصّالحين » ، لأنّ هذه الأشياء وما يُشبهها صارت تحلية عند النّاس وعلامات ... » ثمّ أردف : « و إن شئت نصبت فقلت : « له علمٌ علمَ الفقهاء » ، كأنّك مررت به في حال تَعَلُّمٍ وتَفَقُّهٍ ، وكأنّه لم يستكمل أنْ يقال له : « عالمٌ » ... » [٣].

وعلى هذا النّحو ميّز بين قولهم : « من ذا خيرٌ منك » ، وقولهم : « من ذا خيراً منك » إذ أوغل إلى ما وراء الفرق النّحوي بينهما في أنّ « خير » ، في الرّفع ، خبر لمبتدأ محذوف في جملة الصّلة ، على تقدير من ذا (الذى) هو خير منك ، وأنّ « خيرا » ، في النّصب حال من الإسم الموصول . قال : « وأمّا قولهم : « من ذا خير منك » ، فهو على قوله « من الّذى هو خير منك » ، لأنّك لم ترد أن تشير أو تومىء إلى إنسان قد استبان لك فضلُه على المسؤول فيُعْلِمَكَه ، ولكنّك أردت : « مَنْ ذا الّذى هو أفضل منك » . فإن

---

(١) حيث ينتصب المصدر على المفعول المطلق نائبا عن فعله .

(٢) إذ يرتفع المصدر خبراً لمبتدأ محذوف وجوبا في التأويل المتعارَف .

(٣) الكتاب (هارون) ١/٣٦١ ، ٣٦٢ . وقد زاد « سيبويه » هذه المسألة بيانا وشقّق فيها القول في هذا الموضع نفسه ولكنّه لم يتجاوز عن هذا الأصل الّذى ذكرنا ، وهو الأصل المفهوم من هذا القدر الّذى اجتزأنا به ، اختصارا .

أومأت إلى إنسان قد استبان لك فضلُه عليه ، فأردت أن يُعْلِمَكَهُ نصبتَ « خيرا منك » ، كما قلت « مَنْ ذا قائما » ، كأنك قلت : إنّما أريد [أن] أسألك عن هذا الّذى قد صار في حالٍ قد فضلك بها . ونصبُه كنصب : ماشأنك قائما »[١] .

وعلى هذا النّحو المعجب ، أيضا ، مَضَى يرسم للنّعت المقطوع منهجه في الإستعمال ولم يكتف بالإشارة إلى أنّ هذا النّعت قد ينتصب [٢] مرادا به التّعظيم ، بل وقف إلى التّعظيم يبيّن مفهومه من خلال قيم المجتمع ، ويبيّن مواضعه من خلال هذه القيم أيضا . وهكذا حتّى تأخذ الحركة ، عنده ، معناها النّحوي ومعناها الإجتماعي ، بل انّه لا يتمّ للحركة معناها النّحويّ عنده ولا يستقيم لها ذلك إلّا إذا وقعت في أبعادها الإجتماعيّة الصحيحة . قال : « واعلم أنّه ليس كلّ موضع يجوز فيه التّعظيم ، ولا كلّ صفة يحسن أن يعظّم بها . لو قلت : مررت بعبدالله أخيك صاحبَ الثّياب أو البزّازَ ، لم يكن هذا ممّا يعظّم به الرّجل عند النّاس ولا يفخّم به وأمّا الموضع الّذي لا يجوز فيه التّعظيم فأنْ تذكر رجلا ليس بنبيه عند النّاس ، ولا معروف بالتّعظيم ثمّ تعظّمه كما تعظّم النّبيه ... »[٣] .

الجملة في سياقها الكلامي

ويعرّف « سيبويه » للجملة حدودها واستقلالها ، ولكنّه أيضا ، يدرك أنّ الجملة جزء من سياق كلاميّ موصول وتراه يتجاوز النّظر إليها في ذاتها ويمدّ بصره إلى ماحولها من عناصر السّياق الكلامي . ثم تراه يعتدّ الموقف الكلامي كلّا واحدا فيغتفر حذف أحد العناصر من الجملة إذا كان في سياقها الكلامي دليل عليه . قال : « فأمّا الفعل الّذى لا يَحسن إضماره فإنّه أن تنتهي إلى رجل لم يكن في ذِكْر ضَرْبٍ ، ولم يخطر بباله ، فتقول :

---

(١) « الكتاب » ، (هارون) : ٦١/٢ .

(٢) على تقدير فعل مستفاد منه المدح أو التعظيم كقولك : « قرأت سيرة صلاح الدّين الأيّوبيّ فاتحَ القدس » .

(٣) « الكتاب » (هارون) : ٦٩/٢ .

« زيدا » ، فلابدَّ له من أن تقول له: « اضرب زيدا » . . . وأمّا الموضع الّذي يُضمَر فيه واظهارُه مستعمل ، فنحو قولك « زيدا » ، لرجل في ذكر ضَربٍ تريد: « اضرب زيدا » . . . »[1]

سياق الحال جزء من اللّغة

و على نحو ما يلاحظ « سيبويه » أنّ الكلام يتألّف من عناصر لغويّة خالصة ، يلاحظ أنّه قد يقوم على عناصر لغويّة ، وعناصر أخرى من العالم الخارجيّ نراها ، أو نسمعها أو نمسّها ، أو نشمّها ، أو نذوقها . و تصبح هذه الأشياء الواقعة في مجال خبرة الحواسّ ، عنده ، كأنّها أجزاء في بناء اللّغة تقوم مقام العناصر اللّغويّة الخالصة من الألفاظ .

قال في باب عقده في حذف المبتدأ و ذكر الخبر[2] : « و ذلك أنّك رأيت صورة شخصٍ فصار آيةً لك على معرفة الشّخص فقلت : « عبدُالله . . . » كأنّك قلت : « ذاك عبدُالله » ، أو « هذا عبدُالله » . أوسمعتَ صوتا فعرفتَ صاحب الصوت فصار آيةً لك على معرفته فقلتَ : « زيدٌ . . . » أومسِسْتَ جسدا أوشممتَ ريحا فقلتَ : « زيدٌ » ، أو « المسكُ » ، أو ذقتَ طعاما فقلتَ : « العسلُ » . . . »[3] .

وهذه آيات دالّة على أنّ « سيبويه » أدرك مايكون من اندغام اللّغة في نظامها الدّاخليّ الخاصّ ، بالحياة في مجالها الخارجيّ العام ، أو أدرك أنّ بين اللّغة وسياقها الإجتماعي علاقة عضويّة ، كما يعبّر النّاس هذه الأيّام .

صور ثقافيّة

ويدرس « سيبويه » حذف الفعل[4] ، و يحصي مواضع من مواضعه ، و هو يربط

---

(١) « الكتاب » (هارون) : ٢٩٦/١ و٢٩٧ .

(٢) عبّر عنه « سيبويه » بقوله : « هذا باب يكون المبتدأ فيه مضمَرا و يكون المبنيّ عليه مُظْهَرا » . الكتاب (هارون): ١٣٠/٢ .

(٣) « المصدر السابق » في الموطن المتقدّم نفسه .

(٤) في غير المواقع الّتي ينوب عنه فيها المصدر أمرا أو نهيا (صبرا ، قياما لاقعودا) .

كلّ موضع من مواضع الحذف بملابسات من السّياق أو مواقف و الإجتماع تعوّض الحذف وتدلّ عليه، فكأنّ عنصرا لغويّا حُذِف، وعنصرا اجتماعيّا ذُكِر، أو كأنّ الموقف اللغويّ ليس إلّا مزيجا وثيقا من عناصر هذا النّظام اللّغوى و معطيات ذلك الواقع الإجتماعيّ من حوله.

وعلى هذا النّحو يسعدنا «سيبويه» بصور ثقافيّة من حياة المجتمع الإسلاميّ كانت بدلا من عناصر لغويّة تحذف، قال: «اذا رأيت رجلا متوجّها وجهة الحاجّ، قاصدا في هيئة الحاجّ، فقلت: «مكّةَ» . . . . . . كأنّك قلت: يريد«مكّة» . . . .»[1]

«ولو رأيتَ ناسا ينظرون الهلال وأنت منهم بعيد فكبّروا لقلتَ: «الهلالَ» . . . أى أبصروا الهلالَ . . .»[2]. وقال في تفسير قولهم: «بيع الملَطى[3] لاعهدَ ولاعقدَ»: «وذلك إنْ كنتَ في حال مساومةٍ وحال بيع، فتدعُ «أبايعكُ» استغناءً بما فيه من الحال . . .»[4]

وعلى هذا النّحو أيضا، يسعدنا «سيبويه»، في مبحث آخر، بصور من مواضعات التعامل التّجاري في بعض أقاليم العالم الإسلاميّ. قال: «وأمّا قول النّاس: كان البُرُّ قفيزَين، وكان السّمن مَنَوَين، فإنّما استغنَوْا هاهنا عن ذِكْر الدّرهم لِما في صدورهم من عِلمه، ولأنّ الدّرهم هو الّذى يسعّر عليه، فكأنّهم إنّما يسألون عن ثمن الدّرهم في هذا الموضع، كما يقولون: البرّ بستّينَ، وتركوا ذكر الكُرّ[5]؛ استغناء بما فى صدورهم من عِلمه، و بعلم المخاطب، لأنّ المخاطب قد علم مايَعني، فكأنّه إنّما يَسأل هنا عن ثمن «الكُرّ» كما سأل الأوّلُ عن ثمن الدّرهم . . .»[6]

---

(١) «الكتاب» (هارون) ٢٥٧/١ .

(٢) «الكتاب» (هارون) : ٢٥٧/١ .

(٣) الملَطى: البيع بغير رجوع .

(٤) «الكتاب» (هارون) ٢٧٢/١ .

(٥) الكر، بالضمّ، مكيال لأهل العراق، ستونّ قفيزاً أو أربعون إردبّا .

(٦) الكتاب (هارون) ٣٩٣/١ .

السّياق وأمن اللّبس

وتنبّه «سيبويه» إلى دور السّياق في أمن اللّبس، وتحديد «البناء الجوّاني»[1] المقصود من «البناء البرّاني»[1] ذي الاحتمالات فقد لاحظ أنّ قولنا:

«ما أتاك رجل» على هذا «البناء البرّاني» الواحد يحتمل دلالات ثلاثا باطنة:

أوّلها: «ما أتاك رجل واحد بل أكثر».

والثّاني: «ما أتاك رجل ذكر بل أمرأة».

والثّالث: «ما أتاك رجل قويّ نافذ بل ضعيف».

وإذن يكون لاحظ أنّ كلمة «رجل» مُرَشَّحة لأن تُخْلَص لِشُعْبة من شعب معناها الصّرفي وهي العدد كما أنّها مرشّحة لأن تُخلَص لشعبة أخرى من شعب المعنى الصّرفيّ وهي الجنس، وأنّها، أيضاً، مرشّحة لأن تُخلَص لأحد ظلال المعنى الدّلاليّ (الرّجولة قوّة ونفاذا)، ولاحظ، أيضا، أنّ «سياق الكلام والحال وما يكتنفه من قرائن وموضع الجملة منه هو العامل الحاسم في التّمييز ونفي اللّبس». قال: «يقول الرّجل: «أتاني رجل»، يريد واحدا في العدد لا اثنين فيقال: «ما أتاك رجل»، أي أتاك أكثرُ من ذلك، أو يقول: «أتاني رجل لا أمرأة» فيقال: «ما أتاك رجل»، أي «أمرأة أتتك»، ويقول: «أتاني اليوم رجل»، أي في قوّته ونفاذه، فتقول. «ما أتاك رجل»، أي أتاك الضّعفاء.»[2]

---

(١) البناء البرّاني و البناء الجوّاني ترجمة نرتضيها لعبارتَي Surface Structure و Deep (Undorlyiog) Structure، على التّرتيب، فإنّ للفظَي: «البرّاني» و «الجوّاني» وجودا معاصرا من جهة ووجوداً تاريخيّا من جهة أخرى، وفي حديث «سلمان»: «انّ لكلّ امرىء جوّانيا وبرّانيا. فمن أصلح جوّانيّه أصلح الله برّانيّه» وهذان اللّفظان، من بعد، متقابلان، وإيحاؤهما الدّلالي يفيد أن بينهما علاقة تمازُج وتوافق أو تخالُف، مقاربة للمراد بالعبارتين في الإنجليزيّة في اصطلاح نظريّة النّحو التّحويلي.

(٢) «الكتاب» (هارون) ١/٥٥.

البناء الجوّاني في ضوء المعطيات الخارجيّة :

وفي هذه السّبيل ، أيضا ، ما يعقد «سيبويه» من ذلك الباب في «استعمال الفعل في اللفظ لا في المعنى لاتّساعهم في الكلام ، والايجاز والاختصار» ، اذ تناول فيه تراكيب من اللّغة جارية على مقاييس الشّكل النّحويّ العربيّ لو اقتصر فيه على علاقات الشّكل. ولكن «سيبويه» لا يقف عند ذلك ، مع قربه ووضوحه ، بل يحاكم هذه التّراكيب إلى معطيات العالم الخارجي أو إلى وقائع المجال الإجتماعي الّذي تستعمل فيه ، فيكشف عن أبنيتها الجوّانية ، مفسّرا كيف إنتهى اليها أهل اللّغة توسّعا واختصارا واستغناء بخبراتهم الخاصّة.

و من أمثلة هذا الباب عنده : « أن تقول على قول السّائل : كَمْ صِيدَ عليه ؟ وكَمْ غيرُ ظَرفٍ لما ذكرت لك من الإتّساع والإيجاز ، فتقول : « صِيدَ عليه يومانِ » . وإنّما المعنى صيد عليه الوحشُ في يومين ؛ ولكنّه اتّسع واختصر . ولذلك أيضا وضع السّائلُ كم غيرَ ظَرفٍ . ومن ذلك أن تقول : « كم وُلِدَ له » ؟ فيقول : « ستّون عاما » . فالمعنى وُلِدَ له الأولادُ ووُلِدَ له الوَلَدُ ستّين عاما ، ولكنّه اتّسع وأوجز »[1].

وواضح أنّ قولنا : «صيد عليه يومان» ، في بنائه البرّاني ، مطابق قولنا : « صيد عليه غزالان » ، و « استُدْرِك عليه مسألتان » ، و « أُخِذ عليه أمران » ، و أنّ العلاقة الشّكليّة بين «يومان» و «صيد» هي علاقة النّائب عن القائل بفعله المبنيّ للمجهول . وذلك شأن قولنا «ولد له ستّون عاما» .

ولكن الأيّام والأعوام ، حين نحتكم إلى المواضعات الإجتماعيّة ، لا تصاد ولا تولد ، انّما يصاد فيها ويولد فيها ، فهي ظروف ومادام الّذي يصاد ويولد متعيّنا معروفا بما تؤدّي اليه الخبرة الإجتماعية المشتركة فقد حذف .

ولاريب أن استئناس «سيبويه» بهذه الأضواء الخارجيّة هو الّذي هداه إلى الفرق الجوّاني بين تركيبين لهما شكل برّاني واحد مثل : « صيد عليه غزالان » ، و «صيد عليه يومان» .

---

(١) « الكتاب » (هارون) ٢١١/١ .

محاكمة التراكيب إلى مقتضياتها في الخارج :

ويعرض « سيبويه » ، كذلك ، لأنماط متعارفة في الإستعمال مثل قولهم : « كَلَّمْتُهُ فاه إلى فيّ » و « بايَعْتُه يداً بيد . . . » فلا يكتفي بأن يخرّج لها معانيها النحويّة ، بل يمضي يفسّر هذا التلازم التركيبيّ بين عناصرها . ويحتكم في ذلك إلى مدلولات هذه الأنماط عند أبناء اللّغة ، فيلاحظ أنّ هذه المدلولات ، في مقتضياتها الخارجيّة ، مركّبة ، وأنّها تستلزم في التعبير عنها « مُرَكَّبا » من العناصر اللّغويّة . قال : « واعلم أنّ هذه الأشياء لا ينفرد منها شيء دون ما بعده ، وذلك أنّه لا يجوز أن تقول : « كلّمته فاه » حتّى تقول : « إلى فِيّ » ، لأنّك إنّما تريد مشافَهَةً ، والمشافهةُ لا تكون إلّا من اثنين ، فإنّما يصحّ المعنى اذا قلت : « إلى فِيّ » ولا يجوز أن تقول : « بايعتُه يداً » ؛ لأنّك إنّما تريد أن تقول : « أخذ منّي وأعطاني » ، فإنّما يصحّ المعنى إذا قلتَ : « بيد » لأنّهما عَمَلان . . . »[1]

وفي هدى هذا التوجيه لا يستقيم عند « سيبويه » أن تقول : « هذا أنت » . وهو يعلّل ذلك بـ « أنّك لا تُشيرُ للمخاطب إلى نفسه ولا تحتاج إلى ذلك ، وإنّما تُشير له إلى غيره »[2] .

وهو يستمدّ هذا التعليل من تحليل موقف الإشارة ؛ لاحظ أنّه يقوم في المواضعات المألوفة على جهات ثلاث : المتكلّم (المشير) ، والمشار إليه ، والمخاطب (المشار له) ، ولاحظ أنّ المخاطب جهة لازمة هذه الجهات ، ولكنّه جهة واحدة ، فلا يجوز في حكم التحليل الخارجي للعبارة أن يكون المخاطب مشارا إليه ومشارا له في آن معا .

ولو وقف « سيبويه » عند حدّ النظرة الداخلية المجرّدة لكان حقّا عليه أن يجيز قول القائل : « هذا أنت » كما يجيز قولنا : « هذا سور القدس » ، « هذا جوابهم » . . . الخ .

السّياق معيار صواب وخطأ :

ويبلغ « سيبويه » من اعتبار موقف الإستعمال أن يجعله فيصلا في الحكم بصحّة

---

(١) « الكتاب » (هارون) : ٣٩٢/١ .

(٢) « المصدر السّابق » : ١٤١/١ .

التّراكيب النّحويّة وخطئها . ومن ذلك أنّك تراه يقف إلى الجملة الواحدة فيحكم عليها ، في موقف من الإستعمال ، بأنّها خطأ ، وفي موقف من الاستعمال آخر ، بأنّها صواب . وهذه الجملة ، لو اكتفي بالنّظرة الشّكليّة الذّاتيّة ، جملة نحويّة جائزة . ولكنّ اللّغة ، عنده ، لم تكن تنفكّ عن ملابسات استعمالها ، و مقاييسُ اللّغة عنده تستمدّ من معطيات النّظام الدّاخليّ للبناء اللّغويّ كما تستمدّ من معطيات السّياق الإجتماعي الّتي تكتنف الإستعمال اللّغويّ .

قال يدارس هذه الجملة : « أنا عبدالله منطلقا » : « . . . وذلك أنّ رجلا من إخوانك ومعرفتك لو أراد أن يخبرك عن نفسه أو عن غيره بأمر فقال : « أنا عبدالله منطقا » ، وهو زيد منطقا ، كان مُحالا ، لأنّه إنّما أراد أن يخبرك بالإنطلاق ، ولم يَقُلْ « هو » ولا « أنا » حتّى استغنَيْتَ أنت عن التّسمية ، لأنّ « هو » و « أنا » علامتان للمضمر ، و إنّما يضمر إذا علم أنّك قد عرفت من يعني . إلّا أنّ رجلا لو كان خلفَ حائط أو في موضع تجهله فيه فقلت : « من أنت » ؟ فقال : « أنا عبدالله منطلقا في حاجتك » ، كان حسنا »[1].

الجواز النّحويّ والمتغيّرات الخارجيّة :

ومن المعجب أن نجد « سيبويه » ينفذ إلى إدراك العلاقة بين اختيار إحدى صور جائزة [2] في تركيب نحويّ واحد وبين اختلاف أحوال المتكلّم في موقفه من عناصر ذلك التّركيب . وذلك حيث يعرض للجملة الفعليّة الّتي فعلها متعدّ ، نحو : « ضرب عبدالله زيدا » . فقد أشار إلى صورة أخرى جائزة في هذه الجملة وهي : « ضرب زيدا عبدالله » ، بتقديم المفعول على الفاعل ، ولاحظ أنّ المعنى النّحويّ لـ« زيد » و « عبدالله » غير مختلف في كلتا الجملتين ، ثم فسّر الإختلاف الجائز في ترتيبهما بأنّهم « إنّما يقدّمون

---

(١) الكتاب (هارون) ٢/٨٠، ٨١ .

(٢) قارن هذه المسألة بما يقول « بيرلنج » في كتابه : - « Man's many voices P. 69 » حيث يرى أن المتغيّرات الخارجيّة إنّما تؤثّر في اللّغة في تلك المواضع الّتي يبيح فيها النّحو الإختيار (أي يُدْخِلها في سَعَة الجواز) ، فإنّ « سيبويه » يبدو كأنّه قد رادَ هذه الطريق ، عَمَليًّا ، منذ اثني عشر قرنا .

الّذى بَيَانُه أهمُّ لهم ، وهم ببيانه أعْنَى ، و إن كانا جميعا يهمّانهم ويعنيانهم » [١].

وواضح بذلك أنّه تنبّه إلى أثر المتغيّرات الخارجيّة (كالمتكلّم وموقفه الخاصّ من كلّ من العنصرين) في اختيار أحد وجهين وجائزين في مقياس النّحو . و واضح بذلك أنّه يرسم لأبناء اللّغة أن يساووا بين المتغيّرات الخارجيّة و بين الوجوه الجائزة المناسبة عند استعمال اللّغة .

وقد طَرَدَ «سيبويه » هذه القاعدة على نحوٍ يدلّ على أنّها كانت قائمة في نفسه جزءا من منهجه النّحويّ ، إذ طبّقها على مسألة الجواز في ترتيب الفاعل مع المفعول كما تقدّم ثمّ طبّقها على مسألة الجواز في ترتيب النّائب عن الفاعل مع المفعول[٢]، ثم طبّقها على مسألة الجواز في ترتيب اسم كان مع خبرها [٣] . . . وهو في كلّ ذلك يربط هذه المسائل المتعدّدة بعضها ببعض ، ويردّها جميعاً إلى تلك القاعدة [٤] .

المتكلّم

ويمتحن « سيبويه » الفعل « رأى » فيرى له عمقين دلاليّين : فهو يأتي على معنى الإبصار الحسيّ (رؤية العين) وعلى معنى العلم التّضمنيّ ، ويرى له ، أيضا ، معنيّين نحويّين ،

---

(١) «الكتاب» (هارون) : ٣٤/١.

(٢) «المصدر السّابق» : ٤٢/١ .

(٣) «المصدر السابق» : ٤٥/١، ٤٧ وانظر أيضا ٥٦/١، ٨١ .

(٤) قال (الكتاب ٤٢/١) : « وان شئت قدّمت وأخّرت فقلت : « كُسِيَ الثوبَ زيدٌ» ، و « أُعطي المالَ عبدُالله» ، كما قلت : «ضرب زيدا عبدُالله» . فأمره في هذه كأمر الفاعل» . وقال ، أيضا (الكتاب ٤٥/١) : « وان شئتَ قلتَ : «كان أخاك عبدُالله» ، فقدّمتَ و أخّرتَ كما فعلتَ ذلك في «ضرب » لأنّه فعل مثله ، وحالُ التّقديم والتّأخير فيه كحاله في «ضرب» . . .» وقال ، ثالثا (الكتاب ١ / ٤٧) : « ... كان زيدٌ حليما ، وكان حليما زيدٌ ، لاعليك أقدّمت أم أخّرت ، إلّا أنّه على ما وصفتُ لك في قولك : ضرب زيدا عبدُالله ... »

فهو، على معنى الإبصار، يتعدّى إلى مفعول واحد، وهو، على معنى العلم، يتعدّى إلى مفعولين، ويفزّع «سيبويه» في البيان عن فرق ما بين المعنيين إلى المجال الإجتماعي ويجرّد من معطياته موقفا ساطع الدّلالة هو موقف المتكلّم إذا كان أعمى فيقول متسائلا: «ألا ترى أنّه يجوز للأعمى أن يقول: «رأيت زيدا الصالحَ»...» (١).

وواضح أنّه، هنا، يحاكم التّعبير اللّغوي إلى ملابساته الخارجيّة، فينظر في حال المتكلّم ويجعله فيصلا في الحكم النّحوي جوازا ومنعاً.

ولو أراد دارس معاصر في علم اللّغة الإجتماعي أن يصوغ مقالة «سيبويه» هذه على نحو آخر لقال انّ استعمال الفعل «رأى» يختلف بين أن يكون المتكلّم أعمى وأن يكون بصيرا، فإذا كان مبصرا استطاع أن يستعمله على وجهين فيقول مثلا: «رأيت الهلال»، «رأيت الوحدة قوّة»، وإذا كان أعمى فإنّه يمكن له أن يستعمله على الوجه الثّاني دون الأوّل. ويكون هذا الفرق قائما على حقيقة خارجيّة، وإلّا فإنّ اللّغة في نظامها الدّاخلي الذّاتي لاتقيم هذا الفرق ولا تقول في هذا الموضع بجواز ومنْع.

المعنى الفرديّ:

وعرض «سيبويه» لـ«قال» وتصاريفها وأنّها «إنّما وقعت في كلام العرب على أن يُحكى بها» ثمّ وقف إلى أنّهم يستثنون من ذلك «تَقولُ» في الإستفهام اذ يشبّهونها بـ«تظنّ». قال: «ولم يجعلوها كـ«يظنّ» و«أظنّ» في الإستفهام، لأنّه لايَكادُ يُستَفْهَمُ المخاطَبُ عن ظنّ غيره، ولايُستَفهم هو إلّا عن ظنّه» (٢). وكأنّما يصنّف «سيبويه» موضوعات الإستفهام إلى معان فرديّة خاصّة لايعلمها إلّا الفرد أوْ لايكاد يعلمها غيره، وهي الخفيّ المستكنّ من خواطره و هواجسه ونواياه، وظنونه، وأمور فرديّة ظاهرة للنّاس يعلمونها عنه على نحوٍ ممّا يعلمها هو.

---

(١) «الكتاب» (هارون): ٤٠/١. وواضح أنّ «الصّالح» هنا ليس نعتا لـ«زيد» وانّما هو مفعول ثان لـ«رأى».

(٢) «الكتاب» (هارون): ١٢٢/١.

وهكذا تستفهم المخاطب ، إن استفهمته ،عمّا يكون من أمره هو ظاهرا (أتسافر إلى «الأندلس») وباطنا (أتظنّ الإنسان شريرا ؟) ، ولكنّك لاتستفهمه عن أمر غيره إلّا ما ظهر (أيواظب أخوك على عمله؟) ، أمّا الظنّ الباطن في نفوس الآخرين فهو ما لايستفهم عنه إلّا صاحبه . ولا يسوغ لك أن تسأل مخاطبك : «أيظنّ إياد الإنسان شريرا ؟ » أو « أظنّ الإنسان شريرا » ؟

اختلاف موقف الخِطاب :

وقد التفت « سيبويه » إلى أنّ لموقف الخِطاب حالات متباينة ، والتفت إلى أنّ العبارة اللّغويّة تتباين على قدر ذلك.

فإذا كنت تستمهل رجلا ، على حِدَتِه ، رأيته يعالج شيئا قلت : « رُوَيدا » ، وكذا إذا كنت تستمهل اثنين أو ثلاثة أو كنت تستمهل امرأة أو أكثر . . .

أمّا إذا كنت تستمهل رجلا ، في جماعة ، فإنّك تقول : « رُوَيْدكَ » ، وكذا إذا كنت تستمهل امرأة في جماعة فإنّك تقول : «رويدكِ » . . الخ.

قال « سيبويه » : « وهذه الكاف التي لَحِقَت « رُوَيدا » إنّما لحِقَت لتُبيِّنَ المخاطَبَ المخصوصَ لأنّ « رُوَيْدَ » تقع للواحد والجميع ، والذّكر والأنثى ، فإنّما أَدخل « الكافَ » حين خاف التباسَ مَنْ يَعني بمن لايعني ، وإنّما حذفَها في الأوّل استغناء بعلم المخاطَب أنّه لايَعني غيره »[1].

وكما تختلف العبارة وفقا لحالة الإنفراد والإجتماع تختلف وفقا لحالة المخاطَب من الإقبال والإنصراف . . . فإذا قصدت إلى خِطاب الرّجل وهو غير مُقْبل عليك غير متنبّه إليك قلت : « يا فلانُ » ، أنت تَفْعَلُ ، فتبدأ بالنّداء حتّى يُقْبِلَ عليك ، أمّا « إذا كان مُقْبِلا عليك بوجهه مُنْصِتاً لكَ »[2] فانّك تقول : «أنت تَفْعَلُ » ، فتترك « يا فلانُ » «استغناء بإقبالِه عليك »[2] .

---

(١) «الكتاب» : (هاون) : ٢٤٤/١ .

(٢) المصدر السّابق في الموطن السّابق . ومن أمثلة ذلك ماحكى من عبارتَيْ :

←

اللّغة ظاهرة اجتماعيّة :

وأدرك « سيبويه » أنّ اللّغة ظاهرة لازمة للإجتماع الإنساني . وهي، عنده، إنّما تعبّر عن الأشياء حين تقع في مجال الخبرة الإنسانيّة . والتّعبير اللّغوي عن معطيات العالم الخارجيّ يكون عامّا مشتركا أو محدّدا مختصّا وفقا لمدى العلاقة بين هذه المعطيات والحياة الإجتماعيّة .

قال يفسّر منْعَ الأسد وما أشبهه أن يكون له عَلَمٌ شَخْصِيٌّ ، بعد ما لاحظ أنّ العَلَم، في الحيوان ، يكون للجنس (أسامة للأسد، وثعالة للثّعلب. . .) : « وإنّما منع الأسدَ وما أشبهه أن يكون له اسمٌ معناه معنى « زيد » ،أنّ « الأُسْدَ» وما أشبهها ليست بأشياءَ ثابتة مقيمة مع النّاس فيحتاجوا إلى أسماء يَعرفون بها بعضا من بعض، ولا تُحْفَظُ حُلاها (١) كَتَحفّظِ ما يَثْبت مع النّاس ويقتنونه ويتّخذونه. ألاتراهم قد اختَصّوا « الخَيْلَ » و « الإبلَ » و «الغنم» و «الكلاب» وماثبت معهم واتّخذوه بأسماء ك«زيد» و «عمرو». . . »(٢).

ويدلّ على وضوح هذه الحقيقة في نفسه أنّه احتجّ بها من وجهها الآخر حيث جعل تعبير اللّغة عن المعطيات الخارجيّة بطريقة محدّدة مختصّة دليلا على قربها من الانسان ، قال : « . . . . والأماكن إلى الأناسيّ ونحوهم أقربُ (٣) . ألاترى أنّهم يَخُصّونها بأسماء ك«زيد» و « عمرو » ، وفي قَوْلِهم : « مكّةُ » و « عمان »

←

« سقيا و سقيا لك » في الدّعاء قال : « أمّا ذكرُهم «لك» بعد «سَقْيا » فإنّما هو ليبيّنوا المعنيَّ بالدّعاء . وربّما تركوه استغناءً ، إذا عرَفَ الدّاعي أنّه قد عُلِم من يَعني ». («الكتاب»، هارون، ٣١٢/١).

---

(١) جمع « حلية » ، وهي ـ بالكسر ـ الخلقة والصّورة والصّفة (القاموس المحيط ـ حلى) .

(٢) «الكتاب» (هارون): ٩٤/٢ .

(٣) يعني أقرب من الأزمنة، ذلك أنّه ذهب إلى أنّ الزّمان أقرب إلى الفعل.

ونحوهُما . . »[١].

التّحليل النّحويّ والتّركيب الإجتماعي :

ويبلغ من إحساس « سيبويه » بـ« اجتماعيّة » اللّغة أن يحلّل التّراكيب النّحويّة، ويفسّرها على أنّها صور من التّركيب الإجتماعي لأهل اللّغة . ونراه ينظر إلى مايكون من علاقات الكلمات داخل التّراكيب في ضوء ما يكون من علاقات الأفراد في مجتمع يقوم على اعتبار الأنساب و رعاية روابط الدّم [٢] . و نراه يستعين على تحليل بعض التّراكيب، والكشف عن أبنيتها الجوّانيّة بمفاتيح من فهم المواضعات الإجتماعيّة في مراعات العلاقات الخاصّة الّتي تربط بين النّاس . يقول في تعليل جواز أن نقول : « زيدا » لقيت أخاه، بنصب « زيد » : « أنّه (أي الفعل لقي) إذا وقع على شيءٍ من سببه (أي سبب « زيد » و ذلك « أخاه ») فكأنّه قد وقع به » (هكذا ينتصب)[٣] : ويُردِف قائلا : « والدّليل على ذلك أنّ الرّجل يقول : « أهنتَ زيدا » بإهانتك « أخاه »، وأكرمته بإكرامك « أخاه » . وهذا النّحو في الكلام كثيرٌ ، يقول الرّجل: إنّما أعطيتُ « زيدا »[٤]، و إنّما يريد : « لمكانِ زيد أعطيتُ فُلانا» . . . »[٥].

---

(١) «الكتاب» (هارون) : ٣٦/١ و ٣٧ .

(٢) هذا حكم لايقصَد به الإطلاق . والمقصود به، على التّحديد، حال المجتمع العربي في الجاهليّة ، وصور من استشعاره للعصبيّة ، والمظاهر الإيجابيّة من رعاية القربى في الاسلام .

(٣) «الكتاب» (هارون) : ٨٣/١ .

(٤) واضح أنّ جملة: «أعطيت زيدا» يمكن أن تفيد معنيين : الأوّل معنى « البناء البرّاني» ويتمثّل في أنّ الفعل (اعطى) و فاعله (التّاء) ومفعوله (زيدا) ، والثّاني معنى « البناء الجوّاني » ، وقد استدلّ عليه « سيبويه » بمواضعات المجتمع، و يتمثّل في انّ الفعل (أعطى) فاعله (التّاء) أمّا مفعوله فهو (رجل) تربطه بـ«زيد» علاقة ما . . وليس « زيدا» نفسه .

(٥) «الكتاب» (هارون) : ٨٣/١ .

اللّغة والمجتمع :

ويبدولنا أنّ «سيبويه» ، في موقفه من اللّهجات ، كان يترجم ملاحظاته هذه في إدراك العلاقة بين اللّغة والمجتمع . فهو ، في موقفه منها ، يعبّر عن وعي بصير بدور اللّغة الواحدة المشتركة في صياغة المجتمع الواحد .

ذلك أنّنا نراه ، في كتابه يتجاهل واقع اللّهجات القائم على التّفاوت ، ونراه يتناول هذه اللّهجات ، مع اختلافها ، على أنّها موادّ نظام لغوي واحد أو طبقات صرح لغويّ واحد . وهكذا نجد لديه اللّهجتين المتباينتين تدخلان في بناء العربيّة الواحد ، وتخضعان لنسق من الأحكام واحد ، ونجده يتجاهل الإزدواج النّاجم عن ذلك في إطار التّوجيه المقدّس للتّوحيد ، حيث ترى كلّ قبيلة سماتها اللّغويّة الخاصّة تسهم في إشادة الصّرح إسهامَ أبنائها من فلذات الأكباد .

قال في بيانه عن علامات في الأسماء وتمثيله لها : «فالفتح في الأسماء قولهم : «حَيْثَ» و«أيْنَ» و«كَيْفَ» . والكسر فيها نحو : «أولاءِ» و«حذارِ» و«بدادِ»[1] . والضمّ نحو : «حيثُ» و «قبلُ» و «بعدُ» . والوقف[2] نحو «مَنْ» و «كَمْ» و «قَطْ» و «إذْ»[3] .

والحقّ أنّ بناء «حيث» على «الضمّ» كان وجها عند بعض القبائل ، وأن بناءها على «الفتح» كان وجها في «بني يربوع» و«طهيّة» (من تميم)[4] . و معلوم أنّه يكون لكلّ فريق مذهب واحد فيها . أمّا هذا المذهب المزدوج فهو المثل الشّمولي المتّحد الّذي يرسمه «سيبويه» .

---

(١) يقال : «جاءت الخيل بدادِ» أي متفرّقة متبدّدة . و «ذهب القوم بدادِ بدادِ» أي واحدا واحدا ، مبنيّ على الكسر لأنّه معدول عن المصدر وهو البَدَد .. الخ «اللّسان» (بدد) .

(٢) أي السّكون كما شاع في الإصطلاح من بعد .

(٣) «الكتاب» (هارون) : ١٥/١ .

(٤) اللّسان (حيث) .

ومن أمثلة هذا، أيضا، ما نجد لديه من جعل السّمة اللّهجيّة الخاصّة بمنزلة الظّاهرة اللّغويّة العامّة، وهو في ذلك يُلمّح إلى أنّ تلك سمة لهجيّة، ولكنّه يتجافى عن عزْوها فلا ينسبُها، وتلك خطوة حاسمة في إغفال التّميّز القبليّ.

قال في بيانه عن علامات البناء في الحروف: «... والضمّ فيها: «منذُ»، فيمن جرّبها...»[1]. ويصبحُ الضمّ علامة بناء للحرف في «نحْو العربيّة»، وهو، فيما كان، علامةُ بناء للحرف في «نحْو اللّهجة الحجازيّة»[2].

ونراه يلمّ شوارد اللّهجات الخاصّة، ويضبطها بأصل في اللّغة المشتركة فلا يفهمها على حِدَتها وَفْقَ قواعد مستقلة، بل يسلكها جميعا في النّظام الفصيح المنشود.

فقد تأوّل «قول بعض العرب: لَيْسَ خَلَقَ اللهُ مثلَه»[3] على «أنّ فيه إضمارا»[3] «مثلُ ما في إنّهُ»[3] يريد ضميرَ الشأن في قولهم: «إنّه مَنْ يأتِنا نَأْتِه»[4] ورَدّ هذا النّمط في استعمالها إلى الأصل الغالب الشّائع حيث تكون فعلا ناقصا يدخل على الجملة الإسميّة، ولم يفسّر «ليس» على ظاهرها هنا بأن يَحْمِلَها على «ما» في الدّخول على الجمل الفعليّة وإفادة النّفي. بل أنّه ساق هذا الوجه الظّاهر، وسرد بعض أمثلته، ودفعه. قال: «وقد زعم بعضهم أنّ ليس تُجْعَل كـ«ما»... والوجهُ والحَدُّ أنْ تَحْمِلَه على أنّ في «ليس» إضمارا...»[5].

ونظر في قول العرب: «إذا كان غدٌ فأتني»، فاعتدّ (غد) فاعلا لـ«كان»، ثمّ نظر أخرى فوجد «تميم» تقول: «إذا كان غداً فأْتني» ففسّره على أنّ «المعنى أنّه لقي رجلا فقال له: إذا كان ما نحن عليه من السّلامة أو كان ما نحن عليه من

---

(١) «الكتاب» (هارون): ١٧/١.

(٢) الّذين يبنونها على الضمّ ويجرّون بها، فيما حكى «الأخفش»، هم «الحجازيّون». وأنظر: «شرح الكافية»: ١١٠/٢.

(٣) «الكتاب» (هارون): ٧٠/١.

(٤) «المصدر السّابق»: ٦٩/١.

(٥) «المصدر نفسه»: ١٤٧/١.

facebook: @jsatl.shiraz

البلاء في «غدٍ» فَأْتني ، ولكنّهم أضمروا استخفافا »[1] فتأوّله ، على ما نرى، بإسقاط الفاعل لدلالة قرينة السّياق عليه ، وجعل «غدا» ظرفا ، متجاهلا أنّ هذا الفَرْقَ بين رفعٍ ونصبٍ واقعٌ في مجالين لغويّين مختلفين ، وأنّه فرق حادث قد يعود إلى حقائق تطوّر نظام الأعراب[2] . . . فطبّق حكما واحدا ، مطوّعا ما نَدّ من شواذّ اللّهجات لنسق العربيّة الواحدة .

ويصبح الأمر عنده مزاجا لغويّا متداخلا وثيقا ، تضيع فيه نقطة البدء ، وذلك حيث نراه يجعل السّمة اللّهجيّة الخاصّة حجّة على الظّاهرة اللّغويّة العامّة ، إذ يعلّل ما يكون في العربيّة من ثبوت الألف في الأفعال الخمسة على حالات الإعراب (هما يفعلان، ولم يفعلا، ولن يفعلا) ومايكون من ثبوت نون النّسوة على هذه الأحوال المختلفة (هنّ يفعلن، لَم يفعلن ، لن يفعلن) ، بمايلاحظ من ثبوت الألف علامة إضمار وتثنية (أكرماني والداك) ، وثبوت نون النّسوة علامة إضمار و جمع (رأين الغَواني الشّيب لاح بعارضي)، في لغة « أكلوني البراغيث »[3] ثمّ يحتجّ لهذه السّمة اللّهجيّة الخاصّة نفسها « لغة أكلوني البراغيث » بملحظ من اللّغة المشتركة ، إذ يعلّل ما رأى من تثنية بعض العرب للفعل مع فاعله الإسم الظّاهر المثنّى (أكرماني والداك) وما رأى من جمعهم له مع فاعله الإسم الظّاهر الدّالّ على الجمع (أعانونني أصدقاؤك) ، على خلاف الأصل السّائد في توحيد الفعل مع فاعله مفردا كان (قال لي صاحبي . .) أو مثنى (قال رجلان من الّذين يخافون . . .) أو جمعا (قال الظّالمون . .) يعلّل ما رأى من ذلك بما لاحظ من تأنيث الفعل مع فاعله المؤنّث (قالت أميمة ما لجسمك شاحبا) . يقول : « كأنّهم

---

(١) «الكتاب» (هارون) : ٢٢٤/١.

(٢) هناك بيان مفصّل عن هذه المسألة في مقالة لكاتب هذه السّطور ، عنوانها «ظاهرة الإعراب في اللّهجات العربيّة القديمة» ستنشر في العدد القادم من «مجلة الأبحاث» (الجامعة الاميركيّة في بيروت) أوائل عام ١٩٧٤ م .

(٣) «الكتاب» (هارون) : ١٩/١و٢٠ .

أرادوا أن يجعلوا للجمع علامةً كما جعلوا للمؤنّث »[1] .

وهكذا حَمَلَ الأصل في «ألف الإثنين» و «نون النّسوة» على أحوال الإعراب على الفرع الشّاذ من ثبوت «ألف الاثنين» و «نون النّسوة» في لغة «أكلوني البراغيث» . ثمّ عاد يحمل هذا الفرع الشّاذ (لغة أكلوني البراغيث) على أصل آخر مطّرد في العربيّة هو تأنيث الفعل بـ «التّاء» مع فاعله المؤنّث .

وهذا موقف من المُداخَلَة لا يغفره لـ «سيبويه» إلّا أنّه يستجيب لحركة المجتمع يومذاك في نُزوعها إلى المثال الجامع الواحد .

وقد رصد « سيبويه » ، على هذا الصّعيد ، جانبا من عمليّة التوحّد اللّغويّ تَمَثَّلَ في تنازُل القبائل عن بعض سماتها اللّهجيّة إمتثالا لـ «لغة القرآن» واستجابة للتّوجيه الجديد . فقد استشهد على « ما » الحجازيّة بقوله تعالى : « ما هذا بشرا » ، وعقّب عليه قائلا: «و«بنو تميم» يرفعونها[2] إلّا مَنْ دَرَى كيف هي في المصحف »[3].

الدّين واللّغة :

وقد نفذ « سيبويه » من خلال المراوحة الغنيّة بين النّظر في الأنماط اللّغويّة والمواقف الإجتماعيّة ، إلى إدراك صور من تأثير الدّين في اللّغة وتوجيهه للتّعبير اللّغويّ. وسجّل « سيبويه » بعض ما تمخّض عن ذلك من تخصيص تراكيب معلومة لمواضع معلومة ، بتوجيه دينيّ خالص . و من ذلك أنّه لاحظ أنّه لايجوز لك أن تقول : « الحَمْدُ لزيد » ، في مقام التّعظيم ، فإنّه « ليس كلُّ شيء من الكلام يكون تعظيما لله عزّوجلّ يكون تعظيما لغيره من المخلوقين» [4] .

وجدير بالذّكر أنّ ملاحظات علماء اللّغة الإجتماعيّين حول تخصّص ألفاظ

---

(١) «الكتاب» (هارون) : ٤٠/٢ .

(٢) يقولون: «ما هذا بشر» .

(٣) «الكتاب» (هارون) : ٥٩/١ .

(٤) «الكتاب» (هارون) : ٦٩/٢ .

و تراكيب معلومة بمواقف دينيّة أو تقليديّة معلومة [١] هي أشْبَهُ ما يكون بهذه الملاحظة .

احتراس :

وحقّاً أنّ بحوث علم المعاني قد تكاملت واستقرّت فيما بعد ، وفيها نظرات لطيفة إلى حال المخاطب ، وحال المتكلّم ، وطبيعة الموقف الإجتماعي ، ومعطيات الواقع الخارجيّ وما يكون لذلك كلّه من أثر في المراوحة بين تركيب وتركيب ، ومايكون له من دور في توجيه البناء النّحويّ البرّاني الواحد إلى أبنية جوانيّة متعدّدة [٢] .

ولكن « سيبويه » لم يقتصر على مستوى التّراكيب في ملاحظاته هذه ، بل مضى يَرُودُ مستويات البنية ، والدّلالة ، والإعراب . و هكذا اتّسع ما لم يتّسعوا كما سبق ما لم يسبقوا .

(١) من مثل ما يكون من اختصاص « Thuo » ضمير المخاطب بمواقف دينيّة أو تقليديّة مخصوصة واستعمال « You » فيما عدا ذلك .

(٢) كالّذى لاحظوا ، مثلا ، من خروج الإستفهام عن معناه الأصليّ إلى معان أخرى تفهم من سياق الكلام و قرائن الأحوال . . . . الخ و أنظر مثلا : « علم المعاني » لـ« دّرويش الجندي » : ص ٥٢ وما حولها .

المراجع

(أ)

*** مراجع أفدت منها إفادة رئيسيّة ، بل يكاد البحث يقوم عليها:**

١ - «الكتاب» (كتاب سيبويه) ، تحقيق وشرح عبدالسلام هارون .

الجزء الأوّل ، دار القلم ، ١٣٨٥ هـ. ق. = ١٩٦٦ م .

الجزء الثّاني ، «دار الكاتب العربي للطّباعة والنّشر» بـ«القاهرة» ١٣٨٨هـ.ق.= ١٩٦٨م.

الجزء الثّالث ، «الهيئة المصريّة العامّة للكتاب» ١٣٩١هـ.ق. =١٩٧٣ م .

٢ - «كتاب سيبويه» ، الطبعة الأولى بالمطبعة الكبرى الأميريّة بـ«بولاق» ، ١٣١٧ هـ. ق. الجزء الثّاني .

(وهكذا اعتمدت في درس «الكتاب» على ما صدر منه حتّى الآن في نشرة «عبدالسلام هارون» . أما سائره فاعتمدت فيه على طبعة «بولاق»).

٣ - Robbins, Burling : Mam's Many Woices (Language im its cultural context) Holt . . . . New York ... 1970.

(ب)

*** مراجع وقفت عليها في مرحلة التّبيّن ، واختيار الموضوع ، وكان من غايتي ، في الوقوف عليها ، أن أبدأ من حيث انتهى غيرى تجنّبا لتكرار القول في موضوع واحد :**

٤ - «أبنية التّصرف في كتاب سيبويه» ، لـ«خديجة الحديثي» ، مكتبة النّهضة - «بغداد» ، ١٩٦٥م. (=١٣٨٥هـ.ق.) .

٥ - « تطوّر الدّرس النّحويّ » ، لـ«حسن عون» ، «معهد البحوث والدّراسات العربيّة » بـ«جامعة الدّول العربيّة » ١٩٧٠ م .
٦ - «الرُّمّاني النّحويّ» في ضوء شرحه لـ«كتاب سيبويه » ، لـ«مازن المبارك » ، «دِمشق» ١٣٨٣هـ. ق. (=١٩٦٣ م.).
٧ - « سيبويه إمام النُّحاة » ، لـ«علي النّجدي ناصف » ، مكتبة نهضة مصر بـ«الفجالة» «القاهرة» ، ١٣٧٢هـ. ق. (=١٩٥٤م.).
٨ - «سيبويه» ، مادّة « سيبويه » ، في «دائرة المعارف الاسلامية » ، لـ«كرنكوف» (F. Krenkov).
٩ - «سيبويه والقِراءات» ، لـ«أحمد مكّي الأنصاري » . توزيع « دار المعارف» بـ«مصر» ١٣٩٢هـ. ق. (=١٩٧٢م.).
١٠ - « فهرس شواهد سيبويه » ، لـ«أحمد راتب النّفّاخ » . « دار الإرشاد » - «دار الأمانة» «بيروت» ١٣٨٩هـ. ق. (=١٩٧٠م.) .
١١ - « الكتاب » ، لـ«مهدي المخزومي » (مقالة في مجلّة كلية الآداب والعلوم بـ«بغداد» ، العدد الثّاني ، حزيران ١٩٥٧م.)
١٢ - « كتاب سيبويه وشروحه» ، لـ«خديجة الحديثي» . «بغداد» ١٣٨٦ هـ. ق. (=١٩٦٧م.) .
١٣ - «اللّغة والمجتمع »، لـ«محمود السّعران» ، « دار المعارف» ١٩٦٣ م .
١٤ - « المدارس النّحويّة » ، لـ«شوقي ضيف» ، «دار المعارف» ١٩٦٨م .
١٥ - «النّحو العربي» : العلّة النّحويّة ، نشأتها و تطوّرها ، لـ«مازن المبارك» ، المكتبة الحديثة ١٣٨٥هـ. ق. (= ١٩٦٥م.) .

(ج)

* مراجع أفَدْتُ منها إفادة جزئيّة أو استأنست بها أثناء إعدادي للبحث:

١٦ - «أبحاث في اللّغة العربيّة» ، لـ«داود عبده» ، « مكتبة لبنان » « بيروت » ١٩٧٣ م.

١٧ ـ « أسرار العربيّة » ، لـ«ابن الأنباريّ » ، بتحقيق « محمد بهجة البيطار » ، دمشق ١٣٧٧ هـ. ق. (١٩٥٧م.) .

١٨ ـ «الأصوات اللّغويّة» ، لـ«ابراهيم أنيس» «دار النّهضة العربيّة» بـ«القاهرة»، ١٩٦١ م .

١٩ ـ « البلاغة ، تطوّر وتاريخ» ، لـ«شوقي ضيف » ، «دار المعارف» بـ«مصر» ١٩٦٥ م.

٢٠ ـ « دلائل الإعجاز » ، لـ«عبدالقاهر الجُرجاني » ، بتصحيح « محمد عبده » و«الشّنقيطي»، «مكتبة القاهرة» ١٣٨١ هـ. ق. (١٩٦١م.) .

٢١ ـ «شرح الكافية » ، لـ«الرّضيّ» ، ١٢٧٥هـ. ق.

٢٢ ـ « ظاهرة الإعراب في اللّهجات العربيّة القديمة » ، لـ« نهاد الموسى» (مقالة مخطوطة ستنشر في العدد القادم من «مجلّة الأبحاث» ـ الجامعة الأميركيّة في «بيروت» ـ أوائل عام (١٩٧٤ م.).

٢٣ ـ «علم اللّغة» (مقدّمة للقارىء العربيّ) ، لـ«محمود السّعران» ، «دار المعارف» بـ«مصر» ١٩٦٢م.

٢٤ ـ «علم المعاني» ، لـ«درويش الجُندي» ، مكتبة «نهضة مصر بالفجّالة» .

٢٥ ـ «الفعل زمانه وأبنيته» ، لـ«ابراهيم السّامرائي» ، «مطبعة العاني» «بغداد» ١٣٨٦ هـ. ق. (=١٩٦٦ م.).

٢٦ ـ « القاموس المحيط » ، لـ«لفيروزآبادي» ، «المكتبة التّجاريّة» بـ«القاهرة» ١٣٣٢ هـ. ق. (=١٩١٣ م.) .

٢٧ ـ « لحن العامّة والتّطوّر اللّغوي » ، لـ«رمضان عبدالتوّاب » ، « القاهرة » ١٩٦٧ م.

٢٨ ـ «لسان العرب» ، لـ«ابن منظور» ، «بيروت» ١٣٧٦هـ. ق. (=١٩٥٦م.).

٢٩ ـ Noam Chomsky : Topics in the Theory of Generattve Grammar, Mouton, The Hague - Paris 1969

(د)

* اساتذة و زملاء لي في قسم اللّغة العربيّة ، وَقَفْتُهم على هذه المقالة جلّها أو كلِّها فأثنوا خيرا أو رأوا رأيا ، وقد انتفعتُ بآرائهم ما أطَقْتُ ، ولهم منّي شكر وافر :

الدّكتور « عبدالرّحمن ياغي » .

الدّكتورة « عصمة غوشة » .

الدّكتور « محمد عبده عزّام » .

الدّكتور « نصرت عبدالرّحمن » .

الدّكتور « هاشم ياغي » .



«السيّد يعقوب بكر»

(مصر)

باب اطّراد الإبدال فى الفارسيّة عند «سيبويه»

أورد «سيبويه» هذا الباب في الجزء الثّاني من كتابه (ص ٣٤٢ - ٣٤٣ من طبعة بولاق). ونحن ننقله هنا جزءا جزءا مع الشّرح والتّعليق (١):

١) «سيبويه»:

«يُبدِلون من الحرف الّذى بين «الكاف» و«الجيم»: «الجيمَ» لقربها منها. ولم يكن من إبدالها بدّ؛ لأنّها ليست من حروفهم. وذلك نحو: «الجُرْبُز» و «الآجُرّ» و«الجَوْرَب». وربّما أبدلوا «القاف» لأنّها قريبة أيضا؛ قال بعضهم: «قُرْبُز»...».

الشّرح والتّعليق:

الحرف الّذى بين «الكاف» و «الجيم» هو «الگاف الفارسيّة»، وهي ليست من الحروف العربيّة؛ ولذلك لم يكن من إبدالها بدّ، فأبدلوها: «جيما»، وربّما أبدلوها: «قافا» لأنّ «القاف» قريبة أيضا من «الگاف»، وذلك نحو: «جُرْبُز» و «قُرْبُز».

«الجُرْبُز»: الرّجل «الخَبّ» أي المخادع، و«القُرْبُز» لغة فيه، والأصل فيهما فارسي محض هو: «گُرْبُز» (gurbuz).

---

(١) شرحه «السّيرافي» شرحا مختصرا (مخطوط ٥٢٨ نحو «تيمور»، دار الكتب المصرية، ٦/٥٦ - ٥٨).

ومثّل «سيبويه» أيضا لإبدال «الكاف» «جيما» بـ«جورب» . والأصل الفارسي هو : «گوراب» (gorāb) .

ومثّل سيبويه كذلك بـ«الآجُرّ» وهو : «طبيخ الطّين» كما في «اللّسان» . وفارسيّته : «آگور» (āgūr) ، ولكن هذه الكلمة الفارسيّة ليست أصيلة في لغتها ، فالأصل الأوّل للكلمة «أكّدي» هو «agurru» ، ومنه «āgūrā'» في «السّريانيّة» ؛ أنظر :

H. Zimmern, Akkadsische Fremdwörter als Beweis für babylonischen Kultureinfuss. Zweite Ausgabe. Leipzig 1917. (P. 31).

ويرى «فرَنْكِل» أنّ الكلمة انتقلت إلى العربيّة من «الأرامية» لا «الفارسيّة» :

S. Fränkel, Die aramäischen Fremdwörter im Arabischen. Leiden 1886. (p. 5).

٢) «سيبويه» :

«وقالوا : كُرْبَق وقُرْبَق» .

الشّرح والتّعليق :

أي : «الحانوت» . والأصل فارسي : «كربه» (Kurba) ، ومعناه أيضا «الحانوت» . ويمثّل «سيبويه» بذلك لإبدال «الكاف» في صدر الكلمة «قافا» ، كما أبدلت «الكاف» في «كُرْبُز» : «قافا» في «قُرْبُز» . وسيلي كلام آخر لـ«سيبويه» عن «كُرْبَق» و «قُرْبَق» .

٣) «سيبويه» :

«ويُبدِلون مكان آخِر الحرف الّذى لا يثبت في كلامهم إذا وصلوا «الجيم» ، وذلك نحو : «كَوسَهْ» و «مُوزَهْ» ؛ لأنّ هذه الحروف تُبدَل وتُحذَف في «كلام الفرس» : «همزة» مرّة و «ياء» مرّة أخرى . فلمّا كان هذا الآخِرُ لا يشبه أواخر كلامهم صار بمنزلة حرف ليس من حروفهم . وأبدلوا «الجيم» لأنّ «الجيم» قريبة من «الياء» ، وهى من «حروف البدل» ، و «الهاء» قد تشبه «الياء» ، ولأنّ «الياء» أيضا قد تقع آخرة . فلمّا كان كذلك أبدلوها منها كما أبدلوها من «الكاف» . وجعلوا «الجيم» أَولى لأنّها

facebook: @jsatl.shiraz

قد أُبدلت من الحرف الأعجمي الّذى بين « الكاف » و « الجيم » ، فكانوا عليها أمضى . وربّما أُدخلت « القاف » عليها كما أُدخلت عليها في الأوّل ، فأُشرك بينهما ؛ وقال بعضهم : « كَوْسَق » ، وقالوا : « كُرْبَق » ، وقالوا : « قُرْبَق »[1].

الشّرح والتّعليق :

آخر الحرف - أي اللّفظ - الّذي لا يثبت في كلامهم - أي « كلام الفرس » - في الوصل هو الفتحة الأخيرة الّتي تكتب « ـَـ » ، في « الفارسيّة الحديثة » وهي ترجع إلى النّهاية : «ak» أو «ag» في « الفارسيّة الوسطى » (الفهلويّة)[2] ؛ وهذه تبدل في العربيّة « جيما » أو « قافا » إبدالا مطّردا . أنظر :

---

(١) شرح السّيرافي : ويُبدِلون « الجيم » من « الهاء » في آخر الكلمة كقولهم في « الخُفّ » : « مَوْزَج » ، و « كَوْسَج » ، و « فالُوذَج » . و إنّما أبدلوا من « الهاء » « جيما » ؛ لأنّ ما كان آخره « هاء » في « كلام الفرس » إذا وقفوا جعلوه : « هاء » ، و إذا وصلوا جعلوه : « ياء » ، و « الياء » من « مخرج الجيم » ، فجعلته العرب « جيما » من أجل « الياء » الّتي تنقلب إليه في الوصل . ألاترى أنّهم يُبْدِلون من « الياء » : « جيما » في الوقف في قولهم : « عَلِجّ » و « بَرْنِجّ » في موضع : « عليّ » و « برنيّ » . وربّما قلبوا « الجيم » : « قافا » ، فقالوا : « فالُوذَق » و « فالُوذَج » ، و « كُرْبَج » و « كُرْبَق » .

(٢) لـ « الفارسيّة » ثلاثة أطوار : فهناك « اللّغة الفارسيّة القديمة » ، لغة « الدولة الأكمينيّة » (Achaemenid) ، الّتي امتدّ تاريخها من سنة ٥٤٦ ق. م. ، حين أعلن « كورش » الأوّل نفسه ملكا على « فارس » ، إلى سنة ٣٣١ ق. م. حين قضى عليها « الإسكندر الأكبر » . ولم تقم صلات بين « الفارسيّة القديمة » و « العربيّة الفصحى » . يلي ذلك « الفارسيّة الوسطى » أو « الفهلويّة » (Pahlavi) ، لغة « الإمبراطوريّة السّاسانيّة » الّتي قامت سنة ٢٢٦ م. حين أعلن « أردشير » الأوّل نفسه إمبراطورا على « فارس » ، والّتي قضى عليها العرب القضاء الأخير سنة ٣١ هـ. (= ٦٥١ - ٦٥٣ م.) . و « الألفاظ الفارسيّة » الّتي دخلت « الشّعر الجاهلي » قبل الإسلام ولاسيّما « شعر الأعشي » إنّما جاءت من « الفهلويّة » .

←

- A. Siddigi, Studien über die persischen Fremdwörter im klassischen Arabisch; Gottingen 1919, p. 23.

- A. Jeffery, The Foreign Vocabulary of the Qur'an, Baroda 1938, p. 15 - 16.

وذلك نحو «كُوسَهْ» (Kosa) ، وهو الّذى لاشعر على عارضَيه، والنّاقص الأسنان ، عرّبوها فقال بعضهم: «كَوْسَج» بـ«الجيم» ، وقال آخرون: «كَوْسَق» بـ«القاف» . وكذلك «مُوزَهْ» (mūza) ، أي «الخُفّ» ، عرّبوها فقالوا: «مَوْزَج» بـ«الجيم» . و «كُرْبَه» (kurba) ، أي «الحانوت» في «الفارسيّة» عرّبوها فقالوا : «كُرْبَج» بـ«الجيم» ، و «كُرْبَق» بـ«القاف» ، و «قُرْبَق» بإبدال «الكاف» في صدر الكلمة «قافا» كما تقدّم؛ أنظر «المعرّب للجواليقي» ، طبعة «دار الكتب المصريّة» ١٣٦١ هـ ، ص ٢٨٠ و ٢٩٢ . وفي «الفارسية» أيضا «كُلْبَه» (kulba) ، بإبدال «اللّام» من «الراء» ، وقد جعلها «النّضر بن شُمَيْل» أصلا للكلمة («الصّحاح» و «اللّسان» : «قُرْبَق») ، فليس في «كلبه» تحريف كما ظنّ ناشر الطّبعة المصريّة من «المعرّب للجواليقي» (ص ٢٨٠ ، الهامش الثّاني) .

يقول «سيبويه» أنّ الآخر «ـَـ» ، لايثبت في «كلام الفرس» في الوصل ، ولكن

←

و «الفارسيّة الحديثة» آخر أطوار «اللّغة الفارسيّة» ، وقد تكوّنت بعد أن صارت «فارس» جزءا من «الإمبراطوريّة الإسلاميّة» . و «الكلمات الفارسيّة» الّتي دخلت «العربيّة» بعد «الإسلام» إنّما جاءت من «الفارسيّة الحديثة» .

ولا يميّز قدامى «اللّغويّين العرب» بين «الفهلويّة» (الفارسيّة الوسطى) و «الفارسيّة الحديثة» حين يتحدّثون عن «الألفاظ الفارسيّة المعرّبة» ، و إنّما يقنعون بالقول إنّ الكلمة «فارسيّة معرّبة» . وحين يوردون «الأصل الفارسي» نجد أنّ هذا الأصل الفارسي - إذا كان صوابا - من «الفارسيّة الحديثة» . ولاغرو فـ«الفارسيّة الحديثة» كانت حيّة بين ظهرانيهم ، ولم يكن أمامهم إلى معرفة «الفهلويّة» سبيل .

يُبدل «همزة» مرّة و«ياء» مرّة أخرى . ويقول «صدّيقي» : (ص٢٢) إنّ «سيبويه» يعني بـ«الهمزة» النّهاية «i ʼ» في الإضافة الفارسيّة ؛ و يعنى بـ«الياء» على الأرجح النهاية القديمة للاسم في غير حالتي الفاعليّة والنّداء وهي الّتي لاتزال تتمثّل في النّهاية «ē» أو «ī» في «الفارسيّة الحديثة» في مثل هذه الأسماء المركّبة : «šäbē - xūn» : «غارة ليليّة» ؛ «kädē - vär» : «رب البيت» ؛ «kārī - gär» : صانع ، «bärzī - gär» ؛ والنّهاية «ī» هنا أحدث تاريخا من النّهاية «ē» .

يقول «سيبويه» إنّه لمّا كان هذا الآخر «ـَـ» ، لايشبه أواخر كلام العرب صار بمنزلة حرف ليس من حروفهم ، فأبدل في كلام العرب «جيما» ، لأنّ «الجيم» قريبة من «الياء» ، وهي أي «الياء» من «حروف البدل» ، فقد تقدّم أنّ الآخر «ـَـ» ، يبدل «همزة» مرّة و «ياء» مرّة أخرى . وقول «سيبويه» إنّ «الجيم» قريبة من «الياء» معناه أنّهما صوتان متقاربان ؛ والواقع أنّهما من مخرج واحد ، وأنّهما تشتركان أيضا في «الجهر» . ومخرجهما كما يقول «سيبويه» في موضع آخر من كتابه (٤٠٥/٢ س٧-٨) من وسط اللّسان بينه وبين الحنك الأعلى ، وأنظر في قلب «الياء» «جيما» «كتاب القلب والإبدال» لـ«ابن السكّيت» (ص٢٨ - ٢٩) ، وكتاب «الإبدال والمعاقبة والنّظائر للزّجاجي» (ص١٠٣ - ١٠٤) ، وكتاب «الإبدال لأبي الطّيّب» اللّغوي (٢٥٧/١ - ٢٦١) ؛ و «سرّ صناعة الإعراب لابن جنّي» (١٩٢/١ - ١٩٥) .

ويمضي «سيبويه» في التّعليل لقب «ـَـ» ، «جيما» فيقول : إنّ «الهاء» قد تشبه «الياء» ؛ ومؤدّى هذا أنّه كما قد تبدل «الياء» «جيما» قدتبدل «الهاء» «جيما» كذلك . وقد تقدّم أنّ مخرج «الياء» كما يقول «سيبويه» من وسط اللّسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى ؛ أمّا «الهاء» فمجرجها عنده (٤٠٥/٢ س ٤ - ٥) من أقصى الحلق . و «الياء» مجهورة ولكنّ «الهاء» مهموسة (سيبويه ٤٠٥/٢ س١٦ - ١٨) . و «الهاء» رخوة ، و«الياء» عند «ابن جنّي» (سرّ صناعة الإعراب ٦٩/١) بين الشّديدة والرّخوة . ومع هذا قد تتعاقب «الهاء» و«الياء» ؛ أنظر «كتاب الإبدال» لـ«أبي الطّيّب اللّغوي» ،

٢/٥٢٧ - ٥٣٢، [١] .

ويقول «سيبويه» في ختام تعليله لقلب « ـَ » ، «جيما» : إنّ «الياء» أيضا قد تقع آخرة . ومعنى هذا أنّ «الياء» حين تقع طرفا قد تبدل « جيما » : فكذلك «الهاء» الآخرة تقلب «جيما» ، لأنّ «الهاء» و «الياء» متقاربان . فمن شواهد إبدال « الياء » وهي طرف «جيما» أبيات «الكتاب» المشهورة (٢/٢٨٨) :

خالي عُوَيْفٌ وأبو عَلِجِّ ... المطعمان الشَّحْمَ بالعشجِّ
وبالغداة فِلَقَ البَرْنِجِّ

يقول «سيبويه» : «فلمّا كان كذلك أبدلوها منها» أي أبدلوا «الجيم» من «الهاء» ، «كما أبدلوها من «الكاف» » أي كما أبدلوا «الجيم» من «الگاف الفارسيّة» . « وجعلوا «الجيم» أولى ، لأنّها قد أبدلت من الحرف الأعجمي الّذى بين «الكاف» و «الجيم» ، فكانوا عليها أمضى» ، أي أبدلوا «الجيم» من «الگاف» أوّلاً فكانوا أقوى على إبدالها من «الهاء» ثانيا . « وربّما أُدخلت «القاف» عليها كما أُدخلت عليها في الأوّل فأُشرك بينهما » ، أي ربّما أدخلت «القاف» مكان «الجيم» المبدلة من «هاء» كما أدخلت «القاف» مكان «الجيم» المبدلة من «الگاف الفارسيّة» كما في «جُرْبُز» و «قُرْبُز» (والأصل «گُرْبُز» (gurbuz) كما تقدّم) .

ومثّل «سيبويه» لإدخال «القاف» مكان «الجيم» المبدلة من «هاء» قائلا : « وقال بعضهم : «كَوْسَق» ، وقالوا : «كُرْبَق» ، وقالوا : «قُرْبَق» ، أي قال بعضهم :

---

(١) من قبيل هذا قول «بني تميم» في الوقف «هذه» ، فإذا وصلوا قالوا : «هذي فلانة» ، على ما ذكره «سيبويه» (٢/٢٨٧ آخر سطر - ٢٨٨ س ١ - ٣) ، قال : «لأنّ «الياء» خفيّة ، فإذا سكتّ عندها كان أخفى ، و «الكسرة» مع «الياء» أخفى ، فإذا خفيت «الكسرة» ازدادت «الياء» «خفاء» كما ازدادت «الكسرة» ، فأبدلوا مكانها حرفا من موضع أكثر الحروف بها مشابهة وتكون «الكسرة» معه أبْيَن . وأمّا «أهل الحجاز» وغيرهم من «قيس» فألزموها «الهاء» في الوقف وغيره كما ألزمت «طيء» «الياء» ... »

«كَوْسَق» (بالقاف) كما قال آخرون: «كَوْسَج» (بالجيم) (والأصل «كوسه» (kosa) كما تقدّم)؛ وقالوا: «كُرْبَق» (بالقاف) كما قال آخرون: «كُرْبَج» (بالجيم) (والأصل «كربه» (korba) أي «الحانوت» كما تقدّم)؛ وقالوا: «قُرْبَق» بإبدال الكاف في صدر الكلمة «قافا» [1] .

هكذا علّل «سيبويه» لقلب الآخر «ـَـ» ، «جيما» أو «قافا» . ولو أنّه علم أنّ النهاية «ـَـ» ، في «الفارسيّة الحديثة» ترجع إلى النّهاية «ak» أو «ag» في «الفارسيّة الوسطى» (الفهلويّة) لما احتاج إلى هذا التّعليل العسير ، ولكن لم يكن أمامه إلى معرفة «الفهلويّة» سبيل .

٤) «سيبويه» :

وقال الرّاجز :

يا ابن رُقَيْعٍ هل لها من مَغْبَقِ   ما شربتْ بعد طوىّ القُرْبَقِ

مِن قطرةٍ غيرَ النَّجاءِ الأَدْفَقِ

التّشرح :

الرّجز لـ «سالم بن قُحْفان العَنْبري» كما في «الجمهرة لابن دُرَيْد» (٢/٣٨٣ أ)، وفيها أنّ «ابن رُقَيْع» رجل من «بني تميم» ينسب إليه «ماء» بين «مكّة» و«البصرة» .

---

(١) أخطأ «صدّيقي» (ص٢٣ س٤) إذ ظنّ أنّ قول «سيبويه» : «كما أدخلت عليها في الأوّل» معناه أنّ «القاف» أدخلت مكان «الجيم» المبدلة من «هاء» في آخر الكلمة كما أدخلت «القاف» في أوّل الكلمة، وذلك نحو «كُرْبَق» و «قُرْبَق» .

وأخطأ «صدّيقي» (ص٢٣ س ٤ - ٦) كذلك إذ ظنّ أنّ قول «سيبويه» : «فأشرك بينهما» معناه أنّ «الجيم» و «القاف» تتعاقبان كما في «كَوْسَج» و «كَوْسَق» ، فتأتي «الجيم» تارة وتأتي «القاف» تارة أخرى . والواقع أنّ «سيبويه» يعني : أنّ «الجيم» الأولى في مثل «جُرْبُز» تشترك مع «الجيم» الآخرة في مثل «كَوْسَج» في أنّه قد تحلّ «القاف» محلّهما ، فيقال : «قُرْبُز» و «كَوْسَق» .

يقال له: «الرّقيعي». لها: لـ«المّناقة». «مَغْبق»: مصدر ميمي من «غَبَقَ الإبلَ» (والغنمَ): سقاها بالعشي. «السّطوي»: «البِشْرطُويت» (أي عُرِشت) بالحجارة. «القُرْبَق»: لغة في «الكُرْبَق»، معرّب «كُرْبَه» (kurba) أي «الحانوت» كما تقدّم؛ فالرّاجز يشير إلى بئر قريبة من حانوت معروف. «النّجاء الأدفق»: «السّير الشّديد»؛ «ناقة ناجية ونجيّة»: «سريعة»، والفعل «نجاينجو». يسأل الرّاجزُ «ابن رُقَيْع» أن يسقي ناقته بالعشي، فهي لم تشرب بعد «بئر القُرْبَق» قطرة واحدة من الماء، ولم تتوقّف عن السّير الشّديد منذ تركتها.

٥) «سيبويه»:

«وقالوا كيلَقة».

الشّرح والتّعليق:

أي بـ«القاف» كما قالوا: «كيلَجة» بـ«الجيم»، وهما من «كيله» (kīla) في «الفارسيّة» (أدّي شير ص١٤١) بصرف النّظر عن أصل هذه الكلمة الفارسيّة.

و«الكيلجة» كيل معروف لـ«أهل العراق»، وهي منًا وسبعة أثمان منًا، و«المنا» رطلان (المصباح). وعلى هذا تكون «الكيلجة» ثلاثة أرطال وثلاثة أرباع الرّطل، وهذا يتّفق تقريبا وقول «الخوارزمي» في «مفاتيح العلوم» (ليدن ١٨٩٥)، ص ١٥، «إنّ «الكيلجة» وزن ستّمائة «درهم»، فكلّ رطل مائة وثمانية وعشرون درهما».

أمّا «الكيل» (وهو ما يكال به) فعربي. ويزعم: «فرنكل» (في كتابه السّالف الذّكر عن الكلمات «الأراميّة» الدّخيلة في العربيّة، ص ٢٠٤) ومعه «جفري» (في كتابه السّالف الذّكر عن الدّخيل في «القرآن»، ص٢٥٢) أنّه معرّب «kailā» (كَيْلا) بـ«السّريانيّة»؛ ولكن مادّة «كيل» أو «كول» «ساميّة» مشتركة نجدها أيضا في «عبريّة التّوراة» (حيث يدلّ الفعل المجرّد على معنى «كالَ»، «إشعيا» ٤٠: ١٢، ويدلّ وزن «هقطيل» أي «أفعل» على معنى «وَسِعَ» متعدّيا)، و«الأرامية اليهوديّة» (حيث يدلّ الفعل المجرّد على معنى «كالَ») و«الأكّديّة» (حيث يدلّ وزن «فَعَّلَ» «kullu» على معنى الإحتواء والحفظ وما أشبهه).

٦) «سيبويه» :

«و يُبدلون من الحرف الّذى بين «الباء» و «الفاء» : «الفاءَ» نحو «الفِرِنْد» و «الفُنْدُق». وربّما أبدلوا «الباء» لأنّهما قريبتان جميعا؛ قال بعضهم: «البِرِنْد» ....».

الشّرح والتّعليق :

الحرف الّذى بين «الباء» و «الفاء» في «الفارسيّة» هو «الپاء» . ويبدل منه في العربيّة «الفاء» أو «الباء» لأنّهما جميعا قريبتان منه . يقال «الفِرِنْد» (بالفاء) أو «البِرِنْد» (بالباء) ، وهو «جوهر السّيف و ماؤه» ؛ والأصل فارسي هو «پَرَنْد» (parand) وهو «الصّفحة اللّامعة للسّيف الصّقيل أو السّيف إطلاقا» .

ويدلّ «پَرَنْد» في «الفارسيّة» أيضا على «الحرير» ؛ وهو أصل «فِرِنْد» بهذا المعنى في العربيّة («المعرب» لـ «لجواليقي» ، ص٢٤٣ - ٣٤٤) . ووردت عبارة «الفِرِنْد الخُسْرَواني» في شعر «الفرزدق» و «ذي الرُّمة» ؛ و «الخُسْرَواني» : «الحرير الرّقيق الحَسَنُ الصّنعة» ؛ وهو منسوب إلى عظماء الأكاسرة («المعرّب» لـ «لجواليقي» ، ص١٣٥ - ١٣٦) .

و «الفاء» في «فُنْدُق» مبدّلة فعلا من الحرف الّذى بين «الفاء» و «الباء» أي من «الپاء» ؛ ولكن وَهِمَ «سيبويه» حين اعتبر الكلمة فارسيّة الأصل ؛ فهي كلمة «يونانيّة» دخلت «العربيّة» من طريق «الأراميّة» . يقول «الجواليقي» (ص٢٣٩) : «و «الفُنْدُقُ» بلغة أهل الشّأم : خانٌ من هذه الخانات الّتي ينزلها النّاس ، ممّا يكون في الطّرق والمدائن . «سَلَمةُ» عن «الفرّاء» : سمعتُ أعرابيّا من «قُضاعةَ» يقول : «فُنْتُق» لـ «الفُنْدُق» وهو «الخان» ....» .

«لغة أهل الشّام» هي «الأراميّة» . والواقع أنّ الكلمة ترد في «الأراميّة اليهوديّة» : «pundeqā» (پُنْدقا) (ـ pundāq «پُنْداق» في «العبريّة المتأخّرة») . وقول الأعرابي «فُنْتُق» بـ «التّاء» يذكر بـ «الصّيغة السّريانيّة» «putteqā» (پتّقا) بإدغام «النّون» في «التّاء» . والأصل الأوّل يوناني هو «pandokeion» (پَنْدُوكيُون) ، ومنه فيما بعد «pandocheion» (پَنْدُوخيُون) .

٧) «سيبويه» :

«فالبدل مطّرد في كلّ حرف ليس من حروفهم يبدل منه ما قرب من حروف الأعجمية. ومثل ذلك تغييرهم الحركة في «زُور» و«آشُوب»، فيقولون: «زورٌ» و«آشوبٌ» وهو التخليط، لأنّ هذا ليس من كلامهم».

الشّرح والتّعليق :

الإبدال مطّرد في كلّ حرف ليس من «الحروف العربيّة»، فيبدل من الحرف الأعجمي حرف عربي يكون قريبا إليه. كذلك تغيّر الحركة الفارسيّة «ō» في «زور» (zōr) و«آشوب» (āshōb) لأنّ هذه الحركة ليست من حركات «العربيّة الفصحى»، فتجعل عند التّعريب ضمّة طويلة؛ ويقول «صدّيقي»: (ص ٦٧ أسفل) إنّ هذا الإبدال يكاد يكون مطّردا.

و«الزُّور»: القوّة («المعرّب» لـ«لمجواليقي»، ص١٦٥)، وهذا معنى «زور» في «الفارسيّة».

أمّا «آشوب الفارسيّة» فمن معانيها «الإضطراب والشّغْب»؛ وهو ما عبّر عنه «سيبويه» بالتّخليط. فعبارة «سيبويه»: «وهو التّخليط» تفسير لمعنى «آشوب»، لا وصف لإبدال «ō» الفارسيّة ضمّة طويلة عند التّعريب كما ظنّ «صدّيقي»: (ص٢٤ س٨-٩)؛ وكيف يكون هذا الإبدال شبه المطّرد كما يقول «صدّيقي» نفسه تخليطا؟

وليس في المعاجم (آشُوبٌ) الّذي ذكره «سيبويه» على أنّه معرّب «آشوب»، ولكنّ في «المعرّب» لـ«لمجواليقي» (ص٢٧): «أنّه قيل إنّ الأشائب (أي الأخلاط من النّاس) «فارسيّة» «معرّبة» أصلها «آشوب». وقد عقّب ناشر الطبعة المصريّة لـ«لمعرّب» على هذا الزّعم بقوله (في الهامش الثّاني): «لم أجد للمؤلّف متابعا في ادّعاء عجمة الكلمة، بل هي عربيّة خالصة، مِن أَشَبَ الشيءَ يأشبه أَشْباً أي خلطه، وهو «الأُشابة» - بضمّ «الهمزة» - من النّاس: «الأخلاط»، وجمعه «أشائب»....».

٨) «سيبويه» :

«وأمّا ما لا يطّرد فيه البدل فالحرف الّذي هو من حرف العرب نحو «سين»

«سراويل» و«عين» «إسماعيل» ، أبدلوا للتّغيير الّذى قد لزم[١] فغيّروه لِما ذكرت[٢] من التّشبيه بالإضافة ، فأبدلوا من «الشين»[٣] نحوها في «الهمس» والإنسلال من بين الثّنايا، وأبدلوا من «الهمزة» «العين» لأنّها أشبه الحروف بـ«الهمزة» ...».

الشّرح والتّعليق

«سراويل» معرّب «شَلْوار» (shalwār) (بتقديم «اللّام» على «الرّاء»[٤]) . وهومركّب من «شَل» (shal) : «فَخِذ» و «وار» (wār) : «وقاء» (صدّيقى» ، ص١٨- ١٩ ، الهامش الخامس: d) ، أبدلوا من الشّين في «شلوار» «السّين» في «سراويل» ؛ و«السّين» كما يقول «سيبويه» مثل «الشين» في «الهمس» والإنسلال من بين الثّنايا. ولم يكن هذا «الإبدال لازما لأنّ «الشّين» من «حروف العرب» ، ولكنّهم أبدلوا هنا قياسا على الإبدال اللّازم في الحرف الّذى ليس من «حروف العرب» كـ«الپاء» الّتي لابدّ من إبدالها «فاء» أو «باء» كما تقدّم . وهذا التّغيير غير اللّازم في التّعريب كالتّغيير غير اللّازم في الإضافة أي النّسب حيث ينسب أحيانا على غير قياس»[٥].

أمّا «إسماعيل» فأصله «عبري» لا «فارسي» ؛ وهو «yišmā'ēl» (يِشْماعيل) (ومعناه في اللّغة : «يسمع الله») ؛ فـ«العين» في «إسماعيل» لم تبدل من همزة كما قال «سيبويه» . وقد يكون ظنّ أنّ «إسماعيل» من «السَّمَوْأل» («بالهمزة») ؛ وهذا من أصل «عبريّ» أيضا هو «šemū'el» (شموئيل) . أنظر «صدّيقى» ، ص٢٤ أسفل - ٢٥.

٩) «سيبويه» :

«وقالوا : «قَفْشَلِيل» فأتبعوا الآخرَ الأوّلَ لقربه في العدد لا في المخرج .

---

(١) لم يهتد «صدّيقى» إلى فهم هذه العبارة .

(٢) في الباب السّابق : «باب ما أُعرب من الأعجميّة» .

(٣) لا (السّين) كما في طبعة بولاق (٣٤٣/٢ س١٤).

(٤) لا «شروال» كما في «شرح السّيرافي» .

(٥) مثّل «سيبويه» لذلك في الباب السّابق بـ«هَنّيّ» من «الهِنْو بن الأزد» ، و«زباني» من «زَبينة» ، و«ثقفى» من «ثقيف» .

فهذه حال الأعجميّة ، فعلى هذا فوجِّهها » .

الشّرح والتّعليق :

« القَفَنْشليل » : « المِغْرَفة » . والأصل الفارسي « كَفْچَلِيز » (kafchalēz) . وقول «سيبويه» : « فأتبعوا الآخر الأوّل لقربه في العدد لا المخرج » أي أبدلوا الحرف الأخير (الزّاى) لاماً كاللّام قبله لتعاقب «اللّام» و«الزاى» في كلمة لا لتقارب في مخرجيهما. فالتّعاقب هو معنى «القرب في العدد» في عبارة «سيبويه» ؛ وأنا أتّفق في هذا التّفسير مع «يان» (G. Jahn) مترجم «كتاب سيبويه» إلى «الألمانيّة» ، وإن كان لِـ«صدّيقي» : (ص٢٥-٢٦ و ٥٦ أسفل - ٥٧ أعلى) رأي آخر .

ويلاحظ أنّ الإمالة في الطّويلة في آخر الكلمة «الفارسيّة» أبدلت كسرة طويلة في الكلمة المعرّبة كما هي القاعدة . ومن أمثلة ذلك أيضا «ديباج» بكسر «الدّال» ، كسرة طويلة ، والأصل «فهلوي» : («dēpāk» ، «ديباك» ، بإمالة طويلة) ، ومنه في «الفارسيّة الحديثة» : « ديباه» (dēbāh) أو « ديبا» («dēbā» ، بإمالة طويلة في كلّ منهما ،) ؛ انظر : «صدّيقي» ، ص٦٧ أسفل - ٦٨ .

ويلاحظ أيضا أنّ « الكاف » في «كفچليز» أبدلت «قافا» في « قفشليل» ، فـ«الكاف الفارسيّة» ، تصير « قافا » في معظم الأحوال عند التّعريب ؛ ولكن تظلّ « كافا » في بعض الأحوال ؛ أنظر : « صدّيقي » ، ص ٧٣ أسفل - ٧٤ ، ومن أمثلته لإبدال «الكاف» «قافا» : «زرق» (وهى من «rōzīk» في «الفهلويّة») و «خَنْدَق » (وهى من «xantak» في «الفهلويّة») . وقد مرّ بنا أنّ «القُرْبَق» (بـ«قاف» في الصّدر) معرّب « كُرْبَه» (بـ«الكاف») ، وأنّ العرب قالوا أيضا : «الكُرْبَق» (بـ«الكاف» كما في الأصل الفارسي) .

ويلاحظ أخيرا أنّ «چ» في «كفچليز» أبدلت «شينا» في «قفشليل» . وبقول «صدّيقي» (ص ٧٢) إنّ «چ» الفارسيّة تصير « صادا» عند التّعريب ولكن تبدل « شينا» أحيانا . ومن أمثلة إبدالها «صادا » : «صَوْلجان» ، فهو معرب « چَوْلْگان »

التي صارت في «الفارسيّة الحديثة» : « چَوْگان» (فَرَنكل ص٢٩١ ؛ و«صدّيقى» ص٧٢) [1] .

ويقول «سيبويه» في آخر الباب : «فهذه حال الأعجميّة . فعلى هذا فوجِّهها » .
وهو يقصد بالأعجميّة هنا «الفارسيّة» ، فعنوان الباب هو «اطّراد الإبدال في «الفارسيّة» .

(١) «شرح السّيرافي» : « وأمّا ما أبدل من «اللّام» فقولهم «قفشليل» ، ومعناه «المغرفة» . وأصله في لغتهم «كفچليز» ، فجعلوا «الزاى» : «لاما» ، فأتبعوه «اللّام» الأولى ، وجعلوا «الكاف» : «قافا» ، وجعلوا «الجيم» : «شينا» ، وذلك لأنّها ليست بـ«الجيم المحضة» في لغتهم و إنّما هى بين «الجيم» و «الشين» ... » .



الصاوي (صلاح . . .)
(جامعة طهران)

أمانًا زارِعَ التُّفاحِ في شيراز

يُوَسِّعُ لِلنَّوىٰ قلباً فيَنْفَطِرُ	أما رُحْمىٰ لِشَوْقِ الجَمْرِ يَسْتَعِرُ
يَشُبُّ هَواكَ في أعْماقِهِ لَهَباً	عَتِيّاً ، في جُنونِ العِشْقِ يَسْتَتِرُ
مَجُوسِيُّ الهوىٰ نيرانُهُ صعَدٌ	هُتافُ سَناً إلىٰ علياكَ يَبْتَدِرُ
يُذكِّره طِلِسْمَ العِشْقِ فيما يرْفَعُ	. . الشكْرانَ مِن أشْذائِهِ الزَّهَرُ

نما النّامي على شَوْقَيْكَ :

شَوْقِ إشارَةِ النَّجوىٰ ، وشَوْقٍ فيكَ يندثِرُ ! !

و قلبُ الصَّبِّ مثلُ الوَرْدِ مُخْتَنِقٌ	إذا جَفَّتْ سَواقِيهِ وَ مُنْتَشِرُ
غَريبٌ مالَهُ أهْلٌ ولا وطَنٌ	ولا إلْفٌ ولا قَصْدٌ ولا وَطَرُ
كخَطْوِ الظِّلِّ مُنْبَتَّ الوَشائِجِ لا	لَهُ ثُقْلٌ و لا وَقْعٌ و لا أثَرُ
سوىٰ نجواكَ فى مجلاكَ يُنشِدُها	عزاءً لا سُلُوّاً عنكَ يَصْطَبِرُ

زمانا كان يُولِي الطِّينَ نظْرتَهُ

وهل في الطِّينِ إلّا الطِّينُ والصّورُ ؟ !

رأى فى المَعْبَدِ الفاني حقيقَتَه رواها الأخضَرُ الفَيْنانَةُ النَضِرُ
بأثوابٍ تَبَدَّلُه ، و بين النَهرِ و التَنُّورِ فيما قالَتِ الشَجَرُ
مَعانٍ فى لَذائذَ فى أوانٍ ، حَسْبُ هذا الفِكْرِ ما يُوحِي به الثَمَرُ
هيَ الدُّنيا ترابٌ فى تَحَوُّلِهِ سرابٌ فى تشكُّلِهِ المَلا سكَروا ! !

فكحَّلَ بالرَّماد جفونَ غُرْبَتِهِ
و شاقَتْه النَّدامةُ فيه و العِبَرُ

و قَفزَةُ مُجْهَدٍ حَسْبُ الفتَى تَوْجيـــهُها لِلصِّدقِ و الإحسانِ ما قَدَروا
فإنْ صَحِبَ الفتى مِنْها فَنِيَّتُهُ و إنْ يَخْلُفْ فَذِكْرٌ طَيِّبٌ عَطِرُ
سَلاماً « سيبَوَيْهُ » وَديمَةً خضراءَ يَحْدُوها إلَيكَ الرَّوحُ و المَطَرُ
سَحوحاً مثلَ أحداقِ الغريب على حَنينِ الأمْسِ و الأمجادِ يَدَّكِرُ

تحيّةَ يَعْرُبِيٍّ قد تَعَلَّمَ منكَ
كيفَ العِرْقُ ينسى كَيْفَتَ الأُصُرِ

*

جَميلٌ أنْتَ ، عُودُ قَرَنْفُلٍ زاكٍ و أنّى كانَ تَحتَ الشَمسِ يَزدَهِرُ
مِنَ الإيناعِ و الإبْداعِ فِطْرَتُه و من عَدْلِ الوجودِ الطَّلْقِ مُدَّخَرُ
و لِلأنْسامِ عِنْدَ ذَوّابَتَيكَ شُؤو ــنُها تَهَبُ النبوغَ البِكْرَ يَختَمِرُ
فَفَاحَ شَذاكَ مُذْ هُتِنَتْ تَنَشُّرُه عَلَيْنا الذاتُ و الأفكارُ و السِيَرُ

جمالُ إرادةٍ بجمالِ فِكْرٍ فى
إطارٍ من بَديعِ الخَلْقِ يَأتَزِرُ ! !

فإنْ أحْرَقَتْ عاشِقَةً و نالَتْ نا ــرها الأسْفارَ لا تُبْقِي و لا تَذَرُ
لَقُلْتُ هيَ الطُموحُ الحُرَّةُ الغَيْرَى رَأتْ فيها ضَرائرَ كَيفَ تصْطبِرُ
و قد رجَحَتْ ، لم تَعْدِلْ ، و لم تُشْفِقْ عليها فى جحيمِ الهَجْرِ تَنْصَهِرُ

كأيِّ ضَرَّةٍ عَمِيَتْ بصيرتُها   بغيرِ النّارِ لَمْ يَبْرُدْ لها سَجَرُ

هِباتُ اللهِ يُؤتيها ، و أجملها

جميلٌ ما لَهُ عَنْ حالِهِ خَبَرُ !!

فيَغْنَى عَنْ بَني الدُّنيا و رِشْوَتِها   لِمُعْجِزَةٍ ، ولم يَشْعُرْ و ما شَعَروا

كتابٍ قد تَفَرَّدَ مثلِ صاحبِهِ   تَعِزُّ به على آحادِها الغُرَرُ

كما لَوْ قيلَ « قرآنٌ » ، تقولُ الله   صاحبه ، و تَحفِزُ ذِهْنَكَ السُّوَرُ

أو البيتُ امتلأتَ به هَوًى و انسَلَّ   مِنكَ الرُّوحُ للأركانِ يَعْتَمِرُ

و لو قيلَ النّبيُّ إذَنْ لَصَلَّيْنا

عَلَيْهِ و آلِهِ ما نَفَّسَ السَّحَرُ

مَقامُ الواحديَّةِ ليسَ يُدْرِكُهُ   سِوى المختارِ مِمَّنْ أنجبَ البَشَرُ

أغَيْرَ العَبْقَرِيَّةِ في يَتيمَتِها   نَدًى للعبقريِّ الفذِّ يُنْتَظَرُ ؟

فَمَنْ أنْباكَ و الأقلامَ تَشْحَذُها   بأنَّ المجدَ عَجْلانُ المُنى حَذِرُ

كتابٌ كنتَ تَرْجو أن تُراجِعَهُ   و لم يُمْهِلْكَ في تقديمِهِ العُمُرُ ؟

أمْ أنَّ الغَيْرةَ اضْطَرَعَتْ حياتَكَ واسْـ

تُطيرَ المجدُ من حَوْلَيْكَ والقَدَرُ ؟!

أمْ انَّ النُّطْقَ أضْحى لِلْحِجَى نَسَقاً   فإسهابُ الحقيقةِ فيه يَنْحَصِرُ ؟

ذَكاءُ المَرْءِ دَيْنٌ ، و الوفاءُ بِهِ   تُؤَدّيهِ لَهُ مَلَكاتُهُ الأُخَرُ

إذا اتَّسَعَتْ سَماءُ الفِكْرِ غايتَها   يَحُلُّ العَقْلُ بينَ الألْسُنِ تَفْتَكِرُ

وَ قارٌ بالَغَتْ فيه كمالاتٌ   كحُسْنٍ زانَهُ التَّشْديدُ و الخَفَرُ

لقد مازَتْكَ عَنْ دنيا هُمُو دنياك

حتّى النّطق ، قد قالوا بِهِ حَصَرُ !!

فَعَفَوْا إنْ هُمُو وَهِمُوا ، بَهَرْتَهُمُو   بِكُلِّ عظيمةٍ واتَتْكَ فانبَهَروا

و كنتَ إمامَهُمْ طُراً ، و إنْ بَعْضٌ   دِفاعاً عن مكانتِهِم بِكُمْ غَدَروا

و لو كانوا على شيءٍ طفيفٍ من جمالِ النّفسِ ماكادوا و لا ائتمروا
و تلكَ طبيعةُ الإنسانِ تعرفُها عبادةُ النفسِ تُعميه فينحدرُ
أ تشكوهُ ، أأشكوهُ ، سواءٌ
فهوَ مُشكلةٌ عيّاءٌ حلُّها عسِرُ

*

فطِبْ مثوىً «أبا بِشْرٍ» كفاكَ المجدُ إنّ المجدَ بالأرواحِ يُستهَرُ
و عفواً يا إمامَ نُحاتنا إنْ كنتُ قد أطنبْتُ فيما فيه يُختصَرُ
فلي في هذهِ الذّكرى و ذلكَ بعد شكرانى لمن حضروا و من ذكروا
ثلاثةُ أوجهٍ طبقا لِما فى «سيبويـــــهٍ» مِنْ وُجُوهِ النّحو يُعتبَرُ
و آيتها : لقد منعوكَ مِنْ صَرفٍ ،
و قد صرفوكَ مِنْ منع ، وقد كسروا
أقولُ لِمانعيكَ الصّرفَ حقّاً إنّهُ علَمٌ لهُ الآريُّ ينتصرُ
و للآريّةِ الحقُّ المؤكّدُ أنْ تغارَ عليْهِ مِنْ غيرٍ و تحتكرُ
عمودٌ فى حضارتِها عميدٌ ، كم يَشِحُ بمثلِهِ فى بابِهِ الدّهرُ !!
لها فى كلّ بابٍ نضوُهُ سَبَبٌ بهِ بينَ النّجومِ الزّهرِ تفتخرُ
بنُوها مِنْ مُلوكِ الحكمةِ العُليا
ينابيعُ السّنا اخضلّتْ لها الفِكرُ
وقفتُمْ عِندَ عُجمتهِ حيارىٰ سِرّهــــا سَحرتْ ذوي الألبابِ فانسحَروا
و لِلفُصْحىٰ على فرْقَيْهِ — هذا اليوم يَشْهَدُ — طولَ الدّهرِ مؤتمرُ
ففرّقتُمْ بحُكمِ الشّكلِ ، هلْ نغنى بِشكْلٍ دُونَ موضوعٍ فنقتصِرُ ؟!
منعتُمْ صرفَهُ فى حينِ مُلْكُ الضّادِ مُنْصَرفُ لِعُجْمتِهِ و مُشتهِرُ
كفَى البيضا افتخاراً أنّ عالِمَها
بِنبضِ القلبِ لِ«لقرآن» يدّكرُ

facebook: @jsatl.shiraz

أماناً زارعَ الفُقاحِ في شيرازَ باسمِ اللهِ رَوّ الأرضَ تزدهرُ
وَ دفِّئْها بأنفاسِ المنى تَسْخو و ذكّرها بأمجادِ الأُولى غبروا
فطبعُ الأرضِ طبعُ الأمِّ إنْ ذكّرْتَها فاضت بما في قلبها الغُدُرُ
و باركْ تُرْبَةً للفكْرِ خالِقَةً جَناها : « سيبويهِ » و ذلكَ النَفرُ

كَفَى شيرازَ عُودٌ مِنْ مَنابِتها
يَلُمُّ الأرضَ في عَبَقٍ وَ يأتَسِرُ

*

و أمّا الصّارفونَ ، و أنتَ رائدُهُمْ فَلا جِنْسٌ و لا لَوْنٌ و لا أُطُرُ
بَنُوا المدَيْنِ : فِكْرِ الفُرْسِ والإسلام قد ذابوا مع التّوحيد و انصهروا
فلا شرقٌ و لا غربٌ و لا فرسٌ ولا عربٌ ، و لكن أمّةٌ قَدَرُ
تَجلّتْ عَنْ أصالَتِها فما من حَلْبَةٍ إلّا و كانَ المجد و الخَطَرُ

جَرَى الإسلام والفَجْران جَرْيَ الشمسِ
في الأفقين : فَجْرُ العِلْمِ و الظَفَرُ

إذا مَدّتْ ، فَقُلاتٌ سَوامِقُها شُموسُ الدّهْرِ في الأفكار تَنْتَشِرُ
و إن جَزَرَتْ ، فَفَوْقَ القاع أصدافٌ و مَرجانٌ و هذا اللؤلؤ الدُّرَرُ
تَأَمّلْتُ الدُّنا ، لهم ألَقَ صَرْحاً مثلَ ما شِدْنا على الإسلام أختَبِرُ
على عقلٍ و إيمانٍ و أخلاقٍ على عِلْمٍ أمينٍ خَطّهُ البَشَرُ

هَدَيْنا الأرضَ دَهْراً ، و لازلنا
إذا انحرفت نُخَطّئُها ، فتعتَذِرُ

فَسَلْني ، مَنْ مَعَ البَحْرَيْنِ زَوْرَقُهُ تَوَغّلَ في صَميمِ اللُّجِّ يَبْتَحِرُ
و لا يَصْدِفْكَ فوقَ السّطْحِ ما طَرَحَتْ أعاصيرُ اللّيالي حينَ تَعْتَكِرُ
كلا الماءَيْنِ أصْفَى من شُعاعِ الشّمسِ إلّا أنّ لِلْهِجْران ما يَغْفِرُ

facebook: @jsatl.shiraz

لِنَصْرِفْ «سِيْبَوَيْهاً» ، ثُمَّ نُلْغِي كُلَّ ما مِنْ شَأْنِهِ التَّفريق و الحَسَرْ

فَلِلإسلام فيما بَيْنَنا حُرَمٌ

نَعِزُّ بِها إذا عَزَّتْ وَ نَنْتَصِرُ

*

وأمّا الكَسْرُ ، وَيْلَ الكَسْرِ في قَلْبي مَوَاجِعُهُ فَفُصْحَى الضّادِ تَنْدَثِرُ

تُعانِي الغُرْبَةَ الكُبْرى و مِحْنَتَها فَأدْنَى دائِها البُلَهاءُ و الهَذَرُ

جَفاها الأهلُ و الأحبابُ لا مَنْ عادَ في مَرَضٍ و لا مَنْ قالَ ما الخبرُ

قد اشْتَدَّتْ بِها عِلَّاتُها وَجَمَتْ تُجِيبُ بِصَمْتِها الآسِينَ قد فَتَروا

و في آذانِها وَقْرٌ و عِنْدَ لِسانِها

شَلَلٌ وَ مِلْءُ عُيُونِها نُكُرُ

و كانَتْ أُنْسَ عالَمِنا و بَهْجَتَنا و مُشْتَرِكاً يُؤَلِّفُنا فَنَنْتَشِرُ

نَزَلَتْ بِإهْلِها عَنْها أسائِلُهُم فَغابَتْ عَنْهُمُ الأسفار و الأثرُ

تُعامَلُ كَالدَّخِيل الغاصِبِ المحتَلِّ حَتّى في مَواطِنِها و تَحْتَقِرُ

فياوَيْلاهُ إنْ أفَلَتْ مَطالِعُها و حالَتْ بينَنا و تُراثِنا النُّذُرُ

و غابَ المُسْلِمُ الواعي لِغَيْبَتِها

و غامَ بإثْرِها «القرآنُ» و الأثرُ ! !

فَقُمْ يا « سيبويهُ » قِيامَةً كُبْرى لِنَهْضَتِها ، فما ماتَ الّذي قَبَروا

و لكِنْ أنْ تُرى الفصحى كَتَرْياقٍ لَدى العَطّار لِلْمَلْدوغِ يُدَّخَرُ

فَإنْ خَرَجَتْ إلى الدّنيا فَلِلنَّخّاسِ حَظٌّ مِنْ كرامَتِها و مُتَّجَرُ

و يا رَبّاهُ مُعْجِزَةً ، بِأوَّلِ « سيبَوَيْـــــهِ » قام ، إنَّ الضّادَ تَحْتَضِرُ

أُوَسِّعُ لِلنَّوى قَلبي فَيَنْفَطِرُ

فَيارُحْماكَ شَوْقُ الجَمْرِ يَسْتَعِرُ

* * *



محمّد غفراني (الدّكتر . . .)
(جامعة طهران)

« سهم الفرس في إنعاش حركة النّقل في اللّغة العربيّة »

— ١ —

أيّها السّادة الأساتذة الأجلّاء السّلام عليكم و رحمةالله :

لقد سجّل الشّعب الإيراني مواقف مشرّفة في تاريخنا الإسلامى المشرق ، ذلك منذ أن بزغت شمس الإسلام في سماءِ هذاالبلد العريق و رفرفت رايةالتّوحيد على ربوع هذا الجزء الغالى من الوطن الإسلامى الكبير ، فقد ظهرت فى القرون الأولى من الهجرة ثلّة من أبنائه المخلصين أرادالله أن يكتب لهم النّجاح في خدمة الدّين الحنيف مكرّسين جهودهم لإثراء لغة «القرآن» الكريم بثراءٍ واسع في شتّى المجالات من العلوم النّقليّة والعقليّة تلك الجهود الّتى تعدّ مدّعاة للفخر والإعتزاز لاللأمّة الإيرانيّةالمسلمة فحسب بل لجميع إخواننا المسلمين في بقاع الأرض جيلاً بعد جيل ، و إن كان لي كلمة أقولها هنا هي أنّ كلّ مادبّجته القريحة الإيرانيّة الصّافية وخطّته يراعتهالرّشيقة وسطرته في صحائف الخلود من فكر و علم و ثقافة و أدب و حكمة هو في كلّ شيء وقبل كلّ شيء و في جملته و تفصيله مدين للرّسالة السّماوية المقدّسة الّتى حملت على عاتقها المسئوليّة الكبرى حيال العالم و الحضارة البشريّة جمعا ، إنّ الإسلام قد مهّد لنا السّبيل وعبّد لنا

الطّريق لفتق أكمام الفكر و بثّ الأخلاق الفاضلة و المثل العليا الّتي نمت و ترعرعت و دنت قطوفها برعاية الشّريعة السّمحاء ، فمن هذا المنطلق الرّبّاني أخذت الأمّة الإيرانيّة المسلمة تصنع المعجزات فى سبيل رفع مكانة المجتمع الإسلامي و تقدّمه في ميدان العلم والثّقافة ، استميح السّادة العلماء أعضاء الوفود فى هذا المهرجان العظيم الّذى أقيم تكريماً لأحد أبناء «ايران» حيث بذل جهوداً مشكورة في إرساء حجر الأساس لتشييد صرح قواعد اللّغة العربيّة بكتابه الّذى أخذه الأجيال بقوّة والّذى سمّى « قرآن النّحو » ، ألا و هو « أبو بشر سيبويه » الفارسي. أستميحكم أن ألقي نظرة عابرة على جانب من جوانب هذا المجهود الضخم وهو بيان مدى نشاط «الفرس» في حقل التّرجمة إلى العربيّة تلك التّرجمة الّتي تعدّ من أروع الخدمات الّتي كانت لها دور كبير فى النّهوض بالمجتمع الإسلامي و مسايرته ركب الحضارة البشريّة فى القرون الأولى من الهجرة النّبويّة .

إنّ عناية الإيرانيّين بفنّ الكتابة و رعايتهم للعلوم هي أمر قد فطروا عليه منذ غابر الزّمن فهذا «أبومعشر البلخي» إذ يحدّثنا في كتابه «اختلاف الزّيجات» : «إنّ ملوك الفرس بلغ من عنايتهم بصيانة كتب العلوم وحرصهم على بقائها على وجه الدّهر و إشفاقهم عليها من أحداث الجوّ و آفات الأرض أن اختاروا لها من المكاتب أصبرها على الأحداث و أبقاها على الدّهر و أبعدها عن التّعفّن»[1] و يقول « الجاحظ » كذلك في الحديث عن محاسن الكتابة : «و كانت العجم تجعل الكتاب في الصخور و نقشاً في الحجارة وخلقة مركبة في النّبات . . . إذا كان ذلك تاريخاً لأمر جسيم أو عهداً لأمر عظيم أو موعظة يرتجى نفعها أو إحياء شرف يريدون تخليد ذكره . . . و يضعون الخطّ في أبعد المواضع من الدّثور و أمنعها من الدّروس . . . و لولا الحكم المحفوظة و الكتب المدوّنة لبطل أكثر العلم و لغلب سلطان النّسيان سلطان الذّكر»[2] .

---

(١) نقلاً عن «سبك شناسى» للاستاذ ملك الشّعراء بهار ج ٢ ، ص ١٦١ ، طبعة طهران .

(٢) «المحاسن و الأضداد» ص ٣ ، طبعة «القاهرة» .

وقد بلغ عناية «الفرس» بالكتابة مبلغاً أشاد به «الجاحظ» قائلاً : «من احتاج إلى العقل و الأدب بالمراتب والعبر و المثلات و الألفاظ الكريمة و المعانی الشّريفة فلينظر إلى سير الملوك فهذه هي «الفرس» و رسائلها و خطبها و ألفاظها و معانيها»[1].

ولعلّ شغف هؤلاء الكتّاب و المترجمين الإيرانيّين كان من الأسباب الّتی جعلتهم أن يحتلّوا منصب الزّعامة في مجال الكتابة والتّرجمة و رئاسة الدّواوين في العصر العباسي الأوّل كما برز عدد غيرقليل من العلماء ينحدرون من أصل فارسي حيث ألّفوا آثاراً قيّمة في العلوم المختلفة تعدّ من أفخر تراثنا الإسلامي ممّا دفع بالمؤرّخ الإسلامي المغربي الكبير «إبن خلدون» أن ينوّه بمركز هؤلاء الجهابذة من «أبناء الفرس» فيقول : «من الغريب الواقع أنّ حملة العلم في الملّة الإسلاميّة أكثرهم العجم لا من العلوم الشّرعيّة ولا من العلوم العقليّة إلّا في القليل النّادر و إن كان منهم العربي في نسبته فهو عجميّ في لغته و مرباه و مشيخته مع أنّ الملّة عربيّة وصاحب شريعتها عربي . . . فكان صاحب صناعة النّحو «سيبويه» و «الفارسی»[2] و «الزّجّاج» من بعدهما وكلّهم «عجم» في أنسابهم و إنّما ربّوا في اللّسان العربي فاكتسبوه بالمربي و مخالطة العرب وصيّروه قانوناً وفنّاً لمن بعدهم و كذا حملة الحديث الّذين حفظوه من أهل الإسلام اكثرهم «عجم» أومستعجمون و كان علماء «أصول الفقه» كلّهم من «العجم» و كذا حملة «علم الكلام» و كذا اكثر المفسّرين»[3]. فكلام «ابن خلدون» هذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على مدى تقديس «الفرس» لعلوم «القرآن» و حرصهم عليها ممّا دفع بهم إلى إنتاج آثار خالدة في هذا النّمط لا يتّسع المجال هنا للبحث فيها .

— ٢ —

أن بواعث النّقل في اللّغة العربيّة سواء من «اللّغة الفهلويّة» أو اللّغات

(١) «البيان والتّبيين» ، ج ٣، ص ٦ ، طبعة «القاهرة» .

(٢) يقصد به «أبو علی الفارسي» من أئمّة النّحاة .

(٣) «المقدّمة» ص ٥٤٣ ـ ٥٤٤ ، طبعة الكشّاف ، «بيروت» .

الأجنبيّة الأخرى الّتي سيأتي ذكرها تتلخّص فيما يلي :

١ـ انّ «القرآن» الكريم هو الّدافع الأساسيّ الّذى حثّ المسلمين على الفحص و الإستطلاع على ثقافات الأمم الأخرى و يؤيّدنا في ذلك قوله تعالى فى وصف المؤمنين: « الّذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه أولئك الّذين هديهم الله و أولئك هم أولوا ـ الألباب » [١] .

٢ـ إن اتّساع رقعة الإسلام في خارج حدود « الجزيرة العربيّة » ولا سيّما بعد انتقال عاصمة الخلافة «من الشّام» إلى «العراق» قد فتح آفاقاً فكريّة للمسلمين و ذلك عن طريق اختلاطهم بشعوب ذات حضارة عريقة ك«الشّعب الإيراني » مثلاً فاطّلع المسلمون على هذه الثّقافات وأخذوا عنها وكان لـ«لفرس» دور كبير في نقل العلوم الجديدة إلى اللّغة العربيّة بيد أنّ هذه التّرجمات كانت في المرحلة البدائيّة كما هو شأن الحركة البدائيّة للتّرجمة في أيّة لغة من اللّغات العالميّة وكان هناك طريقتان للنّقل إحداهما : الّطريقة اللّفظية و هى أن يلتزم المترجم بنقل معانى الألفاظ حرفاً بالحرف أي يأتي بما يراد فيها في اللّغة العربيّة وكما نعلم أنّ هذه الّطريقة الّتى تسمّى التّرجمة بالحرف تنمّ عن عدم تمكّن المترجم من النّقل و عدم إلمامه برموز الألفاظ وكيفيّة تنسيق الجمل حسب ماتقتضيه القاعدة في اللّغة الأصليّة واللّغة المترجمة عنها و «يوحنّا بن بطريق» يعتبر من أصحاب هذه الّطريقة . والثّانية : وهى طريقة «حنين بن إسحاق» و ذلك أن يأتى النّاقل إلى الجملة فيخمّر معناها فى ذهنه مجرّدةً عن الألفاظ التى كانت تحملها في تلك اللّغة ثمّ يعبّر عنها باللّغة الّتى ينقلها إليها و أمّا « إبن المقفّع» فقد استطاع بفضل تضلّعه في اللّغتين «الفهلويّة» و «العربيّة» أن يتملّك ناصية النّقل دون أن يلتزم بالنّقل الحرفيّ أو النّقل المعنوى و إن كان طابع النّقل الحرفي كما يبد ويسود ترجماته في كثير من المواضع غير أنّ ذلك لايرجع إلى ضعف قدرته في التّرجمة إلى العربيّة و إنّما يرجع إلى أنّ « اللّغة العربيّة »كانت جديدة العهد بفنّ التّرجمة وكانت تعيش نشأتها الأولى من هذه

---

(١) سورة زمر ، آية ١٨ .

النّاحية و قد ازدهرت التّرجمة في العصر العبّاسى الأوّل ازدهاراً عظيماً وكانت من مقوّمات الحياةالعلميّة إبّان ذلكث العصر إذ اجتمعت في هذهالفترة من تاريخناالإسلامي الحافل بالأمجاد روافد مختلفة من الثّقافات الّتى كان لهاكبير الأثر في حركة التّرجمة ومن هذه الرّوافد :

١- رافد «الثّقافة الفارسيّة القديمة» .

٢- رافد «الثّقافة اليونانيّة» .

٣- رافد «الثّقافة الهنديّة» .

٤- رافد «الثّقافة السّريانيّة»[1].

ولاغرو أنّ «الثّقافة الفارسيّة» كانت من أقوى العناصر الّتى تتألّف منها الثّقافة الإسلاميّة بصفة عامّة إذكانت «اللّغة الفهلويّة» بمثابة جسر عبرت عليها إلى «العربيّة» كثير من «الثّقافات اليونانيّة» و «الهنديّة» إلى جانب «الثّقافة الفارسيّة» . و مهما يكن من أمر فبعدانتقال عاصمةالخلافة الإسلاميّة من «الشّام» إلى جوار «تيسفون» («المدائن») أخذ المسلمون يتطلّعون إلى الثّقافات الجديدة في الدّولة العبّاسيّة وعكف المترجمون من غير العرب و خاصّة «الفرس» و «السّريان» على نقل «الكتب الفارسيّة» و «اليونانيّة» إلى «العربيّة» و إن كانت حركة التّرجمة قد بدأت منذ عصر «بنى أميّة» كما يحدّثنا بذلكث «المسعودى» إذ قال أنّ أوّل كتاب نقل من «الفهلويّة» إلى «العربيّة» كان عام ١١٣ من الهجرة في عهد «هشام بن عبدالملكث بن مروان»[2] . كما قيل انّ «خالد بن اليزيد» الأموي (م. ٨٥هـ) هوأوّل من ترجم بعض كتب النّجوم والطّبّ والكيمياء إلى «العربيّة»[3]

---

(١) راجع تفصيل ذلكث فى كتابنا «عبدالله بن المقفّع» طبعة الدّار القوميّة بـ «القاهرة» .

(٢) راجع «التّنبيه و الإشراف» ، ص ١٠٦ ، طبعة «القاهرة» .

(٣) راجع «البيان والتّبيين» لـ «الجاحظ» ج ١ ص٢١٣ طبعة «القاهرة» وراجع كذلكث «الفهرست» لـ «ابن النّديم» ص ٤٩٧ طبعة «ليبزيكث» و «تاريخ الفلسفة في الإسلام» لـ «دى بور» ترجمة «أبوريدة» ص ٢١ طبعة «القاهرة» .

ولسنا ندري أنّ «خالداً» هو الّذي قام بالنّقل مباشرة أو أمر شخصاً آخر بذلك وللأسف أنّه لم يصلنا شيء من هذا الأثر الّذي جاء ذكره في بعض المصادر القديمة، و يقال أيضاً أنّ «ماسرجوية» وهو طبيب يهودي «سرياني» اللّغة وكان يقيم بـ«البصرة» قد نقل كتاباً من «السّريانيّة» في الطّبّ بإشارة من الخليفة الأموي «عمر بن عبدالعزيز» (م-١٠١هـ) و لكنّنا نستطيع أن نقول دون تردّد أنّ حركة النّقل لم تنشط إلّا في صدر «الدّولة العبّاسيّة» حيث قام نفر من «الفرس» الّذين يتقنون «اللّغة العربيّة» إلى جانب إتقانهم «اللّغة الفهلويّة» بنقل كثير من «الكتب الفهلويّة» إلى «العربيّة» وكان على رأسهم «عبدالله بن المقفّع» فهؤلاء المترجمون هم الرّعيل الأوّل من المفكّرين الّذين ألّفوا آثاراً قيّمة في الصّعيدين الأدبي و الفلسفي في مجتمعنا الإسلامي الفتي في تلك الحقبة من التّاريخ.

فمن أهمّ الكتب الّتي نقلت من «الفارسيّة الوسطى»(١) إلى «العربيّة» مايلي:

١- كتاب «رستم و اسفنديار» وهما من أبطال «الشّاهنامه» للشاعر الحماسي «أبي القاسم الفردوسي».

٢- كتاب «بهرام و نرسی».

٣- كتاب «شهر براز مع أبرويز» (٢).

---

(١) أي «الفهلويّة» و هي تقابل «الفارسيّة القديمة» الّتي تطلق على العصر «الاخميني» («هخامنشی») كما تطلق «الفارسية الحديثة» على العصر الإسلامي فـ«اللغة الفهلويّة» تتوسّط بين اللّغتين القديمة و الحديثة و لذلك سمّيت بـ«الفارسيّة الوسطى» («فارسي ميانه») فإذن من الخطأ إطلاق الفارسيّة القديمة على «اللغة الفهلويّة» إلّا تسامحاً و ذلك إذا أخذنا في الإعتبار لفظ الحديث الّذي يقابل لفظ القديم عادة وأمّا «الفارسيّة الحديثة» فهي كما قلنا منذ حين تطلق على «الفارسية الدّرية» الّتي أصبحت لغة التّخاطب والكتابة بعد الفتح (أنظر مقالنا في «مجلّة كليّة الألسن» بجامعة «اصفهان» وعنوانه «اللّغة الفارسيّة الدّريّة» و تطوّرها في العصر الإسلامي).

٢- و قد جاء ضبط الجزء الأوّل خطأ في «الفهرست» «شهرزاد» بدلاً من «شهر براز».

٤ـ كتاب «الكارنامج في سيرة أنوشروان» وقد جاء اسم «أنوشروان» خطأ في «الفهرست» بدلاً من «أردشير بن بابكث» مؤسس «الدولة الساسانية» ويؤيد هذا الإحتمال انه قد جاء ذكر هذا الكتاب في مواضع متعددة من «الفهرست» منسوباً إلى «أردشير بن بابكث»[1] ومن هذه الكتب أيضاً كتاب «دارا و الصنم الذهبي» وكتاب «التاج» وكتاب «آئين نامه» وكتاب «بهرامشوس»[2] وكتاب «خداينامه» وهو كتاب «خداينامكث لأردشير بابكان» وقد نقله إلى «العربية» «عبدالله بن المقفع» كما نقل إليها أيضاً كتاب «آئين نامه» وكتاب «كليلة و دمنة» وكتاب «تنسر نامه» وغيرها من «الكتب الفهلوية» ويعد «ابن النديم» «عبدالله بن المقفع» من أعلام المترجمين من «اللغة الفهلوية» إلى «اللغة العربية» و يضعه في الصدارة بالنسبة لمترجمي «العصر العباسي» و سيأتي ذكرهم فيما بعد.

و توجد هناك كتب أخرى نقلت من «الفهلوية» إلى «العربية» و لم يذكرها «إبن النديم» في كتابه «الفهرست» و لكن ذكرها المؤرخون الآخرون كـ«المسعودي» وغيره فنها كتاب «البنكش» و لعلها محرفة عن كتاب «بندهشن» الفهلوية في تاريخ «ايران القديم» وكتاب «نسكين» وقد نقلها إلى العربية «عبدالله بن المقفع»[3] وهناك أيضاً كتاب آخر مترجم عن «الفهلوية» يسمى «كاروند» وقد ذكره «الجاحظ» في معرض الحديث عن «فن البلاغة لدى الفرس» فيقول: «من أحب أن يبلغ في صناعة البلاغة و يعرف الغريب و يتبحر في اللغة فليقرأ كتاب «كاروند»»[4] وللأسف لم يصلنا

---

(١) «الفهرست» ص ١١٩، ١٣٦.

(٢) لعل الجزء الثاني محرف عن («شوبين»=«چوبين») وكان قائد جيش «خسرو أبرويز».

(٣) و قد ذهب بعض الباحثين إلى أن هذين الإسمين كانا عنواناً لكتاب واحد (راجع كتاب عبدالله بن المقفع للاستاذ عباس اقبال آشتياني ص ٥٩ طبعة «برلين»)

(٤) «البيان والتبيين» ج ٣ ص ٥ طبعة «القاهرة».

شيء من هذا الكتاب فإنّه باد كغيره من الآثار[1] . وممّا تقدّم تبيّن لنا أنّ حركة التّرجمة نشطت منذ «العصر العبّاسي» و خاصة في عصر «أبي جعفر المنصور» حتّى جاء عصر «هارون الرّشيد» ثمّ عصر ابنه «المأمون» حيث بلغت الترجمة ذروتها عند مابنى «الرشيد» «بيت الحكمة» و عُني بها «المأمون» عناية بالغة وجعل «سهل بن هارون» الملقّب بـ«بزرجمهر الإسلام» أميناً عليها وكان «سهل» هذا ينحدر من أصل ايرانى وكان ملازماً لخدمة «البرامكة» و عارض «ابن المقفّع» في كتابه «النّمر والثّعلب» الّذى ألّفه على غرار «كليلة و دمنة» [2] ففى هذه الفترة ظهرت طائفة من كبار المترجمين الإيرانيّين ساهموا مع إخوانهم العرب في انتاج آثار قيّمة ازدخرت بها المكتبة الإسلاميّة في «بغداد» و نورد فيما يلى قائمة بأسماء هؤلاء المترجمين معتمدين في ذلك على ماجاء من أسمائهم في كتاب «الفهرست» لـ«ابن النّديم» :

١- «عبدالله بن المقفّع» = «داذبه بن داذگشنسب»[3] .

٢- «يوسف بن خالدبن برمك» وكان يخدم «داود بن عبداللهبن حميد بن قحطبة» و ينقل له من «الفهلويّة» إلى «العربيّة» .

٣- «أبوالحسن على بن زياد» و قد نقل مجموعة كبيرة من «الكتب الفهلويّة» إلى «العربيّة» منها كتاب «زيج الشّهريار» وكان يلقّب بـ«التّميمى» .

٤- «البلاذري ، أحمد بن يحيى» صاحب كتاب «فتوح البلدان» و قيل انّه ترجم

---

(١) و من أراد الإستزادة في الكتب المترجمة عن «الفهلويّة» فلينظر كتاب «التّرجمة و النقل عن الفارسيّة» تأليف الأستاذ الدّكتور «محمد محمدي» عميد «كلّية الإلهيات و المعارف الإسلاميّة» بـ«جامعة طهران» ، طبعة «بيروت» .

(٢) وأخيراً قد عثر الدّكتور «عبدالقادر المهيرى» أحد الباحثين في «تونس» على نسخة مخطوطة من هذا الكتاب فقام بتحقيقه ونقله إلى اللّغة الفرنسيّة ثمّ نشره في «باريس» .

(٣) والجدير بالملاحظة أنّ ترجمات «ابن المقفّع» كان لها من الأهمّيّة مادفع الدّارسين أن يفردوا لها بحوثاً مستقلة مستفيضة وقد سبق أن أشرنا إلى بعض تلك التّرجمات .

عن «الفهلويّة» كتاب «عهد أردشير» وقد حقّقه أخيراً الأستاذ الدّكتور «إحسان عبّاس» ونشره في «بيروت».

٥- «جَبَلَة بن سالم» وقد ترجم كتاب «رستم واسفنديار» وكتاب «بهرام شوس».

٦- «إسحاق بن يزيد» وكان ممّا نقله من «الفهلويّة» كتاب «سيرة الفرس» المشهور بـ«اختيارنامه» [١].

٧- «محمد بن الجهم البرمكي».

٨- «هِشام بن القاسم».

٩- «موسى بن عيسى الكردي» [٢].

١٠- «دادويه بن شاهويه الإصفهاني».

١١- «محمد بن بهرام بن مَطيار الإصفهاني».

١٢- «بهرام بن مردانشاه».

١٣- «عمر بن فرّخان».

١٤- «أبو نوح سَلم الحَرّاني» وكان يعمل مع «سهل بن هارون» في «بيت الحكمة».

١٥- «إسحاق بن علي بن سليمان».

١٦- «فضل بن سهل وزير المأمون».

١٧- «زادان فرّوخ بن پيرى الكسكرى» وكان رأس ديوان «حَجّاج بن يوسف» وكان ينافسه «صالح بن عبدالرّحمن» الّذى نقل «ديوان الخراج» من «الفهلويّة» إلى «العربيّة» [٣].

---

(١) هكذا جاء ضبطه في الفهرست (٢٤٥) و لعلّه محرّف عن «خداينامه» أو «بختيارنامه» (راجع «سبكٔ شناسى» الأستاذ «ملكٔ الشعراء بهار»، ج ١ ص ١٥٣، طبعة طهران).

(٢) هكذا في «الفهرست» ولعلّه محرف عن «الكسروى» كما ورد في كتاب «تاريخ حمزة الإصفهاني» وقد جاء في مقدّمة «تاريخ الطّبرى»: «الخسروى» بـ«الخاء المعجمة».

(٣) راجع «محاضرات الأدباء» لـ«الراغب الإصفهانى» ج ١، ص ٤٥، طبعة «القاهرة».

١٨- «محمدبن مرزبان» المشهور ب«أبي العبّاس الدّميري» صاحب كتاب «الحيَوان» ويقال إنّه ترجم أكثر من خمسين رسالة من «الفهلويّة» إلى «العربيّة» [١].

فهذا عرض سريع لحركة التّرجمة في «اللّغة العربيّة» في القرون الإسلاميّة الأولى و بيان مدى مساهمة «الفرس» في هذا المجال قدّمته لحضراتكم في هذا المهرجان العظيم الّذي يعتبر رمزاً صادقاً لهذا التعاون المشترك راجياً من الله تعالى أن يوفّقنا و يسدّد خطانا في سبيل خدمة «الثّقافة الإسلامية»، و السّلام عليكم و رحمة الله و بركاته.

---

(١) راجع «فرهنگ ايران وتأثير آن در تمدّن إسلام وعرب» للاستاذ الدّكتور «محمد محمدي»؛ ص ١٢٣ الطبعة الأولى، «طهران».

٢٥

أحمد افشارشيرازى
(ايران ـ شيراز ـ جامعة شيراز)

لَمحات فى حياة «سيبويه» :

إسمه ، إسم أبيه ، اسم جدّه ، كنيته ، لقبه ، تاريخ ومحلّ وفاته و كتابه .

إسم «إمام النُحاة» بلانزاع [1] على المعروف: «عمرو» و اسم والده : «عُثْمان». أمّا مايذكره «الفيروزآبادى» في «البُلْغَة في تاريخ أئمّة الُلغة» ، بالنّقل عن الحافظ «أحمد بن عبدالرّحمن الشيرازي» ، مصنّف كتاب «ألقاب الرّجال» ، المتوفّى سنة ٤٠٧ هـ . ق . [2] ، إسمه : «بشر» و إسم والده : «سعيد» ويقول بعد هذا النّقل: «و هو غريب» [3]. و يمكننا أن نقول: «الشّيرازي» منفرد بهذا القول . وأمّا إسم جدّ هذاالنّابغة العظيم : على المشهور «قَنْبَرْ» ، كـ«جَعْفَر» و يؤيّد هذا الضّبط قول «الزّمخشري» في «سيبويه» :

ألا صلّى الإله صلاة صدق ... على «عمرو بن عثمان بن قَنْبَر»
فأنّ كتابه لم يغنّ عنه ... بنو قلم و لا أبناء مِنْبَر

---

(١) «تاج العروس» : مادّة : «سيب» .
(٢) «الأعلام» ج ١٤٢/١ .
(٣) «البلغة» : ص ١٧٣ و ١٧٤ .

